

هنري ميلر

مدار السرطان

ترجمة : أسامة منزلجي



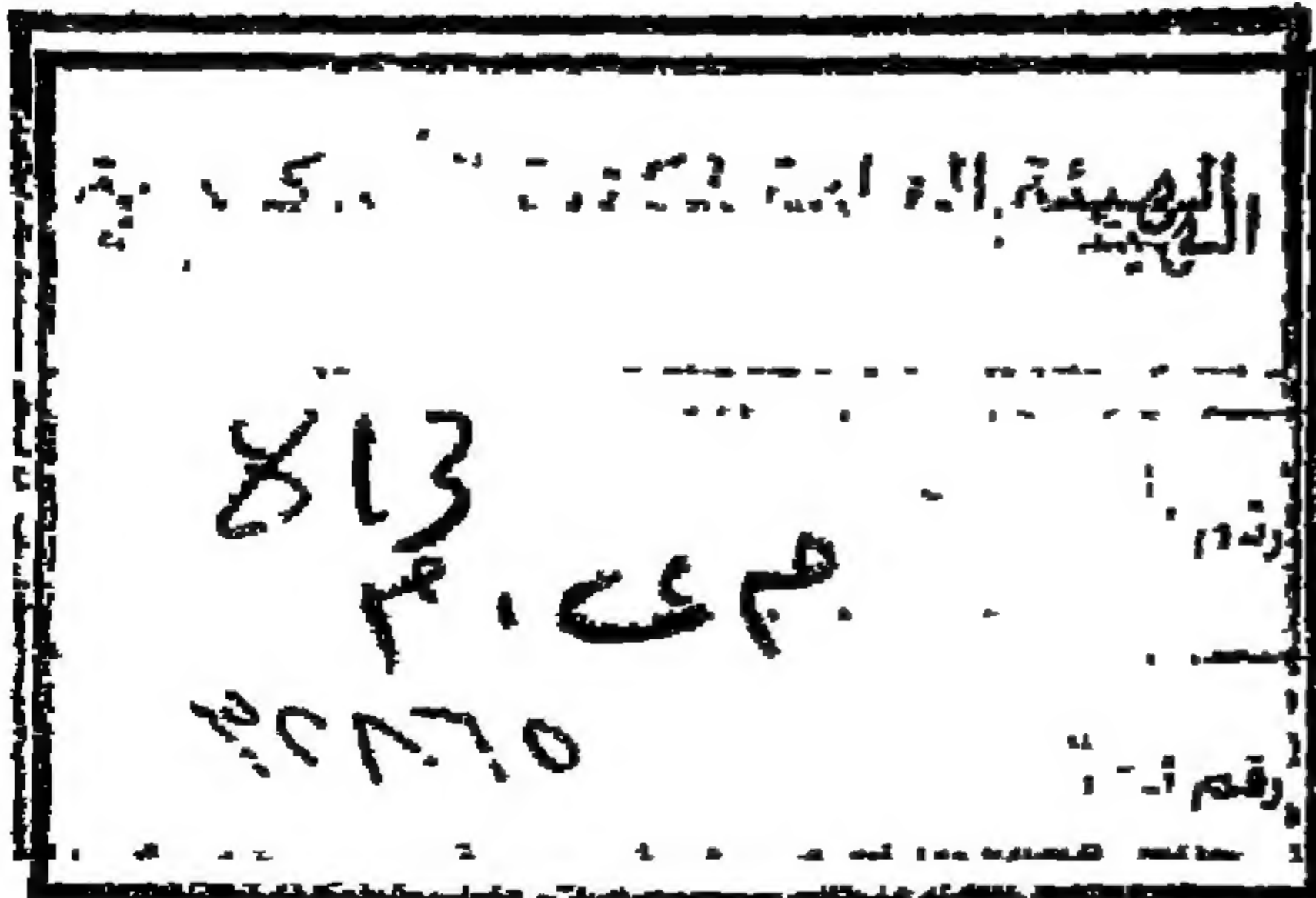

Bibliotheca Alexandrina
0018449

رواية

مدار السرطان

هنري ميلر

مدار السرطان



ترجمة: أسامة منزلي

مدار السرطان

أرثر ميللر

ترجمة: أسامة منزلجي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧

دار الكنوز الأدبية

بيروت - ص.ب: ١١/٧٢٢٦ - هاتف: ٦٥٣٥١٤

«هذه الروايات سوف تفسح المجال، شيئاً فشيئاً،
للمذكرات أو للسيرة الذاتية - وهي كتب أسرة، إذا عرف
الإنسان كيف ينتقي من بين ما يسميه تجاربه وكيف يدون
الحقيقة بصدق»

رالف والدو امرسون

قبل المقدمة

المقدمة التي ستلي هي مقتطفات من الصفحات الأولى لكتاب ألفه الكاتب الأمريكي الشهير نورمن ميلر Mailer عنوانه "العبقريّة والشبق"، ويحاول فيه أن ينصف هنري ميلر، ويعيد إليه اعتباره المفقود نسبياً في وطنه الولايات المتحدة. ويعتبر نورمن ميلر تلميذاً نجيباً لهنري ميلر ومناصباً كبيراً لأدبه. وهو يقيم في كتابه هذا دراسة مقارنة بين تأثير ميلر في جيل كامل من الكتاب المعاصرين، وتأثير كتاب آخرين، ويورد في هذا المجال مقتطفات طويلة وطويلة جداً من معظم مؤلفات هنري ميلر. وقد قمت بترجمة هذا الكتاب مع إيراد قسم من المقتطفات الموجودة في الكتاب، هي تلك التي لم يسبق ترجمتها إلى اللغة العربية.* وسوف يصدر هذا الكتاب في مستقبل قريب.

ورواية "مدار السرطان" هي العمل الأول والأبرز لهنري ميلر، وفيه تتمثل كل مقومات أدب هنري ميلر. بل إن أجود ما كتبه هذا المؤلف وأسوأه موجودان جنباً إلى جنب في الكتاب، وبذلك يكون ميلر قد حقق ما نادى به دائماً وهو أن يقدم الحياة كما عرفها دون تشذيب أو زخرفة، وأن يترك نفسه على سجيته لكي تنطلق وتعبّر عن ذاتها في شطحات تحتوي الغث والنفيس.

أسامة منزلجي

اللاذقية في ١٨/٧/١٩٩٦

*الجدير بالذكر أنني كنت قد ترجمت ونشرت ثلاثة من كتب هنري ميللر الرئيسية إلى العربية وصدرت في أوائل الثمانينات، وأرجو أن أتمكن من إصدار طبعات أخرى منها قريباً. وهي "ربيع أسود" و"مدار الجدي" و"عملاق ماروسي". وهناك ترجمات أخرى لكتب أخرى للمؤلف ستصدر تباعاً بإذن الله.

مقدمة

هنري ميللر

إعادة اعتبار

لقد ترك النقد الأدبي مسافةً فارغةً حول هنري ميللر. وكثيراً من الضحيج أُثير عنه، بعضه فخم، والبعض الآخر براق - وكان ميللر يستجلب لنفسه قدراً من النقد المتنوع - ومع ذلك ظلت مكانته المرموقة يحيط بها فراغ. وبعد ذلك بسنين عديدة كتب كارل شايبرو إلى دريل يقول إن عليهما أن "يجمعا كتاباً مقدساً يضم مؤلفات ميللر" يكون بديلاً عن نسخة غديون للكتاب المقدس في كل غرفة فندق في أميركا. وقد قرر دريل بدوره أن "الأدب الأميركي اليوم يبدأ وينتهي بمغزى ما أنجزه ميللر". وبدأت أنابيس مقدمتها لرواية "مدار السرطان" بإعلانها:

«ها هنا كتاب قد يعيد إلينا، إذا أمكن، شهيتنا إلى الحقائق الجوهرية».

نعم، لقد نال ميللر نصيبه من التفريط، وقد أدلى مهراجات الأدب أمثال إليوت وباوند وإدموند ويلسون بدلائهم. واكتفى باوند بإيراد ملاحظة من الشرح:

"هاكم كتاب قذر يستحق القراءة"، وإليوت، الذي كان يرى أن الشاعر شيللي شيطاني، أصبح مع ذلك نصيراً سرياً لكتاب ميللر، حتى أنه بعث رسالة إلى المؤلف (كبديل للتصريح العلني). وكتب ويلسون إحدى مدائحه المبكرة (والمنشأة) المنشورة عن كتاب "مدار السرطان". وقال جورج

أورويل، في مقالة رائعة: "إنه كتاب إنسان سعيد" - ما أقرب السعادة بالنسبة إلى أورويل إلى الفضيلة الأولى! ثم يضيف: "إنه كتاب الشر البارع في تصويره الوحيد ذو القيمة بين الأمم المتكلمة باللغة الإنكليزية منذ سنين عديدة".

ذاك كان في الثلاثينات. ولم يفتقد ميللر الترف منذ ذلك الحين. فقد اعتبره قطاع صغير ولكن يعتدُّ به أعظم كاتب أميركي على قيد الحياة على امتداد العقود الأربعة الأخيرة، وهذا صحيح، فبعد رحيل بقية الكتاب الأميركيين، وغياب همنغواي، وفوكنر، وفيتزجيرالد، وولف، وشتاينبك، ودوس باسوس، وسينكلير لويس منذ زمن بعيد، و وفاة درايزر وخمبول ذكر فاريل الجزئي، عمن نستطيع أن نتحدث بوصفه المؤلف الأميركي العظيم؟ زيادة على ذلك، إن ميللر مزود بمؤهلاته الهائلة. وعلينا أن نعود إلى ملفيل لنعثر على فن ثري يثبت أنه راق بكل معنى الكلمة. والحق إن علينا أن نتساءل إن لم يكن باستطاعة ميللر أن يبرز ملفيل في مجال وصف عاصفة بحرية. إن ميللر في أحسن حالاته كتب ثراً أعظم من ثر فوكنر، وأشد منه جموحاً - والقارئ الجيد يدور داخل خليط من النور بكلمات وافرة كالمنخل، متألثة كالجواهر، وتغطي الصفحة تفجرات فكرية. وكأنما داخل دوامة إحدى محارق ترنر المحيطية حين تسطع الشمس في مركز العاصفة. لا، لا شيء يتفوق على هنري ميللر حين يتدفق. إن أصحاب الأساليب الأدبية الخصبة كأسلوب هوثورن يبدون بالمقارنة مجردين من لغتهم الغنية... وعلى المرء أن يعيد اللغة الإنكليزية إلى مارلو وشكسبير قبل أن يقابل ثروة من قوة المخيلة تعادلها في كثافتها.

لكن لا يمكن القول أن المؤسسة الأميركية تنتقل وفي ذهنها أن هنري ميللر هو عبقرى أدبنا، أو أحد رموز الثروة الإنسانية في أميركا. وبما أنه قد ولد في عام ١٨٩١، فسوف يبلغ الخامسة والثمانين بحلول ٢٦ كانون أول (ديسمبر) من عام ١٩٧٦، وهو فنان ذو أبعاد أضخم مما لا يقارن مما لدى روبرت فروست، ولكن من يتصور رئيس جمهورية يدعو ليقراً شيئاً من مؤلفاته في يوم توليه سدة الرئاسة، لا، إن مما يثير السخرية من السياسيين الصالحين والأذكياء ربما، حيث يرتبكون قليلاً حول ما إذا كان الحديث

يدور عن آرثر ميللر أم هنري ميللر. وقد يقولون في آخر المطاف "آه، نعم، هنري ميللر، ذاك الذي يؤلف كتباً قلّة". وفي أميركا من التنوع بحيث أن الأمر ينتهي بالجميع إلى أن يعرفوا بلقب مميز. ولقب هنري العجوز هو صاحب الكتب القلّة.

طبعاً ثمة اعتراض يقول إن المرء لا يلجأ إلى أحكام أحد السياسيين للحصول على رأي نقدي أدبي متين. ولكن حتى في عالم الأدب تعيش سمعة ميللر وسط فراغ. وهذا لا يعني أنه يفتقر إلى قوة التأثير. بل ليس من الجور أن نقول إن هنري ميللر قد أثر على أسلوب نصف الشعراء الأميركيين المجهدين وعلى الكتاب الأحياء اليوم: إن من الإنصاف أن نتساءل هل كانت كتب ممنوعة مثل "الغداء العاري" و"شكوى بورتنوي" و"الخوف من الطيران" و"ماذا نفعل في فييتنام؟" استقبلت استقبالا حسناً (أو كانت ذات أسلوب متحرر مثلها) لو لم يقم هنري ميللر بريّ النثر الأميركي. وحتى كاتب أبعد ما يكون عن ميللر في مراميه مثل شاؤول ييلو يُظهر دينه في رواية "أوغني مارتش". لقد ترك ميللر تأثيره. وقبل ثلاثين عاماً فإن الكتاب الشباب يتعلمون الكتابة من خلال قراءة كتبه، إلى جانب أعمال هيمنغواي وفوكسر، وولف وفيتزجيرالد. وباستثناء هيمنغواي، ربما كان له أكبر تأثير في الأسلوب من أي كاتب أميركي في القرن العشرين. ومع ذلك فلا يزال هناك ذاك الفراغ النقدي. وما كتب عنه لم يخرج عن نطاق التزلف أو الرفض. فالمرء لا يتناول نقداً أدبياً عنوان مقالته "إرنست هيمنغواي وهنري ميللر - سنواتهما في باريس" أو "المحيطان الاجتماعيان لكل من ف. سكوت فيتزجيرالد وهنري ميللر" ولا تعليقات على "الرؤيا الكشفية لهنري ميللر وتوماس وولف كما يعكسها فنهما الثري": ولا دراسات صغيرة عن أوجه التشابه في المكان والزمان في كتاب أورويل "فقير ومتبطل في باريس ولندن" وفي "مدار السرطان"، لا، وحتماً ليس سير حياة ميللر أو النساء اللواتي التقاهن في حياته. فإذا كان سكوت لديه زيلدا، وهي كانت دون شك كفوّاً لسيرة حياة رسمية، فقد كان لميللر جون أديث سميث، وهي أيضاً يمكن أن تستأهل أن تعامل بالمثل. لا أحد يبدو متعجلاً للاقتراب. ولا يبدو في الأفق عمل عنوانه "هنري ميللر وجيل الغضب" أو "هنري ميللر وثورة الستينات". إن

الشبان لا يشعرون أنهم يموتون من الداخل لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بالطريقة التي عاش بها هنري ميلر ذات يوم. ومع ذلك لا نجد كاتباً أميركياً واحداً، ولا حتى هيمنفواي، اقترب بالضرورة من النعيم المجنون في أن يكون وحيداً في مدينة غريبة ولا يحتكم على قرش واحد في جيبه، ولا على طعام في معدته، وثمة انتصاب في قضييه قد بدأ لتوه، وهو انتصاب "شخصي" (كما يصفه أحد شخصيات ميلر بشكل محب).

لذا فإن المفارقة تلح. إنها لمعجزة إن اختيار مجموعة من مؤلفات ميلر معناه أن تقرأ كل شيء له. وأن تقرأ كل هذا القدر من أعماله معناه أن تستوعب حجمه شئت أم أبيت. إنه كاتب أعظم مما يظن به. فإذا كانت "مدار السرطان" هي أفضل أعماله بما لا يقاس وكل من قرأ ميلر تقريباً قد قرأها، فإن تلك الرواية لا تقدم مع ذلك إلا فكرة ناقصة إلى حد كبير عن بقية موهبته المستقبلية. وبمقارنته بمفيل يبدو عمل ميلر الثانوي أبلغ تأثيراً وأكثر تنوعاً بمراحل. وليس هناك فقط هنري ميلر واحد، بل عشرون، وخمسة عشر من أولئك المؤلفين جيدون جداً. طبعاً، عندما يكون ميلر رديشاً فهو ربما أراد أعظم كاتب وجد على الإطلاق وقد يكون نقده الأدبي طناناً وفارغاً بشكل مخرج من المفاهيم الجديدة. فكتابه عن رامبو "زمن القنلة" غريب للآمال. وقد لا يكون لديه ما يستحق الذكر ليقوله عن لورنس وبلازك. ومقالاته الجدلالية تبدو كالوحدول. وفي أسوأ حالاته تبدو كتابته افتتاحية صحفية في بلدة صغيرة. بل إن في وسعه أن يكون سخيفاً ومبتذلاً.

غير أنه في أفضل حالاته الأدبية، كما في "جابر فورل كرونستادت" يمكنه أن ينجز محاكاة ساخرة - "دودي وubisquishous" على غرار "يقظة فينيغان" والتي يمكنها أن تشكل معياراً لكتابات جويس الساخرة. وفي عام آخر - ويمكن أيضاً أن تكون حياة أخرى - يستطيع أن يكتب سرداً يفتقر إلى البراعة لمحاولته الاعتناء بسيارته المريضة في مراتب في ألبوكورك يتصف بكل سحر وقابلية للنشر وفنائية من النوع الذي دائماً تحاول مجلة نيويورك صنداي تلمز أن تعثر عليه ولا تنجح قط في ذلك. أو يكتب مذكرات متينة، "شيطان في الجنة" وتحكي عن منجم معقد لا يخلو من شر، وتتفوق على قصة توماس

مان، "ماريو والساحر" وتكاد تبلغ قامة "موت في البندقية". وبإمكانه أن يبدع جمهوراً من الشخصيات في ثلاثيته "الصلب الوردي" تقارع أي مجموعة معادلة لها من أعمال توماس وولف، وحيوية إبداعاته ليست مضطرة إلى أن تفسح الطريق لبلزاك. إنه عازف بارع ومن المحتمل أننا لم نحصل على بهلوان في الأدب مثله...

إن نطاق موهبته يتبدى في أنه عرض كل هذه الأنماط الأدبية والأساليب خلال الثلاثين سنة ونيف التي مارس خلالها الكتابة بعد تأليفه "مدار السرطان"، مع أنه لم يكن حتى قد بدأ بتأليف ذاك الكتاب حين ناهز الأربعين من العمر. كان، وقد قارب منتصف العمر، ولا يكاد يملك بنساً واحداً، فاشلاً من الطبقة الوسطى وقد استنفد ثقة أصدقائه فيه. ولدى مغادرته نيويورك قاصداً أوروبا بالكساد استطاع أن يقترض عشرة دولارات لمصروفه على متن السفينة. وذاك فشل زف بكل مظاهر التهليل. إنه يعيشه في باريس معتمداً على قدراته الخاصة، مع التعريف الفعال لما يعنيه العيش بمعية القدرات الخاصة، نجح في تأليف المخطوطة "مدار السرطان" وهي واحدة من عشر أو عشرين رواية عظيمة في قرننا، وهي ثورة في الأسلوب والوعي تعادل رواية "لا تزال الشمس تشرق". لا يمكنك أن تجتاز الصفحات العشرين الأولى منها دون أن تدرك أن أعجوبة أدبية تحدث. لم يكتب أحد قط من قبل بهذه الطريقة، وقد لا يتقن أحد أبداً الكتابة بهذا الأسلوب. ثمة زمان معين ومكان معين قد تركزا في صوت كاتب. إنه مثل الوقوع على قطعة أثرية. ولو وهبنا عدداً كافياً من مثل هذه الروايات، لما ضاع تاريخ قرننا إلى الأبد: لكان توفر لدينا عدد كاف من النقاط المرجعية المنفصلة الواضحة أمام أعيننا إلى الأبد.

.... إن "مدار السرطان" هي خيال أكثر منها حقيقة. وهذا، طبعاً، لا ينتقص مقدار ذرة من قيمتها. بل لعلها حتى أضحت أعلى قيمة. فقبل كل شيء، نحن لا نكتب لنستعيد تجربة، بل نكتب لنقترب منها قدر استطاعتنا. وأحياناً لا نقترب كثيراً، ومع ذلك، ويا للمفارقة، نكون أقر مما لو اقتربنا فعلاً، ونحن لا نقترب بالضرورة من واقع ما حدث، وإنما من الواقع الغامض

لما يمكن أن يحدث على صفحة الورق. إن الألوان الزيتية لا تخلق سحباً وإنما صورة السحب، و صفحة من المخطوط يمكنها فقط أن تشير ذاك النوع الخاص من الواقع الذي يحيا على صفحة ورقة الكتابة، قوس قزح على فقاعة صابون. إن ميلر متهم دائماً وأبداً من قبل أناس يعرفون شخصياته الروائية بأنه يرسمها كاريكاتيريا، وأي قارئ جيد يعرف بقدر كاف عن مميزات الشخصية كم يسقط من صفات أهله. ومع ذلك، فأني واقع متراكم بمنحوننا. إن شخصياته تكون صورة لمدينة باريس أكثر واقعية من حجارة رصفها إلى أن تبدى لنا فجأة أعجوبة ممانعة - لا يوجد كاتب فرنسي واحد مهما كان عظيماً، ولا حتى رابليه، ولا بروسست، ولا دوموباسان، أو هوغو، أو هويسمن، أو زولا، أو حتى بلزاك، ولا حتى سيلين أبرز لنا باريس بصورة أكثر حيوية. متى، في السابق، استطاع إنسان أجنبي أن يصف بلداً بشكل أفضل مما فعله كتابها المقيمون فيها؟ لأن ميلر، في "مدار السرطان" نجح في إنجاز عمل أدبي راق واحد: لقد أبدع نبرة في كتابة النثر تناغمت ونبرة فترة زمنية معينة ومكان معين. فإذا لم تكن الشخصية الرئيسية في "مدار السرطان" التي اسمها هنري ميلر موجودة في الحياة، فهذا لا يهم البتة - إنه صوت روح كانت موجودة في ذلك الوقت. لعل الأرواح في الأدب هي أشد ما نصادفه قرباً إلى الحقيقة التاريخية.

لقد ثبت أن التاريخ يقف إلى جانب ميلر. لقد كانت الحياة في القرن العشرين تغادر عالم الجهد الشخصي، والكحول، والجراح المأساوية، إلى تنكة زبالة المدينة الكبرى الملأى بالرضوض، وآلام الشقيقة، والشواس، وعقاقير الكيف، وفقدان الذاكرة، والعلاقات العشبية والسرطان. وداخل مجارير الوجود حيث السرطان ينضج كان ميلر يقفز مرحاً. وكان دائماً يقول: أنظر، ليس من الضروري أن تموت في هذه الخثارة. يمكنك أن تستنشقها، أو تأكلها، أو تمصها، أو تنيكها، وتظل تثب مرحاً استعداداً للانتقال إلى اليوم التالي. وإذا استطعنا أن نتحمل الرائحة، يكون فينا شيء لا يقدر بثمن.

بالنظر إلى الجهة التي كان العالم يذهب إليها - مباشرة إلى مجرور معسكرات الاعتقال الذي يبلغ اتساعه اتساع العالم برمته - فإن ميلر كان

صاحب رسالة تمنح من الحياة أكثر مما فعل هيمنغواي. "إن السبب الوحيد لتركيزي الشديد على اللاأخلاقيين، والأشرار، والقييحين، والقساة، في أعمالي يعود إلى رغبتى في تعريف الآخرين بمدى قيمة هؤلاء، وكيف أنهم يتعادلون مع الأخيار في الأهمية، إذا لم يكونوا أكثر أهمية.... لقد كنت أحصل على السم من جسمي. والغريب أن هذا السم كان له أثر مفذ على الآخرين. وكأنني منحتهم ما يشبه المناعة".

غير أن الأسطورة لم تتطور قط. فجميع أصابعه وأنفه وأظافر قدميه، غاص في غائط أرض السرطان - كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يبقى هناك، شيطاناً ساخراً أعجف، قاسياً كالأظافر، براقاً كالراديوم. ولكنه كان قبل ذلك قد عاش حياة قبل هذه مأساوية، مشوهة، شبه ضامرة، في بعض أجزائها الحية، وكان هو نفسه أشد قرباً إلى الخثارة مما كان يُعتقد. لذا كان عليه أن يكتب حتى يستنزف نفسه عن سجون الخاصة واستهلك كل العمل الذي سيلي "مدار السرطان" وبعض أسرار شخصيته الفذة، الغامضة، والفريدة، في خصوصيتها موجودة في أعماله الأخيرة ونحن لم نعش معه هناك بعد، أو نحاول أن نفهمه - يبحث حيوي. سوف نعرفه جميعاً أكثر إذا استطعنا أن نعثر عليه.

أما الآن فهي نستمتع بقراءة "مدار السرطان".....

قطنُ في فيلابورغيز. لا توجد ذرة واحدة من الغبار في أي مكان، لا كرسي في غير مكانه. وحيدون نحن هنا وأموات.

في الليلة الفائتة اكتشف بوريس أنه قَمِل، وتوجَّب قصُّ شعر تحت ابطه، ولكن الحكَّ لم يتوقف حتى بعد القصِّ. كيف يمكن للمرء أن يقمِّل في مكان جميل كهذا؟ ولكن لا يهم، فلم يكن بالامكان التعرف على بعضنا معرفة حميمة، بوريس وأنا، لو لم يتعلق الأمر بالقمل.

أعطاني بوريس لتوه ملخصاً لآرائه. فهو متنبئ طقس. يقول إن الطقس سيستمر على رداءته. سيقع المزيد من الكوارث. المزيد من الموت، المزيد من اليأس. وليس ثمة بارقة أمل في حدوث أدنى تغيير في أي مكان. سرطان الزمن ينهشنا حتى يفنينا. أبطالنا قتلوا أنفسهم، أو هم يقتلون أنفسهم الآن. إذن، فالبطل ليس الزمن، بل اللازم. يجب أن نتخذ خطوة، خطوة الحتام، نحو سجن الموت. لا مفر، فالطقس لن يتغير.

* * *

الوقت هو خريف العام الثاني لوجودي في باريس. لقد أُرْسِلْتُ إلى هنا لسبب لم أسبر غوره بعد.

لا أملك أية نقود، لا موارد، لا آمال، أنا أسعد إنسان على قيد الحياة. قبل عام، قبل ستة أشهر، كنت أظن أنني فنان. لم أعد أفكر في هذا، فأنا فنان فعلاً. كل ما كان أدباً سقط مني. ولا مزيد لكتبي تُكتب، فشكراً لله.

فما هذا إذن؟ هذا ليس كتاباً، هو تشهير، افتراء، تشويه سمعة. هذا ليس كتاباً، ليس بالمعنى العادي للكلمة. لا، هو إهانة مطوّلة، بصقة على وجه الفن، رفسة على قفا الله، والانسان، والقدر، والزمن، والحب، والجمال..... وكل ما تريد. سأغني لك، ربما بشيء من النشاز، لكني سأغني، سأغني بينما أنت تنعق، سأرقص فوق جثتك القذرة.....

من أجل أن تغني عليك أولاً أن تفتح فمك. ويجب أن تكون لديك رثان، وقليل من المعرفة بالموسيقى. ليس من الضروري أن يصحبك أو كورديون، أو قيثارة. الشيء الأساسي هو "إرادة الغناء". وعليه فهذا أغنية، وأنا أغني.

* * *

أغني لك يا تانيا. أتمنى لو أستطيع الغناء بشكل أفضل قليلاً، بغنائية أكثر، لكنك عندئذ ربما ما كنت وافقت على سماعي. لقد سمعت الآخرين يغنون وقد أشاعوا فيك البرودة؛ فقد غنوا بجمال فائق، أو ليس بما يكفي من الجمال.

الوقت هو العشرون - من شيء ما من شهر تشرين الأول (أكتوبر). لم أعد أحفظ تسلسل التاريخ. هل يناسبك القول - حلمي الواقع في الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) الفائت؟ ثمة فواصل، لكنها موجودة بين الأحلام؛ ولم يبق شيء من الوعي بها. العالم من حولي يتحلل، تاركاً هنا وهناك بقعا من الزمن. العالم سرطان ينهش نفسه حتى الهلاك....

يخطر لي أن الصمت الأعظم سيهبط على كل إنسان وكل شيء سيقى، النصر الأخير للموسيقى. بعد أن ينسحب كل شيء إلى رحم الزمن من جديد سيعود العماء، والعماء هو السجل الذي يحوي الحقيقة. أنت عمائي يا تانيا. وهي سبب غنائي. وأنا لست أنا، أنا العالم المحتضر، يسلم جلد الزمن. لا أزال حياً، أرفس داخل رحلك، حقيقة تستقبل ما يكتب عليها.

أنعس. علم وظيفة الحب. الحوت بعضوه ذي الستة بوصات في حالة راحة. والوطواط - ذو القضيب الحر Penis libre. حيوانات بعضو ذي

عظمة. إذن فانتصاه عظمي..... يقول غورمون: "لحسن الحظ أن الشكل العظمي مفقود لدى الإنسان". أيقول لحسن الحظ؟ نعم، من حسن الحظ. تصور سلالة بشرية تتجول بعظمة منتصبة. للكينغارو عضو مزدوج - واحد لأيام الأسبوع وواحد لأيام العطل. أنعس. رسالة من أثنى تسأل إن كنت وجدت عنوانا لكتابي. عنوان؟ تأكدي أنه: "السحاقيات الفاتنات".

"يا لحياتك المفعمة بالنوادرا!" إنها إحدى عبارات م. بوروفسكي. في أيام الأربعاء أتناول طعام الغداء مع بوروفسكي. زوجته، البقرة العجفاء، ترأس قداساً. وهي الآن تدرس اللغة الإنكليزية - وكلمتها المفضلة هي "بذيء". ويمكنك أن تترك في الحال أي ألم في المؤخرة هم آل بوروفسكي. ولكن انتظر.....

يرتدي بوروفسكي بذلات قطنية ويعزف على الأوكورديون. هو مركب لا يقهر، خاصة إذا أخذت في حسابك أنه ليس فناناً رديئاً. هو يدعي أنه بولندي، وهذا غير صحيح، طبعاً. فصاحبنا بوروفسكي يهودي، وأبوه كان جامع طوابع بريديّة. والحقيقة هي أن سكان مونبرناس كلهم تقريباً من اليهود، وهذا أسوأ. هناك يقطن كارل ولولا وكرونستاد وبوريس وتانيا وسيلفستر ومولدورف ولوسيل. كلهم ما عدا فيلمور. وهنري جوردان أوزفولد اتضح أيضاً أنه يهودي. لويس نيقول يهودي. وحتى فان نوردن وشيري يهوديان. فرانسيس بليك يهودي، أو بالأحرى يهودية. تيتوس يهودي. إذاً كما ترى فاليهود ينهمرون عليّ حتى يغفروني. أنا أكتب هذا إكراماً لوالد صديقي كارل اليهودي. ومن المهم أن نفهم كل هذا.

وأحبهم إليّ تانيا، وإكراماً لها سأصبح يهودياً. ولم لا؟ لقد بدأت لتوي أتحدث كاليهود. وأنا بشع الخلقة كيهودي. ثم، من يكره اليهود أكثر من اليهودي نفسه؟

ساعة الغسق. زرقه هندية، سطح الماء زجاجي، أشجار متألئة سائلة. سكك الحديد تنهار وتقع في القناة عند جوريه. اليرقة الطويلة ذات الجوانب المورنشة بالليلك تغطس كسكة حديد أفغانية في مدينة ملاهي. إنها ليست باريس. ليست كوني آيلند. هي مزيج غسقي لجميع مدن أوروبا ووسط أميركا. ساحات سكة الحديد تحتي، والخطوط الحديدية سوداء، متشابكة، لم

يخططها مهندس، لكن تصميمها طوفاني، تشبه تلك الصدوع الكئيبة في الجليد القطبي الذي تسجله الكاميرات بتدرجات اللون الأسود.

* * *

الطعام هو أحد الأشياء التي أستمتع بها أيما استمتاع. وفي فيلابورغيز الجميلة هذه نادراً ما يظهر له أي أثر. وأحياناً يكون فظيماً تماماً. طلبتُ من بوريس مراراً وتكراراً أن يحضر خبزاً للإفطار، لكنه دائماً ينسى. يبدو أنه يتناول الطعام في الخارج. ويعود وهو يخلل أسنانه وقد علق بيضة صغيرة من طرف لحيته الصغيرة المشذبة. إنه يتناول طعامه في مطعم دون أن يحسب حسابي. ويقول إنه يؤلمه أن يتناول وجبة دسمة بينما أنا أكتفي بالنظر.

يعجبني فان نوردن وإن كنت لا أشاطره رأيه في نفسه. لا أوافق مثلاً على أنه فيلسوف، أو مفكر. كل ما في الأمر أنه خارط. ولن يكون أبداً كاتباً. ولا حتى سيلفستر، على الرغم من أن اسم هذا يسطع بأنوار حمراء بقوة ٥٠,٠٠٠ شمعة. الكاتبان الوحيدان اللذان يعيشان معي وأكنّ لهما شيئاً من الاحترام حالياً هما كارل وبوريس. إنهما ممسوسان. يتوهجان من الداخل بلهب أبيض، مجنونان ومصابان بصمم النغم. إنهما مُعانيان.

من ناحية ثانية فمولدورف، الذي يعاني بلوره على طريقته الخاصة، ليس مجنوناً. مولدورف ثملٌ بالكلمة، ليس لديه عروق أو أوعية دموية، أو قلب أو كلي. هو صندوق خفيف مملوء بعدد لا يحصى من الأدراج وعلى الأدراج رُقَع مكتوب عليها بالخير الأبيض، والحر الأسمر، والحر الأحمر، والحر الأزرق، والقرمزي والزعفراني، والخبازي، والترسينا، والمشمسي، والفيروزي، والعقيقي، والآنجو، والاهليلي، والرنكي، والزنجاري، والأزرق الغرغزولاوي.....

نقلتُ الآلة الكاتبة إلى الغرفة المجاورة حيث يمكنني أن أرى نفسي في المرآة وأنا أكتب.

تانيا مثل آيريس، تتوقع أن تصلها رسائل ضخمة. ولكن هناك تانيا أخرى، تانيا تشبه بذرة هائلة تشر غبار الطلع في كل مكان - أو لنقل، على طريقة تولستوي قليلاً، إنها مشهدٌ ثابت يبرز فيه جنين. تانيا هي أيضاً حمى -

les voies urinaires المسالك البولية. مقهى الحرية، ساحة الفوسيج،
ربطات عنق في بولفار مونبارناس، حماماً معتقة، شنطة يد، سجائر عبد الله،
سوناته "pathetique" ذات الايقاع البطيء، مكبرات سمعية، جلسات سرد
الحكايا، أثناء بلون الترسينا المحروقة، أربطة جوارب ثقيلة، كم الساعة الآن،
طيور تدرج ذهبية مخشوة بالجوز، أصابع من التفتة، أوقات غسق كثيفة
تتحول إلى لون البلوط الأخضر، تضخم الأطراف، السرطان والبطاح، خمر
دافئة، فيس البوكر، سجاد من الدم والأفخاذ الناعمة. تقول تانيا بحيث
يسمعا الجميع: "أنا أحبه، وبينما بوريس يحرق نفسه بالويسكي تقول هي:
"اجلس هنا! آه يا بوريس.... روسيا.... ماذا أفعل؟ إنني أطفح بها!"

حين أنظر إلى لحية بوريس الصغيرة المشذبة ليلاً ممددة على الوسادة تصيبي
الهستيريا. آه يا تانيا، أين كسك الدافئ الآن، وأربطة الجوارب الثخينة الثقيلة،
وفخذاك الناعمان المتفخخان؟ في أيري عظيمة طولها ستة بوصات. سوف أسحل
كل تغصن في كسك، يا تانيا، المفعم بالمني. سوف أعيدك إلى حبيبك سيلفستر
مع ألم في بطنك ورحمك مقلوب إلى الخارج. يا لحبيبك سيلفسترا نعم، هو
يعرف كيف يضرم ناراً أما أنا فأعرف كيف أهب كساً. إنني أطلق قذائف حارة
فيك يا تانيا، أجعل مبيضك متوهجين. هل صار حبيبك أكثر غيرة قليلاً الآن؟
إنه يشعر بشيء، أليس كذلك؟ يشعر بآثار أيري الضخم. لقد جعلت الخواف
أوسع قليلاً. كويت التغضنات كلها. يمكنك بعدي أن تقبلي تحدي الفحول،
والثيران، والأكباش، ودكور البط، والقديس برنار. يمكنك أن تحشي معيك
المستقيم بالضفادع، والوطاويط والسحالي. يمكنك أن تتغوطي توقيعات متعاقبة
إذا أردت، أو أن تثبي أوتاراً عبر سرتك كآلة القانون. إنني أنيكك يا تانيا،
وهكذا ستبين متاكة. إذا كنت تخافين أن تناكي علناً فسأنيكك خفية. سوف
أنتف الشعر عن كسك وألصقه على ذقن بوريس. سوف أقرص بظرك من
الداخل وأخرج منه فرنكين.....

سماء نيلية نظيفة تماماً من تتف الغيوم، أشجار نخيلة ممتدة بلا حدود،

أغصانها الكالحة توميء كالسائر في نومه. أشجار كثيفة شبحية، جذوعها شاحبة كرماد السيجار. صمتٌ علويٌّ ويغلب عليه الطابع الأوروبي. النوافذ موصدة، والمخازن مرتجة، وهنا وهناك يسطع وهج أحمر ليدل على مكان لقاء. الواجهات فظة، تكاد تكون منفرة، نقية ما عدا بقعا من الظل تلقيها الأشجار. عند مروري بمنطقة أورانجري أتذكر باريس أخرى، باريس موم، وغوغان، باريس جورج مور. أفكر في ذاك الإسباني الرهيب الذي كان في ذلك الوقت يذهل العالم بقفزاته البهلوانية من أسلوب إلى أسلوب. أفكر في شينغلر وإقراراته المربعة، وأتساءل إن كان الأسلوب، الأسلوب بشكله العظيم، قد استهلك. أقول إن عقلي مشغول بهذه الأفكار، لكن هذا غير صحيح، إذ أنني لم أسمح لعقلي أن يلهو بهذه الأفكار إلا بعد ذلك، بعد أن عبرت السين، بعد أن خلفت ورائي مهرحان الأضواء. أما الآن فأنا عاجز عن التفكير في أي شيء - عدا في أنني كيان حساس مطعون بمعجزة هذه المياه التي تعكس عالماً مجهولاً. الأشجار الموجودة على طول الضفتين تنحني بتشاقل فوق المراة الفاقدة للمعان، وعندما تهب الريح، وتملؤها بالغمغمة الهاسة ستريق بعض دمعات وسترتعش كلما دوّم الماء قربها. إنني غنوق بهذه الصورة. غير قادر على نقل جزء بسيط من مشاعري لأي إنسان.....

مشكلة آيرين تكمن في أن لديها حقيبة بدل الكس. تريد رسائل ضخمة تملأ بها حقيبتها. وهي متخمة بـ *avec des choses inouies* "بأشياء لم يسمع بها أحد من قبل". أما ليونا، فلديها كس. أعلم هذا لأنها أرسلت لنا بعض شعرات منه. ليونا - مؤخرة متوحشة تشتم برائحة المتعة من الهواء. تقوم بدور المومس فوق كل هضبة عالية - وأحياناً تقوم بهذا في أكشاك الهاتف وفي المراحيض. ابتاعت سريراً للملك كارول مع وعاء للحلاقة محفور عليه الأحرف الأولى من اسمه. وكانت تستلقي في توتنهام كورت رود وقد رفعت ثوبها إلى أعلى وتداعب نفسها باصبعها. كانت تستخدم شموعاً، شموعاً رومانية، ومقابض أبواب. إذ لا يوجد في أي مكان أير بالضخامة التي تلائمها..... ولا واحد. يدخل الرجال فيها ويلتفون حول أنفسهم. كانت تريد أيور امتداد، قذائف ذاتية الانفجار،

زيتاً يغلي مؤلفاً من الشمع وسائل الكريوسوت. إنها تود لو تقطع أيرك وتبقية فيها إلى الأبد، إذا سمحت لها. ليونا! هي كس تنتقيه من بين مليون! كس لإجراء التجارب بلا ورق عباد الشمس ليخلصها من لونها. وهذه الليونا كانت كذابة أيضاً. لم تبتغ سريراً لحبيبها الملك كارول. توجته بزجاجة ويسكي ولسانها يملؤه القمل والوعود. مسكين كارول، كل ما استطاع أن يفعله هو أن يلتف حول نفسه داخلها ويموت. شهقت مرة واحدة وإذا به يسقط - كسمكة بطليموس ميتة.

رسائل ضخمة، ملأى بـ *avec des choses inouies* "بأشياء لم يسمع بها أحد من قبل". حقيقة بلا شرائط. ثقب بلا مفتاح. كان لها فم ألماني، وأذنان فرنسيتان، ومؤخرة روسية. عاهرة عالمية. وحين رف العلم كان أحمر وحتى الحنجرة. وتدخل بوليفار جول فيرن، وتخرج منه إلى ميناء دو فيليت. وترمي بنكرياساتك إلى داخل العربات - عربات حمراء بدولابين، طبعاً، عند التقاء نهري الأورك والمارن، حيث يتدفق الماء من خلال فتحات التحكم بالماء في السدود ويستقر كصفحة الزجاج تحت الجسور. هناك تستلقي ليونا الآن، والقنال مملوء بالزجاج والشظايا، الميموزا تبكي، وثمة ضراط رطب ضبابي على زجاج النوافذ. ليونا يا كساً بين مليون! كلها كس ومؤخرة من زجاج عليها تقرأ تاريخ العصور الوسطى.

* * *

أول ما يوحى به موللورف هو أنه صورة ساخرة لرجل. عينان درقيتان، وشفة ميشلان، وصوت يشبه شوربة الفاصولياء. يحمل تحت يذته أجاصة صغيرة، وكيفما تنظر إليه ترى المشهد الشامل نفسه: صنلوق النشوق، المقبض العاجي، رقعة الشطرنج، مروحة، رسم كنيسة. لقد طال أمد تخمره حتى أصبح عديم الشكل، خميرة مسلوقة من فيتاميناتها، زهرية بلا نبتة اصطناعية.

لقد أوجدت الإناث مرتين في القرن التاسع، ومرة أخرى خلال عصر النهضة. وقد مر عبر عمليات تقزح هائلة تحت بطون صفراء وبضياء. وقبل سيفر الخروج بزمن طويل بصق تزي في دمه.

مشكلته هي مشكلة قزم. بعينه الصوريّ الشكل، يرى جانب وجهه مرسوماً على ستارة هائلة الحجم. صوته، المتزامن مع ظل رأس دبوس، يسكّره. يسمع زئيراً حين لا يسمع الآخرون إلا صريراً.

ثم هناك عقله، وهو عبارة عن مدرّج روماني عليه يقوم الممثل بأدوار متقلبة متنوعة. ومولدورف، بأشكاله المتعددة ودون ارتكاب أي خطأ، يتنقل بين أدواره - مهرج، مشعوذ محرف، كاهن، فاسق، دجال، والمدرّج جد صغير. فيشحنه بالديناميت. يخدر المشاهدين. وينسفه.

أحاول بلا طائل الاقتراب من مولدورف. إنه كمحاولة الاقتراب من الله، لأن مولدورف هو الله - ولم يكن قط أي شيء آخر. إنني فقط أدون الكلمات.....

كوّنتُ عنه آراء نبذتها فيما بعد، وكوّنتُ آراء أخرى لا أزال أراجعها. ثبتّه أمامي دبوس واكتشفت أن ما بين يدي ليس خنفساء الروث، بل يعسوب. لقد أهانني بفظاظاته وبعد ذلك غمرني برقته. كان مهذاراً حتى الاختناق، وهادئاً كنبته الحنائن.

حين أراه يخبّ نحوي مرحباً، ماداً مخالبه الصغيرة، وعيناه تنزان عرقاً، أشعر أنني بصدد الاجتماع بـ..... ولكن لا، ليس هذه هي الطريقة المثلى للتعبير عنه! إنه:

"comme un oeub dansant sur un jet d'eau"

"كبيضة تراقص فوق دفق من الماء".

لم يكن لديه إلا عصاً من الخيزران واحدة - متوسطة الحجم. في جيبه قصاصات من الورق تحوي وصفات ضد "الأسى العالمي". وقد شُفي منه الآن، والفتاة الألمانية الصغيرة التي كانت تغسل قدميه تحطم قلبها. إنه مثل السيد عدم^(١) Nonentity الذي يحمل معه قاموس الفوجاراتي إلى كل مكان. "المحتوم لكل إنسان" - وهو، بلا شك، يعي أنه لا غنى عنه. إن بوروفسكي سيرى كل هذا عصياً على الفهم. وبوروفسكي لديه خيزرانة

(١) - السيد عدم: سيرد ذكره بالتفصيل في موقع قادم من الكتاب - المترجم.

لكل يوم من أيام الأسوع، وواحدة من أجل عيد الفصح.

إننا نشترك في كثير من النقاط حتى لكأنني أنظر إلى نفسي في مرآة مشروخة.

كنت ألقى نظرة على مخطوطاتي، وهي صفحات محشوة بالمراجعات. صفحات من "الأدب". وهذا ما أخافني قليلاً. إنه جدير بمولدورف. غير أنني لست يهودياً، ولغير اليهود طرق مختلفة للمعاناة. إنهم يعانون دون عصاب، وكما يقول سيلفستر، الرجل الذي لم يتل بالعصاب لا يعرف معنى المعاناة.

أذكر بوضوح كم استمتعت بمعاناتي. كأن المرء يصطحب معه جرواً صغيراً إلى السرير. وإذا به فجأة يחדشك - ويتأبك خوف حقيقي. ففي الحالة العادية لا يكون هناك خوف - ويمكنك دائماً أن تطلق سراحه، أو أن تقطع رأسه.

ثمة أناس لا يستطيعون مقاومة إغراء الدخول في قفص مملوء بالضواري ليتمل بهم. فيدخلون دون مسدس أو سوط. والخوف يجعلهم غير خائفين..... بالنسبة لليهودي العالم قفص مملوء بالضواري. الباب موصد وهو في الداخل دون مسدس أو سوط. وشجاعته من العظم بحيث أنه لا يشم رائحة الروث المكوم في الزاوية. ويصفق له المشاهدون استحساناً لكنه لا يسمعهم. فالدراما، في اعتقاده، هي التقدم داخل القفص. والقفص، في اعتقاده، هو العالم. ويقف هناك وحيداً عاجزاً، الباب موصد، ويلاحظ أن الأسود لا تفهم لغته. لم يسمع أي منها بسينوزا. سينوزا؟ لكنهم لا يستطيعون غرز أسنانهم فيه. ويزجحرون كأنما يقولون "اعطنا لحمًا" وهو واقف هناك كالمصعوق، أفكاره مجمدة، ونظرته الشاملة Weltanschauung هي أرجوحة بهلوان بعيدة المنال. تكفي ضربة واحدة من تخب الأسد وتهشم نظره عن نشأة الكون.

والأسود، أيضاً، يخيب أملها. لقد توقعت دماً، عظماً، غضروفاً، عصباً. فتمضغ وتمضغ، لكن الكلمات هي كالصمغ والصمغ لا يهضم. والصمغ مادة أولية يمكن أن تمرج بالسكر، وخميرة الهضمين، والزعر وعرق السوس. والصمغ، إذا جمعه جامعو الصمغ يكون رائعاً. لقد أتى أولئك الجامعون على

من قارة غارقة، وجلسوا معهم لغة جيرية. في صحراء أريزونا قابلوا المنغول الشماليين، اللامعين كبشرة الماذنجان بعد أن اتخذت الأرض ميلها التوازني بوقت قصير - وذلك حين انفصل تيار الخليج عن التيار الياباني. في قلب التربة وجدوا الصخر المسامي. زخرفوا أعماق الأرض بلغتهم. أكل بعضهم أحشاء البعض وانغلقت الغابة عليهم، على عظامهم وجماجمهم على حجرهم المسامي المخترم. وصاعت لغتهم. ولا رال المرء يعتر هنا وهناك على بقايا مجموعة من الوحوش، على قحف دماغ مغطى بالأرقام.

* * *

ولكن ما علاقة كل هذا بك يا مولدورف؟ الكلمة التي تتردد على لسانك هي الفوضوية. قلها يا مولدورف، إنني أنتظرها. لا أحد يعرف الأنهار التي تنضح مع عرقنا عندما نتصافح بالأيدي. وأنت تصيغ كلماتك، منفرج الشفتين، يقرقر اللعاب داخل خديك، أكون قد قطعت نصف الطريق الموصلة إلى آسيا. لو أتناول خيزرانتك، بتواضعها، وأفتح بها ثغرة في جنبك لاستطعت أن أجمع مواد كافية للء المتحف البريطاني. ونقف خمس دقائق نبدل خلالها قرونا. أنت المنخل الذي ترشح من خلاله فوصاي، وتحل نفسها في كلمات. وخلف الكلمة يكمن العماء. كل كلمة هي شريط، سلك، ولكن لا يوجد ولن يوجد أبداً ما يكفي من الأسلاك لصنع الشبك.

أثناء غيابي علقت ستائر النوافذ. وبدت كأنها مفارش مائدة من التيرول غُمست في الليزول. الغرف تتلأأ. أجلس على السرير مذهولاً، أفكر في الانسان قبل ولادته. فجأة تبدأ الأجراس بالقرع، موسيقى عحية علوية، وكأنني نقلت إلى فيافي أواسط آسيا. بعضها يقرع بهدير طويل متمهل، وبعضها ينطلق سكران جياش العاطفة. والآن ساد الصمت من حديد، إلا النغمة الأخيرة التي لم يبق غيرها يمس برفق سككون الليل - ضربة واحدة عالية واهنة انطفأت كما اللهب.

أقمت ميتافاً صامتاً مع نفسي ألا أغير سطرأ واحداً مما أكتب. لست

مهتمًا يجعل أفكاره مكتملة، ولا حتى أعماله. إلى جانب اكتمال تورغينيف أضع اكتمال دوستويفسكي (وهل هناك ما هو أكثر اكتمالاً من "الزوج الأبدي"). هنا لدينا، إذن، وفي الوسط نفسه، نوعان من الاكتمال. أما في رسائل فان كوخ فاكتمال يتجاوز كلاً من هذين النوعين. إنه انتصار الفرد على الفن.

* * *

ثمة أمر واحد أحد يثير اهتمامي بحياة، وهو أن أسجل كل ما حذفته الكتب. فحسبما أرى لا أحد يستغل هذه العناصر المنشورة في الهواء والتي تعطي حياتنا اتجاهاً ودافعاً. القتل وحدهم، على ما يبدو، يحصلون من الحياة على مقدار مرض من ثمار ما يضيفونه إليها. العصر يتطلب العنف، لكننا لا نحصل بالنتيجة إلا على انفجارات بجهضة. فالثورات تدهس وهي براعم، أو تنجح بسرعة مشكوك فيها. وسرعان ما يُستنفد الحماس، وينطرح الناس على الأفكار، *comme d'habitude* "كالعادة"، ولا يُتوقع لأي شيء أن يدوم أكثر من أربع وعشرين ساعة. نحن نعيش مليون حياة على مدى جيل واحد. ونحن بدراسة علم الحشرات، أو الحياة في أعماق البحار، أو الانشطارات النووية، نحصل على دفق أغزر من.....

ويقطع رنين الهاتف هذه الأفكار التي لم أتمكن قط من إكمالها. لقد جاء أحدهم لاستئجار الشقة.....

يبدو وكأن حياتي في فيلا بورغيز توشك أن تنتهي. حسن، سألملم هذه الصفحات وأذهب. ستحدث الأمور في مكان آخر. والأمور تحدث دائماً. ويبدو أنه حينما أذهب تقع أحداث عنيفة. الناس كالقمل - يدخلون تحت جلدك ويدفنون أنفسهم هناك. وتحك وتحك حتى يخرج الدم، لكنك لا تتخلص من القمل طويلاً. أينما أذهب أجد الناس يجعلون من حياتهم كتلة من الفوضى. لكل إنسان مأساته. باتت المأساة تجري مع الدم الآن - وسوء الحظ والسأم، والأسى والانتحار. الجو مشبع بالكارثة، والاحباط، والعقم. وتحك وتحك - حتى يهترى الجلد كله. على كل

حال، فتأثير ذلك عليّ مثير. فبدل أن أحبط أو أصاب بالكمد، أستمتع به وأصرخ طالباً المزيد والمزيد من النوازل، والكوارث والفشل الأعظم. أريد من العالم كله أن يخرج عن طوره. أريد من كل إنسان أن يهرش نفسه حتى الموت.

* * *

أنا مضطر إلى أن أعيش بوتيرة سريعة وبهياج بحيث لا يكاد يتوفر وقت لأسجل هذه الملاحظات الشراذم. بعد المكالمات الهاتفية بقليل وصل رجل وامرأة. صعدت إلى الطابق العلوي لأستلقي خلال إجراء الصفقة. أستلقي هناك وأتساءل ماذا ستكون خطواتي التالية. لن تكون طبعاً بالعودة إلى سرير اللوطي والتسكع في كل مكان أدحرج فتات الخبز بطرف قدمي. يا لابن الحرام الحقير! إذا كان ثمة ما هو أسوأ من لوطي فهو البخيل. إنه وعديد، لوطي حقير عاش حياته في خوف مستديم من أن يفلس يوماً - في الثامن عشر من آذار، ربما، أو الخامس والعشرين من أيار على وجه الدقة. قهوة بلا حليب أو سكر، خبز بلا زبد، لحم بلا مرق، أو حتى بلا لحم على الإطلاق. بلا هذا أو بلا ذاك! بخيل حقير قدرا أفتح درج المكتب ذات يوم فأجد نقوداً مخبأة في جورب. أكثر من ألفي فرنك - وشيكات لم يحتمل نفسه عناء صرفها. ومع ذلك ما كنت لأهتم لو لم أكن دائماً ثقل القهوة في قلنسوتي ونفاية على الأرض، ولا تحدث عن برطمانات الكريما المثلجة والشحم على المناشف والمغسلة مسدودة دائماً. وأقول لك، ابن الحرام الحقير هذا يفوح روائح كريهة - إلا حين يغرق نفسه بماء الكولونيا. أذناه قذرتان. عيناه قذرتان. ومؤخرة قذرة. كان مزدوج المفصل، مصاباً بالربو، وقملاً، وتافهاً، ومملوءاً بالأمراض. كان بوسعي أن أغفر له كل شيء لو أنه قدم لي مرة إفطاراً محترماً! ولكن رجلاً مثله يخفي ألفي فرنك في جورب قذر ويرفض أن يرتدي قميصاً نظيفاً أو أن يضع قليلاً من الزبد على خبزه، رجل كهذا ليس فقط لوطياً ولا حتى مجرد بخيل - إنه معتوه!

لكن هذا اللوطي لا أهمية له ولا شأن. إنني أصبح سمعي لما يجري في الطابق السفلي. إنهما مستر ورن وزوجته جاءا ليعاينا الشقة. إنهما يتناقشان حول استئجارها. الأمر لا يتعدى النقاش فشكراً لله. للسيدة ورن ضحكة رخوة - ثمة تعقيدات في الأفق. الآن "المستر" ورن يتكلم. صوته أجش، يصير صريراً، يهدير، سلاح ثقيل قليل قليل يتساقط طريقه خلال اللحم والعظم والغضروف.

يادي بوريس عليّ أن أتزل وتعارف. إنه يفرك كفيه كمُستترهين. وهم يتحدثون عن قصة كتبها المستر ورن، قصة عن حصان مصاب بالورم العرقوبي.

"ولكن ظننت أن السيد ورن رسام؟"

ويقول بوريس، غامزاً بعينه "طبعاً هو رسام، لكنه يكتب في الشتاء، وهو يكتب جيداً.... جيداً جداً"، وأحاول أن أقنع المستر ورن بالكلام، بقول شيء، أي شيء، أن يتحدث عن الحصان المصاب بورم عرقوبي إذا لزم الأمر. لكن المستر ورن ممتنع عن الإفصاح. وعندما يحاول أن يتكلم عن تلك الشهور الموحشة بواسطة القلم يصبح غامضاً. ويقضي شهوراً طويلة قبل أن يكتب كلمة على الورق. (والشتاء لا يتألف إلا من ثلاثة أشهر). فبماذا يفكر طوال تلك الأشهر المديدة من الشتاء؟ وليساعني الله لأنني لا أرى في هذا الشاب مستقبلاً ككاتب. ومع ذلك فالسيدة ورن تقول إنه ما إن يضع نصب عينيه الكتابة حتى يجلس "ويفيض".

وينساب الحديث. من الصعب متابعة ما يجري في رأس المستر ورن لأنه لا يقول شيئاً. "إنه يفكر طوال وقته" - هكذا تقول السيدة ورن. فالسيدة ورن تصف كل شيء حول زوجها بأبهى صورة. "إنه يفكر بلا انقطاع" - شيء ساحر، ساحر حقاً، على حد قول بوروفسكي، غير إنه مؤلم حقاً، خاصة حين لا يكون المفكر أكثر من حصان مصاب بالورم العرقوبي.

أعطاني بوريس نقوداً لأبتاع مشروباً. وسكرت وأنا لا أزال في الطريق لشرائه. أعرف كيف سأبدأ عندما أعود إلى البيت. يبدأ الخطاب الفخم داخلي وأنا أطرق الشارع، مقررراً كضحكة السيدة ورن الرخوة. ويبدو لي

أنها كانت تتمتع مسبقاً بشيء من الأفضلية. وهي تنصت بشكل جميل عندما تكون يقظة. أسمع، أثناء خروجي من محل بيع الخمر، المبولة تفرغر، كل شيء سائب ويحدث طرطشة. أريد من السيدة ورن أن تنصت....

يفرك بوريس يديه من جديد. والسيدة ورن لا تزال تتمتم وتجمجم. أضع زجاجة من الخمر بين ساقي وأفحم فتاحة الفلين. تفتح السيدة ورن فمها قليلاً بترقب. الخمر يترشش من بين ساقي والشمس تتدفق من خلال المشربية. وداخل عروقي ألف شيء جنوني يقرقر ويترشش وقد بدأ الآن ينبجس خارجاً مني شذر مذر. وأنا أخبرهم بكل ما يخطر على بالي، بكل ما كان محبوساً داخلي وأطلقت ضحكة السيدة ورن الرخوة. وأثناء وجود الزجاجة بين ساقي والشمس تترشش من خلال النافذة أمرٌ من جديد بتجربة روعة تلك الأيام البائسة الأولى لوصولي إلى باريس، وأنا شخص مرتبك مبتل بالفقر، يسكن الشوارع كشبح في مأدبة. يعود إليّ كل شيء بسرعة كبيرة - المراحيض التي لا تعمل، الأمير الذي لمع لي حذائي، وسينما سبليندد حيث نمتُ على معطف صاحبها، وقضبان النافذة، والاحساس بالاختناق، والصراصير السمينة، والشرب والسكر أثناء فترات الراحة، وروز كاناك ونابل يحتضران تحت ضوء الشمس. أزرع الشوارع رقصاً يحوف نحاو وبين وقت وآخر أنادي على أناس غرباء - على مدام ديلورم، مثلاً. لم أعد أذكر كيف تصادف ودخلتُ بيت مدام ديلورم. لكنني دخلتُ إلى هناك، بطريقة ما، ماراً بالساق، وبالخادمة التي ترتدي المئزر الأبيض الصغير، ودخلتُ مباشرة إلى قلب القصر بينطالي الكوردوري وسترة الصيد - وبدون أي زر في فتحة بنطالي. ولا أزال أشعر حتى الآن بجو الغرفة الذهبي حين جلست مدام ديلورم على عرشها بلباسها المسترجل، والسلك الذهبي في الأحواض الزجاجية، وخرائط العالم العتيق، والكتب المجلدة تجليداً جميلاً، أكاد أشعر من جديد بثقل كفها وهي ترتاح على كتفي، وتخيفني قليلاً بمظهرها السحاقى الثقيل. ارتحتُ أكثر وأنا وسط الزحام الشديد المنصب في محطة القديس أليعازر، والعاشرات يقفن على ممر الأبواب، وزجاجات سيلتزر على كل طاولة، ودفق سميك من المني

يغمر المحارير. بين الساعة الخامسة والسابعة لا شيء أفضل من أن تجد نفسك مقحماً في هذا الحشد، تتعقب ساقاً أو نهذاً جميلاً، تنحرف مع التيار وكل شيء يدوم في عقلك. تلك الأيام منحني نوعاً من رضى عجيب. لا ارتباطات، لا دعوات على العشاء، لا تخطيط ولا دراهم. فترة ذهبية، لم أعد أحتفظ خلالها بصديق واحد. وكل صباح السير الموحش نفسه إلى مقهى الاكسريس الأميركي، وكل صباح الجواب الحتمي نفسه من الموظف. اندفع هنا وهناك كالبقعة، اجمع أعقاب السجائر بين آن وآخر، تارة ممكر، وطوراً بصفاقة، أجلس على مقعد أعصر أمعائي لتوقف عن النخر، أو أتمشى عبر حدائق التويلري ويتصب عضوي وأنا أنظر إلى التماثيل الخرساء. أو تراني على طول الشاطئ السيل ليلاً، وأتجول، ويكاد يصيبني الجنون من جماله، بالأشجار المنحنية، والصور المتكسرة في الماء، واندفاع التيار تحت أنوار الجسور الشيطانية، والنسوة النائمت على عتبات الأبواب، النائمت على أوراق الجرائد، النائمت تحت المطر، وفي كل مكان شرفات الكاتدرائيات البالية والشحاذون والقمل والعجائز المصابون بالرقص، وعربات اليد مكومة في الشوارع الجانبية كيراميل النبيذ، ورائحة التوت في السوق العامة والكنائس العتيقة مسورة بالخضروات وبأنوار قوسية زرقاء، والمحارير زلقة بالنفايات ونساء يلبسن خفافاً من الساتان يترنخن وسط الفحش والهوام بعد السكر طوال الليل. وساحة كنيسة القديس سوليس، الهادئة جداً والمهجورة، التي تأتي إليها عند منتصف كل ليلة المرأة ذات المظلة المكسورة والبرقع الجنوني، تنام هناك كل ليلة على مقعد تحت مظلتها الممزقة، بدعوماتها المتهدلة وثوبها المخضر، وأصابعها النحيلة وفروح الفساد ينز من جسمها، وفي الصباح أجلس بدوري، آخذ غفوة هادئة تحت أشعة الشمس، لاعناً الحمام الملعون الذي يلتقط الفتات من كل مكان. ساحة كنيسة القديس سوليس أبراج الأجراس الضخمة، والمصقات المبهرجة المعلقة فوق الباب، والشموع مقادة في الداخل. الساحة التي أحبها أناطول فرانس حياً جماً، بالأزير والطنين الصادرين عن المذبح، وطرطشة ماء النافورة، وهديل الحمام، والفتات التي تختفي كالسحر والقرقعة الخافتة في فراغ

الأحشاء. هنا كنت أجلس على مر الأيام مفكراً في جيرمين، وفي الشارع الصغير القذر قرب الباستيل حيث قطنتُ، والطنيين المتصاعد من خلف المذبح، والباصات تهدر أثناء مرورها، والشمس تخرق بأشعتها الإسفلت، والإسفلت يخرقني أنا وجيرمين، وتخرق الإسفلت وكل باريس في أبراج الأجراس الكبيرة الضخمة.

قبل هذا بعام اعتدت أنا ومونا أن نتمشى كل مساء في شارع بونابرت، بعد أن نستأذن بوروفسكي. عندئذ لم تكن ساحة كنيسة القديس سوليس تعني لي الشيء الكثير، ولا أي شيء في باريس. واستنزفتني الكلام، وأسقمتني الوجوه، وسئمت مرأى الكاتدرائيات، والساحات ومعارض الحيوانات وكل شيء. أتناول كتاباً في غرفة النوم الحمراء والكرسي الخيزران غير مريح، مللت من طول الجلوس على مؤخرتي، ومن ورق الجدران الأحمر، ومن رؤية عدد غفير من الناس يربون بكلام فارغ. غرفة النوم الحمراء وصندوق الثياب مفتوح دائماً، وأثوابها مبعثرة في فوضى عظيمة. غرفة النوم الحمراء وأحذيتي الشتوية وعصي الخيزران ودفاتر الملاحظات التي لم أمسها، والمخطوطات ملقاة باردة ميتة. باريس! تعني مقهى النخبة، والدوم، وسوق فلي، والأميركان اكسپريس. باريس! تعني عصي بوروفسكي، وقبعات بوروفسكي، و(guaches)^(٢) بوروفسكي، وسمكة بوروفسكي الماقبل تاريخية، ونكاته الماقبل تاريخية. باريس تلك من عام ٣٨ - لا يبقى منها في ذاكرتي غير ليلة واحدة - هي الليلة السابقة لاجاري إلى أميركا. ليلة فريدة، لعبت الخمرة فيها برأس بوروفسكي قليلاً وأصابه شيء من الالتهزاز مني لأنني لا أترك عاهرة واحدة في المنطقة إلا وأراقصها. لكننا راحلون في الصباح أقولها لكل عاهرة أتشبت بها - "راحلون في الصباح" أقولها للشقراء ذات العينين بلون العقيق. وبينما أنا أخبرها تتناول يدي وتعصرها بين ساقها. وفي المرحاض أقف أمام الحوض وعضوي في انتصاب أعظمي، أشعر به خفيفاً وثقيلاً في آن واحد، كقطعة رصاص مجنحة. وبينما أنا

(٢) - الفواش: نوع من اللوحات المائية.

واقف هكذا تدخل عاهرتان - أمير كيتان. أحبيهما بحرارة، وأنا ممسك بأيري. تغمزاسي وتمران. في الردهة بينما أزرر فتحة البنطال، ألاحظ أحدهن واقفة تنتظر صديقتها لتخرج من المرحاض. الموسيقى ما تزال تعزف وقد تأتي مونا لتبحث عني، أو بوروفسكي بعصاه ذات المقبض الذهبي، لكني الآن بين ذراعيها وهي تضميني ولا يهمني من يأتي أو ماذا يحدث. ونحنشر في الكايين وهناك أجعلها تقف، وأسندها إلى الجدار، وأحاول أن ألجها لكنه لا يدخل فنجلس على مقعد المرحاض ونحاول بهذه الطريقة ولا تنجح الفكرة أيضاً. وكيفما حاولنا نفشل. وكانت طوال الوقت تقيض على أيري، تتشبث به كأنه مخلصها، ولكن لا فائدة، إننا حاميان جداً، شبقان جداً. الموسيقى لا تزال تصدح فنرقص الفالس ونحن خارجان من المرحاض إلى الردهة وأثناء الرقص في بيت الخراء أقذف عليها وألطح كل ثوبها الجميل فتثور كالبحيم. أراجع متعشراً إلى الطاولة وإذا بي أرتطم ببوروفسكي بوجهه المحمر ومونا بنظرتها المستاءة. ويقول بوروفسكي "هيا نذهب جميعاً إلى بروكسل" ونوافق، وعندما نعود إلى الفندق أتقياً حتى يتلوث المكان كله، السرير، ووعاء الاغتسال، والبدايات والفساتين، والأحذية الشتوية والخيزرانات ودفاتر الملاحظات التي لم أمسها والمخطوطات الباردة والميتة.

تمر بضعة أشهر. المكان هو الفندق نفسه، والغرفة نفسها. نطل على الفناء حيث تركنا الدراجات، وثمة غرفة صغيرة فوقنا، تحت العلية، حيث يدير ألك الشاب الوسيم جهاز الفونوغراف طيلة النهار مردداً مقطوعات صغيرة جميلة بأعلى صوته. أقول "نحن" متجاوزاً بهذا نفسي قليلاً، لأن مونا رحلت منذ زمن طويل واليوم بالذات أنا ذاهب لأقابلها في محطة القديس أليعازر، وقرابة المساء أقف هناك ووجهي محشور بين القضبان، ولكن لا أثر لمونا، وأعيد قراءة البرقية فلا تقدم لي أية مساعدة. وأعود إلى الحي وأعد لنفسي وجبة دسمة لا ألوي على شيء. وبينما أنا أتسكع بعدها بقليل ماراً بالدوم أرى فجأة وحها شاحباً مثقلاً وعينين متوهجتين - والثوب المخمل الصغير الذي طالما عبدته الآن تحت المخمل ثدياها الدافئان، والساقان الرخاميتان، هادئتان، قويتان عضليتان. تنهض وسط

بحر من الوجوه وتعانقني، تعانقني بهوى - وألف عين، وأنف وقامة وساق، وزجاجة ونافذة، ومحفظة، وصحن كلها تحملق بنا ونحن غائبان كل بين ذراعي الآخر. أجلس إلى جانبها وتتحدث - فيضاً من الكلام. ملاحظات متوحشة مهلكة حول الهستيريا والانحراف والجذام. ولا أسمع كلمة واحدة لأنها جميلة وأنا أحبها والآن أنا سعيد وأود لو أموت.

نمشي في شارع دو شاتو، نبحث عن أوجين. نخطو فوق جسر سكة الحديد حيث اعتدت أن أراقب القطارات تخرج وأحس بالقرف في كل كياني وأتساءل أين يمكن أن تكون بحق الجحيم. كل شيء رنخي وفاتن ونحن نسير عبر الجسر. يمر الدخان بين سيقاننا، والخطوط الحديدية تصر والاشارات الضوئية في دمناء. أشعر بجسدها قرب جسدي - كله لي الآن - وأتوقف لأفرك كفي على المخمل الدافئ. كل ما حولنا يتقوض والجسد الدافئ تحت المخمل الدافئ يتوجع شوقاً إليّ.....

نعود إلى الغرفة نفسها مع خمسين فرنكاً للطيبين، شكراً لأوجين. أطل على الفناء لكن القنوطوغراف صامت. صندوق الملابس مفتوح وأغراضها مبعثرة في كل مكان كما كانت. وتستلقي على السرير بشبابها. مرة مرتين، ثلاث مرات، أربع مرات.... أخشى عليها أن تجن.... ما أجمل ملمس جسدها من جديد، في السرير، تحت الملاءات ولكن إلى متى؟ هل ستطول علاقتنا هذه المرة؟ يخامرني منذ الآن شعور بأنها لن تطول.

تحدث إلي باهتمام - وكأن الغد غير آت. "اصمعي، يا مونا! أكتفي بالنظر إليّ.... ولا تتكلمي!" أخيراً تنهالك وأسحب ذرعي من تحتها. عيناها مغمضتان. ها هو جسدها إلى جانبي.... وسيبقى هكذا حتماً حتى الصباح.... كنا في شباط عندما أقلعت من الميناء وسط عاصفة عاتية. وآخر ما وقع عليها نظري كان من النافذة عندما لوححت بيدها تودعني. ثمة رجل يقف على الطرف الآخر من الشارع، عند الزاوية، قبعته مسدلة على عينيه، وفكاه مستقران على طية سترته. وجنين يراقبني، جنين يضع سيجاراً في فمه. ومونا عند النافذة تلوح بيدها مودعة. وجهها أبيض مسموم، وشعرها ينهمر وحشياً. والآن أضحت غرفة النوم

ثقيلة، وهي تتنفس بانتظام من خلال خياشيمها، ولا يزال السائل ينز من بين ساقبيها، وعبق سنوري دافئ يفوح وشعرها في فمي. عيناى مغمضتان. ويتنفس كل منا من قم الآخر. ملتصقان بإحكام، وأميركا تبعد ثلاثة آلاف ميل. ولم أرغب قط في رؤيتها ثانية. ووجودها معي هنا في السرير، أنفاسها علي، وشعرها في فمي - هو لعمرى من قبيل المعجزة. لا يمكن لأي شيء أن يحدث من هنا وحتى الصباح.....

أستيقظ من غفوة عميقة لأنظر إليها. ثمّة نور شاحب يتسرب. أنظر إلى شعرها الوحشي الجميل. وأشعر بشيء يزحف على رقبي. أنظر إليها من جديد، عن قرب. شعرها حي. أزيح الغطاء، ثمّة المزيد منه. إنه يحترش على الوسادة.

الوقت هو بُعيد انبلاج الفجر نقيلاً. نخزم أغراضنا على عجل ونتسلل خارجين من الفندق. لا تزال المقاهي مغلقة. نمشي، وبينما نحن سائران نهرش بعضنا، ينبلع النهار بياض حليبي، السماء مخططة بخطوط قرمزية بلون السلمون، والحلازين تغادر أصدافها. باريس. باريس. كل شيء يحدث هنا. جدران عتيقة تتقوض وصوت الماء العذب يجري في المبولات. رجال عند البار يلعبون شواربهم. مصاريح نوافذ تفتح بقوة وجداول صغيرة تغرغر في المحارير. وعبارة Amer Picon مكتوبة بحروف هائلة الحجم. "خط منكسر". في أي طريق سنتجه ولماذا أو أين أو ماذا؟.

مونا جائعة، ثوبها رقيق. لا ترتدي إلا غللات مسائية، زجاجات عطور، أقراط همجية، أساور، مواد مزيلة للشعر. نجلس في قاعة لعب البليارد في شارع ميسن ونطلب قهوة حارة. المرحاض معطل. علينا أن نجلس بعض الوقت قبل أن ننطلق لنجد فندقاً آخر. في تلك الأثناء نلتقط بق الفراش كل من شعر الآخر. عصبية. مونا تفقد أعصابها. يجب أن تأخذ حماماً. يجب أن تحصل على هذا. يجب أن تنال ذلك. يجب، يجب، يجب.....

"كم بقي معك من نقود؟"

نقود! لقد نسيتهما تماماً.

فندق "الولايات المتحدة". فيه مصعد. نأوي إلى السرير ونحن في وضوح النهار. عندما تنهض يكون الظلام قد حل وأول ما أفعله أن أجمع نقودا

تكفي لارسال برقية إلى أميركا. برقية إلى الجنين ذي السيجار الرطب في فمه. في هذه الأثناء هناك امرأة إسبانية تقف في شارع راسيل – هي دائما طيبة لهدف الحصول على وجبة دافئة. بحلول الصباح سيحدث أمر. على الأقل سنأوي إلى السرير معاً. لم يعد هناك بق فراش الآن. بدأ موسم الأمطار. الملاءات نظيفة.....

في فيلابورغير تفتح أمامي حياة جديدة. لا تزال الساعة العاشرة وقد تناولنا الإفطار وانطلقنا نتمشى. تسكن معنا الآن فتاة تدعى إلزا. ويحذرنا بوريس قائلاً لبضعة أيام فقط.

يبدأ النهار بداية رائعة: سماء براقعة، هواء منعش، والبيوت المغسولة حديثاً. في طريقنا إلى مكتب البريد نتناقش بوريس وأنا حول الكتاب. "آخر كتاب" - وسيكتب بدون ذكر اسم المؤلف.

نهار جديد يبدأ. شعرتُ به هذا الصباح ونحن واقفان أمام إحدى رسومات دوفريسن Dufresne المتلألئة على القماش، تمثل *dejeuner intime* "وجبة إفطار ودية" في القرن الثالث عشر، *sans vin* بلا خمر. ثمة فتاة عارية رائعة غزيرة اللحم، متينة، رجراجة، قرمزية، كالظفر، تغطيها وسائد من اللحم المتلألئ، فيها كل المميزات الثانوية، وقليل من الأولية. إنه جسد يغني، فيه نداوة الفجر. حياة جامدة، غير أن لا شيء جامد، لا شيء ميت هنا. المائدة تتصدع من كثرة الطعام، إنه وفير حتى ليكاد ينزلق من الأطار. هي مائدة تميز القرن الثالث عشر - مع كل الملاحظات الهمجية التي حفظها عن ظهر قلب. وعائلة من الغزلان والحمير الوحشية تقرض سعف النخيل.

والآن صار معنا إلزا. هذا الصباح كانت تعزف لنا ونحن في السرير. "كوني خفيفة لبضعة أيام". عظيم! إلزا هي الخادمة وأنا الضيف. وبوريس هو قرص الجبن الكبير. ثمة مسرحية جديدة تبدأ. إنني أضحك مع

نفسي وأنا أكتب هذا. إنه يعرف ماذا سيحدث، ذاك الوشق، بوريس. لديه حاسة لشم الوقائع أيضاً. "كوني خفيفة.....".

بوريس على أحر من الجمر. فقد تظهر زوجته في أية لحظة بينما. إنها تزن أكثر بكثير من ١٨٠ رطلاً، زوجته تلك. وبوريس إلى جانبها مجرد قبضة يد. ها قد بتّ ملماً بالوضع. ويحاول أن يشرحه لي في طريقنا إلى البيت ليلاً. إنه أمر مأساوي وسخيف معاً حتى لقد اضطرت للضحك في وجهه أكثر من مرة. ويقول بلطف: "لماذا تضحك هكذا؟". ويبدأ بالضحك بدوره، وفي صوته تلك النبرة الآتية، المستيرية، كبائس لا حول له ولا قوة يدرك فجأة أنه مهما ارتدى من معاطف الفروك السوداء فلن تجعل منه رجلاً. يريد أن يهرب، أن يتحلل اسماً جديداً. ويعوي "يمكنها أن تحصل على كل ما تريد، تلك البقرة، شريطة أن تدعني وشأني". ولكن أولاً يجب أن تؤجر الشقة، وتوقع الأوراق، وألف تفصيل آخر يجب القيام به قبل أن يصله المعطف. ولكن، يا لحجمها! - هذا ما كان يقلقه حقاً. إذا ما تصادف ورأيناها فجأة واقفة على عتبة الدار لدى وصولنا يغمى عليه - إلى هذا الحد يحترمها!.

إذن علينا أن نساير إلزا لبعض الوقت. إلزا موجودة فقط لتعد الافطار - ولتعرض الشقة على الزبائن.

وإلزا تهلكني. بسبب دمها الألماني. وتلك الأغاني الكمية. هذا الصباح هبطت الدرج، والقهوة الطازجة تملأ أنفي، ورحلت أهمهم بصوت خافت..... "Es war so schon gewesen" وأعني بهذا الافطار. وبعد برهة قصيرة إذ بالولد الانكليزي في الطابق العلوي يبدأ مع باخ. وكما تقول إلزا: "إنه بحاجة إلى امرأة"، وإلزا بحاجة إلى شيء أيضاً. لم أذكر أية كلمة عن هذا لبوريس، لكن بينما كان ينظف أسنانه هذا الصباح راحت إلزا تصغي بانتباه إلى حديثه عن برلين، والنساء اللواتي يبدن جميلات من الخلف، وما أن يستدرن - واو، سفلس!.

يبدو لي أن إلزا تنظر إلي بتوق كئيب. ثمة بعض البقايا تركت على مائدة الإفطار. هذا اليوم بعد الظهر كنا جالسين ظهراً إلى ظهر، نكتب في

الاستديو. كانت قد بدأت رسالة إلى عشيقها في إيطاليا. وتعطلت الآلة الكاتبة. وكان بوريس قد ذهب لبحث عن غرفة رخيصة سيتقل إليها حالما توجّر الشقة. لم يبق أمامي إلا أن أمارس الحب مع إلزا. كانت تلك رغبتها. ومع ذلك شعرت بشيء من الرثاء لأجلها. لم تكن قد كتبت غير السطر الأول إلى حبيبها - قرأته من طرف عيني وأنا أميل عليها. ولكن لم يكن هناك من مفر. يا لتلك الموسيقى الألمانية، ما أشد كآبتها، وعاطفيتها. إنها تهلكني. بالإضافة إلى عينيها الصغيرتين، الحاريتين جداً والخزيتين في وقت واحد.

بعد أن انتهينا طلبت منها أن تعزف لي شيئاً. إنها عازفة محترمة، إلزا، بالرغم من أن عزفها يبدو كقرقرة قلدور مكسورة وعظام، وفوق كل هذا بكت وهي تعزف. لا ألومها. تقول، يحدث لها الشيء نفسه أينما ذهبت. تقابل رجلاً في كل مكان، ثم تضطر لتركه، ثم تقوم بعملية إجهاض ثم عمل جديد وثم رجل آخر ولا أحد يهتم بها إلا ليستغلها. كل هذا قالته بعد أن عزفت لي مقطوعة لشومان - شومان، ذاك ابن الحرام الألماني العاطفي السخيف! شعرت نوعاً ما برثاء جحيمي لأجلها ومع ذلك لم آبه. عاهرة مثلها تعزف بهذه الصورة يجب أن يكون لديها من الحس ما ينقلها من الوقوع في براثن كل شاب له أير ضخمة يمر بها. أما ذاك الشومان فيجري في دمي. إلزا لا تزال تجهش بالبكاء، لكن ذهني رحل بعيداً. أفكر في تانيا وكيف تعزف الأداجيو. أفكر في أشياء كثيرة انتهت واندثرت. أفكر في بعد ظهيرة يوم صيفي في غرينبوينت حين كان الألمان يعيشون فساداً في بلجيكا ولم نكن قد نحسنا الكثير من المال بشكل يدفعنا للاهتمام باغتصاب بلد حيادي. وقتها كنا لا نزال أبرياء بما يكفي لتنصت للشعراء ونجلس حول طاولة عند الغسق ندق عليها استدعاءً للأرواح الراحلة. وطوال بعد الظهر والمساء يظل الجو مشبعاً بالموسيقى الألمانية، فالمنطقة المجاورة كلها ألمانية، بل أكثر ألمانية من ألمانيا نفسها. لقد نشأنا على موسيقى شومان وهوغو وولف والسوكروت والكومل وزلايات البطاطا. وقرابة المساء تجلس حول طاولة كبيرة والستائر مسدلة وثمة فتاة بلهاء ضخمة الرأس تدق استدعاءً ليسوع المسيح. كنا نتماسك بالأيدي تحت الطاولة وتضع السيدة الجالسة إلى جوارى إصبعين من أصابعها في فتحة بنطالي. وأخيراً نستلقي على الأرض،

خلف البيانو، بينما أحدهم يغني أغنية شنيعة. الجو خائق وأنفاسها كريهة. الآلة تعلو وتهبط، بحركة عنيفة، آلية، مجنونة، عقيمة، وكرج من الروث يستغرق بناؤه سبعة وعشرين عاماً لكنه يحافظ على الوقت الصحيح. وأجرها فوقها واللوحة المصوّنة في أذني، الغرفة مظلمة والسجادة ديقة من الكومل المسفوح على الأرض. وفجأة يبدو وكأن الفجر ينبلع: كأن ماء يفرغ فوق ثلج والثلج أزرق اللون من الضباب المتصاعد، وقطع من الجليد تغوص في لون أخضر زمردى، وشاموا وأنتيلوب، وسمك اللوز الذهبي، وأبقار بحرية تتسكع وشراب الأمير جاك يقفز عبر حافة القطب الشمالي..... إلزا تجلس في حضني. عيناها كعروتين صغيرتين. أنظر إلى فمها الكبير، رطب جداً ومتألئ، وأعطيه. الآن هي تهمهم..... "Es war so schon gewesen" آه، يا ليزا، أنت لا تعرفين حتى الآن ماذا يعني لي هذا، صاحبك Trompeter von sackingen. إنه جميعات الغناء الألماني، قاعة شفاين، التورنغرين.... links um rechts um ... ومن ثم صفعة على القفا بطرف حبل.

آه من الألمان! إنهم يحتلونك كسيارة عامة. يسبون لك عسر هضم. في ليلة واحدة لا يستطيع المرء أن يزور المشرحة، والمشفى، وحديقة الحيوانات، والرموز الفلكية، وسجون الفلسفة، وكهوف المعرفة، وأسرار فرويد وشتيكل.... فعلى متن الدويخة لا يصل المرء إلى أي مكان، بينما مع الألماني يستطيع أن ينتقل من فيغا (VEGA) إلى لوب دو فيغا، وكل هذا في ليلة واحدة، ويصبح أبله كبر سيفال.

كما قلت بدأ النهار بفخامة: لم أع من جديد هذه الباريسية الحسية التي كنت جاهلاً إياها طوال أسابيع مضت إلا هذا الصباح. ربما لأن الكتاب كان قد بدأ ينمو داخلي. إني أحمله معي إلى كل مكان. أحوب الشوارع حبلاً بطفل وتراقني شرطة الحماية لأعبر الشارع. تنهض النسوة ليتخلين لي عن مقاعدهن. لم يعد أحد يدفعني بفظاظة. أنا حبل. أتهدى بارتباك، وبطني المنتفخة تكافح ضد وزن العالم.

في هذا الصباح، في طريقنا إلى مكتب البريد، أعطينا موافقتنا الأخيرة

الأدب. سيكون كتاباً مقدساً جديداً - "الكتاب الأخير". وكل من لديه شيء
يقوله سيضعه هنا - "دون ذكر اسمه". سوف نستنفد العصر. بعد كتابنا لن
يكون كتاب - ليس قبل جيل كامل، على الأقل. كنا حتى الآن نحفر في
الظلام، وليس لدينا إلا الغريزة ترشدنا. ومنذ الآن سيصبح لدينا وعاءٌ نسغي
نضخ فيه الدفق الحيوي، قبلة عندما نلقيها ستسفن العالم. سوف نضع فيه
من المواد ما يكفي كتاب الغد ليستوحوا منه حيكاتهم، ومسرحياتهم،
وقصائدهم، وأساطيرهم، وعلومهم. سوف يتمكن العالم من أن يقتات عليه
خلال الدورة الألفية القادمة. إنه جبار في إمكانياته. ومجرد التفكير فيه
يشتتي.

منذ أكثر من مائة عام، والعالم، عالمنا، يموت. وخلال هذه المائة عام أو
نحوها لم يظهر رجل واحد يكون من الجنون ما يجعله يحشر قبلة في طيز
الخليفة وينسفها. العالم يتعفن، يموت على مهل. لكنه يحتاج إلى الـ Coup
de grace الضربة القاضية، يحتاج إلى أن يُنسف شذر مذر. ليس يتنا واحد
سليم، ومع ذلك نحمل داخلنا كل القارات والبحار التي تفصل بينها وطيور
البحر. سندونه - أقصد تطور العالم الذي مات ولم يُدفن بعد. نحن نسبح على
سطح الزمن وكل ما عدانا غرق، أو يغرق، أو سسيغرق. سيكون الكتاب
هائلا. ستكون هناك محيطات من الفراغ تتجول فيها، نجتاز المسافات، نفني،
نرقص، نتسلق، نستحم، نتشقلب، نتحب، نغتصب، نقتل. سيكون
كاتدرائية، كاتدرائية حقيقية، داخل بنائها يساعد الجميع كل من فقد ذاته.
ستكون قداديس تقام على أرواح الأموات، وصلوات، واعترافات، وتراويل،
أنين وثرثرة، نوع من اللامبالاة الإجرامية، ستكون هناك نوافذ وريدية
وغارغويلات وقندلفتات وحاملو بساط الرحمة. بإمكانك أن تدخل
أحصتلك وتخبّ بها متجولاً بين الأجنحة. بإمكانك أن تنطح رأسك الجدران
- فلن تهدم. بإمكانك أن تصلي بأية لغة تختارها، أو أن تلتف حول نفسك
وتستغرق في النوم. هذه الكاتدرائية ستخلد ألف عام، على الأقل، ولن تكون
هناك نسخة مطابقة لها، فسيكون البناؤون قد ماتوا وكذا التصاميم. وسنطبع
بطاقات بريدية وننظم جولات سياحية. وسنبني بلدة حولها وتنشئ كومبونا
حرّاً. لا حاجة لنا إلى العبقرية - فالعبقرية قد فئت. نحن بحاجة إلى أيد قوية،

إلى أناس يتخلون عن الروح ليستبدلوها باللحم.....

* * *

النهار بحث خطاه على وقع إيقاع جميل. وأنا واقف في شرفة بيت تانيا. المسرحية مستمرة في الطابق السفلي في غرفة الجلوس. الكاتب المسرحي متوعلك، ومن أعلى تبدو فروة رأسه أكثر تعقيداً من ذي قبل. شعره مصنوع من القش. وأفكاره قش، وزوجته أيضاً قش، لكنها لا تزال رطبة قليلاً. البيت كله مكون من القش. وها أنا ذا أقف في الشرفة، أنتظر بوريس. آخر مشكلاتي - وهي الإفطار - حُلّت. لقد بسَّطتُ كل شيء. وإذا ظهرت أية مشكلات جديدة فبوسعي أن أحملها في حقيبة الظهر، مع ثيابي القذرة. أنني أرمي بكل قروشي. فما حاجتي أنا إلى النقود؟ أنا آلة كاتبة. ولقد وُضِعَ آخر برغي، يبدأ التدفق. لا تنائي بيني وبين الآلة، فأنا الآلة....

لم يخبروني بعد عن موضوع المسرحية الجديدة، لكنني أحس بها. إنهم يعملون على التخلص مني. ومع ذلك ها قد حضرتُ لأتناول طعام العشاء، بل وأبكر قليلاً مما توقعوا. أخبرتهم أين سيجلسون وماذا سيفعلون. وأسألهم بأدب إن كنت أزعجهم، ولكن ما أعنيه حقاً، وهم يعرفونه، هل سيزعجونني؟ لا، أيها الصراصير المباركة، إنكم لا تزعجونني. أنتم "تغذونني". أرى أنكم تجلسون متقارنين وأنا أعرف أن ثمة هوة تفصل بينكم. إذا انسحبت لن يتبقى لكم فراغ لتسبحوا فيه.

سيطر على تانيا مزاج عدواني - أشعر به. إنها تمقت أن أكون منشغلاً بأي شيء آخر غيرها. وهي تعرف من مقدار إثارتني أن قيمتها لدي قد انخفضت إلى الصفر. تعرف أنني لم آت هذا المساء لأخصبها. تعرف أن ثمة شيئاً ينبت داخلي سيدمرها. إنها بطيئة الفهم، لكنها تفهم هذا على كل حال.....

سيلفستر يبدو أكثر رضى. هذا المساء سيعانقها على مائدة العشاء. والآن هو يقرأ مخطوطتي استعداداً ليلهب أنايتي، ليثير أنايتي ضدها. سيكون غريباً اجتماعنا هذا المساء. خشبة المسرح أُعدت. أكاد أسمع

ربين الكؤوس. والنبيد يُحضّر. وستجري الأنحاب وسيتخلص سيلفستر المريض من مرضه.

خططنا لاعداد هذا المشهد بالأمس فقط، في بيت كرونستادت. لقد كُتبَ على النساء أن يعانين، وأنه بعيداً عن خشبة المسرح يجب أن يكون هناك مزيد من الرعب والعنف، مزيد من الكوارث، والمعاناة، والكرب والبؤس.

ليس من قبيل المصادفة أن يندفع أناس مثلنا إلى باريس. إن باريس هي ببساطة خشبة مسرح مصطنعة، خشبة مسرح دوارة تسمح للمشاهد أن يلتم بكل أبعاد الصراع. باريس لا تستلهم من نفسها المسرحيات، إنها تبدأ في مكان آخر. باريس هي مجرد أداة توليد تنزع الجنين الحي من الرحم وتضعه في آلة الحضن. باريس هي مهد الولادات الاصطناعية. في هذا المهد بينما يُهَلَّهَد كل واحد يعود في مذكراته إلى تربته الأصلية، يحلم ببرلين، ونيويورك، وتشيكاجو، وفيينا، ومينسك، وفيينا لا تظهر بأجل صورها إلا من باريس. ويُرفع كل شيء إلى مرتبة التأليه. ويتخلى المهد عن صغاره ويحتل جدّاً أماكنهم. هنا يمكنك أن تقرأ على الجدران أين عاش زولا وبلزاك وستريندبرغ وكل من كان له أي حظ من الشهرة. الكل عاش هنا في وقت من الأوقات. لا أحد "يموت" هنا.....

إنهم يتحدثون في الطابق السفلي. لغتهم رمزية. يدخل فيها "صراع العالم". وسيلفستر، الكاتب المسرحي المريض، يقول: "إنني فقط أقرأ البيان الرسمي"، وتقول تانيا - "بيان من؟". نعم يا تانيا، أسمعك. أنا هنا في الأعلى أكتب عنك وأنت تحدسين بدقة بما أكتب. زيديني من كلامك، حتى أدونه. فعندما نتوجه إلى المائدة لن أتمكن من تدوين أية ملاحظة.... وفجأة تعلق تانيا: "لا يبدو أن في البيت صالة". والآن ماذا يعني هذا، إن كان له أي معنى؟.

الآن يعلقون الصور. وهذا أيضاً يترك تأثيره عليّ. إن لسان حالها يقول: "أترى، نحن مرتاحون هنا ونعيش حياة زيجية. نجعل المنزل جذاباً. وسنتجادل حول الصور، إكراماً لك فقط. وتعود تانيا لتعلق: "كم تخدع العين!". آه يا تانيا، ما أروع ما تقولين! هيا استمري، أطيلي أكثر هذه

المهزلة. أنا هنا لأتناول العشاء الذي وعدتني، ولأستمتع بهذه المسرحية المضحكة بشكل هائل. والآن يستلم سيلفستر زمام الحديث. إنه يحاول أن يشرح إحدى لوحات بوروفسكي المائية. "اقتربي، أترين؟ أحدهم يعزف على القيثارة، وآخر يضم فتاة بين أحضانها". معك حق يا سيلفستر معك كل الحق. يا لبوروفسكي وقيثاراته! والفتيات اللواتي يضمهن بين أحضانها! لكن الناظر لا يتأكد تماماً ماذا يضم بين أحضانها، أو إن كان رجلاً حقاً من يعزف على القيثارة.....

بعد قليل سيدخل مولدورف وهو يجبو على أربع مع بوريس بضحكته الصغيرة البائسة. سيكون على مائدة العشاء تدرج ذهبي وأنحو وسيحار قصير ثخين. وعندما سيحصل كرونستادت على آخر الأخبار سيعيش خلال خمس دقائق حياة أصعب قليلاً، وأكثر إشراقاً بقليل، ومن ثم سيستقر من جديد في حمأة أيدبولوجيته، وقد تولد قصيدة، جرس قصيدة ذهبي كبير بلا لسان.

كان علي أن أتوقف عن العمل لساعة أخرى أو نحوها. أتى زبون آخر ليعاين الشقة. وفي الطابق العلوي يتمرن الانكليزي الملعون على مقطوعة باخ. بات من الضروري الآن كلما أتى أحدهم ليعاين الشقة أن أهرع إلى الطابق العلوي وأطلب من عازف البيانو أن يكف عن عزفه قليلاً.

تتصل إلزا هاتفياً ببائع الخضار. والسنكري يركب مقعداً جديداً على حوض المرحاض. وكلما رن الجرس يفقد بوريس توازنه. وفي غمرة انفعاله أسقط كأسه، فبرك على يديه وركبتيه، ومعطفه ينسحب على الأرض. إنه يشبه قليلاً مشهداً من غينول العظيم^(٣) - الشاعر المعوز الذي جاء ليعطي دروساً لابنة اللحام. وكلما رن الهاتف يتندى فم الشاعر. ويبدو مالا رمية أشبه بمذاق شريحة طرية من لحم البقر، وفيكتور هوغو كمذاق *boie de veau*. تطلب إلزا إحضار وجبة خفيفة لبوريس - تقول: "شريحة صغيرة رطبية من لحم الخنزير"، فأرى على قطعة الرخام سرباً كاملاً من قطع لحم

(٣) - غينول العظيم: مسرحية قصيرة ملأى بالاثارة والرعب.

الخنزير القرمزية، رائعاً موسداً بالشحم الأبيض. وأشعر بجوع ضار مع أننا تناولنا الإفطار قبل بضع دقائق، وسيكون علي أن أتغاضى عن وجبة الغداء. أنا لا أتناول الغداء إلا في أيام الأربعاء، شكراً لبوروفسكي. لا تزال إلزا تتكلم في الهاتف - نسيت أن تطلب قطعة من لحم الخنزير. تقول: "نعم، قطعة لحم خنزير صغيرة جيدة، لا تكون كثيرة الشحم".... *lalors Zut*. أضيفي بعض بنكرياس العجل، وبعض محار الجبل ومحار بطلينوس! أضيفي بعض حشيشة الكبد المقلية ما دمت فيها، بإمكانني أن أبتلع جميع مسرحيات لوب دو فيغا الألف والخمسمائة في جلسة واحدة.

جميلة المرأة التي أتت لترى الشقة هي أميركية، طبعاً. أقف عند النافذة مديراً ظهري لها، أراقب طائر سنونو يلتقط الروث الطازج. مذهلة السهولة التي يتزود بها السنونو بقوته. الدنيا تمطر قليلاً وحببات المطر كبيرة جداً. كنت أظن أن العصفور لا يستطيع أن يطير إذا تبلل جناحاه. مدهل كيف تأتي تلك السيدات الثريات إلى باريس ويعثرن على كل الاستديوهات المرفهة. قليل من الموهبة ومحفظة ضخمة. إذا أمطرت فهي فرصة لهم لعرض آخر ممطراتهن. الطعام لا يهم: أحياناً يكنّ من الانشغال بحيث ينسين موعد الإفطار. تكفي شطيرة صغيرة، رقائق، يتناولنها في مقهى السلام أو بار الريتز "الخاص بينات الأكابر" - كما تقول الياطرة الموجودة على الاستديو القديم للبوني دو شوفان. وتصادف إن كنت ماراً من هناك، فرأيت أميركيات يعلقن صناديق أصباغ من أكتافهن. قليل من الموهبة ومحفظة متفخخة.

طائر السنونو يقفز بهياج من حصة رصف إلى أخرى. اقترب وسترى كم يئذل من مجهود جبار. أينما ذهبت ترى الطعام منشوراً في كل مكان - في المجرور، أقصد. المرأة الأميركية الجميلة تسأل عن مكان المرحاض. المرحاض؟ دعيني أدلك، يا غزالة يا ذات الأنف المخملي تريد المرحاض؟ من هنا مدام. لا تنسي أن الأماكن المذكورة مخصصة لمشوحي الحرب^(٤).

بوريس يدلك يديه - إنه يضع اللمسات الأخيرة على الصفقة. الكلاب تنبح في الفناء، تنبح كالذئاب. في الطابق العلوي تغير السيدة ميلفرنس أماكن

(٤) - هذه العبارة الأخيرة وردت أصلاً باللغة الفرنسية - المترجم.

الأثاث. ليس لديها ما تفعله طوال النهار، إنها ضَجِرة، إذا عثرت على ذرة غبار في أي مكان تنظف المنزل بكامله.

على طاولة كمية من العنب الأخضر وزجاجة نبيذ - Vin de choix، عشر درجات. يقول بوريس: "نعم يمكنني أن أضع لك مغسلة، انظري هنا من فضلك. نعم، هذا هو المرحاض. وهناك آخر في الأعلى أيضاً، طبعاً. نعم، ألف فرنك في الشهر. تقولين إنك لا تأبهين بأوتريللو^(٥)؟ لا، هذه هي. تحتاج إلى مغسلة، لا أكثر.....".

سترحل حالاً. هذه المرة لم يكبد بوريس نفسه حتى مشقة تقليدي إليها. ابن العاهرة! عندما تكون عاهرة ثرية ينسى أن يعرفني بها. بعد دقائق سأتمكن من أن أجلس ثانية وأكتب. عموماً لم أعد أشعر بميل للكتابة اليوم. حماسي يجبر. قد تعود بعد ساعة أو نحوها وتأخذ الكرسي من تحتي. بحق الجحيم كيف يمكن لإنسان أن يكتب إذا لم يكن يعرف أين يجلس خلال النصف الساعة القادمة؟ إذا استأجرت بنت الحرام الثرية هذا البيت لن أجد مكاناً أنام فيه. ومن الصعب عليك، حين تقع في ورطة مماثلة، أن تعرف أيهما أسوأ - أن يكون لك مكان تنام فيه أم لا يكون لك مكان تكتب فيه. يمكن للمرء أن ينام في أي مكان، ولكن يجب أن يتوفر له مكان ل يكتب. حتي وإن كان ما تكتب ليس قطعة فنية نادرة. حتى الرواية الرديئة تتطلب كرسيًا لتجلس عليه وفسحة من العزلة. ولا يمكن لأولائي العاهرات الثريات أن يفكرن بهذا. وكلما رغبين في خفض مؤخراتهن الناعمة فثمة دائماً كرسي بانتظارهن.....

* * *

(٥) - رسام فرنسي (١٨٨٣ - ١٩٥٥).

بالأمس تركنا سيلفستر وربه جالسين أمم الموقد. سيلفستر بيجامته، ومولدورف مع سيجار بين شفتيه. سيلفستر يقشّر برتقالة. ويضع القشر على غطاء المقعد. ويقترب مولدورف منه. يسأله السماح له بقراءة تلك المحاكاة الساخرة الرائعة "بوابات السماء" ثانية. أنا وبوريس نستعد للذهاب. فمرحنا الزائد لا يناسبه جو غرفة المرضى هذه. تانيا ذاهبة معنا. هي مرحة لأنها ستهرب. وبوريس مرح لأن الإله الذي في مولدورف قد مات. وأنا مرح لأننا بصدد إنجاز فصل آخر.

صوت مولدورف وقور وهو يقول: "هل يمكنني البقاء معك يا سيلفستر، إلى أن نأوي إلى السرير؟" وظل يلزمه طوال الستة أيام الأخيرة، يشترى الدواء، يلي طلبات تانيا، ويهدّي، يواسي، ويحرس الأبواب من الدخلاء الحاقدين أمثال بوريس من الأندال. إنه كشخص همجي اكتشف أن وثنه قد شوّه أثناء الليل. ها هو جالس، عند قدمي الوثن، مع ثمار الخبز والزيت، والصلوات المبررة. يخرج صوته زلقاً، وقد شلت أطرافه للثر.

ويتحدث إلى تانيا وكأنها كاهنة حثت بتدورها. "يجب أن تكوني فاضلة. فسيلفستر هو إلهك". وبينما سيلفستر في الأعلى يتألم (كان صدره يصدر شيئاً كالأزيز) يلتهم الكاهن والكاهنة الطعام. ويقول، وصلصة اللحم تسيل من بين شفتيه "أنت تدنسين نفسك"، فهو قادر على الأكل والمعاناة في الوقت نفسه. وبينما هو يرد عنه شر الخطرين بمد مخالبه الصغيرة الشخينة ويشد بها شعر تانيا "لقد بدأت أحبك. أنت تشبهين عزيزتي فاني".

بعبارة أخرى كان يوماً رائعاً بالنسبة لمولدورف. فقد وصلته رسالة من أميركا. "مو" ينال علامة ممتازة في كل المواد. موري يتعلم ركوب الدراجة. والفيزيكا أصبحت. وتفهم من التعبير المرتسم على وجهه أن ثمة أشياء أخرى تحتويها الرسالة إلى جانب التقارير المدرسية والدراجات الثلاثية. ويمكنك أن تتأكد من هذا لأنه بعد ظهر هذا اليوم اشترى بما قيمته ٣٢٥ فرنكاً مجوهرات لأثيرته فاني. بالإضافة إلى أنه كتب لها رسالة من عشرين صفحة. أحضر له "الجرسون" ورقة بعد أخرى، ملأ قلمه بالحبر، وقدم له قهوته وسيجارته، وهواه حين تعرق، وأزال الفتات عن مائدته، وأشعل سيجاره حين انطفأ، وابتاع له طوايع، وأسرف في تدليله، رقص على أطراف أصابع قدميه، وضرب له سلاماً.... وكاد يقصم ظهره. كان البقشيش سخياً. أكبر وأثخن من سيجار كورونا - كورونا. لعل مولدورف ذكر هذا في يومياته. كل هذا من أجل فاني. السوار والأقراط كانت تستحق كل ما صرفه. فمن الأفضل إنفاقه على فاني بدل تبديده على عاهرات حقيرات أمثال جيرمين وأوديت. نعم، وأخير تانيا بهذا. أراها صندوق ملابسه. إنه مزدحم بالهدايا - لفاني، ولو وموري.

"عزيزتي فاني هي أذكى امرأة في العالم. طالما بحثتُ وبحثتُ لأجد فيها عيباً واحداً - إنها كاملة سأقول لك ماذا بوسع فاني أن تفعل. إنها تلعب البريدج كمحتال، ومهتمة بالحركة الصهيونية، أعطتها قبعة قديمة، مثلاً، وانظري ما تستطيع العمل بها. تلويها من هنا قليلاً، وتضع شريطاً هناك، وهاك شيئاً جميلاً! أتعلمين ما النعمة الكاملة؟ هي أن أحلس بالقرب من فاني، بعد أن يأوي مو وموري إلى الفراش، وأستمع إلى المذيع. وتجلس هي في دعة. إنني بالنظر إليها أكافاً لجميع صراعاتي وهموم قلبي. إنها تنصت بذكاء. وحين أفكر في حي مونبارناس القذر الذي تحببته ومن ثم الليالي التي قضيتها في يده ريدج مع فاني بعد تناول وجبة دسمة، أوكد لك لا أجد مجالاً للمقارنة. بوجود أشياء بسيطة كالطعام، والأولاد، والمصاييح الخافتة الضوء، ومرأى فاني جالسة هناك، تعبئة قليلاً ولكنها مبتهجة، وراضية، ممتلئة بالخير.... كنا نكتفي بالجلوس هكذا ساعات دون أن نتفوه بكلمة. ذاك هو النعيم!

"واليوم ها هي تكتب لي رسالة - ليست من الرسائل التي تشبه التقارير. إنها تكتب لي من قلبها، بلغة يفهمها حتى صغيري موري. فاني مرهفة حيال كل شيء. تقول إن على الأولاد أن يتابعوا ثقافتهم لكن تأمين المصروفات يقلقها. سيكلف ارسال موري إلى المدرسة ألف دولار. وطبعاً سينال مو منحة دراسية؛ أما موري الصغير، هذا العبقرى الصغير، فماذا سنفعل لأجله؟ وكتبت لفاني أقول لها أن لاتقلق. قلت لها، ارسلني موري إلى المدرسة. وماذا يهم ألفاً أخرى من الدولارات؟ سأكسب هذا العام نقوداً أكثر مما كسبت في أي وقت مضى. سأقوم بهذا إكراماً للصغير موري - لأنه عبقرى، هذا الولد".

أود لو أكون هناك عندما تفتح فاني الصندوق. انظري يا فاني ماذا ابتعت لك من بوخارست، من يهودي عجوز.... هذا ما يلبسون في بلغاريا - إنه صوف صرف.... وهو يخص دوق إحدى المقاطعات - لا، لا تلفيه بل عرضيه للشمس.... أريدك أن تلبسي هذا، يا فاني، حين نذهب إلى دار الأوبرا.... ارتديه مع المشط الذي أريتك.... وهذا، يا فاني، شيء اختارته تانيا خصيصاً لي.... إنه يقرب من مقاسك...."

وفاني جالسة على المقعد، كحلتها التي اتخذتها في اللوحة المقلدة لها، مو إلى أحد حانبيها وموري الصغير، موري العبقرى، إلى الجانب الآخر. قدماها السمينتان قصيرتان لا تصلان إلى الأرض. ولعينيها وهج برمنغناتي باهت. ثدياها كملفوفتين حمراوين ناضحتين، يتفضان حين تنحني إلى الأمام. غير أن الشيء السيء فيها أن نسغها جف. تجلس كبطارية ميتة. وجهها لا يعطي تعبيره الصحيح - فهو بحاجة إلى قليل من الحيوية، لدفقة نسغ تعيده إلى مركزه. ومولدورف يتقافز أمامها كضفدع سمين لحمه يهتز. وجين ينزلق يصعب عليه بعدها أن ينقلب ثانية على بطنه. فتلكزه بأصابع قدميها الشحينة. وتنتأ عيناه قليلاً "ارفسيني أيضاً يا فاني، إنه لذيذ" وهذه المرة ترفسه رفسة جيدة - تترك انبعاجاً ظاهراً في بطنه. ويكون وجهه ملتصقاً بالسجادة، والزوايب في زغب نسيج البطانة تهتز. ويتفض ويتشقلب، ويقفز من قطعة أثاث إلى أخرى. "فاني، أنت رائعة"، وهو الآن يجلس على كتفها. ويقضم قطعاً صغيرة من أذنها، نتفة صغيرة من الشحمة التي لا تتأثر. لكنها لا تزال

ميتة - إنها بطارية مشحونة بلا نسغ. ويسقط في حجرها ويقبع وهو يرتحف وكأنه يعاني من ألم الأسنان. هو الآن دافئ تماماً ومستكين. بطنه تلمع مثل جلد حذاء لامع. في محجري عينيه زوج من أزرار بدلة رائعين. افتحي لي عيني يا فاني. أريد أن أراك بشكل أفضل!" وتحمله إلى السرير وتقطر له قطرات من الشمع الحار في عينيه. وتضع له حلقات حول سرتة ومقياساً للحرارة في شرجه. وتمدده ويرتجف من جديد. وإذا به فجأة يتضاءل، وينكمش حتى يغيب عن الأنظار. وتبحث عنه في كل مكان، في إمعانها، في كل مكان. شيء ما يدغدغها - ولا تعرف تماماً أين. السرير مملوء بالضفادع وبأزرار بدلة جميلة. "فاني، أين أنت؟". ثمّة ما يدغدغها - ولا تعرف تماماً أين، وتقع الأزرار عن السرير. الضفادع تتسلق الجدران. وتستمر الدغدغة وتستمر. "أخرجي الشمع من عيني يا فاني، أريد أن أنظر إليك!" لكن فاني تضحك، تتلوى من الضحك. ثمّة شيء داخلها، يدغدغها ويدغدغها. سوف تموت من الضحك إذا لم تعرف السبب. "فاني، إن الصندوق مملوء بالأشياء الجميلة. فاني، أسمعيني؟". "وفاني تضحك، تضحك كدودة سمينة. وبطنها منتفخة من الضحك. وساقها تترقان "يا لله، يا موريس، شيء ما يدغدغني.... ولا أستطيع منه فكاً كاً".

ها هو يوم الأحد! غادرت فيلابورغيز قبيل الظهر، حالما استعد بوريس لتناول طعام الغداء. غادرت المكان من قبيل الكياسة، لأنه من المؤلم حقاً أن يراني بوريس جالساً في المحترف بجوفٍ خاوٍ. لماذا لا يدعوني لمشاركته طعام الغداء، لا أعلم. ويقول إنه لا يستطيع تحملُ تفقّتي، لكن هذا ليس عذراً. مهما يكن، إنني حساس حيال الأمر. فإذا كان يؤلمه أن يأكل لوحده في حضوري فمن المحتمل أن يتألم أكثر إذا شاركته في وجبته. ولكن لا يخصني أن أحشر نفسي في شؤونه الخاصة.

وصلت إلى بيت كرونستادت وإذا بهم يأكلون أيضاً. فروحاً مع الأرز البري. تظاهرت أنني تناولت الطعام لتوي، ولكن كان بوسعي أن أنتزع الفروج من يد الطفل. وهذا ليس من قبيل الاحتشام الزائف - إنه نوع من الانحراف على ما أظن. سألوني مرتين إن كنت أود أن أشاركهم الطعام. لا، لا، لن أقبل حتى فنجان من القهوة بعد الوجبة. أنا كيّس، بحق! وعند رحيلي أقيت نظرة جانبية إلى العظام الملقاة في صحن الطفل - لا يزال عليها بعض اللحم.

أجوس متجولاً بلا هدف. نهار جميل - حتى الآن. شارع دو بوسي يضج بالحياة، يغص. الحانات مفتوحة حتى آخرها، والأرصفة ملأى بالدراجات. وأسواق اللحوم والخضار تضج بحركة دائبة. والأذرع محملة بالخضار الملفوفة بأوراق الجرائد. إنه يوم أحد كاثوليكي رائع - خلال الصباح، على الأقل.

منتصف الظهر وما أنا واقف بيطن خاوية عند التقاء كل هذه الأزقة

الملتوية التي تتصاعد منها روائح المأكّل. قبالي فندق لويزيان. وهو نزل قديم كئيب كان معروفاً لدى الشبان الفاسقين من شارع دوبوسي أيام زمان. فنادق وأطعمة، وأنا أتجول كمجذوم وسراطين تنهش أحشائي. في صباحات أيام الأحد تتلبس الحمى الشوارع. لا شبيه لهذا في أي مكان آخر، ما عدا ربما في الطرف الشرقي، أو حول ساحة تشاثام. شارع ليشوده بموج والشوارع تلتوي وتدور، وعند كل زاوية خلية نشاط جديدة. طوابير من الناس يحملون الخضراوات تحت أذرعهم، ينعطفون إلى هنا وهناك بشهيات واضحة جلية. لا شيء غير طعام، طعام، طعام. يجعل المرء يصاب بالهذيان.

أمرٌ بساحة فورستبورغ. تبدو مختلفة الآن، عند منتصف الظهيرة. حين مررت بها في أمسية فاتئة كانت مقفرة، مكفهرة، تسكنها الأشباح. في وسط الساحة أربع شجرات سوداء لم تزهر بعد. شجرات فكرية، تتغذى من حجارة الرصيف. مثل شعرت.س. إليوت. يا لله، لو أن ماري لورنسان^(٦) تخرج فتياتها السحاقيات إلى العراء هنا، إذن لكان أنسب مكان هن لممارسة علاقتهن. المكان مقعم بالروح السحاقية *tres lesbienne ici*. مجذب، هجين، جاف كقلب بوريس.

في الحديقة الصغيرة الملحقة بكنيسة القديسة جيرمين بضعة ثمائيل الكرغل منزوعة من أماكنها. وهي وحوش ناتئة إلى الأمام باندفاع مرعب. وعلى المقاعد وحوش أخرى — عحائز، وبلهاء، ومقعدون، ومصروعون. يغفون بهدوء بانتظار أن يقرع جرس العشاء. وفي معرض ذاك الكائن في الطرف الآخر من الشارع رسم أحد البلهاء صورة للكون - مسطحاً. إنه كون خاص برسام مملوء بالبقايا، *bric -a- brac*. في أسفل الزاوية اليسرى مرساة - وجرس عشاء. مرحباً مرحباً أيها الكون!

ولا أزال أجوس. في منتصف الظهيرة. وأحشائي تفرقع. بدأت تمطر الآن. تنهض بوتردام كحدث من الماء. والكراغل تمد رؤوسها أكثر عبر ابريم الواجهة. معلقة هناك كفكرة ثابتة *idee fixe* في دهن ممسوس أحادي. ثمة رجل عجوز بسالفين أصفرين يقترب مني. يحمل شيئاً تافهاً بيده. يأتي نحوي

(٦) - ماري لورنسان: رسامة فرنسية (١٨٨٥ - ١٩٥٦).

مرفوع الرأس والمطر يغسل وجهه محولاً الرمل الذهبي إلى طين. وعمل لبيع الكتب على واجهته بعض رسوم راؤول دوف^(٧). دراسة حول فلسفة خوان ميرو^(٨) أقول فلسفة، لا تنس!.

في الواجهة نفسها: كتاب "رجل مقطع إلى شرائح". الفصل الأول: الرجل في نظر عائلته. الفصل الثاني: الرجل نفسه في نظر عشيقته. الفصل الثالث: - لا فصل ثالث. يجب أن أعود غدا لأرى الفصل الثالث والرابع. في كل يوم يفتح الرجل الذي يرتب المعروضات صفحة جديدة. "رجل مقطع إلى شرائح" لا يمكنك أن تتصور كم أنا حائق لأنني لم أفكر في عنوان كهذا! أين هو ذاك الذي يكتب هكذا "الرجل نفسه في نظر عشيقته ... الرجل نفسه في نظر نفس...؟" أين هو هذا الشاب؟ من هو؟ أريد أن أعانقه. أتمنى من المسيح لو كان لدي عقول تكفي للتفكير في عنوان كهذا - بدلاً من "الأير المجنون" والأشياء البلهاء الأخرى التي ألفقها. حسن، أير في كل شيء! أهنته على كل حال.

أتمنى له التوفيق مع عنوانه الرائع. هاك شريحة أخرى - لكتابك القادم اتصل بي يوماً. أنا أقطن في فيلا بورغيز. نحن جميعاً موتى، أو غوت، أو نوشك أن غوت. نحتاج إلى عناوين جيدة. نحتاج إلى لحم - إلى شرائح وشرائح من اللحم - شرائح طرية طيبة، شرائح لحم البقر، أكباد، أصداف الجبل، بنكرياس العجل. ويوماً ما، حين سأقف عند تقاطع الشارع الثاني والأربعين مع برودواي، سأذكر هذا العنوان وسأدون كل ما يجول في خاطري - كافيار، حبات مطر، شحم محور الدرلاب، شعيرية، حشيشة الكبد - شرائح وشرائح منها. ولن أخبر أحداً لماذا، بعد أن دونت كل شيء، عدت إلى البيت وقطعت الطفل إرباً. إن التقطيع إلى شرائح عمل لا مبرر له بالنسبة لك يا سيدي العزيز^(٩).

أما كيف يمكن لرجل أن يهيم على وجهه طوال النهار بجوف فارغ،

(٧) - راؤول دوفي: رسام فرنسي (١٨٧٧ - ١٩٥٣).

(٨) - خوان ميرو: رسام إسباني ومحات.

(٩) - العبارة الأخيرة وردت باللغة الفرنسية في الأصل.

ومع ذلك يحصل لديه انتصاب أحياناً، فهذا أحد الألغاز التي تجد لها بسهولة شديدة تفسيراً لدى "علماء تشريح الروح". بعد ظهيرة يوم أحد، حين تكون التوافد مغلقة والبروليتاريا يسكنون الشوارع في نوع من الخدر الأبكم، تبقى هناك شوارع معينة تذكر المرء بلا أقل من أير ضخمة مقترح مطروح بارتياح طولاني كامل. وهذه الشوارع بالذات، كشارع القديس دنيز، متلاً، أو بوفور دو تيمبل - هي التي تجذب المرء بشكل لا يقاوم، كما في أيام زمان، حول ساحة الاتحاد أو المناطق القريبة من الباوري، فيجد نفسه متجهاً إلى المتاحف المقبضة حين تعرض في الواجهات نسخ من الشمع لأعضاء جديدة من الجسم أكلها السفلس وأمراض تناسلية أخرى. وتنامي المدينة ككائن حي مصاب بالمرض في كل جزء منه، والشوارع الجميلة ليست أقل إثارة للاشمئزاز إلا قليلاً لأنها تخلصت من صديدها.

توقفت بضع دقائق عند السيتة بورتية، قرب ساحة كومبا، لأتناول مشروباً وسط قذارة المشهد. هو قناء مستطيل من الأبنية المتداعية هي من الاهتراء بحيث انهار بعضها على بعض وشكلت نوعاً من العناق العمودي. الأرض غير مستوية، وحجارة الرصيف اللوحية زلقة من الطين. هي أشبه بركام من البقايا الانسانية المشبعة بالرماد والنفاية الجافة. الشمس تسرع بالمغيب. والألوان تموت. تتحول بسرعة من القرمزي إلى لون الدم الجاف، من لون عرق اللؤلؤ إلى لون السخام، من تدرجات اللون الرمادي الميتة إلى لون براز الحمام. وهنا وهناك يقف وحش منكفىء من النافذة يرف عينيه كبوم. ويسمع زعيق حاد من أطفال ذوي وجوه شاحبة وأطراف نحيلة، أولاد أقزام هزيلون معلمون بالكلايات. ومن الجدران يتزعج النتن، عبق حشوة يسربها العفن الفطري. إنها أوروبا - القرون الوسطى، العجائية، المهولة: هي سيمفونية من مقام بي - مول. وعبر الشارع مباشرة تلفظ دار سينما كومبا زبائنها المميزين الخاصين بالمدينة الكبرى.

في طريق عودتي أستعيد في ذهني محتويات كتاب كنت أقرأه منذ مدة قريبة. "كانت المدينة أشبه بمسلخ، قثمة جثث، شوهاها الجزارون وعراها النهاب، تتمدد مكتنزة في الشوارع، وتسلت ذئاب من الضواحي لتأكلها،

وزحف الموت الأسود وأوبئة أخرى لتلازمها، وأنت جحافل الانكليز تتقدم، في حين دوّمت رقصة الموت danse macabre حول القبور في جميع المقابر... "إنها باريس أيام شارل الأبله! كتاب ممتع! منعش شهيق. لا زلت مفتوناً به. إني لا أعرف إلا القليل عن سادة عصر النهضة وعوارضه، لكن مدام بيمبرتل، بائعة الخبز la belle boulangere الجميلة، والسيد جيان كرابوت، الحداد l'orbe've، لا يزالان يشغلان ما تبقى لدي من أفكار. ولا أنسى رودان، الذي يمثل عبقرية اليهودي التائه the wandering jew الشيطانية، الذي مارس أساليبه الشائنة "إلى أن جاء يوم ألهمت فيه سيسيلي الثمن - زنجية مشاعره وفاقة دهاء. وبينما أجلس في ساحة المعبد، أتأمل في ما يفعله تجار الخيول يقودهم جان كابوش، رحت أفكر ملياً وبكآبة في المصير المؤلم لشارل الأبله. كان نصف مجنون يجوس ردهات فندق القديس بولس الذي يملكه، مرتدياً أكثر الأسمال قذارة، وقد نهشته القروح والهوام، فإذا رموا له عظمة أخذ يلتهمها، ككلب أجرب. في شارع ليون بحثت عن الطاولات الحجرية في معرض الحيوانات القديم حيث أطعم حيواناته المدللة مرة. كانت تسليته الوحيدة، ذاك الأبله المسكين، إلى جانب ألعاب الورق مع رفيقته الوضيعة "أوديت دي شانديفر".

بعد ظهر يوم أحد، أشبه بهذا اليوم، قابلت جيرمين لأول مرة. كنت أتسكع على طول شارع بومارشيه، غني بمائة فرنك أو نحوها أرسلتها لي زوجتي بسرعة مسعورة من أميركا. كان في الجو لمسة من ربيع، ربيع سام، مهلك كأنه منبعث من منافذ المجارير. كنت أتردد إلى هذه الناحية ليلة بعد أخرى. ينجذبني إليها شوارع جذامية معينة لا تظهر روعتها المشؤومة إلا بعد أن يرتد ضوء النهار منسحباً وتبدأ المومسات باتخاذ مواقعهن. وشارع باستور - فاغفر أذكركه بشكل خاص. وبالتحديد زاوية شارع إميلو التي تختبئ خلف البولفار مثل سحلية ناعسة. هنا، وعند عنق الزجاجة، إن صبح التعبير، كانت تقف دائماً مجموعة من النسور تنعب وترف أجنحتها القذرة، تمد إليك مخالبها الحادة وتقحمك داخل الباب. إنهن شيطانات مرحات جشعات لا يفسحن لك مجالاً لترور بنطالك حتى بعد أن تنتهي. تقودك إحداهن إلى غرفة صغيرة بعيدة عن الشارع، غرفة بلا نوافذ عادة. وبعد أن تجلس على

طرف السرير مرفوعة الثوب تلقي عليك نظرة سريعة متفحصة، وتخرج أيرك نياية عنك. بينما أنت تغتسل تنتظر أخرى عند الباب، وهي تقبض على ضحيتها بيدها، تراقبك بلا مبالاة وأنت تضع لمساتك الأخيرة على هندامك.

أما جيرمين فكانت مختلفة. لم يكن في مظهرها ما ينبئ عن سلوكها. ولا شيء يميزها عن بقية العاهرات اللواتي كن يجتمعن بعد ظهر ومساء كل يوم في مقهى الفيل. وكما أقول، كان نهارا ربيعيا والفرنكات التي سعت زوجتي جاهدة لترسلها إليّ ترن في جيبي. وقد تملكني شعور مسبق مفاده أنني لن أصل إلى الباستيل إلا بعد أن تجرني إليه إحدى تلك الصقور. لاحظتها وأنا أتمشى على طول البولفار وهي تتجه نحوي بتلك الخطوة الحذرة الغريبة الخاصة بعاهرة، والأرجل المرهقة والمجوهرات الرخيصة والنظرة الشاحبة المقتصرة على مثيلاتها، وكل ما يفعله أحمر الشفاه هو أن يؤكد عليها ويرزها. ولم يكن صعبا الاتصال بها. جلسنا في مؤخرة محل بيع التبغ يسمى الفيل. واتفقنا بسرعة. وخلال بضع دقائق كنا داخل غرفة الخمس فرنكات في شارع إميلو، الستائر مسدلة والأغطية مكشوفة. جيرمين لم تستعجل الأمور. جلست على المرحاض bidet تنظف نفسها وتحديثني بصفاء عن هذا الأمر أو ذاك، وأبدت إعجابها بالبنطال القصير الذي كنت أرتديه. أتيق جداً tre's chic، هكذا قالت. كان أتيقا مرة، لكن مقعدته اهترأت، ولحسن حظي كانت السترة تغطي مؤخرتي. ولما نهضت لتجفف نفسها، وهي ما تزال تحديثني بصفاء، إذا بها فجأة ترمي المنشفة وتتقدم مني بليوننة، وتبدأ بفرك كسها بانفعال، وتضرب عليه برقة بكلتا يديها، تداعبه، تربته، وتربته. في تلك اللحظة كان هناك شيء خاص في بلاغتها، في طريقتها في إقحام شجيرة الورد تلك تحت أنفي لا يمكن أن ينسى. كانت تتكلم عنه وكأنه شيء غريب اكتسبته مقابل ثمن باهظ، كشيء ازدادت قيمته بمرور الزمن حتى صارت الآن تضعه فوق كل اعتبار في العالم. شبعته كلماتها بعبير خاص، ولم يعد مجرد عضوها التناسلي الخاص، بل كنز، كنز سحري، مكنون، هبة من الله. لا أقل من هذا لأنها كانت تتاجر به على مر الأيام مقابل بضع قطع من الفضة. ثم انطرحت على السرير، متباعدة الساقين حتى آخرهما، وفتحتة على شكل كوب بكلتا يديها ولاطفته من جديد، وكانت طوال الوقت

تهمهم بصوتها الأجلش المبحوح قائلة: إنه جيد، جميل، كثر، كثر صغير. وقد كان جيداً حقاً، كسها الصغير ذاك! وفي يوم الأحد المذكور، بأنفاسه السامة الربيعية التي تفعم الجو، نجح كل شيء ثانية. وبعد أن غادرنا الفندق نظرت إليها من جديد تحت ضوء النهار القاسي، ورأيت بوضوح كم كانت عاهرة - الأسنان الذهبية، وزهرة الجيرانيوم في قبعتها، والأرجل المرهقة، إلخ، إلخ. ولم يسبب لي أدنى إزعاج كونها سلبت مني ثمن وجبة عشاء وسجائر وأجرة التاكسي. بل لقد شجعتها على ذلك، في الحقيقة. أعجبتني كثيراً إلى درجة أنني بعد العشاء عدت ثانية إلى الفندق وقذفتها. هذه المرة "من أجل الحب"، ومرة أخرى عمل ريعان ذاك الشيء الكبير الكث خاصتها وسحره عمله. بدأ يكتسب وجوداً مستقلاً - بالنسبة لي أيضاً. كانت هناك جيرمين وكانت هناك شجيرة الورد خاصتها. أحبيتهما منفصلين وأحبيتهما مجتمعين.

وكما أقول، كانت جيرمين مختلفة. وبعد ذلك، حين اكتشفت حقيقة ظروفي، راحت تعاملني بنبل - أغدقت علي الشراب، وأولتني ثقتها، ورهنت أغراضي، وقدمتني إلى أصدقائها، وما إلى ذلك. بل لقد اعتذرت لأنها لم تقرضني نقوداً، وتفهمت موقفها تماماً بعد أن أبرزت لي سمكتها الاسقمرية. وليلة بعد ليلة رحت أطرق بولفار بومارشيه متوجهاً إلى دكان بيع التبغ الصغير حيث يجتمع جميعاً وانتظرها لتدخل وتهبني بضع دقائق من وقتها الثمين.

حين كتبت عن كلود فيما بعد، كنت أضع في ذهني جيرمين وليس كلود.... "لقد ضاجعت كل الرجال والآن تضاجعك، أنت فقط، وتمر مراكب، بسواريتها وهياكلها، ويتدفق تيار الحياة اللعين كله من خلالها، من خلالها، من خلال كل الذين أتوا من قبلك وسيأتون من بعدك، والأزهار والعصافير والشمس تنهمر ويخفق عيبرها، يعدمك". كان هذا إكراماً لجيرمين! كلود لم تكن مثلها، مع أنني أعجبت بها كل الإعجاب - بل لقد اعتقدت لبعض الوقت أنني أحبتها. كلود لها روح وضمير، وتمتع بكياسة أيضاً، وهذا أمر سيء - بالنسبة لعاهرة. كانت كلود تنطوي دائماً على شعور بالحزن، تترك لديك انطباعاً، بلا قصد طبعاً، بأنك مجرد شخص آخر

مضاف إلى الدفق الذي قضى القدر بتدميرها به. أقول "بلا قصد" لأن كلود كانت آخر إنسان في العالم يمكن أن يثير عن وعي صورة كهذه في الذهن. لهذا السبب كانت فائقة الرهافة، شديد الحساسية. في أعماقها كانت مجرد فتاة فرنسية طيبة من منشأ متواضع وتتحلى بذكاء متوسط خدعتها الحياة بصورة ما، فيها شيء ليس متيناً بما يكفي لجعلها تصمد في وجه صدمة تجربة الحياة اليومية. لقد كانت هي المقصودة بتلك الكلمات الرهيبة التي قالها لوي - فيليب "وذاً ليلة ينتهي كل شيء، حين تطبق فكوك كثيرة علينا حتى لا تعود لدينا الشجاعة الكافية للصمود، ويتهدل لحمنا على أجسادنا، وكأن كل الأفواه مضغته". أما جيرمين، من ناحية أخرى، فكانت عاهرة من المهد، راضية عن دورها، وتستمتع به في الواقع، إلا عندما تؤلمها بطنها أو يهترىء حذاؤها، وأشياء صغيرة تافهة لا أهمية لها، ليس منها ما يؤثر على روحها، أو يسبب لها العذاب. أما الملل! فهو أسوأ ما شعرت به. ولا شك أنه مرت عليها أيام شعرت خلالها بالشبع، كما نقول - ولكن لا أكثر من ذلك! لقد استمتعت بعملها في أغلب الأحيان - أو أوهمت الآخرين بهذا. والأمر يختلف طبعاً حسب الشخص الذي تنهب، أو تأتي معه. أما الشيء الأساسي فهو أن يكون رجلاً. رجلاً هذا ما تشوق إليه. رجل مع شيء بين ساقيه يمكنه أن يدغدغها، يجعلها تتلوى من النشوة، يجعلها تقبض على عشاها الكث بكلتا يديها وتفركه باستمتاع، بتباه، بفخر، ومع حس الاتصال، والحياة - كان ذاك هو المكان الوحيد الذي تمارس فيه أي شكل من أشكال الحياة - هناك حيث تتشبث بنفسها يديها الاثنتين.

كانت جيرمين عاهرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وحتى أعمق أعماق قلبها الطيب، قلبها العاهر، الذي ليس طيباً حقاً بل كسول، لا مبال، قلب مترهل يمكن أن يتأثر لحظة، قلب لا علاقة له بأية نقطة داخلية ثابتة، قلب عاهرة، مترهل يمكنه أن ينفصل لحظة عن مركزه الحقيقي. ومهما كان العالم الذي خلقتة لنفسها وضعياً ومقيداً فقد أدت فيه عملها بشكل رائع. وهذا يحد ذاته شيء منشط. وبعد أن تمتت علاقتها، وحين كانت رفيقاتها يسخرن مني قائلات أنني أحب جيرمين (وهو وضع غير مفهوم لديهن)، كنت أقول "طبعاً! طبعاً! أنا أحبها! بل أكثر من هذا، سأكون وفيّاً لها!"

وهذه كذبة طبعاً، لأنني لم أتمكن من التفكير في عشق جيرمين إلا بقدر ما أفكر في عشق عنكبوت، وإذا كنت وفياً يوماً، فوفائي لم يكن لجيرمين بل لذلك الشيء الكث الذي تحمله بين ساقيهما. وكلما نظرت إلى امرأة أخرى أفكر على الفور بجيرمين، بذلك الدغل الملهب الذي خلفته في ذهني وبدا كأنه ذكرى لا تمحي. كان من دواعي سروري أن أجلس على مصطبة *terrasse* دكان التبغ لأراقبها وهي تمارس تجارتها يجد واجتهاد، أراقبها وهي تلجأ إلى تعابير الوجه نفسها، الخدع نفسها التي تمارسها معهم ومعني على قدم المساواة. "إنها تؤدي عملها" - هكذا كنت أشعر نحوها، وكنت أنظر إلى صفقاتها التجارية بعين الاستحسان. بعد ذلك، حين بدأت علاقتي مع كلود، ورأيتها ليلة بعد أخرى تجلس في مكانها المعتاد، وردفاها الصغيران المستديران الريانان المستكينان على المقعد المترف، شعرت بنوع من الثورة يعصبي على الوصف نحوها، بدت لي مجرد عاهرة، لا يحق لها الجلوس هكذا وكأنها سيدة محترمة، تنتظر بخوف شخصاً ما ليقترّب وأثناء كل هذا ترشف شراب الشوكولاتة *chocolat* الذي أمامها باعتدال. أما جيرمين فكانت تتحرش بالرجال. لم تكن تنتظر حتى تأتي إليها، بل هي التي تخرج وتتشبث بك. لا زلت أذكر الثقوب في جواربها، والحذاء البالي الممزق: أذكر أيضاً أنها كانت تجلس إلى البار وترمي بالشراب داخل جوفها بثقة عمياء شجاعة، ثم تخرج من جديد. إنها متهتكة! وربما لم يكن من المتع شم أنفاسها الكريهة، تلك الأنفاس المكونة من القهوة الرديئة والكونياك، والمشهيات *ape'ritifs*، والبرنو، وكل الأشياء التي تزدردّها في أوقات الاستراحة، بعضها لتدفئها ومنها ليستنهض فيها القوة والشجاعة، لكن ناراها كانت تخرقها، وتلهب ما بين ساقيهما حيث يجب على النساء أن يلتھن، وهناك تركزت تلك الدارة التي تجعل المرء يشعر بالأرض ثابتة تحت قدميه من جديد. وحين كانت تستلقي هناك متباعدة الساقين تئن، ومع أنها كانت تئن لكل عابر سبيل، إلا أنه كان ممتعاً، كان عرضاً رائعاً للمشاعر. لم تكن تمحق إلى السقف بنظرة خاوية أو تعد عث الفراش على ورق الجدران، بل كانت تركز انتباهها على شغلها، تتحدث عن الأشياء التي يحب الرجل أن يسمعها وهو يمتطي امرأة. في حين أن كلود - في الواقع مع كلود كان ثمة دائماً رهاقة معينة، حتى بعد أن تنزلق

معها تحت الملاءات. ورهافتها تهين. من يرغب في عاهرة مرهفة delicate كلود تطلب منك أيضاً أن تدبر وجهك عندما تجلس القرفصاء على المرحاض. كل شيء خطأ معها! فحين يكون الرجل متحرقاً اشتياقاً إنما يريد أن يرى ما يجري، يريد أن يرى كل شيء، وحتى كيف يتبولن. ومع أنه جميل جداً أن تعرف أن للمرأة عقلاً، فالأدب literature الصادر عن جثة عاهرة باردة هو آخر ما يجب أن يقدم في السرير. إن فكرة جبرمين هي الأصوب: كانت جاهلة وشبهة، تضع قلبها وروحها في عملها. كانت عاهرة قلباً وقالباً - وهذه هي فضيلتها.

حل عيد الفصح كأرنب متجمد - لكن السرير كان دافئاً تماماً. هذا اليوم أيضاً هو نهار آخر جميل وعند الفجر يبدو شارع الشانزليزيه كله أشبه بخلوة حريم السلطان مختنقة بالحسان الحور. الأشجار بكامل ازدهارها وانخضارها شديد النقاء، والغنى، وكأنها لا تزال مندأة تشالاً بالندى. والطريق من الباليه دو لوفر إلى الأتوال أشبه بقطعة موسيقية للبيانو. لم أقرب الآلة الكاتبة منذ خمسة أيام ولا نظرت في كتاب، ولا احتفظت بفكرة واحدة عدا الذهاب إلى الأميركان اكسبريس. اليوم وصلتُ إلى هناك في التاسعة صباحاً لحظة فتح أبوابه، وعدت إليه في الواحدة أيضاً. لا أخبار. في الرابعة والنصف انطلق من الفندق، وقد قررت أن أقوم بآخر محاولاتي. وحالما أنعطف عند الزاوية اصطدم بوالتر باتش. وبما أنه لم يتعرف عليّ، وبما أنه لم يكن لديّ ما أقوله له، لم أحاول استيقافه. بعد ذلك، حين جلست في التولييري أمدد ساقي ترددت قامته على ذهبي. كان منحني الظهر قليلاً، كثير التأمل، وترتسم على وجهه ابتسامة هادئة متحفظة. تساءلت وأنا أنظر إلى السماء المصقولة بنعومة، المظلمة بألوان باهتة، والتي لا تجللها اليوم سحب الأمطار الغزيرة بل تبتسم كقطعة من الصيني العتيق، وأتساءل ما الذي يدور في خلد هذا الرجل الذي ترجم المجلدات الأربعة السميكة لكتاب "تاريخ الفن"، وهو يشمل هذا الكون المبارك بعينه الواهنة.

تتصبب الأفكار مني كالعرق وأنا أسير على طول الشانزليزيه. كان يجب أن أكون ثرياً بما يكفي لأحصل على سكرتيرة أمني عليها وأنا أمشي،

لأن أفضل أفكارى تأتي دائماً وأنا بعيد عن الآلة الكاتبة.

وأتابع سيرى فى الشانزليزيه وأنا أفكر فى صحفى المذهلة حقاً. وعندما أقول "صحة" أعني التفاؤل، الصدق. يا لى من متفائل لا يمكن شفاؤه! لا أزال أضع قدماً فى القرن التاسع عشر. إننى متخلف قليلاً، ككل الأميركيين. كارل يجد هذا التفاؤل مقززاً للنفس. يقول "يكفينى أن أتحدث عن الوجبة حتى تتورداً" وهذا صحيح. فبمجرد التفكير فى وجبة - وجبة "أخرى" - يعيد إلى النشاط. وجبة! وهذا يعنى حافظاً على الاستمرار - بضع ساعات كاملة من العمل، وربما انتصاب. لا أنكر هذا. صحفى تامة، جيدة، ومتينة، صحة حيوان. الشيء الوحيد الذى يقف حائلاً بينى وبين المستقبل هو وجبة، وجبة "أخرى".

أما بالنسبة لكارل فهو ليس على ما يرام هذا الأيام. إنه مضطرب، وأعصابه متوترة. يقول إنه مريض، وأنا أصدقه، لكنى لست قلقاً عليه.

ليس "ييدي". الواقع أن أمره يضحكنى. وهذا يجعله يشعر بالمهانة طبعاً. كل شيء يجرح شعوره - ضحكى، جوعى، مثابرتى، لا مبالأتى، "كل شيء". يريد أن ينسف دماغه يوماً ما لأنه لم يعد يستطيع أن يتحمل هذه البؤرة القذرة المسماة أوروبا، وفى اليوم التالى يتحدث عن الذهاب إلى أريزونا "حيث ينظر الناس إليك إلى عينك مباشرة".

أقول "هيا افعل! افعل شيئاً مهما كان، يا ابن الحرام، ولكن لا تحاول أن تغيم على بصيرتى الصحيحة بنفسك الكتيب!".

لكنه لا يحرك ساكناً ففى أوروبا يعتاد المرء على البطالة. تجلس على مؤخرتك وتتنحب طوال النهار. وتفسد، وتغفن.

كارل نفاج أساساً، أير صغير ارسقراطى يعيش فى مملكة جنون بياكر dementia praecox خاصة به فقط. ويثن "كم أكره باريس! وكل هؤلاء الناس البلهاء، الذين يلعبون الورق طوال النهار... أنظر إليهم والكتابة! ما الفائدة من وضع الكلمات مع بعضها؟ أستطيع أن أصبح كاتباً دون أن أكتب، ألا أستطيع؟ ماذا تبرهن كتابتى كتاب؟ ماذا تريد من الكتب على أية حال؟ لقد أصبح لدينا الكثير من الكتب..."

يا عيني، لكني مررت بكل هذا - قبل سنين عديدة. عشت شبابي
الكثيب حتى التماله. ولم أعد آبه لما خلفت ورائي، ولما هو آت أمامي.
صحتي ممتازة. ممتازة بشكلٍ مطلق. لا أحزان، لا ندامات. لا ماضٍ، لا
مستقبل. يكفي الحاضر. يوماً بعد يوم. وهذا اليوم! يا لهذا اليوم ما أجمله!
le bel aujourd'hui.

لكارل يوم عطلة واحد في الأسبوع، وفي هذا اليوم يكون أشدُّ بؤساً من
أي يوم آخر من أيام الأسبوع، إذا استطعت تصور الوضع. وعلى الرغم من
أنه يعلن احتقاره للطعام، فإن طريقته الوحيدة للاستمتاع في يوم عطلته هي
أن يطلب مدَّ وليمة عامرة له. ربما يفعل هذا لصالحه - لا أدري، ولا أسأل.
إذا أراد أن يضيف صفة الشهادة إلى آثامه، فليفعل - لا مانع عندي. مهما
يكن، يوم الثلاثاء الماضي، وبعد أن بدد كل ماله على الوليمة، قادني إلى
مقهى الدوم، وهو آخر مكان في العالم أذهب إليه في يوم عطلي. لكن المرء
ليس فقط يعتاد على هذا المكان - بل وينطرح فيه أرضاً.

على بار مقهى الدوم يقف مارلو، غارقاً في السكر حتى أذنيه. ومنذ
خمسة أيام وهو في حالة مرح صاخب، كما يقول. وهذا يعني سُكراً مستمر،
انتقال من حانة إلى حانة، نهائياً وليلاً دون انقطاع، وأخيراً الانطراح في
المستشفى الأميركي، ووجه مارلو الناتئ العظام الهزيل ما هو إلا جمجمة
يخترقها محجران دفن فيهما زوج من الأسماك الصدفية الميتة. ظهره مغطى
بالنشارة - فقد أغفى لتوه قليلاً وهو في المرحاض. إنه يحمل في جيب معطفه
البروفات الطباعية للنسخة التالية من مجلته النقدية. يبدو أنه كان في طريقه إلى
الطابع ليعطيه البروفات حين أغواه أحدهم بشرب كأس. وهو يتكلم عن الأمر
وكأنه وقع قبل أشهر. ويخرج البروفات وينشرها على البار فإذا بها ملطخة
بيقع القهوة والبصاق الجاف. ويحاول أن يقرأ قصيدة كتبها باليونانية، لكن
البروفات غامضة لا يمكن فك طلاسمها. ومن ثم يقرر أن يلقي خطاباً،
بالفرنسية، لكن المدير gerant يوقفه عند حده. مارلو مستاء: طموحه الوحيد
هو أن يتحدث بفرنسية يمكن "لولد" أن يفهمها. أما اللغة الفرنسية القديمة فهو
ضليع بها، ومن نتاج السورباليين قدم ترجمات ممتازة، أما قول شيء بسيط مثل

"ارحل من هنا، أيها الأير العجوزا" - فيفوق طاقته. لا أحد يفهم لغة مارلو الفرنسية، ولا حتى العاهرات. لهذا يصعب فهم لغته الانكليزية وهو على هذه الحال. ويروح يثرثر ويصق وكأنه مصاب بتأتأة مزمنة... دون أن يربط جملة رابط. أما الجملة التي يلفظها بطلاقة فهي "ادفع أنت!".

حتى لو احترق من أسفل قدميه إلى قمة رأسه، تبقى لديه غريزة بقاء رائعة تنذره بالوقت المناسب للتصرف. وإذا خامره أي شك حول من سيدفع له ثمن المشروب فسيعمل بلا شك على القيام بأكثر التصرفات براعة. وعادة يدعي العمى. والآن بات كارل يعرف كل الأعيه، وحالما يضغط مارلو على صدغيه ويبدأ بالتمثيل يكيل له كارل رفسة على قفاه قائلاً: "أخرج من هذه الألعيب، يا غليظ! لن تنطلي علي!".

لا أدري إن كان يروم انتقاماً ذكياً أم لا، لكن مارلو كان دائماً يرد له الصاع صاعين في كل الأحوال. ويروي لنا وهو يميل علينا بود وبصوت أجش خشن حائباً من الترترة التي سمعها أثناء ارتحاله من حانة إلى أخرى. وينظر إليه كارل مذهولاً، شاحباً وحتى أسفل خياشيمه. ويكرر مارلو القصة مع التتويجات. وفي كل مرة يزداد وهن كارل. وأخيراً ينفجر قائلاً: "لكن هذا مستحيل" وينعق مارلو "لا ليس مستحيلاً ستخسر عملك... ها أنا أقول لك"، وينظر إليّ كارل بيأس، ويهمس في أذني "هل يسخر مني، ابن الحرام هذا؟" ثم بصوت عال: "ماذا أفعل الآن؟ لن أجد عملاً آخر أبداً. لقد استغرق مني الحصول على عملي الحالي عاماً كاملاً".

من الواضح أن هذا هو كل ما كان مارلو ينتظر سماعه. وها قد وجد أخيراً من هو أسوأ منه. وينعق، وجمجمته الناتئة تتوهج بنار باردة، مكهربة "ستكون أوقاتاً عصيبة!".

لدى مغادرتنا الدوم يصرح لنا مارلو بين الفواقات أن عليه أن يعود إلى سان فرانسيسكو. ويبدو متأثراً بحق الآن من عجز كارل. ويقترح أن أقوم مع كارل بتولي أمر مجلته النقدية أثناء غيابه. ويقول: "أنا أثق بك يا كارل". وإذا به فجأة يتعرض لنوبة، نوبة حقيقية هذه المرة، ويكاد يغوص في أحد الجحارير. ونجّره إلى المقهى الصغير الكائن في بولفار ادغار - غينه ونجلسه على الكرسي.

هذه المرة أصابته حقيقة - صداد عنيف يصرخ ويئن ويهز جسمه جيئة
وذهاباً كوحش أخرس ضرب بمطرقة مزجلة. وبصب كأسين من الفيرنه -
برانكا في حنجرتة، ومدده على المقعد ونغطي عينيه بلفاعة. ويرقد أنا. وبعد
برهة قصيرة نسمع شخيرته.

يقول كارل "وماذا عن عرضه؟ هل تقبله؟ يقول إنه سيعطيني ألف فرنك
عند عودته. أعلم أنه لن يفعل، ولكن ما رأيك؟" وينظر إلى مارلو الممدد على
المقعد، ويرفع اللقاع عن عينيه ثم يعيده ثانية. وفجأة تضییء وجهه ابتسامة
عريضة خبيثة. يقول: "اسمع يا جو" وهو يطلب مني أن أقترّب "سوف نتولى
الأمر، سوف نتولى أمر محلته القدرة وبعدها ننيكه كما يجب"
"وماذا تعني؟"

"ولم الخيرة سوف نتخلص من جميع المساهمين الآخرين ونملأها بخرائنا
نحن - هذا ما أقصد!"

"نعم، ولكن أي نوع من الخراء؟"

"أي نوع ... لن يتمكن من عمل أي شيء حياله. سنيكه كما يجب.
ونصدر عددا ممتازا ثم ينتهي أمر المجلة. هل تشترك معي يا جو؟".

نرفع مارلو ليقف على قدميه ونحن نضحك ونقهقه ونسحبه إلى غرفة
كارل. وحين ندير مفتاح النور نجد أن في السرير امرأة تنتظر كارل، ويقول
كارل "لقد نسيتها". ونتخلص من العاهرة ونلقي مارلو إلى السرير. بعد
دقيقة أو نحوها يقرع الباب، إنه فان نوردن. مهتاج جدا. لقد فقد طقم
أسنانه - في البال بيغر، كما يظن. على أية حال، نأوي إلى السرير جميعاً.
وتفوح من مارلو نثانة تشبه رائحة السمك المدخن.

وفي الصباح يذهب مارلو وفان نوردن لبيحثا عن طقم أسنانه. ومارلو
يتعجب، فهو يظن أن الطقم له.

هذا آخر إفطار أتناوله في بيت الكاتب المسرحي. استأجروا لتوهم ينانو جديداً، من النوع الكبير. أقابل سيلفستر وهو خارج من محل لبيع الأزهار ويحمل نباتا اصطناعياً بين ذراعيه ويطلب مني أن أحمله نيابة عنه قليلاً ريثما يشتري سيجاراً. لقد حرمت من وجباتي المجانية التي خططت بتأن لأحصل عليها. وتخلّى عني الأزواج أو الزوجات تدريجياً. وبينما أنا أسير والنبات الاصطناعي بين ذراعي أتذكر تلك الليلة قبل بضعة أشهر عندما خطرت لي الفكرة لأول مرة. كنت أجلس على مقعد قرب الكوبول، أتلمّس خاتم الزواج الذي حاولت رهنه لدى الجرسون في مقهى الدوم. دفع لي يومها ستة فرنكات وانفجرت غاضباً. لكن البطن كانت لها اليد الطولى. فمنذ أن غادرت مونا وأنا أضع الخاتم في أصبعي الصغير. كان عزيزاً عليّ فلم أفكر في بيعه. وكان على شكل براعم لزهور الرتقال من الذهب ذي اللون الأبيض. كان يساوي في أحد الأيام دولاراً ونصف الدولار، وربما أكثر. عشنا بدون خاتم زواج مدة ثلاث سنوات إلى أن كان يوماً مررت بواجهة أحد محلات الصاغة المزدهمة بخواتم الزواج في ميدان لين وأنا في طريقي إلى رصيف الميناء لأقابل مونا. وحين بلغت المكان لم تكن مونا قد وصلت، وانتظرت حتى نزل آخر مسافر إلى المعبر، ولم تأت مونا. وأخيراً طلبت رؤية لائحة المسافرين. ولم يكن اسمها مدرجاً بين الأسماء. وزلقت الخاتم في أصبعي الصغير وبقي هناك. وفي يوم تركته في حمام عام، لكنني استعدته وقد ضاع أحد براعمه. مهما يكن، أقول أنني كنت أجلس هناك على المقعد مطأطأ رأساً أعبت بالخاتم، وإذا بي أشعر فجأة بأحدهم يقبض على كتفي.

باختصار، حصلت على وجبة طعام إلى حارب بضعة فرنكات. وبعدها تبدى لي كالومض، أنه لا أحد يرفض تقديم وجبة طعام لإنسان إذا كانت لديه الشجاعة لطلبها. وعلى الأثر توجهت إلى أحد المقاهي في الحال وكتبت رسالتين "هل تسمح لي بتناول العشاء معك مرة في الأسبوع؟ أعلم بالوقت الذي يناسبك بدقة". وفعلت فعلها كالسحر. ولم تقدم لي مجرد وجبة عادية... بل وليمة. وكنت في كل يوم أعود إلى البيت وأنا سكران. ولم يكن يكفي ما يقدمه لي أولئك المحسنون الكرماء كل أسبوع. فلم يكن من شأنهم ما يحدث لي بين مواعيد الوجبات. وبين الحين والآخر كان المقدرون لوضعي يقدمون السجائر أو قليلاً من مصروف الجيب. وكانوا جميعاً يبدون ارتياحاً واضحاً حين يدركون أنهم لن يروا وجهي إلا مرة واحدة في الأسبوع. ويبدون ارتياحاً أكبر حين أقول - "لم يعد ثمة داع لهذا"، ولم يسألوا أبداً لماذا. كانوا يهتئونني، وينتهي الأمر. وغالباً ما يكون السبب هو أنني أجد مضيفاً أفضل، وكان بوسعي أن أزيح كل من كان بمثابة ألم في المؤخرة. لكن هذا لم يكن يخطر لهم على بال. وأخيراً أصبح لدي برنامج دائم، راسخ - جدول ثابت. أعرف أن كرونستادت سيقدم لي شيبانيا مع فطيرة التفاح البيتية، وأن كارل سيدعوني لتناول طعام العشاء خارج المنزل، وكان في كل مرة يأخذني إلى مطعم مختلف، ويطلب خموراً نادرة، ثم يعزمني بعد ذلك إلى المسرح، أو يصحبني إلى سيرك مدرانو. وكان مضيفوي فضوليين أحدهم نحو الآخر. فیسألونني أي الأماكن أفضل، ومن هو أفضل الطباخين، إلخ. وأعتقد أنني أحببت صحبة كرونستادت أكثر من غيرها، ربما لأنه كان في كل مرة يسجل كلفة الوجبة على الحائط. وهذا لا يعني أن ضميري يرتاح لمعرفتي ما أدين به له، لأنه لم يكن في نيتي أن أسدد له ولا خاسرني أي وهم في أن يطالبني. لا، ولكن الأرقام العجيبة كانت تأسر اهتمامي. وكان يحسبها حتى آخر سنتيم. ولو كان علي أن أسدد كل ديوني لتوجب علي أن أصرف من السور الذي أملك. وكانت زوجته طباخة ماهرة ولم تكن تأبه على الإطلاق بالسنتيمات التي يضيفها كرونستادت. كانت تأخذ الحساب مني على شكل نسخ كربون. هذه حقيقة! فإذا لم أحضر أي ورق كربون حين أدخل عليها، تكتئب. وكتعويض عن هذا أضطر لاصطحاب الفتاة الصغيرة إلى حدائق

اللو كسمبور في اليوم التالي، لألعب معها ساعتين أو ثلاث، وهي مهمة كانت تدفعني إلى الجنون لأنها لم تكن تتكلم إلا الهنغارية والفرنسية. لقد كانوا مجموعة غريبة الأطوار، مضيفوي أولئك.....

من شرفة بيت تانيا نظرت إلى المشهد العام. مولدورف هناك، جالس بجانب معبوده. يدفيء قدميه على الموقد، وفي عينيه الدامعتين نظرة امتنان هائلة. وتانيا تعزف لحن أداجيو. ولحن الأداجيو يقول بوضوح: لا مزيد من كلمات الحب! وأنا واقف عند النافورة من جديد، أراقب السلاحف تتبول حلياً أنحضر. سيلفستر عاد لتوه من برودواي بقلب مفعم بالحب. أمضيت الليل مستلقياً على مقعد خارح متنزه المشاة بينما الكرة الأرضية تترطب ببول السلاحف الدافئ والأحصنة متيصة بهياج بريابي تقفز كالمجنونة حتى دون أن تلمس الأرض. طول الليل أشم رائحة الليلك في الغرفة الصغيرة المظلمة حيث كانت ترخي شعرها، الليلك الذي أحضرته لها حين ذهبت لمقابلة سيلفستر. قالت إنه عاد بقلب مملوء بالحب، والليلك يزين شعرها، وفمها، ويملاً تحت ابطيها. الغرفة تسبح بالحب وببول السلاحف والليلك الدافئ والأحصنة تتواثب كالمجنونة. في الصباح أسنان وسنخة وطفارة على ألواح زجاج النوافذ، والغرفة المؤدية إلى متنزه المشاة موصدة. الناس متوجهون إلى العمل ومصاريع النوافذ تقرقع كالمزودات. في مخزن الكتب المقابل للنافورة قصة "بحيرة تشاد"، والسحالي الصامتة، وتدرجات لون الأصفر الفخم. كل الرسائل التي كتبتها لها، السكرى منها المكتوبة بريشة كليلة، والمجنونة منها مع قطع صغيرة من الفحم، قطع صغيرة من مقعد إلى مقعد، ومفرقات نارية، ومناديل المائدة، وتوتي فروتي، إنهما يعيدان قراءتها معاً، وذات يوم سيدي استجسانه لي. سيقول، وهو يفيض رماد سيجارته: "أنت بحق تكتب جيد جداً. دعني أرى، أنت سريالي، ألسن كذلك؟ بصوت هش جاف، وأسنان مملوءة بالقشور، solo تتدل على solar plexus، و g تتدل على gaga.

أنا في الشرفة مع النبات الاصطناعي ولحن الأداجيو ينساب هناك في الأسفل. مفاتيح البيانو سوداء وبيضاء، ثم سوداء، ثم بيضاء، ثم بيضاء وسوداء. وتريدون أن تعرفي إن كنت أرغب في أن تعزفي لي شيئاً. نعم اعزفي

شيئاً بإبهاميك الكبيرين. اعزفي لحن أدا جيرو ما دام هو اللحن الوحيد الذي تتقنين. اعزفيه، ثم ابتري إبهاميك الكبيرين.

يا لذك الأدا جيرو لا أدري لماذا تصر على أن تعزفه طوال الوقت. البيانو العتيق لم يعد جيداً بما يكفي بالنسبة لها، كان عليها أن تستأجر آخر كبيراً - لأداء الأدا جيرو حين أرى إبهاميك الكبيرين يضغطان على لوحة المفاتيح وذاك النبات الاصطناعي السخيف الملقى إلى جانبي أشعر كذاك المجنون من الشمال الذي رمى بثيابه بعيداً، وجلس بين الأغصان الشتوية عارياً، وأخذ يرمي الجوز إلى البحر دي أسماك الرنة المتجمدة. ثم ما يتير الغضب في هذه الحركة الموسيقية، شيء يتسم بالكآبة المخففة، وكأنها كتبت بالآلاف، وكأنها بلون مزيج الرصاص والحليب. ويقول سيلفستر ورأسه مائل إلى أحد حائيه كأنه دلال: "اعزفي اللحن الذي كنت تتمرنين عليه اليوم". جميل أن يكون لدى المرء سترة للتدخين، وسيجار جيد وزوجة تتقن العزف على البيانو. يا للراحة، يا للين. فتخرج من فترة الاستراحة لتدخن سيجاراً وتستنشق هواءً نقياً. نعم أصابعها لدنة جداً، لدنة بصورة خارقة. وتحسن التطبيع البتيكي أيضاً. هل لك في تدخين سيجارة بلغارية؟ أقول، يا ذات الصدر الحمامي، ما هي تلك الحركة الموسيقية التي أحبها كثيراً؟ إنها حركة السكيرتزو ممتاز. السكيرتزو الكونت فالديمار فون شفيسن ينزوغ يتكلم. عيان هادئان مكسوتان بالقشور. بنجر. جوارب مزوقة. قطع خبز محمصة في شوربة الفاصولياء إذا سمحت. دائماً نتناول شوربة الفاصولياء في أمسيات الجمعة. هل لك في تذوق القليل من النبيذ الأحمر؟ النبيذ الأحمر لذيذ مع اللحم، كما تعلم. صوت هش وجاف، هل لك في سيجارة؟ نعم، أحب عملي لكني لا أعلق أدنى أهمية عليه. مسرحيتي القادمة ستضمن مفهوماً عن الكون متعدد الجوانب. طبول تدور مع أضواء كالسيومية. أونيل مات. أعتقد، يا عزيزتي، أنك يجب أن ترفعي قدمك عن البذل أكثر. نعم، هذا الجزء جميل جداً.... رائع الجمال، ألا تظن؟ نعم. الشخصيات تدور وهي تحمل مكبرات صوت في سراويلها، المكان هو قارة آسيا. لأن الأحوال الجوية أكثر ناقلية. هل لك في تذوق القليل من الآنجو؟ لقد ابتعناه خصيصاً لك.....

وتستمر هذه الثثرة طوال الوجبة. وكأنه أخرج فتاه المطهر وراح يتبول علينا. تانيا تنفجر حماساً في عزفها. ومنذ أن عاد بقلب ملؤه الحب وهذا الحديث الإفرادي مستمر. وتحكي لي كيف يتكلم وهو يخلع ثيابه - حديث كالتبول الثابت المستمر، وكأن مثانته قد ثقت. حين أتخيل تانيا وهي تزحف إلى السرير مع تلك المثانة المثقوبة يملكني الغضب. أغضب كلما فكرت أن ابن الحرام الناحل البائس ذاك الذي يحمل معه مسرحيات برودواي الرخيصة يتبول على المرأة التي أحب. ويصبح طالباً نبیذاً أحمر وطبولاً دوارة وخبزاً محمصاً في شورية الفاصولياء. يا لصفاقته! أجن كلما فكرت أن باستطاعته أن ينام إلى جانب ذاك القرن الذي ذكيت له ناره ويكتفي هو بالتبول! يا إلهي، يا رجل، جدير بك أن ترقع على ركبتك وتشكرني. ألا ترى أنه صارت لديك "امرأة" في بيتك الآن؟ ألا ترى أنها تضطرم بالشوق؟ وأنت تخبرني عن زوائدك الأنفية المنخوقة - "والآن، دعني أخبرك... هناك طريقتان للنظر إلى الأمر...." أير في طريقتك للنظر إلى الأمور! أير في كونك المتعدد الجوانب وفي صوتياتك الأسوي! كفاك تمثني بنبيذك الأحمر والآنجو.... ثمثني بها "هي"... إنها لي! أما أنت فاهب واجلس عند النافورة، ودع لي شم الليلك. نظف عينيك من قشورهما... وخذ ذاك الأداجيو العين ولفه بزوج من سراويل الفانيلا! وخذ الحركة الأخرى أيضاً.... وكل الحركات الصغيرة التي سببتها بمثانتك الرخوة. ها أنت تبتسم لي بكل جرأة، بتعمد كامل. ألا ترى أنني أتملق مؤخرتك؟ وبينما أنا أنصت إلى ثرثرتك وضعت يدها عليّ - لكنك لم تر هذا. تظن أنني أحب أن أعاني - وتقول إن هذا هو دوري. حسن، أسألك عن هذا! وستخبرك كيف أعاني. قبل أيام قليلة قالت عبر الهاتف: "أنت سرطان وهذيان". وها قد أصيبت بهما معاً، السرطان والهذيان، وقريباً سيتوجب عليك أن تعلم قشورك. شرايينها تكاد تنفجر، أوكد لك، وكلامك كله هباء. ومهما تبولت فلن تتمكن من سد ثقبك. ماذا يقول السيد ورن؟ "الكلمات هي الوحدة". تركت لك كلمتين فوق مفرش المائدة بالأمس - وقد غطيتهما بحرفتيك.

لقد ضرب حولها حصاراً وكأنها عظمة عفنة من قديس. ليت لديه الشجاعة ليقول لي "خذها!" فرما وقعت معجزة. هكذا ببساطة. "خذها!"

وأقسم بأن كل شيء سيسير سيراً حسناً. ثم أنني قد لا آخذها!. ترى هل خطر هذا على باله؟ أو قد آخذها لفترة وجيزة وأعيدها إليه، محسنة. أما ضرب حصار حولها فلن ينفع. لا يمكنك أن تفرض حصاراً حول كائن بشري. فهذه الطريقة لم تعد تنفع.... إنك مسكين، يا ابن الحرام السقيم. تظن أنني لا أصلح لها، وإني قد أدنسها، أنتهك قدسيها. أنت لا تدري كم هي لذيذة المرأة المدنسة، وكيف يجعل تغير المني للمرأة تزدهراً وتظن أنه يكفي قلباً مفعماً بالحب، وربما هذا صحيح، بالنسبة للمرأة المناسبة، ولكن لم يعد لديك قلب..... ما أنت غير مثانة كبيرة، فارغة. أنت تسن أسنانك وتهذب هريك، تنطرح عند قدميها ككلب الحراسة وتبول في كل مكان. إنها لا تعتبرك كلب حراسة.... أنها ترى فيك شاعراً. وهي تقول إنك كنت ذات مرة شاعراً. والآن، ماذا تكون؟ تشجع يا سيلفستر، تشجع! اخرج المايكروفون من سروالك. وانخفض قائمتك الخلفية وتوقف عن التبول في كل مكان. أقول تشجع، لأنها نبذتك لتوها. وإنها ملوثة، أؤكد لك، ويمكنك أيضاً أن تفك الحصار. لا فائدة من سؤالي بأدب إن كان مذاق القهوة يشبه حمض الكربون: فلن تخيفني. ضع سم الفئران في القهوة، وقليلاً من مسحوق الزجاج. إغل بعض البول الحار وأضف إليه شيئاً من جوز الطيب.....

منذ بضعة أسابيع وأنا أعيش حياة مشاعة. كان علي أن أشارك الآخرين، خاصة بعض الروس المجانين، وهولندي سكير، وامرأة بلغارية ضخمة اسمها أولغا. من بين الروس أذكر خاصة أوجين وأناطول.

قبل هذا بأيام قليلة كانت أولغا قد خرجت من المشفى حيث أحرقت قنواتها وفقدت بعضاً من وزنها الزائد. على أية حال لا يبدو أنها تأملت كثيراً. ويكاد وزنها يعادل وزن قطار ذي سنام. وهي ترشح عرقاً وفمها ييخر، ولا تزال تضع شعرها الجركسي المستعار الذي يشبه التجارة. وعلى ذقنها ثالولان كبيران تبرز منهما خصلتان صغيرتان من الشعر، وهي تنمي شارباً.

بعد خروج أولغا من المشفى يوم عادت من جديد إلى صناعة الأحذية. في السادسة صباحاً تكون جالسة إلى مقعدها، وتصنع في اليوم الواحد

زوجين من الأحذية، ويشتكي أوجين من أن أولغا تشكل عبئاً عليه لكن الحقيقة هي أن أولغا هي التي تعيل أوجين وزوجته من وراء زوجي الأحذية كل يوم. وإذا لم تعمل أولغا فلا طعام. لذا يحاول الجميع أن يجبر أولغا إلى السرير في الوقت المناسب، ليزودها بوقود يعينها على الاستمرار، إلخ.

كل وجبة تبدأ بالشوربة. وسواء كانت شوربة البصل، شوربة البندورة، شوربة الخضار أم غيرها، فمذاقها واحد دائماً. وعلى الأغلب يكون مذاقها وكأثماً نقت فيها خرقة لتحفيف الأطباق - حامضة قليلاً، عفنة، تعلوها طفاوة. أرى أوجين يخفيها عن العيون في الخزانة بعد انتهاء الوجبة. وتبقى هناك، لتتعفن حتى الوجبة التالية. والزبدة أيضاً تُخبأ في الخزانة، وبعد مرور ثلاثة أيام يصبح مذاقها كمذاق أصبع كبير لقدم جثة.

ورائحة الزبد العفن وهو يقلب مقرفة بشكل خاص، خاصة عندما يتم الطبخ في غرفة لا يوجد فيها أي منفذ للتهوية. وما إن أفتح الباب حتى أصاب بالغثيان. ولكن حالما يسمع أوجين أنني أتيت فإنه عادة يسرع بفتح النوافذ ويعيد ملاءة السرير التي علقت كالشبكة لتدراً نور الشمس إلى مكانها. مسكين أوجين! إنه ينظر حوله في الغرفة إلى قطع الأثاث القليلة، إلى ملاءات الأسرة الوسخة، وحوض الاغتسال ذي الماء القذر الراكد، ويقول "إنني مُستعبداً" يقولها كل يوم، وليس مرة فقط، بل دزينة من المرات. ثم يتناول قيثارته عن الجدار ويبدأ بالغناء.

ولكن لنعد إلى رائحة الزبد العفن.... فتمة ملحقات جيدة أيضاً. حين أفكر في هذا الزبد العفن أتخيلني واقفاً في فناء صغير، من عالم قديم، يعبق بالروائح. فناء موحش جداً. ومن خلال الشقوق في مصاريع النوافذ تتلصص علي أشكال غريبة.... عجائز يضعن شالات، وأقزام، قوادون بوجوه جردان، يهود حذب، فتيات خليعات midinettes، وبلهاء ملتحمون. يترنحون وهم خارجون إلى الباحة ليحلبوا الماء أو ليشطفوا الدلاء القذرة. وذات يوم طلب مني أوجين أن أفرغ الدلو نيابة عنه. فأخذته إلى زاوية الفناء، وكان في الأرض ثقب انتشرت حوله أوراق وسخة. البئر الصغيرة كانت لزجة من الغائط، وباللغة المفهومة يسمى "خراء" قلبت الدلو فسمعت

طرطشة بلهاء مقرقرة تبعثها طرطشة أخرى غير متوقعة. ولما عدت كانت الشورية قد مسحت. كنت طوال الوجبة أفكر في فرشاة أسناني - لقد أصبحت عتيقة وشعيراتها تعلق بين أسناني.

كلما جلست لتناول الطعام أجلس قرب النافذة. أخاف الجلوس في الجانب الآخر من المائدة - فهي شديدة القرب من السرير والسرير يزحف. أرى بقع الدم على الملاءات الباهتة إذا نظرت إلى تلك الجهة، لكنني أحاول أن لا أنظر. وأمد بصري إلى الفناء حيث يغسلون الدلاء القذرة.

لا تكتمل الوجبة بدون موسيقى. فحالما يوزع الجبن يقفز أوجين ويتناول القيثارة المعلقة فوق السرير. دائماً يغني الأغنية نفسها. يقول إن رصيده الموسيقي يحوي خمس عشرة أو ست عشرة أغنية، لكنني لم أسمع أكثر من ثلاث. والأغنية الأثيرة لديه هي "قصيدة حب ساحرة" وهي ملأى بالهم والغم.

بعد الظهر نذهب إلى السينما حيث البرودة والظلمة. يجلس أوجين أمام البيانو في خلفية المسرح وأجلس أنا في المقدمة على مقعد. المكان خال، لكن أوجين يغني وكأن أمامه جمهوراً من رؤوس أوروبا المتوجة. باب الحديقة مفتوح وعبر الأوراق الرطبة ينغمس في الغرفة ويمتزج المطر مع غم أوجين وهمه. وعند منتصف الليل وبعد أن يتخمد النظارة القاعة برائحة العرق والأنفاس الكريهة، أعود لأنام على أحد المقاعد. ويلقي نور مصباح "باب الخروج"، السابح في هالة من دخان المسجائر، ضوءاً خافتاً على الزاوية الأدنى من الستارة الخيرية، وكل ليلة أغمض عيني على عين اصطناعية.....

أقف في الباحة بعين زجاجية، لا أرى غير نصف العالم. الحجارة رطبة ويعلوها الطحلب وفي شقوقها تكمن العلاجيم السود. ويعترض المدخل إلى قبو الخمر باب كبير، الدرج لزوج، وملوث ببراز الوطاويط. الباب يبرز ويغور، والمفاصل تسقط، ولكن ثمة علامة مرسومة عليه، وهي في حالة جيدة، وتقول: "تأكد من إغلاق الباب". وما الداعي إلى إغلاق الباب؟ لا أفهم. وأنظر إلى العبارة ثانية فإذا بها قد أزيلت، وأجد مكانها لوح زجاج ملون. أنزع عيني الزجاجية، وأبصق عليها وأنظفها بمنديل. ثمة امرأة جالسة

على منصة فوق مقعد محفور باتقان وحيّة تلتف حول عنقها. الغرفة برمتها مرصوفة بالكتب وأسماء غريبة الشكل تسبح في أوان زجاجية كروية ملونة، وخرائط وجدلول معلقة على الجدار، خرائط لباريس قبل الطاعون، خرائط للعالم العتيق، لكنوسوس وقرطاجة، لقرطاجة قبل أن تتملح وبعده. أرى في زاوية الغرفة قوائم سرير حديدية تمتد عليها جثة، تنهض المرأة بانزعاج وتزيح الجثة عن السرير وترميها من النافذة وهي شاردة الذهن. ثم تعود إلى المقعد الضخم المحفور، تتناول سمكة ذهبية من الإناء وتبتلعها. وتبدأ الغرفة بالدوران ببطء، وتنزلق القارات واحدة إثر أخرى وتغوص في البحر، ولا تبقى إلا المرأة، لكن جسمها صار عبارة عن كتلة من الجغرافيا. وأطل من النافذة وإذا ببرج إيفل يفور بالشمبانيا، إنه مبني برمته من أرقام ومكفن بشريط أسود. البلاليع تمور بغضب. لا يوجد إلا أسطح في كل مكان، موزعة ببراعة هندسية مقيّنة.

لقد قُذفت من العالم كخرطوشة. انزاح ضباب كثيف، والأرض تلطّخت بشحم متجمد. أشعر بالمدينة تخفق، كأنها قلب خلع لتوه من جسم حي. نوافذ فندقي تتقرح وثمة نثانة قوية لاذعة كأنها منبعثة من تفاعلات كيميائية. أرى وأنا أنظر إلى نهر السين الحماة والخراب، مصاييح الشارع تفرق، رجالاً ونساءً يختنقون حتى الموت، الجسور مغطاة بالبيوت، ومساح الحب. رجل واقف يستند إلى الجدار ويحمل أو كورديونا مربوطاً إلى بطنه، يداه مبتورتان من الرسغين، لكن الأكورديون يتمعج بين جدّعتيه ككيس مملوء بالأفاعي، الكون تضائل، صار فقط بطول مجمع سكني، بلا نجوم، ولا أشجار، ولا أنهار. القاطنون هنا أموات، يصنعون كراسي يجلس عليها آخرون في أحلامهم. في وسط الشارع دولا ب وفي محور الدولا ب ثبتت مشنقة. الموتى يحاولون بهياج أن يرتقوا المشنقة، لكن الدولا ب يدور بأقصى سرعة.....

أفتقر إلى عنصر ما ليوائمني مع نفسي. ومساءً أمس اكتشفت هذا العنصر: إنه بايني papini. لا يهمني إن كان متعصباً وطنياً، أو دينياً، أو متحذلقاً قصير النظر. أما كفاشل فهو رائع.....

ويا للكتب التي قرأها - وهو في الثامنة عشرة! ليس فقط هومر، ودانتي، وغوته، ليس فقط أرسطو، وأفلاطون، وأبيكتيتوس، ليس فقط رابليه، وسرفانتس، وسويفت، ليس فقط ويتمن، وإدغار آلن بو، وبودلير، وفيون، وكاردوتشي، وماتتروني، ولوب دو فيغا، ليس فقط نيتشه وشوبنهاور، وكانت وهغل وداروين وسبنسر وهكسلي - ليس فقط هؤلاء بل كل الشخصيات الصغيرة الكائنة بينهم. هذا في صفحة ١٨. alors، في الصفحة ٢٣٢ ينهار ويعترف. يعترف قائلاً أنا لا أعرف شيئاً. أعرف العناوين، صنف المراجع، كتبت مقالات نقدية، أسأت وشوهت..... أستطيع أن أستمع في الكلام خمس دقائق أو خمسة أيام، لكنني أستسلم بعدها وقد نضبت.

ثم يتبع ما يلي: "الكل يريد أن يراني. الكل يصبر على التحدث معي. يزعمني الناس ويزعمون الآخرين باستفساراتهم حول ما أقوم به. كيف حالي؟ هل تحسنت صحتي؟ هل لا أزال أقوم بنزهاتي إلى الريف؟ هل أعمل؟ هل أنهيت كتابي؟ هل سأبدأ آخر قريباً؟".

"لما فرد ألماني هزيل يريد أن أترجم له أعماله. وفتاة روسية ذات نظرات متوحشة تريد أن أروي لها قصة حياتي. وسيدة أمريكية تريد أن تعرف "آخر" أخباري. وسيد أميركي سيرسل لي عربته ليأخذني لتناول العشاء - مع حديث ودي حميم، كما تعلم. وزميل دراسة وصديق قديم، قبل عشر سنوات، يريد أن أقرأ له ما كتبت بالسرعة نفسها التي كتبه بها. ورسام صديق لي يريد أن أعمل عنده موديلًا ساعياً. وصحفي يريد عنواني الحالي. وأحد المعارف وهو صوفي، يسأل عن حالة روحي، وآخر، أكثر عملية، يسأل عن وضعي الاقتصادي. رئيس النادي الذي أنتسب إليه يسأل إن كنت سألقي خطاباً إكراماً للشباب وسيدة ذات ميول روحية تأمل أن أزورها لتناول الشاي قدر ما أستطيع. تريد رأيي في يسوع المسيح، ورأيي في ذاك الوسيط الجديد؟ ... "يا إلهي العظيم! إلى ما آلتني؟ أي حق لكم عليّ أيها الناس حتى تقلبوا حياتي رأساً على عقب، وتبددوا وقتي، وتسبوا روحي، وتمتصوا أفكاري، وتنخلوا مني رقيقاً، وموضع ثقة، ومكتب

استعلامات؟ ماذا تظنونني؟ أمهراً مستأجراً مطلوباً مني أن أمثل كل صباح مهزلة فكرية تحت أنوفكم البلهاء؟ أم عبداً مشترى مدفوعاً ثمنه، حتى أزحف على بطني أمامكم أيها المتبطلون وأضع عند أقدامكم كل أعمالي ومعرفتي؟ أم مومساً في مأخور يُنادى عليها لترفع ثوبها أو تخلع قميصها بطلب من أول رجل يرتدي بدلة مفصلة يأتي إليها؟.

" أنا رجل يريد أن يعيش حياة بطولية ويجعل العالم أكثر احتمالاً في نظره. إذا انتابني نوبة غضب، في لحظة ضعف أو راحة أو حاجة - نوبة غضب مستمرة يمكن إخمادها بالكلمات - أو حلم مشبوب مغلف ومربوط بالخيال - فاحتملوني أو لا تحملوني.... ولكن لا تزعجوني.

"أنا رجل حر - وبحاجة إلى حريتي. بحاجة إلى وحدتي. بحاجة إلى التأمل في عاري ويأسي في معترلي، أحتاج إلى أشعة الشمس وحجارة رصف الشوارع بلا رفاق، بلا حديث وجهها لوجه مع نفسي، ليس لي إلا موسيقى قلبي رفيقة لي. ماذا تريدون مني؟ حين يكون لدي ما أقول! أقوله كتابة. وإذا كان لدي ما أهب، أهبه. فضولكم الوقح يثير غياني! إطراءاتكم تذلي! شايبكم يسممني! لا أدين بشيء لأي إنسان. لست مسؤولاً إلا أمام الله وحده - إن كان موجوداً."

يبدو لي أن بايبي يفتقر إلى شيء رفيع كالشعرة حين يتحدث عن حاجته إلى أن يكون لوحده. ليس من الصعب أن تكون لوحداً إذا كنت فقيراً وفاشلاً، فالفنان دائماً لوحده - إذا كان فناناً حقاً. لا، إن ما يحتاجه الفنان هو الوحدة lonliness.

أنا أسمى نفسي فناناً. فلا أكن هكذا. آخذ بعد ظهر هذا اليوم غفوة تبث شعوراً مخملياً بين فقرات عظمي. أنتجت أفكاراً تكفيني ثلاثة أيام. طافح بالطاقة ولا أعرف ماذا أفعل بها. أقرر أن أتمشى. في الطريق أغير رأبي، وأقرر أن أذهب إلى السينما. لا أستطيع الذهاب إلى السينما - تنقصني بضعة سوات. فلا أتمشى إذن. أتوقف عند كل دار للسينما وأنظر إلى لوحة الإعلانات، ثم إلى قائمة الأسعار. رخيصة تماماً، مراع الفيون هذه، لكن تنقصني بضعة السوات. إذا لم يكن قد فات الأوان قد أعود لأصرف قيمة

زجاجة فارغة.

لدى وصولي إلى شارع أميلي أكون قد نسيت كل شيء عن السينما. شارع أميلي هو أحد الشوارع الأثيرة لدى. هو أحد الشوارع التي نسيت البلدية أن ترصفها لحسن الحظ. تمتد أحجار الكوبالت بشكل محدب من أحد طرفي الشارع إلى الطرف الآخر. طوله لا يتجاوز عرض مجمع سكني وضيق. وفي هذا الشارع يقع فندق بريتي. وثمة كنيسة صغيرة أيضاً، في شارع أميلي. وكأنها بنيت خصيصاً لرئيس الجمهورية ولأفراد عائلته المقربين. أمر جميل أحياناً أن يرى المرء كنيسة صغيرة متواضعة. إن باريس ملأى بالكاتدرائيات النفاحة.

جسر الكسندر الثالث. وثمة ساحة مزامية تلعب فيها الريح تقرب من الجسر. أشجار هزيلة، جرداء مثبتة داخل أقفاصها بطريقة رياضية، وكأبة العجزة تنشق من القبة السماوية وتغمر الشوارع المظلمة المجاورة للساحة. إنها جبانة الشعر. وقد وضعوه الآن حيث أرادوا، المحارب العظيم، آخر رجل عظيم في أوروبا. إنه غارق في سبات عميق داخل سريره الفرانقي. لا خوف عليه من أن يتقلب داخل جدته، فالأبواب محكمة الإغلاق، والغطاء مثبت تماماً فتم، يا نابليون! إنهم ما أرادوا أفكارك، بل جثتك فقط!

لا زال النهر متخبطاً موحلاً، معجوناً بالأضواء. لا أدري ما الذي يهيج داخلي لمراى هذا التيار المظلم، السريع الحركة، لكن جذلاً عظيماً يحسي روحي، يؤكد رغبتى العميقة في أن لا أغادر هذا البلد. أذكر مروري بهذا الطريق ذات صباح قريب متوجهاً إلى الأميركان اكسپريس، وأنا أعرف مسبقاً أنه لا يوجد بريد بانتظاري، لا شيك، لا بريقة، لا شيء، لا شيء. وعلى الجسر دمدت عربة قادمة من الغاليري لافايت. كان المطر قد توقف والشمس تشق طريقها خلال الغيوم الرغوية وتمس أسطح الدبش البراقة بنارها الباردة. أذكر الآن كيف مال السائق ليطل عبر النهر جهة طريق باسي. كم كانت نظرة صحية، بسيطة، مستحسنة، وكأنه يقول لنفسه: "آه، الربيع آت". ويعلم الله عندما يحل الربيع بباريس لا بد أن يشعر أبسط كائن حي أنه يسكن الجنة. وليس هذا فقط - بل إن عينيه سرعان ما تألفت مع

المشهد الذي وقفتا عليه. إنها باريس هـو. لا حاجة للإنسان أن يكون ثرياً، ولا حتى مواطناً، ليشعر هكذا نحو باريس. باريس مملوءة بالفقراء - ويبدو لي أنهم من أكثر ما وجد على الأرض منهم تكبراً وفحشاً. ومع ذلك فهم يمنحون انطباعاً بأنهم يتصرفون وكأنهم في بيوتهم. وهذه الخاصية هي التي تميز الباريسي عن جميع البشر الذين يقطنون المدن الكبرى.

حين أفكر في نيويورك يجتاحني شعور مختلف كثيراً. فنيويورك تجعل حتى الثري يشعر بحقارته. نيويورك باردة، براقّة، خبيثة. الأبنية مسيطرة، وهناك أنواع من السُّعر الذي يشمل النشاط السائد، كلما زاد عنف الخطر، زاد انسحاق الروح. هياج مستمر، لكنه هياج يمكن أن يحدث أيضاً داخل أبواب اختبار. لا أحد يعلم سببه. ولا أحد يوجه هذه الطاقة. شيء مذهل. شاذ. محير. الحاح ارتكاسي reactive هائل، لكنه متنافر كل التنافر.

حين أفكر في المدينة التي ولدت فيها ونشأت، في هذه المنهاتن التي تغنى بها ويتمن، يلسع أحشائي غيظ أبيض أعمى. نيويورك! السجون البيض، الأرصفة الغاصة بالديدان، طوابير الأقران، مرابع تعاظمي المخدرات التي تشبه القصور، العمال الأجانب في كل مكان، والمجنومون، وقطاع الطرق، وقبل كل شيء "الضجر"، رتابة الوجوه، الشوارع، السيقان، البيوت، ناطحات السحاب، الوجبات، الملصقات الجدارية، الأعمال، الجرائم، علاقات الحب.... مدينة كاملة قائمة فوق هوة من العدم. عبث تام. والشارع الثاني والأربعون قمة العالم، كما يطلقون عليه. فأين قعره إذن؟ يمكنك أن تتابع مسيرك ممدود اليدين وسيضعون جمرأ في قبعتك. ويتابعون سيرهم، غنيهم وفقيرهم، شاغبي الرؤوس ويكادون يكسرون أعناقهم وهم يرمون أنظارهم عالياً إلى سجونهم البيضاء الجميلة. يتابعون سيرهم كأوز أعمى والأضواء الكاشفة ترش وجوههم الفارغة برذاذ من النشوة.

قال إمرسون: "تتألف الحياة مما يفكر به الإنسان طوال يومه". إذا كان هذا صحيحاً فحياتي ليست غير إمعاء ضخمة. إنني لا أكتفي بالتفكير بالطعام طوال النهار، بل وأحلم به ليلاً.

لكني لا أطلب العودة إلى أميركا، ليركب لي سرج مضاعف من جديد، لأشغل دولاب روتين. لا، أفضل أن أكون رجلاً أوريباً فقيراً. ويعلم الله أنني فقير بما يكفي، يبقى لي أن أكون رجلاً. في الأسبوع الفائت ظننت أن معضلة العيش توشك أن تحل. ظننت أنني بسبيل أن أكتفي ذاتياً. فقد تصادف أن قابلت روسياً آخر - يدعى سيرج. يعيش في سوريسن حيث توجد جالية صغيرة من e'migre's المهاجرين والفنانين المحبطين. قبل الثورة كان سيرج كابتن في الحرس الملكي، طوله ستة أقدام وثلاث بوصات مع جوربيه ويحتسي الفودكا كسمكة. كان والده أميراً أو شيئاً من هذا القبيل، على المدرعة "بوتكين".

قابلت سيرج في ظروف خاصة. في ذاك اليوم خرجت أبحث عن طعام، ونحو الظهيرة وجدتني بالقرب من القولي بيرجير - أو بالأحرى قرب بابه الخلفي الواقع في الزقاق الضيق الصغير الذي ينتهي أحد طرفيه ببوابة حديدية. كنت أحوم حول مدخل خشبة المسرح، يحدوني أمل غامض في الاحتكاك بإحدى الفراشات حين اندفعت شاحنة مكشوفة واحتلت الرصيف. ولما رأي السائق، سيرج، واقفاً ويدي في جيبي، طلب مني أن أساعده في تفريغ البراميل الحديدية. وعندما علم أنني أميركي ومفلس كاد يبكي فرحاً. إذ يبدو أنه كان يبحث في طول المكان وعرضه عن مدرس للغة الإنكليزية. وساعدته

على دحرجة براميل المبيدات الحشرية إلى الداخل وأنا أُملي نظري. عمراًى الفراشات ترفرف متقلبة بين الأوراق. واتخذت الحادثة بالنسبة لي أبعاداً غريبة - المنزل الفارغ، ودمى النشارة تتقاذف في الأوراق، براميل المبيدات الحشرية، والمدرعة "بوتمكنين" - وقبل أي شيء، لطف سيرج. إنه ضخم الجثة ورقيق. رجل بكل بوصة فيه، لكنه يحمل قلب امرأة.

وفي مقهى قريب يدعى مقهى الفنانين - يعرض عليّ على الفور عملاً، قائلاً إنه سيمد لي حشيرة على أرض الصالون. وبالنسبة للدروس، يقول إنه سيقدم لي وجبة كل يوم، وجبة روسية دسمة، أو إذا غابت الوجبة لأي سبب من الأسباب فستة فرنكات عوضاً عنها. ويبدو لي أن العرض رائع - رائع. والمشكلة الوحيدة هي كيف سأقطع المسافة بين سوريسن والاكسبريس الأميركي كل يوم؟.

ويصر سيرج على أن نبدأ فوراً - وينفحني تعرفه المواصلات لقطع المسافة إلى سوريسن في المساء. وأصل قبيل العشاء، حاملاً حقيبة الظهر لأعطي سيرج الدرس. ويكون هناك بعض الضيوف - يبدو لي أنهم دائماً يتناولون الطعام جماعات، وكلهم يتحدثون دفعة واحدة.

كنا ثمانية أشخاص على المائدة - وثلاثة كلاب. الكلاب تأكل أولاً. تأكل شوفانا. ومن بعدهم نحن. ونأكل أيضاً شوفانا - وهو بمثابة مشهي. ويقول سيرج غامزاً بعينه: "عندنا، هذا لأجل الكلاب، شوفان الكويكر. وهذا لأجل السيد، مفهوم". بعد الشوفان، يأتي حساء الفطر والخضار، وبعد ذلك عجة اليبكون، الفاكهة، النيذ الأحمر، الفودكا، القهوة، فالسجائر. لا بأس بها، الوجبة الروسية. الكل يتكلم وفمه مملوء بالطعام. بعد انتهاء الطعام تتمدد زوجة سيرغي، وهي عاهرة بليدة أرمنية، على المقعد وتبدأ بقضم السكاكر. وتمد أصابعها الشخينة باحثة في الصندوق، وتلوك قطعة صغيرة لترى إن كان قد تبقى بها أي عصير، وترميها بعد ذلك على الأرض للكلاب.

تنتهي الوجبة، ويندفع الضيوف هارين، وكأنا من وباء ما. ونترك سيرج وأنا، مع الكلاب - وتستغرق زوجته في النوم على المقعد. ويتجول

سيرج في المكان للامبالاة، وهو يفت النفاية للكلاب. يقول: "الكلاب تحبها كثيراً... هذا جيد للكلاب. الجرو مصاب بالديدان ... لا يزال صغيراً جداً". وينحني ليتفحص بعض الديدان البيضاء الملقاة على السجادة بين مخالب الكلب. ويحاول أن يشرح شيئاً حول الديدان بالإنكليزية، لكن المفردات تعوزه. وأخيراً يستشير القاموس في هذا. يقول "آه" وهو ينظر إلى بجذل "إنها ديدان شريطية"، وكان واضحاً أن إجابتي لم تكن بارعة جداً. إن سيرج مختار. ويخر على ركبتيه ليتفحصها بإمعان. ويلتقط إحداها ويضعها على الطاولة قرب الفاكهة، ويترجم: "ها، هي ليست كبيرة جداً. الدرس القادم أنت تعلمني الديدان، لا؟ أنت أستاذ شاطر. أنا أتقدم معك....."

يكاد عبق مييدات الحشرات يخنقني وأنا متمدد على الحشية الموجودة في الصالون. عبق حاد لاذع، أشعر به يهاجم كل مسام جسمي. ويبدأ الطعام يتردد على ذاكرتي - شوفان الكويكر، الفطير، لحم الخنزير، التفاح المقلي. أرى الدودة الشريطية الصغيرة ممدودة قرب الفاكهة مع بقية تشكيلة الديدان التي وضعها سيرج على مفرش المائدة ليشرح مصاب الكلب. أرى مقدمة مسرح الفولي بيرجر الخالية وفي كل شق صراصير وقمل وبق. أرى أناساً يهرشون أنفسهم بهياج، يهرشون ويهرشون حتى يسيل منهم الدم. أرى ديداناً تزحف فوق المشهد العام كجيش من النمل الأحمر يلتهم كل ما يقع عليه البصر. أرى فتيات الجوقة يرمين أرديتهن الكهنوتية الشفافة ويركضن مخترقات سرادقات الكنيسة عاريات، وأرى المشاهدين في مقدمة المسرح يخلعون ملابسهم أيضاً ويهرش بعضهم بعضاً كالقردة.

أحاول تهدئة نفسي. فآنا، قبل كل شيء، قد وجدت بيتاً وثمة وجبة طعام تنتظرني كل يوم. وسيرج كريم، ولا شك في هذا. لكن النوم يجافيني، وكأنني نائم في مشرحة. والحشية مشبعة بسائل عطر. إنها مشرحة للقمل، والبق، والصراصير، والديدان الشريطية. لا يمكنني أن أحتمل هذا. بل لن أحتمله! فآنا، قبل أي شيء إنسان، وليس قملة.

في الصباح أنتظر سيرج ليحمل الشاحنة. وأطلب منه أن يقلني معه إلى باريس. ولا يطاوعني قلبي أن أخبره أنني راحل. وأخلف ورائي حقيبة الظهر

وفيه بعض أشياء من ممتلكاتي. وحين نصل إلى ساحة بيرير أقفز. ولا يكون
ثمة سبب معين لنزولي في ذاك المكان، وليس لدي أي سبب معين للقيام بأي
شيء. "أنا حر" وهذا هو الأساس.....

رحت أطيّر متقللاً خفيفاً كالعصفور من حارة إلى حارة. وكأني
تحررت من سجن. وأنظر إلى العالم بعينين جديدتين. صار كل شيء يشير في
اهتماماً عميقاً. حتى الأمور التافهة. في شارع فوبور بواسونيير أقف أمام
واجهة إحدى مؤسسات التربية البدنية. ثمة صور تين عينات من الرجال "قبل
التمارين وبعدها" كلهم ضفادع. بعضهم عاري، إلا من نظارة أنف ولحية.
لا أفهم كيف تُخدع هذه العصافير بالتوازيان وأثقال تمرين العضلات. على
الضفدع أن يكون له بطن صغيرة جداً، مثل البارون دو شالو. يجب أن
يكون له لحية ونظارة أنفية. ولا يجب أن يصور عارياً، ويجب أن يتعل حذاءً
ذا جلد صقيل لماع وأن يكون في جيب صدارة معطف الخيش منديل أبيض
يرز بمقدار ثلاثة أرباع الإنش فوق الشق. وإذا أمكن، فليضع شريطاً أحمر في
طية سترته، من العروة. ويجب أن يرتدي بيجاما حين يأوي إلى السرير.

أمرٌ وأنا أقرب من ساحة كليشي قرابة المساء بالعاهرة الصغيرة ذات
الجدعة الخشبية التي تقضي وقتها بالوقوف قبالة قصر غومون على مر الأيام.
لم يكن يبدو أن عمرها يزيد ولا يوم واحد على الثمانية عشر عاماً. وأعتقد
أن لها زبائن المعتمدين. تقف هناك بعد منتصف الليل بأسمائها السوداء ثابتة
في مكانها. وخلفها يقع زقاق صغير يتلظى كأنه جحيم. أمرٌ بها الآن بقلب
يطفر فتذكرني بشكل ما بأوزة مقيدة إلى عمود، أوزة بكبد مضطرب، حتى
يتوفر للعالم لحم كبد سمين *pate' de foie gras*. يبدو غريباً أن تصطحب
معك هذا الجدع الخشبي إلى السرير. إن المرء ليتخيل كل أنواع الأشياء -
كالشظايا، إلخ. مهما يكن، لكل ذوقه.

وحين أنحدر إلى شارع ده دام، ارتطم بيكوفر، وهو شيطان بائس آخر
يعمل في الصحافة، يشتكي من أنه لا يحصل إلا على ثلاث ساعات نوم في
الليلة - فعليه أن يستيقظ في الثامنة صباحاً ليعمل في مكتب طبيب أسنان. إنه
لا يعمل من أجل النقود، كما يشرح لي - بل ليشتري لنفسه طقم أسنان

اصطناعية. يقول: "من الصعب قراءة البروفة الطباعية وأنت تكاد تسقط من التعاس. تظن زوجتي أنني أنال مبلغاً سخياً لقاء هذا، وتقول، ماذا سنفعل إذا فقدت عملك؟". لكن بيكوفر لا يأبه على الإطلاق بالعمل، فهو لا يتيح له حتى أن ينفق بعض النقود. وعليه أن يوفر أعقاب السحائر ويستخدمها لتبغ الغليون. ومعطفه مثبت بدبايس. وهو مصاب بالبحر وتعرق اليدين ولا يحصل إلا على ثلاث ساعات نوم كل ليلة. يقول: "هذه ليست معاملة إنسانية ورئيسي في العمل يستنزف أعصابي إذا أخطأت في فاصلة منقوطة". ويضيف متحدثاً عن زوجته "امرأتي هذه، لا تكن لي أي اعتراف بالجميل، أؤكد لك".

وعند افتراقنا أنجح في ابتزاز خمسين فرنكاً منه. وأحاول أن أعتصر خمسين سنتيماً أخرى، ولكن لا مجال. على كل حال حصلت على ما يكفيني ثمن قهوة وكرواسان. وكان بالقرب من محطة القديس اليعازر بار أسعاره مخفضة.

ويشاء الحظ أن أعثر في المغسلة على بطاقة لدخول حفلة موسيقية. وأهرع مسرعاً كالريشة إلى السال غافو. ويظهر دليل النظارة استياءً لأنني تغافلت عن إعطائه البقشيش. وكلما مررت بي ينظر إلي باستفهام وكأنه يأمل أن أتذكر فجأة.

لقد مر وقت طويل منذ أن جلست بصحبة أناس حسني المظهر حتى أنني أشعر بقليل من الخوف. لا أزال أشم رائحة القورمالدهايد. ربما كان سيرج ينقل بضاعة إلى هنا أيضاً. ولكن لا أحد يهرش نفسه، حمداً لله. ثمة نفحة عطر خفيفة خفيفة جداً. حتى قبل أن تبدأ الموسيقى تظهر تلك النظرة الضخمة على وجوه الناس. الكونشيرتو هو شكل مهذب للتعذيب الإنساني. وحالما يبدؤ المايسترو لعصاه الصغيرة، تسود نوبة تركيز متوترة يتبعها على الفور هبوط عام، وارتياح نباتي هاديء، يحدثه رذاذ متواصل غير متقطع من الأوركسترا. ويتبهِ دماغه انتباهاً دقيقاً وكأن في جمجمتي ألف مرآة. وتتوتر أعصابي وترتج! الأنغام ككريات زجاجية فوق مليون نافورة من الماء. لم أذهب دهري لحضور كونشيرتو خاوي الجوف كهذه المرة. لا شيء يفوتني،

ولا حتى أقل رنة من دبوس ساقط. وكأنني تجردت من ملابسي وكل سُم من جسمي هو بمثابة نافذة وكل النوافذ مشرعة والنور يغمر قوائمي. وأشعر بالضوء يتغلغل تحت روافد أضلعي المحدية وأضلعي معلقة فوق محور أجوف يهتز بترددات. ولا أعرف كم دام هذا الشعور، لقد فقدت كل إحساس بالزمان والمكان. وبعد انقضاء ما يشبه الأبدية تبع ذلك فترة من شبه الوعي وازنها هدوء أشبه بوجود بحيرة داخلي، بحيرة من البريق الذي يومض بألوان قوس قزح، طليه كحلوى الهلام، وفوق هذه البحيرة تظهر أسراب من الطيور العابرة ذوات الأرجل نحيلة وريش لماع حلقة بانديفاج لولبي عظيم. وتتعالى الأسراب صاعدة الواحدة بعد الأخرى بعيداً عن سطح البحيرة الرائقة الساكنة، مارة من تحت نواحري، وتضيع في بحر الفضاء الأبيض. ويبطء، يبطء شديد، كعجوز تعتمر قبعة بيضاء، راحت تدور حولي، تغلق النوافذ يبطء وتراجع أعضائي إلى أماكنها. وفجأة تندلع الأضواء ويتضح أن الرجل ذا الصندوق الأبيض الذي حسبته ضابطاً تركيا هو امرأة تعتمر أصيصاً من الزهور.

ثم سُمع أزيز وسعال كل من رغب بالسعال من كل قلبه. وحفيف أقدام ومقاعد تصدم بعنف وضجيج ثابت يفتت لأناس يمشون بلا هدف، لأناس يرفرفون براجمهم ويتظاهرون بالقراءة ثم يرمون براجمهم ويجرون أقدامهم من تحت مقاعدهم، ويرحبون بأوهى حادثة تمنعهم من التساؤل عما كانوا يفكرون به لأنهم إذا عرفوا أنهم كانوا يفكرون بلا شيء سيجنون. وتحت لهيب الأضواء القاسي يتبادلون النظرات ببلاهة وفي حملتهم توتر غريب. وفي اللحظة التي يربت فيها قائد الأوركسترا ثانية يعودون إلى حالة الإغماء التخشبية - يهرشون أنفسهم بلا وعي أو يتذكرون فجأة واجهة عرض فيها شال أو قبعة، يتذكرون كل تفصيل في تلك الواجهة بوضوح مذهل، ويأخذون بالإنصات بانتباه مضاعف لأنهم في حالة يقظة تامة ومهما تكن الموسيقى رائعة فلن يفقدوا وعيهم بواجهة العرض تلك والشال المعلق فيها، أو القبعة.

وهذا الانتباه يتبدى واضحاً وحتى الأوركسترا تبدو مكهربة في انتباه

فوق عادي، والمقطوعة الثانية تشمخ كالذروة - سريعة جداً إلى درجة أنه حالما تتوقف فجأة وتشعشع الأنوار يغوص بعضهم في مقاعدهم كالجزر، فكوكهم تتحرك بتشنج، وإذا فرضنا أنك صرخت فجأة في آذانهم: براهيمز، بيتهوفن، مندلييف، الهرسك، فسيحيون بلا تفكير قائلين: ٤، ٩٦٧، ٢٨٩.

وفي الوقت الذي نصل فيه إلى مقطوعة ديوسي يكون الجو قد بات مسموماً تماماً. وأجدني أتساءل كيف يكون شعوري لو كنت امرأة أثناء المضاجعة - وفيما إذا كانت المتعة أكبر، إلخ. وأحاول أن أتخيل شيئاً ينفذ في وسط ملتقى فنحدي، لكني لا أحصل إلا على إحساس غامض بالآلم. أحاول التركيز، لكن الموسيقى فائقة المراوغة. ولا أتمكن من التفكير إلا بزهريّة تدور ببطء والأشكال تتبدد في الفضاء. وأخيراً لا يبقى غير ضوء يدور، وأتساءل كيف يدور الضوء. الرجل الجالس قربي يغط في النوم، يبدو كسمسار بكرشه الضخم وشاربه المشمع، ويعجبني منظره. وأحب فيه خاصة ذاك الكرّش الضخم وكل ما ساهم في تكوينه. ولم لا يغط في النوم إذا أراد أن ينصت يمكنه دائماً أن ينصت إلى خشخشة ثمن بطاقة الدخول. وألاحظ أنه كلما زادت أناقة ملبسهم زاد غطيّطهم. لديهم ضمير مرتاح، هؤلاء الأغنياء، ولو أغفى رجل فقير، بضع لحظات فقط، لعذبه وخز ضميره، ولتصور أنه ارتكب جريمة بحق مؤلف الموسيقى.

أثناء المقطوعة الإسبانية سرت الكهرباء في الدار كلها. وجلس كل على طرف مقعده - فقد أيقظتهم الطبول. عندما بدأت الطبول تقرر ظننت أنها لن تتوقف أبداً. توقعت أن أرى الناس يقعون من مقاصيرهم أو يرمون قبعاتهم في الهواء. وشمل الجو عنصراً بطولياً وكان باستطاعة رافيل أن يوصلنا إلى حافة الجنون لو أراد. غير أن هذا ليس من شيم رافيل. وفجأة هدأت الموسيقى. وكأنه تذكر، وسط تصرفاته الغريبة، إنه يرتدي بذلة ذات ذيل مستدق، لقد ضبط نفسه متلبساً. وفي رأي المتواضع إنه خطأ جسيم. فالفن يتحقق بالذهاب إلى آخر الحد. وحين تبدأ بقرع الطبول عليك أن تنهي بتفجير الديناميت، أو الـ T. N. T. ورافيل ضحى بشيء ما من أجل الشكل، من أجل نوع من الخضار يقدر الناس على هضمه قبل الإيواء إلى السرير.

أفكاري تنتشر. الموسيقى تتسرب مني بعد أن سكنت الطبول، وعاد الناس في كل مكان إلى هدوئهم وانضباطهم. وتحت أضواء باب الخروج وقف شبيه لفيرتر يغمره اليأس، معتمداً على مرفقيه وعيناه تومضان. وقرب الباب يقف إسباني يحمل بيده قبعة سومبريرو، وهو يللم أطراف معطفه الفضفاض، وكأنه يتخذ وقفة موديل لتمثال "بلزاك" لرودان. من العنق وإلى أعلى يشبه بوفالو بل. في الغرفة المقابلة لي، وفي الصف الأمامي، تجلس امرأة وساقاها ممدودتان، منفرجتان على آخرهما، كأنها مصابة بالكزاز. ورقبتها مرمية إلى الخلف ومحلولة عن مكانها. وكم يكون رائعاً لو أن المرأة ذات القبعة الحمراء الغافية فوق الحاجز تصاب بالتنزيف! لو لأنها تريق فجأة مقدار دلو على أصحاب القمصان المنشأة أولئك في الأسفل. تصور أولئك التافهين الملاعين العائدين إلى البيت من حفلة موسيقية وقد تلطخت صداراتهم بالدم!

النوم هو طبقة القرار. لم يعد هناك من ينصت. من المستحيل الجمع بين التفكير والانصات. يستحيل الحلم حتى حين لا تكون الموسيقى نفسها إلا حلماً. امرأة ذات قفاز أبيض تحمل مجعة في حضنها. الأسطورة هي أنه حين أنحصت ليذا ولدت توأماً. كل إنسان يلد شيئاً ما - كل إنسان ما عدا السحاقية القابعة في الطابق العلوي، شاحخة الرأس، وحلقومها مفتوح على آخره، إنها في كامل انتباهها وتستشعر رذاذاً خفيفاً من الشرارات المنبتقة من السيمفونية المشعة وجويتر يخرق أذنيها. عبارات صغيرة من كاليفورنيا، حيتان بحرية بزعانف هائلة، زنجبار، الكازار. "حين شعشع ألف جامع على طول نهر "الوادي الكبير". عميقاً داخل جبال الجليد والأيام كلها ليلك. شارع المال فيه عموداً أنشوطات أبيضان. وتمثيل الكرغل ... والرجل ذو الهراء الجافورسكي.... والأضواء المنبعثة من النهر... وال.....

في أميركا كان لدي عدد من الأصدقاء الهنوسر ، بعضهم طيب، والبعض سيء، والبعض الآخر لامبال. وقد وضعتني الظروف في موقف جعلتني فيه لحسن الحظ مصلر عون لهم، فكنت أوفر لهم الأعمال وأجد لهم المأوى بل وأطعمهم عند الضرورة. وأعترف أنهم كانوا ممتنين جداً، إلى درجة أنهم جعلوا حياتي بائسة برعايتهم. إثنان منهم كانا قديسين، إن كنت أعرف ما هو القديس، وخاصة "جوبت" الذي وجدوه يوماً منحوراً من الأذن إلى الأذن. فقد وجد في صباح أحد الأيام في نزل في قرية غريتش ممدداً على السرير عارياً تماماً، نايه إلى جانبه وحنجرته مقطوعة، كما قلت، من الأذن إلى الأذن. ولم يعرف فيما إذا كان قد قتل أو انتحر. إلا أن هذا ليس أمراً ذا بال.....

إنني أستعيد سلسلة الظروف التي قادتني في آخر الأمر إلى بيت نانانتاتي. أستغرب كيف كنت قد نسيت كل شيء عن نانانتاتي حتى قبل أيام قلائل وأنا مستلق في غرفة من فندق وضيع في شارع سل. كنت مستلقياً هناك على سرير حديدي أفكر في حالة الصفر التي وصلت إليها، ويا له من صفر، يا له من عدم، وفجأة، بانغوا! إذا بكلمة: عدم تقفز إلى ذهني. هكذا كنا نسميه في نيويورك - عدم. السيد عدم.^(١٠)

أنا الآن مستلق على الأرض وسط جناحه البهي الذي كان يتباهي به هو في نيويورك. نانانتاتي يلعب دور السامري الطيب، فقد أعطاني روجا من الملاءات التي تسبب الحكمة، وهما ملاءتا حصان، تلفعت بهما على الأرض

(١٠) - المقصود أن إسم الهنوسري نانانتاتي، والكلمة "عدم" Monentity متشابهان لفظاً.

المترية، وفي كل ساعة من ساعات النهار كانت هناك أعمال صغيرة تتطلب الانجاز - هذا إذا تصرفتم بحمق وبقيت في البيت. في الصباح يوقظني بفضاظة لأحضر له طبق خضراوات للغداء مؤلفاً من: بصل، ثوم، وبقول، إلخ. ويحذرنني صديقه كيمي من أكل الطعام - قائلاً إنه سيء. وما الفرق إن كان طعاماً سيئاً أو جيداً؟ إنه طعام! وهذا هو المهم. إنني من أجل الحصول على الطعام كنت مستعداً وبكل سرور أن أكتس السجادة بمكنسة مكسورة، وأغسل ثيابه، وألم فتاته عن الأرض حالما ينتهي من تناول طعامه. وقد أصبح منذ وصولي حريصاً على النظافة كل الحرص: صار كل شيء يحتاج إلى التنظيف الآن، الكراسي يجب أن توضع في ترتيب معين، المنبه يجب أن يرن، المرحاض يجب أن يسلك جيداً.... إنه هندوسي مجنون إن كان حقاً بينهم مجنون! وبخيل كنبات البقول. سأضحك ملء قلبي على هذا حين أتخلص من يرثته، أما الآن فأنا سجين، رحل لا اعتبار له، نجس.....

إذا لم أعد إليه في المساء وذهبت لأتدثر بملاءات الخيل يقول لي إبان وصولي: "أوه، إذن أنت لم تمت بعد؟ ظننت أنك مت". وعلى الرغم من أنه يعرف أنني مفلس تماماً يكرر علي مسمعي خيراً عن غرفة رخيصة اكتشفها في منطقة مجاورة. وأقول "ولكني لا أستطيع استئجار غرفة بعد، أنت تعلم هذا". فيجيبني بنعومة، وهو يطرف بعينه كالصينيين: "أوه، نسيت أنك مفلس. دائماً أنسى، يا أندري... ولكن عندما تصل البرقية... عندما ترسل لك الأنسة مونا النقود، سوف تصحبني لنبحث لك عن غرفة، هه؟". وبعد ذلك مباشرة يلح علي بالبقاء قدر ما أريد - "سنة أشهر... سبعة أشهر يا أندري... أنت طيب جداً معي هنا".

وناناتاتي هو أحد الهندوس الذين لم أقدم لهم عوناً في أميركا. لقد عرفني بنفسه باعتباره تاجراً ثرياً، تاجر لؤلؤ لديه جناح فاره في شارع لافاييت في باريس، وفيلا في بومبي، وفيلا في دارجيلنغ. وأدركت منذ النظرة الأولى أنه نصف عاقل، بيد أن أنصاف العقلاء يتصفون أحياناً بعقريّة تكديس الثروة. ولم أكن أعرف أنه يدفع فاتورة الفندق في نيويورك بترك لؤلؤتين كبيرتين في يد صاحب الفندق. ويضحكني الآن أن أتذكر أن ذاك البطيطة قد تبخر في أحد

الأيام في بهو ذاك الفندق في نيويورك مع عصاه العاجية، وهو يعطي توجيهاته للخدم في كل مكان، يطلب الإفطار لصيفه، يطلب من البواب أن يتناح له بطاقات المسرح، ويستأجر سيارة أجرة ليوم واحد، إلخ، إلخ، وكل هذا دون أن يكون في جيبه سوى واحد. لا يوجد معه إلا خيط مملوء باللالء الضخمة معلق من رقبته وهو ينفقها واحدة بعد أخرى مع مرور الوقت. ويا لطريقته السخيفة في الربت على ظهري وهو يشكرني لطيبتي الجملة مع الأولاد الهندوسيين - "كلهم أذكفاء، يا أندري.... فائقوا الذكاء". ويقول إن الإله الطيب فلان الفلاني سوف يكافئني على طيبتي. الآن صرت أعرف لماذا كان الأولاد يهقهون عندما أقترح عليهم أن يقنعوه بإقراض خمسة دولارات.

كم تبدو غريبة الطريقة التي يكافئني بها الإله فلان الفلاني على إحساني. فما أنا غير عبد لهذا البطيطة السمينة. إنني رهن إشارته طول الوقت. وهو بحاجة إلي هنا - يقول لي هذا في وجهي. وحين يذهب إلى وعاء التبرز يصرخ: "أندري، احضر لي إبريقاً من الماء، من فضلك، يجب أن أتمسح"، فهو يرفض أن يستخدم ورق المرحاض. ربما كان لا يجوز طبقاً لديانته. لا، إنه يريد إبريقاً من الماء وخرقة. هذا البطيطة الثخينة "مرهف". أحياناً بينما أنا أشرب كوباً من الشاي الشاحب الذي يغمس فيه ورق الورد يأتي إلي ويقف بجاني ويضطر بصوت عال، وفي وجهي مباشرة. ولم يقل مرة "معذرة!". فلا بد أن هذه الكلمة لا يحتويها قاموسه الغوجاراتي.

يوم وصلت إلى شقة نانانتاتي كان يؤدي وضوءه، أو بمعنى آخر، كان يقف فوق وعاء قذر يحاول أن يلوي ذراعه المعقوفة وراء رقبته. وبجانب الوعاء كان هناك طاس نحاسي يستخدمه لتغيير الماء. وطلب مني أن ألزم الصمت أثناء المراسيم. فجلست صامتاً، كما طلب، ورحت أراقبه وهو يرتل ويصلي ويصق بين أن وآخر في الوعاء القذر. إذن هذا هو جناحه الذي تحدث عنه في نيويورك. شارع لافايت! لقد بدا لي أن شارعاً هاماً وأنا هناك في نيويورك. كنت أظن أنه لا يسكن ذلك الشارع إلا أصحاب الملايين وتجار اللآلء. فشارع لافايت يبدو رائعاً، حين تكون أنت على الطرف الآخر من المحيط. وهكذا يبدو أيضاً الشارع الخامس، حين تكون أنت هنا.

لا يمكن لأحد أن يتصور مراتع النفايات الموجودة في هذه الشوارع المرفهة. لا يهم، ها أنا هنا أخيراً، أجلس في الجناح الفخم في شارع لافاييت. وهذا البطيطة المجنونة بيده المعقوفة مستمر في طقوس غسيل نفسه. الكرسي الذي أجلس عليه مكسور، وعمود السرير يتداعى، وورقة الجدار تكاد تنسلخ وتقع، وتحت السرير حقيبة مفتوحة محشوة بالتياب القذرة. ومن مكان مجلسي يمكنني أن ألقى نظرة إلى أسفل حيث باحة بائسة يجلس فيها أرستقراطيو شارع لافاييت يدخنون غلايينهم. وأتساءل الآن وهو يرتل تسييحاته لله، عن شكل غرفة البنغالو في دارجيلنغ. إن ترتيله وصلاته لا ينتهيان.

ويشرح لي الآن أنه ملزم بالاغتسال طبقاً لطريقة مقررة - يتطلبها دينه. إلا أنه في أيام الأحاد يأخذ حماماً في المغطس الصغير - ويقول إن ذاتي العظمى سوف تتغاضى عن هذا. وبعد أن يرتدي ملابسه يتوجه إلى دولا ب الملابس، ويركع أمام تمثال صغير قائم على الرف الثالث، ويكرر غمغماته المبهمة. ويقول لي، إذا صليت هكذا كل يوم فلن يصيبك مكروه. والإله الطيب فلان لا ينسى عبده المطيع. ومن ثم يريني ذراعه المعقوفة التي أصيبت في حادث سيارة في يوم لا بد إنه أهمل فيه أن يكرر كامل الغناء والرقص. وتبدو ذراعه كفرجار مكسور، ولم تعد تشبه الذراع في شيء، بل هي أقرب إلى عظمة برجمة موصولة إلى ساق قائمة. ومنذ أن جبر الذراع أخذ يظهر زوج من الغدد المتورمة تحت إبطه - وهما غدتان سميتان صغيرتان، تشبهان تماماً خصيتي كلب. وبينما هو يتحسر على مصابه إذا به يتذكر فجأة أن الطبيب نصحه بمزيد من السمك واللحم " وما رأيك بالأصدا ف يا أندري - لأجل أخيك الصغير le petit frere ؟ وكل هذا هو فقط من أجل أن يترك لدي انطباعاً قوياً. فهو لا يقصد أبداً شراء الأصدا ف واللحم والسمك. على الأقل ليس طالما أنا موجود هنا. أما حالياً فنحن بصدد تغذية أنفسنا بالعدس والأرز وبمختلف الأطعمة الجافة التي خزنها في العلية. حتى الزيت الذي ابتاعه في الأسبوع الماضي لا يجوز تبديده أيضاً. وحين يبدأ بتعليق هذا الزيت تصدر عنه رائحة لا تحتمل. في أول عهدي به كنت أسرع بالهرب حالما يبدأ بتدوير الزيت، ولكن بعدئذ صرت أتحمل حتى النهاية. ولو استطاع أن

يدفعني إلى أن أتقياً وجبتي لأسعده ذلك أئماً سعادة - فعندئذ سيتوفر لديه شيء آخر يدخره إلى جانب الخبز اليابس والجبن العفن والكعك الصغير المزيّن الذي يصنعه بنفسه من الحليب الفاسد والزبد الزنخ.

ويبدو أنه خلال السنين الخمس الأخيرة لم يكن قد قام بأي عمل يذكر، لم يكسب قرشاً واحداً. وأخفقت أعماله. ويحدثني عن اللآلئ في المحيط الهندي - اللآلئ الكبيرة الضخمة التي تستطيع أن تعيش بثمرها طوال حياتك. ويضيف إن العرب يفسدون العمل. ولكنه في هذه الأثناء يصلي للإله فلان الفلاني كل يوم، وهذا يساعده على الصمود. إن علاقته بالإله ممتازة، وهو يعرف كيف يتملقه، كيف يبتز منه بضع سوات. إنها علاقة تجارية صرف. ومقابل الكلام الفارغ الذي يلقيه أمام الخزانة الصغيرة يحصل كل يوم على مؤونته من البقول والثوم، بغض النظر عن الخصيتين الضخمتين تحت ذراعه. هو واثق من أن كل شيء سينتهي على خير. وستباع اللآلئ من جديد ذات يوم، ربما بعد خمس سنوات، ربما بعد عشرين سنة - حين يشاء الإله بورمارووم. وعندما ستزدهر الأعمال يا أندري، ستحصل على عشرة بالمئة مقابل كتابة الرسائل. ولكن عليك أولاً أن تكتب الرسالة لتعرف إن كان بوسعنا أن نحصل على اعتماد من الهند. وسيستغرق وصول الرد ستة أشهر، وربما سبعة أشهر..... فالزوارق ليس سريعة في الهند". هذا البطيطة ليس لديه أي تصور لمفهوم الزمن. وحين أسأله إن كان قد نام جيداً يقول: "آه، نعم يا أندري إنني أنام جيداً.... أحياناً أنام إثنين وتسعين ساعة في ثلاثة أيام".

في أوقات الصباح يكون عادة أكسل من أن يقوم بأي عمل. ذراعه يا للذراع البائسة المكسورة التي تشبه العكازاً أحياناً أتساءل حين أراه يلويها حول رقبته إن كان سيتمكن من إعادتها إلى مكانها ثانية. ولولا الكرّش الذي يحمله لذكرني بأحد أولئك البهلوانات في سيرك مدرانو. لا ينقصه غير كسر رجله. وحين يراني على السجادة، ويرى مقدار الغبار الذي أثّره يبدأ يقرقر كالقزم "عظيم! عظيم جداً يا أندري. والآن سألتقط البقية"، وهذا يعني أنه لا يزال هناك بقايا غبار فاتني إزالتها، وهي طريقته المؤدبة في التهكم.

وفي أوقات بعد الظهر يأتيه دائماً عدد من الأصدقاء من سوق اللآلئ،

يأتون للقيام بواجب زيارته. كلهم دمثون. ويحتسون الشاي المعطر محدثين هسيساً وصجيجاً بينما يقفز نانائاتي صاعداً هابطاً كعفريت العلبة أو يشير إلى نثرة الغبار على الأرض ويقول بصوته الزلاق الناعم - "رجاء التقط هذه النثرة يا أندري". وحين يصل الضيوف يذهب منزلقاً إلى الدولاب ويحضر قطع الخبز الجاف ويكون قد حمصها قبل نحو أسبوع وصار مذاقها الآن كمذاق الخشب التالف القوي، ولا يرمي قطعة واحدة منه. فإذا فسد الخبز كثيراً يأخذه إلى الطابق السفلي للبوابة التي، كما يقول، كانت عظيمة اللطف معه. وحسب قوله فإن البوابة تبتهج لفوزها بالخبز العفن - فهي تصنع منه بودنغ الخبز.

وفي يوم أتاني صديقي أناطول ليراني. وابتهج نانائاتي لذلك. وأصر على أن يبقى أناطول لتناول الشاي. وألح عليه ليتذوق كعكة المدهن الصغير والخبز العفن. ويقول: "يجب أن تأتي كل يوم لتعلمني اللغة الروسية. إنها لغة جميلة.... أريد أن أتكلمها. كيف تقول تلك الكلمة يا أندري - borsh? اكتبها لي، من فضلك يا أندري...." ويجب أن أكتبها له على الآلة الكاتبة، وليس على شيء آخر، حتى يستطيع أن يرى براعتي الفنية. فهو الذي اشترى الآلة الكاتبة بعد أن تسول بذراعه المشوهة، فالطبيب أشار عليه بهذا لأنه رياضة جيدة. إلا أنه سرعان ما سئم الآلة الكاتبة - فهي تكتب باللغة "الإنكليزية".

وحين علم أن أناطول يحسن العزف على المندولين قال: "عظيم جداً! يجب أن تأتي كل يوم وتعلمني الموسيقى. سأشترى مندولين حالما تتحسن الحال. وهو جيد لأجل ذراعي". وفي اليوم التالي يقترض فونوغرافاً من البوابة "من فضلك علمني الرقص يا أندري، إن بطني كبيراً جداً"، ويا ليتة يشترى لي شريحة من لحم البقر حتى أستطيع أن أقول له: "هل تفضل وتعضها لأجلي يا مسر عدم. فأسناني ليست قوية!".

وكما قلت قبل دقيقة صار منذ وصولي مولعاً بالنظافة بشكل غير عادي. ويقول لي: "بالأمس ارتكبت ثلاثة أخطاء يا أندري. أولاً، نسيت أن تغلق باب المرحاض وصار طوال الليل يضرب بوم - بوم، وثانياً، تركت نافذة

المطبخ مفتوحة وهكذا شرخت النافذة هذا الصباح، ونسيت أن تخرج زجاجة الحليب! أرجوك لا تنس أن تضع زجاجة الحليب في الخارج قبل أن تأوي إلى السرير، وفي الصباح سوف تفضل وتحضر الخبز".

وكل يوم يحضر صديقه المسمى كيبي ليسأل إن كان تمه زوار قدموا من الهند. وينتظر حتى يخرج نانانتاتي فيسرع مهرولاً إلى الصوان ويلتهم شرائح الخبز المخبأة في برطمان زجاجي. ويصر على أن الطعام سيء، لكنه يدخره كجزء. وكيبي نهاب، نوع من القرادة البشرية ربط نفسه إلى مخبأ أفقر مواطنيه. ويرى كيبي أنهم ينحدرون من السلالة المغولية الملكية. وهو على استعداد ليمص مؤخرة أي هندوسي مقابل سيجار شيروت من مانيللا وثمان شراب. اتبه، أقول إنها مؤخرة هندوسي وليست مؤخرة أحد الانكليز. ولديه عنوان كل ماخور في باريس ودرجاتها. وهو يحصل على عمولته حتى من حانات العشر فرنكات. ويعرف أقصر الطرق إلى أي مكان تريد الذهاب إليه. وسيسألك أولاً إن كنت تريد أن تذهب بالتاكسي، إن كان الجواب لا سيقترح عليك الباص، وإذا كان هذا أيضاً يكلفك غالياً فالحافلة أو المترو. أو قد يقترح عليك أن يوصلك سيراً على الأقدام لتوفير فرنك أو فرنكين، وهو يعرف حق المعرفة أنكما لا بد ستمران على دكان بيع التبغ في الطريق وأنتك ستلطف وتكرم وتبتاع لي سيجار شيروت صغير.

كيبي مسلي نوعاً ما، لأنه ليس لديه أي طموح مهما كان عدا أن ينيك كل ليلة. ويصرف كل بنس يكسبه، وما أقلها، في مراتع الرقص. ومتزوج وله ثمانية أولاد في بومبي، إلا أن هذا لا يمنعه من عرض الزواج على أبة وصيفة *femme de chambre* وتكون هي من البلاهة والسذاجة بحيث تقبل. ولديه غرفة صغيرة في شارع كوندورسيه يدفع إيجاراً لها ستين فرنكاً شهرياً. وقد غطاها بورق الجدران بنفسه. وهو شديد الزهو بها أيضاً. ويستخدم لقلمه حبراً باللون البنفسجي لأنه يلدوم أكثر. وهو يلمع حذاءه بنفسه، ويكوي ملابسه الداخلية ويقوم بغسلها. وإذا تفضلت عليه بسيجار شيروت صغير فسوف يلدور بك باريس كلها. وإذا توقفت لتفرج على قميص أو دبوس لربطة العنق تومض عيناه ويقول: "لا تشتريها من هذا المحل،

فهم يطلبون غالباً، سأريك محلاً بسعر أرخص". وقبل أن يتوفر لك الوقت للتفكير في الأمر يطير بك ويضعك أمام واجهة عرض أخرى توجد فيها ربطات العنق والقمصان وأزرار ربطات العنق نفسها - ولعله حتى المحل الأول نفسه! لكنك لا تدرك الفرق. وحين يسمع كيبي أنك تريد أن تبتاع شيئاً تنتعش روحه. ويطرح عليك الكثير من الأسئلة ويجبرك إلى أماكن عديدة حتى تشعر بالعطش وتطلب منه أن تتاولا مشروباً، وعلى الأثر تكتشف مذهولاً أنك تقف ثانية في محل يبيع التبغ - وربما بائع التبغ الأول نفسه! - وكيبي يقول لك بذاك الصوت الزلق الرفيع: "هل لك أن تفضل وتنكرم وتشتري لي شيروتا صغيراً؟". ومهما كان قصدك أن تفعل، حتى وإن كنت فقط تريد أن تعطف عند الزاوية فسيوفر عليك كيبي هذا العناء. سيدلك كيبي على أقصر الطرق، على أرخص المحلات، على أكبر الوجبات، لأنك مهما فعلت فستمر حتماً على بائع تبغ، وسواء كان هناك ثورة أو إضراب أو حجر صحي فيجب أن يكون كيبي في المولان روج أو الأولومبيا أو الآنج روج حيث تضج الموسيقى.

قبل أيام أحضر لي كتاباً لأقرأه. وكان يحكي عن دعوى قضائية بين رجل دين وناشر صحيفة هندية. فيبدو أن الناشر اتهم رجل الدين بأنه يعيش حياة فاضحة، بل تمادى فاتهمه بأنه عليل. ويقول كيبي لا بد أنه مريض بالجدري الفرنسي الرهيب، لكن نانانتاتي يخالفه ويقول إنه كان السيلاان الياباني. فبالنسبة لنانانتاتي على كل شيء أن يحوي قدراً من المبالغة. على أية حال يقول نانانتاتي بمرح: "قل لي من فضلك يا أندري، ماذا يقول هذا الكتاب، أنا لا أستطيع قراءته - فالقراءة تؤذي ذراعي"، ويقول بعدها، على سبيل تشجيعي: "إنه كتاب رائع يتحدث عن النيك يا أندري. أحضره كيبي لأجلك. فهو لا يفكر إلا في الفتيات. لقد ناك الكثير من الفتيات - مثل كريشنا تماماً. إتنا لا نؤمن بذاك العمل يا أندري.....".

وبعد قليل يأخذني إلى العلية المملوءة بعلب التنك وهراء من الهند ملفوفة بالخيش وورق ناري، يقول لي: "إلى هنا أحضر الفتيات". ثم يضيف بلهجة كهيبة: "إنني لا أحسن النيك يا أندري. لم أعد أخطر الفتيات. أضمنهن إليّ

وأقول كلمات. الآن لم أعد أرغب إلا بقول الكلمات". ويصبح من غير الضروري الاستماع إلى المزيد: أنا أعرف أنه سيحكى لي عن ذراعه. أكاد أراه مستلقياً هناك ومفصله المكسور يتدلى من طرف السرير. ويضيف وسط دهشتي قائلاً: "إنني لا أصلح للنيك يا أندري. لم أكن عمري ناكحاً جيداً. أما أخي، فهو رائع! إنه يمارسه ثلاث مرات في اليوم، كل يوم! وكيي جيداً أيضاً، مثل كريشنا تماماً".

وصار ذهنه الآن مثبتاً على ممارسة النيك. وفي الغرفة الصغيرة من الطابق السفلي حيث يركع عادة أمام الخزانة المفتوحة يشرح لي حاله حين كان ثرياً مع زوجته وأولاده هنا. كان يأخذ زوجته في أيام العطل إلى "بيت الأمم" ويستأجر غرفة لليلة. وكل غرفة مجهزة بطراز مختلف، وأحببت زوجته المكان. "كان مكاناً رائعاً للنيك يا أندري". إنني أعرف كل الغرف.....".

جدوان الغرفة الصغيرة التي يجلس فيها مزدحمة بالصور الفوتوغرافية. وهي تمثل كل فرع من فروع العائلة. وكأنها مقطع عرضي للإمبراطورية الهندية. وأغلب أعضاء هذه الشجرة النسبية يبدون كأوراق ذابلة: النساء واهنات وفي عيونهن نظرة ذهول، نظرة هلع، وللرجال نظرة ذكية حادة، كالقردة المثقفة. كلهم في الصورة، عددهم تسعون، مع ثيرانهم البيضاء، وأقراص الروث، وسيقانهم الهزيلة، ونظاراتهم العتيقة الطراز، وفي خلفية الصورة، ترى بين الحين والآخر تربة جافة، أو قوصرة منهارة، أو تمثالاً بذراعين معقوفين، أشبه بحشرة بشرية. ولثة شيء فائق الروعة، شديد التنافر في هذا المعرض حتى أن المرء ليتذكر بلا تردد مجموعة عظيمة من المعابد التي تنتشر من الهيمالايا وحتى أطراف جزيرة سيلان، وهي خليط عظيم من فن العمارة، ذات جمال مذهل وفي الوقت نفسه هائلة الحجم، ضخمة بشكل قبيح لأن الخصوبة التي تهتاج وتثور في أعداد هائلة من تشعبات التصميم الفني تبدو كأنها استنفدت تربة الهند ذاتها. وحين ينظر المرء إلى الفقير المائج من الأشكال التي تعج بها واجهات المعابد يرتبك من شدة فعالية هؤلاء الناس السمر الوسمين الذين يمزجون فيوضهم الغامضة في عناق جنسي استمر ثلاثين قرناً أو أكثر. هؤلاء الرجال والنساء الهشون بنظراتهم الثاقبة الذين

يحدقون من أطر صورهم يبدون أشبه بأشباح هزيلة لتلك الأشكال الرجولية القوية، التي تجسدت في الحجر والجص من أقصى الهند إلى أدناها لكي تبقى أساطير الأجيال البطولية التي تتمازج هنا منضفرة أبداً في قلوب قروبيهم. ويكفي أن أنظر إلى قطعة من هذه الأحلام الحجرية الرحبة، هذه الصروح المتداعية المتكاسلة المرصعة بالدرر، المتخثرة بالمني الإنساني، حتى تغمرني القدرة على تجسيد أشد تعبيرات شوقهم تملصاً.

غريب خليط الشاعر الغامض هذا الذي يباغتني الآن بينما نانائاتي يهذر حول أخته التي ماتت وهي تلد. ها هي مرسومة على الجدار، هشة، مذعورة، ذات إثني عشر أو ثلاثة عشر ربيعاً متشبثة بذراع شخص خرف. حين كانت في العاشرة من عمرها وهبت زوجة إلى هذا المخادع العجوز الذي دفن لتوه خمساً من زوجاته. كان لديها سبعة أولاد، لم يعيش منهم إلا واحد. لقد بيعت إلى غوريلا عجوز لكي تبقى الآلىء في حوزة العائلة. ويصرح نانائاتي أنها وهي على فراش الموت همست للطبيب قائلة: "لقد تعبت من كل هذا النيك..... لا أريد أن أناك بعد الآن يا دكتور". وبينما هو يتلو علي هذه الحكاية كان يهرش رأسه برصانة بذراعه العلية، ويقول لي: "إن النيك سيء يا أندري، لكنني سأقول لك كلمة ستجعلك محظوظاً، يجب أن ترددها يومياً، مراراً وتكراراً، يجب أن تقولها مليون مرة. إنها أفضل كلمة موجودة يا أندري... ردها معي الآن أووما هارارمووما "

"..... أوومارابوو "

"لا يا أندري ... هكذا أووماهارارمووما "

".... أوومابووومبا"

"لا، يا أندري هكذا..... "

.... ولكن بسبب الضوء الضباب، والطبع الرديء، والغلاف الممزق، والصفحة المزعزعة، والأصابع المرتجفة، والبراغيث النطاطة، وقمل السرير، والطفافة على لسانه، وقطرة عينه، والبلغم في حنجرتة، والشراب في غالونه، والحكة التي في كفه، وصوت ريحه، وضيق تنفسه، وضباية إجهاده العقلي، والتقلص اللاإرادي لضميره، وذروة غضبه، وانفجار تدفق شرجه، والنار في

حلقة، ودغدغة ذيله، والجردان في عليته، والضجيج والغبار في أذنيه، بما إن إحراز أي تقدم يستغرق منه شهراً كاملاً، كان مصمماً على أن يحفظ أكثر من كلمة واحدة في الأسبوع.

أعتقد أنه ما كان بوسعي أن أتخلص من قبضة نانانتاتي لو لم يتدخل القدر. ففي إحدى الأمسيات شاء الحظ أن يطلب مني كيبي أن أرافق أحد زبائنه إلى ماخور مجاور. كان الشاب قد قدم لتوه من الهند ولم يكن بمقدوره أن ينفق الكثير من نقوده. كان أحد أتباع غاندي، أحد أعضاء المجموعة الصغيرة التي قامت بمسيرتها التاريخية إلى البحر أثناء الشغب الحاد. ويجب أن أعترف أنه كان تلميذاً مرحاً جداً لغاندي، على الرغم من ندر التقشف التي التزم بها. كان واضحاً أن نظره لم يكن قد وقع على امرأة منذ زمن طويل. وأقصى ما أمكنني عمله لأجله هو أن أوصله حتى شارع لافريير، لقد كان ككلب يدلي لسانه. ويا له من شيطان صغير تافه، يسربله الغرور من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه! كان يتألق ببذلة مخططة وبهريه، وخيزرانة، وربطة عنق من نوع ويندسور، وابتاع لنفسه قلبي حبر، وكاميرا كوداك، وبعض الألبسة الداخلية المزوقة. والنقود التي كان يصرفها كانت منحة من تجار يومي الذين أرسلوه إلى انكلترا لينشر تعاليم غاندي.

وما أن وجد لنفسه مربع الأنسة هاملتن حتى بدأ يفقد رباطة جأشه sang - froid. وحين ألقي نفسه محاطاً بسرب من النساء العاريات نظر إلي بذعر. قلت له: "انتقي واحدة، الاختيار لك". أخذ يتلعثم إلى درجة إنه لم يعد يستطيع النظر إليهن. وغمغم لي وقد احمر بشدة "انتقي لي أنت"، فنظرت إليهن نظرة شاملة بهدوء وانتقيت فتاة هيفاء ممثلة في كامل نشاطها. جلسنا في غرفة الاستقبال وانتظرنا مجيء الشراب. سألت المدام لماذا لم اختر واحدة لنفسي. وقال الشاب الهندوسي: "نعم، خذ أنت واحدة أيضاً، لا أريد أن أبقى وحدي معها". وعادت الفتيات من جديد واخترت لنفسي واحدة، طويلة، نحيلة لها عيناان كحيتان. وتركنا وحدنا، نحن الأربعة، في غرفة الاستقبال. بعد لحظات اقترب مرافقي الهندوسي مني وهمس بشيء في أذني. قلت: "طبعاً، إذا كانت تعجبك فخذها". وهكذا رحلت أشرح للفتاتين

بارتباك جم يفتقر للباقة أننا نريد أن نباشر. وسرعان ما وجدت أننا ارتكبنا زلة، غير أن صاحبي الشاب كان قد أصبح مرحاً يتصرف بفسوق ولم يعد أمامنا إلا أن نصعد إلى الطابق العلوي بسرعة وننهي الأمر كله.

احتلنا غرفتين يفصل بينهما باب. واعتقد أن زميلي كان ينوي أن يعيد الكرة بعد أن يشيع جوعه الحاد القارص. مهما يكن، ما إن غادرت الفتاتان الغرفة لتهيئة نفسيهما، حتى سمعت قرعاً على الباب، وإذ به يسأل "أين المرحاض، أرجوك؟" ودون أن أنتبه إلى أن الأمر خطير استعجلته ليعملها في مرحاض السيدات bidet. وعادت الفتاتان والمنشفتان في أيديهما وسمعته يقهقه في الغرفة المجاورة.

وبينما أنا أرتدي سروالي الداخلي إذ بي أسمع هرجاً في الغرفة الثانية. الفتاة تصبح وهي تطرده من الغرفة وتنعته بخنزير حقير قدر. وأفضل في تصور ما فعل حتى أثار كل تلك الثورة. وأنصت بانتباه وأنا أقف في مكاني واضعاً إحدى قدمي في البنطلون. إنه يحاول أن يشرح لها بالانكليزية، وهو يرفع صوته شيئاً فشيئاً حتى صار زعيقاً.

وأسمع باباً يصفع وفي اللحظة التالية تندفع المدام كالعاصفة إلى غرفتي، وجهها أحمر بلون الشوندر، ذراعاها تومئان باحتياج، وتصرخ: "يجب أن تخرج من نفسك لأنك أحضرت معك رجلاً كهذا إلى بيتي! إنه همجي خنزير إنه ...!" وزميلي واقف خلفها، عند الباب، وقد علت وجهه نظرة متعجبة الهزيمة. وأسأل "ماذا فعلت؟".

وتزعق المدام: "أقول ماذا فعل؟ سوف أريك..... تعال معي!" وتقبض على ذراعي وتجرتني إلى الغرفة المجاورة، وتصرخ: "أنظرا أنظرا"، وهي تشير إلى الـ bidet.

ويقول لي الفتى الهندوسي: "هيا بنا، فلنخرج من هنا"

"انتظر دقيقة، لا يمكنك أن تخرج بهذه السهولة"

وتقف المدام بالقرب من الـ bidet وهي تدخن وتبصق، وإلى جانبها تقف الفتاتان أيضاً وهما ممسكتان بالمنشفتين. ووقفنا جميعاً ننظر إلى الـ bidet حيث ثمة كتلتان ضخمتان من البراز تعومان فوق الماء. ومالت المدام

ووضعت منشقة فوقه. وناحت قائلة "شيء مربع مربع لم أر في حياتي شيئاً كهذا! يا له من خنزيرا خنزير حقير قذر!"

وينظر الفتى الهندوسي إلى لائماً، ويقول: "كان يجب أن تقول لي! لم أكن أعلم أنها لن تغوص. سألتك أين يجب أن أذهب وقلت لي أن أستخدم هذا" وكاد ييكي.

وأخيراً تأخذني المدام جانباً وقد صارت الآن أكثر تعقلاً، فقد كان الأمر كله خطأ، على أية حال. ربما يرغب السيدان بالتزول إلى أسفل وطلب كأس أخرى - للفتاتين. لقد كان الأمر صاعقاً بالنسبة لهما. إذ ليستا معتادتين على أشياء كهذه، وليت السيدين يتلطفان ويحسبان حساب الوصيفة *famme de chambre*.... إنه ليس بالأمر المقبول لك *famme de chambre* هذه الكومة البشعة. وتهز كتفيها وهي تغمز بعينيها. حادث مؤسف. لكنه حادث. لو ينتظر السيدان هنا بضع لحظات ستحضر الخادمة الشراب بعد قليل. هل يرغب السيدان ببعض الشمبانيا؟ نعم؟

"أريد أن أخرج من هنا" يقول الفتى الهندوسي بصوت واهن. وتقول المدام "لا تكن كثير الابتئاس، لقد انتهى كل شيء. فالأخطاء تحدث أحياناً. في المرة القادمة يجب أن تسأل أين المرحاض" وتتابع حديثها عن المرحاض - يبدو أنه يوجد في كل طابق واحد. وحمام أيضاً.

وتقول: "لدى الكثير من الزبائن الانكليز، إنهم جميعاً مهذبون. هل السيد هندوسي؟ الهندوس قوم فانون. أذكاء جداً، ووسيمون".

وحين نصل إلى الشارع يكون الشاب الفاتن على وشك أن ييكي. لقد ندم الآن لأنه اشترى البدلة والعصا وأقلام الحبر. ويبدأ بالتحدث عن النذر الثمانية التي التزم بها. وعن كبح حاسة التدوق، إلخ. فائشاء المسيرة إلى داندي كان من المحرم تناول حتى صحن من البوظة. ويحكى لي عن الدولاب الدائر - وكيف قلدت المجموعة الصغيرة المسماة ساتيا غراهيست تكريس سيدها. ويتلو علي بفخر كيف مشى إلى جانب السيد وتحدث معه. حتى صرت أتخيل أنني في حضور أحد التلاميذ الإثني عشر.

خلال الأيام القليلة التي تلت تقابلنا مرات عديدة، فقد كان عليه أن

ينظم مقابلات صحفية مع رجال الصحافة ويلقي المحاضرات أمام الهندوس الموجودين في باريس. من المذهل رؤية أولئك الشياطين الضعاف الشخصية يتبادلون إلقاء الأوامر على بعض، ومن المذهل أيضاً أن ترى مبلغ جذبهم بكل ما يخص المسائل العملية، وغيرتهم وخداعهم، ومنافساتهم التافهة الدينية. وأينما اجتمع عشرة من الهندوس مثلوا الهند بشيوعها وانشقاقاتهما، بخصوماتها العنصرية واللغوية، والدينية، والسياسية. ويمارسون برهة من الوقت في شخص غاندي معجزة الاتحاد، ولكن حين يغيب يحدث تصدع، انتكاس داخل ذلك الصراع وعماء هو أبرز ما يميز الشعب الهندي.

وصاحبنا الشاب الهندوسي متفائل طبعاً. وقد ذهب إلى أمريكا ولوثة فكر الأميركيين الرخيص، لوثة حوض الاستحمام الكلي الوجود، ومخزن الطُرف التي تساوي خمسة شلنات وعشرة ستات، والنشاط الصاحب، والفعالية، والآلية، والأجور العالية، والمكبات المجانية.... إلخ، إلخ. ومثله الأعلى هو أمركة الهند. وهو ليس مسروراً من هوس غاندي الرجعي. ويهتف "إلى الأمام"، كأحد أعضاء منظمة الشبيبة المسيحية. وبينما أنا أنصت إلى حكاياه عن أميركا أرى مدى سخفنا أن نتوقع من غاندي أن يحقق المعجزة التي تغير مجرى القدر. ليست انكلترا هي عدو الهند، بل أميركا. عدو الهند هو روح الزمن، هو اليد التي لا يمكن كف شرها. لن يفيد شيء في مكافحة هذا الفيروس الذي يسمم العالم برمته. أميركا هي تجسيد للهلاك نفسه، وسوف تبحر العالم كله إلى لجة لا قرار لها.

هو يظن أن الأميركيين قوم غاية في السذاجة. ويخبرني عن الملائكة السذج الذين أعانوه هناك - عن الصاحبين، والموحدين، والثيوصوفيين، والمفكرين الجدد، ومجيشي اليوم السابع.... إلخ. كان يعرف إلى أين يوجه قاربه، هذا الشاب الحاذق، يعرف كيف يجعل الدموع تطفّر من عينيه في اللحظة المناسبة، وكيف يتولى أمر مجموعة، ويغوي زوجة الكاهن، وكيف يمارس الحب مع الأم والإبنة في وقت واحد. تنظر إليه فتظنه قديساً. وهو قديس حقاً، بأسلوب حديث، قديس متفسخ، يتحدث بنفس واحد عن الحب، والأخوة، ومغاطس الحمامات، والحفاظ على الصحة العامة، والفعالية

.... إلخ.

وقد خصص الليلة الأخيرة من إقامته في باريس لـ "شؤون النيك". وكان برنامجه ممتكناً حتى آخره طوال النهار - اجتماعات، يرقيات، مقابلات، صور للصحف، وداعات مؤثرة، نصيحة للمؤمنين، إلخ، إلخ. وفي وقت الغداء يقرر أن يطرح مشاكله جانباً. ويطلب زجاجة شمبانيا مع الوجبة، ويفرقع أصبعيه مستدعياً "الغرسون" ويكون تصرفه بشكل عام تصرفاً يدل عليه كفلاح متواضع جلف. وبما أنه أشبع فضوله من كل الأماكن الجيدة يقترح علي أن أريه شيئاً أكثر بدائية. ويود أن يذهب إلى مكان رخيص جداً، ويطلب حضور فتاتين أو ثلاث دفعة واحدة. وأقوده على طول بولفار دو لاشايل محذراً إياه أن يتبه إلى محفظته. وفي منطقة أوبرفير نهبط إلى حانة رخيصة وفي الحال نجد بين أيدينا سرباً منهن. خلال دقائق كان يراقص غانية عارية، شقراء، ضخمة تعلو التغضنات أسفل خديها. وأرى خلفيتها تنعكس مرات عديدة في المرايا المحيطة بالمكان - وأصابعه النحيلة السمراء تتشبث بها بإصرار. الطاولة ممتلئة بزجاجات البيرة، والبيانو الميكانيكي يئز ويلهث. والفتيات العاطلات جالسات على المقاعد الجلدية بهدوء، يهرشن أنفسهن بسلام، مثل عائلة من الشمبانزي. ويسود نوع من جو جحيمي مخفف ونفحة عنف مكبوتة، وكان الانفجار المنتظر يتطلب حدوث مجرد تفصيل تافه، شيء مجهرى لكنه غير متعمد على الإطلاق، وغير متوقع أبداً. في هذا الجو من شبه الحلم الذي يسمح للمرء بالمشاركة في حدث ما والبقاء في الوقت نفسه بعيداً كل البعد، بدأ التفصيل الدقيق المفقود يتخثر بغموض ولكن بشكل لافت للنظر، ويتخذ شكلاً عجيباً صافياً، كالصقيع المتشكل على زجاج النافذة. وكما الحال مع هذه الأشكال الجليدية الشديدة الغرابة، الحرة تماماً والرائعة في تصميمها، والمقيدة مع ذلك بأشد القوانين صرامة، كذلك بدأ هذا الاحساس الذي بدأ يتكون داخلي يُظهر خضوعه للقوانين المحتومة. كان كياني كله يستجيب لما تمليه عليه بيئة لم يختبرها من قبل، وبدأ أن ذاتي تنقلص وتكثف، وتنكص مبتعدة عن الحدود التافهة الاعتيادية للجسد الذي لا يعرف حده الخارجي إلا تغيرات أطراف الأعصاب.

وكلما زادت صلابة جوهري وثرأؤه ، زادت رهافة وتطرف الحقيقة القرية الملموسة التي عُصرتُ منها. وبالدرجة نفسها التي ازدادتُ فيها متانة على متانة تضخم المشهد الممتد أمامي. وهكذا رُسمتُ حالة التوتر بدقة حتى إن دخول ذرة أجنبية واحدة، ولو مجهرية، كان جديراً بتبديد كل شيء. لقد خبرت ربما في جزء من اللحظة ذاك النقاء التام الذي، كما يقال، لا يوهب إلا لعصابي. في تلك اللحظة فقدت وهمي الزمان والمكان كلياً: وفي الوقت نفسه نشر العالم صراعه على طول أوج ليس له محور. في مثل هذا النوع من أبدية الزند الشعري hair-trigger شعرت أن كل شيء مبرر، مبرر بشكل مطلق، شعرت بالحروب الناشئة داخلي التي خلفت هذه الفوضى والدمار، شعرت بالجرائم التي كانت تغلي هنا وستظهر غداً في العناوين الرئيسية الصارخة، شعرت بالبؤس يجرش نفسه بالمدقة والهاون، البؤس الطويل المتبلد الذي يقطر من المناديل القدرة. وفي هاجرة الزمن لا وجود للظلم: لا يوجد إلا شعر الحركة الذي يخلق وهم الحقيقة والدراما. ليت بإمكان المرء أن يقابل المطلق في أية لحظة، في أي مكان، وجهاً لوجه، بحيث أن ذاك التعاطف العظيم الذي يضيف على رجال أمثال غوتاما واليسوع القداسة، يتجمد، والأمر الهائل ليس في أن الرجال خلقوا من تلة الروث هذه وروداً، بل هو لسبب أو لآخر، إرادتهم للورود. إن الإنسان يبحث لسبب أو لآخر عن المعجزة، ولكي يحققها سوف يخوض في بحر من الدماء. سوف يتمرغ في الأفكار، ويمسح نفسه إلى شبح إذا استطاع ولو لمرة واحدة وللحظة واحدة من حياته أن يغمض عينيه دون شناعة الواقع. كل شيء اختبر - الخزي، الذل، الفقر، الحرب، الجريمة، "الملل" - على أمل أن يظهر شيء بين ليلة وضحاها، معجزة تجعل الحياة محتملة. وثمة عدداً يجري طول الوقت في الداخل ولا يمكن ليد أن تصل إليه لتوقفه. وطول الوقت هناك من يأكل خبز الحياة يشرب خمراً، وهو كاهن يشبه صرصاراً سميناً قلراً، يختفي عن العيون في القبر وهو يعبه، بينما هناك في الأعلى وعلى نور مصباح الشارع يلمس خبز قربان كاذب الشفاء والدم شاحب كالماء. ولا تنبثق من العذاب والبؤس الأبديين أية معجزة، ولا أوهى أثر للإرتياح. مجرد أفكار، أفكار سقيمة هزيلة يجب أن تسمن بمذبة، أفكار تنبثق كالصفراء، كأحشاء جثة خنزير منتفخة

أقول في نفسي يا لها من معجزة إذا اتضح للإنسان الذي يشهدها على الدوام أنها ليست أكثر من كتلي الغائط الهائلتين اللتين أسقطتهما التلميذ المخلص في الـ bidet . ماذا لو ظهر فجأة بعد أن تكون المأدبة قد مدت والصنوج قد دوت، ودون سابق إنذار، فوق الطبق الكبير الفضي حيث يمكن حتى للأعمى أن يرى أنه لا يوجد أكثر، ولا أقل، من كتلي خراء ضخمتين. وأعتقد أن هذا سيكون أكثر إعجازاً من كل ما يمكن للإنسان أن يصبو إليه. سيكون معجزاً لأن أحداً لن يكون قد حلم به. سيكون أكثر إعجازاً حتى من أشد الأحلام ضراوة لأن أي إنسان يمكن أن يتصور الإمكانية ولا أحد فعل ذلك، وربما لن يفعل أحد ذلك مرة أخرى.

وبشكل ما كان لإدراك فقدان كل أمل تأثير مفيد عليّ. ولطالما تطلعت، طوال أسابيع وشهور وسنين، بل وطوال حياتي والحق يقال ، لحادث أمر ما، حدث جوهري يغير حياتي كلها، والآن وقد ألهمني ياسي التام من كل شيء، صرت أشعر فجأة بالارتياح، أشعر وكأن عبء ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي. وفي الصباح فسخت شركتي مع الهندوسي، بعد أن أقنعت به بنفحي بضعة فرنكات تكفيني أجرة غرفة. وقررت وأنا متوجه إلى مونبرناس أن أدع نفسي تنحرف مع المد، أن لا أبدي أدنى مقاومة في وجه القدر، بأي شكل تبدى لي، ولم يكن أي مما حدث لي حتى ذلك الحين كافياً لتحطيمي، لم يتحطم إلا أوهامي. أما أنا فبقيت سليماً معافى. وكان العالم كله معافى. غداً قد تحدث ثورة، أو يحل وباء، أو يقع زلزال، قد لا يبقى غداً مخلوق واحد يمكن الركون إليه طلباً للتعاطف، أو للمساعدة، أو للإخلاص. بدا لي أن الكارثة العظمى قد تكشفت، وأنه لم يعد بإمكانني أن أكون أكثر وحدانية مني في هذه اللحظة. قررت أن لا أتعلق بأي شيء، أن لا أتوقع أي شيء، وأن أعيش منذ الآن كحيوان، كبهيمة مفترسة، كقرصان، كنهاب. وحتى لو أعلنت الحرب، وقدر لي أن أموت، لتناولت حربة وعرزتها، غرزتها كلها حتى مقبضها. وإذا كان الاغتصاب هو دستور هذا الزمان، فسأغتصب، وبكل عنف. وفي هذه اللحظة بالذات، في صباح يوم جديد هادي، أليست

الأرض مصابة بدوار الجريمة والألم الممض؟ هل تغير عنصر واحد من طبيعة الإنسان، فعلياً، جوهرياً، خلال مسيرة التاريخ المتواصلة؟ كل ما حدث هو أن الإنسان قد خدع في ما يسميه أفضل جزء من طبيعته. وها هو يجد نفسه من جديد عند آخر حدود روحانيته عارياً كالهمجيين. وعندما سيجد الله، كما فعل من قبل، سيخرج نظيفاً: هيكلًا عظيمًا. وعلى الإنسان أن يحفر لنفسه ثنية جحرا في الحياة حتى يربي لحماً جديداً. وعلى الكلمة أن تصبح لحماً، فالروح ظمأى. سأنقض وأفترس كل كسرة تقع عليها عيناى. فإذا كان العيش هو أسمى شيء سأعيش، حتى ولو صرت من آكلي اللحم البشري. إنني حتى الآن أحاول أن أنقذ مخبئي الثمين، أحاول الاحتفاظ بقطع اللحم القليلة التي تستر عظامي. لقد سئمت هذا، وصلت إلى آخر حدود الاحتمال.ظهري ملتصق بالجدار، ولم يعد باستطاعتي أن أراجع أكثر. أنا ميت في عرف التاريخ. وإذا كان ثمة إمكانية للتجاوز فيجب أن أرتد مسرعاً إلى الخلف. لقد وجدت الله، لكنه ليس كافياً. إنني ميت روحياً فقط، أما جسدياً فأنا حي. وأما أخلاقياً فأنا حر. والعالم الذي غادرته هو متحف للحيوانات المحنطة. الصبح ينبلج على عالم جديد، عالم همجي تحوم فيه الأرواح العجفاء وهي تحمل أنياباً حادة. إن كنت ضيعاً فأنا ضيع واهن جائع: وأنا بصدد تسمين نفسي.

في الواحدة والنصف عرّجتُ علي فان نوردن، حسب اتفاقنا. وقد حذرني من أنه إذا لم يجب فهذا يعني أنه نائم مع إحداهن، ربما مع عاهرتة الجيورجية.

على أية حال، كان هناك، مندساً في فراشه بكل ارتياح، ولكن بروح قلقة كالمعتاد. ويستيقظ وهو يلعن نفسه، أو يلعن الوظيفة، أو يلعن الحياة. يستيقظ وهو سئم كل السأم ومحبط، متألم لأنه لم يمت أثناء الليل.

أجلس قرب النافذة وأنفحه بما أستطيع من الشحاعة. ويسأله من عمل ممل. إنه بحاجة لمن يلاطفه ليخرج من السرير. في أوقات الصباح - ويعني بأوقات الصباح الفترة الواقعة ما بين الساعة الواحدة والخامسة بعد الظهر - إذن في أوقات الصباح ينغمس في أحلام اليقظة. وغالباً ما يحلم بالماضي. "بعاهراته". يحاول أن يتذكر كيف كن يشعرن، وما قلن له في لحظات معينة حرجة، وأين ضاجعهن، إلخ. وبينما هو مستلق هكذا، يزجر ويلعن، يتلاعب بأصابعه بتلك الطريقة الغريبة الدالة على الملل، وكأنه يريد أن يعطي انطباعات بأن تقززه هو أعظم من أن تعبر عنه الكلمات. وعلى قائمة السرير تتعلق حقيبة نضح يحتفظ بها لحالات الطوارئ - من أجل "العذارى" اللواتي يتعقبهن كأنه بوليس سري. وحتى بعد أن يضاجع إحدى تلك المخلوقات الأسطورية فسيظل يشير إليها على أنها عذراء، ولا يذكرها مرة باسمها. فهو يقول "عذرائي" تماماً بالنبرة نفسها التي يقول فيها "عاهرتي الجيورجية". وحين يذهب إلى المرحاض يقول: "إذا اتصلت عاهرتي الجيورجية قل لها أن تنتظر. قل لها إنني قلت هذا. واسمع، يمكنك أن تحصل عليها إذا أردت، لقد سئمتها".

يلقي نظرة على أحوال الطقس ويطلق تنهيدة عميقة. فإذا كانت السماء ممطرة يقول "لعن الله هذا الطقس المنيك، إنه يمرضني". وإذا كانت الشمس مشرقة براقعة يقول: "لعن الله هذه الشمس المنيوكة إنها تعميي". وفحاة وبينما هو يحلق ذقنه يتذكر أنه لا توجد منشفة نظيفة "لعن الله هذا الفندق المنيك، إنهم أبخل من أن يعطوك منشفة نظيفة كل يوم". ومهما كان يفعل وأينما يذهب فالأحوال بالنسبة له ليست على ما يرام. فالبلد المنيك، أو العمل المنيك، أو حتى العاهرة المنيوكة هي التي تضعه على حافة الجنون.

ويقول وهو يغرغر حنجرتة: "أسناني كلها عفنة، بسبب ذاك الخبز المنيك الذي يرسلونه إلينا هنا". ويفتح فمه حتى آخره ويشد شفته السفلى إلى أسفل "أترى هذا؟ بالأمس خلعت ستة من أسناني. وقرياً علي أن أضع طقماً جديداً. هذا ما تحصل عليه من كسب عيشك. عندما كنت متبطلاً عريداً كانت كل أسناني سليمة، وعيناي متألفتين وصافيتين. أنظر إلي الآن! إنها لمعجزة أن أتمكن من اجتذاب عاهرة حتى الآن. يا إلهي، إن ما أرغب فيه هو أن أقع على عاهرة ثرية - كما فعل ذاك الأير الصغير الذكي كارل..... هل أراك الرسائل التي تبعثها إليه؟ من هي، هل تعرف؟ إنه يرفض أن يخبرني باسمها، ابن الحرام.... يخاف أن أخطفها منه". ويغرغر حنجرتة ثانية ويلقي نظرة طويلة على التجاويف، ويقول لي محزون: "أنت محظوظ، لديك أصدقاء على الأقل. ليس لدي أي صديق، عدا الأير الصغير الذكي الذي يثير حفيظتي بالحديث عن عاهرتة الثرية".

ويقول: "اسمع، هل تصادفَ وتعرفتَ على عاهرة اسمها نورما؟ إنها تتجول طوال النهار حول مقهى الدوم. أعتقد أنها شاذة. أحضرتها إلى ها البارحة، ودغدغت مؤخرتها. لم تسمح لي بفعل أي شيء. طرحتها على السرير.... بل ونزعت عنها ثيابها.... ولكن بعد ذلك شعرت بالغثيان. يا إلهي، لم أعد أطيع تحمل الصراع على هذا الشكل بعد الآن. فالأمر لا يستحق. فإما أن يفعلن ما تريد أو لا يفعلن. من الهبل إضاعة الوقت في مصارعتهن. ففي الوقت الذي تتعارك فيه مع عاهرة حقيرة كهذه تكون هناك دزينة غيرها يتحرقن شوقاً حتى الموت لتطرحهن، هذه حقيقة. كلهن

يأتين إلى هنا للمضاجعة. يعتقدن أن المكان هنا أثيم. البلهاوات المسكينات! بعضهن مدرسات من أقصى الغرب، وهن عذراوات فعلاً..... صدقي! ويجلسن طوال النهار على المرحاض يفكرن بهذا الأمر.... ولا داعي لأن تقوم بأي مجهود معهن فهن متحرقات لإتمام كل شيء. قبل أيام أتيت بامرأة متزوجة لم تكن قد نيكت منذ ستة أشهر. أتتصور هذا؟ يا إلهي، كانت حامية! ظننت أنها ستززع أيري مني. وراحت تتأوه طوال الوقت وهي تهمهم "ألا تريد؟ ألا تريد؟" وظلت تكرر هذا، كالمعتوهة. وهل تعرف ماذا أرادت هذه العاهرة أن تفعل؟ أرادت أن تقيم عندي هنا. تصورا وسألتني إن كنت أحبها؟ إنني حتى لم أكن أعرف اسمها. ولا أتعرف على أسمائهن أبداً.... ولا أريد ذلك. والمتزوجات! يا يسوع، لو رأيت كل المومسات المتزوجات اللواتي كنت أحضرهن إلى هنا لطرحت كل أوهامك. إنهن أسوأ من العذراوات، أولائي المتزوجات. لا يتركن لك محالاً لتبدأ الأمر - بل يخرجنه منك بأنفسهن. أما الحب فيتحدثن عنه فيما بعد. شيء مقزز. أؤكد لك أنني بدأت أكره المومسات".

ويعود إلى النظر من النافذة. المطر يهطل رذاذاً. وهو يهطل على هذا الشكل منذ خمسة أيام. "هل ستذهب اليوم إلى الدوم، يا جو؟" وأنا أطلق عليه اسم جو لأنه أيضاً يناديني باسم جو. وحين يكون كارل معنا يكون أيضاً اسمه جو. الكل يسمى جو لأن هذا أسهل. وهي أيضاً طريقة مسلية لتذكر أن لا تتناول الأمور بكثير من الجدية. مهما يكن، جو لا يريد أن يذهب إلى الدوم - فهو مدين هناك بكثير من النقود. بل يريد أن يذهب إلى الكوبول. يريد أن يتمشى قليلاً.

"لكنها تمطر يا جو".

"أعرف، ولكن إلى الجحيم. يجب أن أنفذ برنامجي المقرر. يجب أن أطرح القذارة من بطني". حين يقول هذا يتأبني انطباع بأن العالم كله مغلف داخل بطنه، وأنه يتعفن هناك.

وبينما هو يرتدي ثيابه إذا به يعود من جديد إلى حالة شبه غيوبة. يقف في مكانه واضعاً إحدى ذراعيه في كمّ معطفه وقبعته يحملها على مؤخرته ويبدأ

بالحلم بصوت عال - عن الريفيرا، والشمس، وتبديد الحياة بالتكاسل. يقول: "كل ما أطلبه من الحياة هو حزمة كتب، وحزمة أحلام، وحزمة عاهرات". وبينما هو يغمغم بهذا حالماً ينظر إلى مع ابتسامة غاية في الرقة والغواية، يقول لي: "أتعجبك هذه الابتسامة؟"، ثم يتابع مبدياً تقزره "يا يسوع، ليتني أستطيع أن أعثر على عاهرة ثرية لأبتسم لها هكذا!".

ثم يقول بمزاج مفعم بالقلق "عاهرة ثرية وحدها تستطيع إنقاذي الآن، إن المرء منا بات ملولاً من طول الجري منتقلاً من عاهرة إلى أخرى. أصبح الأمر يحدث آلياً. والمشكلة هي، في الواقع، أنني لا أستطيع أن أعشق. إنني غارق في ذاتي. وكل ما في الأمر أن النساء يساعدنني فقط على الحلم. وهذه رذيلة، كمعاقرة الخمر أو تدخين الآفيون. صار يجب أن أحصل على واحدة كل يوم، وإذا لم أنجح أصاب باكتئاب مرضي. إنني أغلي في التفكير. أحياناً أذهل من نفسي، وسرعني في نيل حظوة - وما أقل ما يعنيه لي. إنني أقوم به بشكل آلي. أحياناً وأنا أبعد ما أكون عن التفكير فيهن، ألاحظ فجأة أن ثمة امرأة تنظر إلي وثم، بانغوا ويبدأ كل شيء من جديد. وقبل أن أعي حقيقة ما أفعل أكون قد أحضرتها إلى غرفتي. حتى إنني لا أذكر ما أقوله لهن. أجلبهن إلى الغرفة، أداعب مؤخراتهن وقبل أن أعرف ماذا يجري يكون كل شيء قد انتهى. إنه كالحلم.... أتفهم ما أعني؟".

وهو لا يحتمل الفرنسيات. لا يطيقهن. فلما إنهن يردن نقوداً أو يرغبن في الزواج. أما في أعماقهن فجميعهن عاهرات. أنا أفضل العراك مع عذراء. هكذا يقول: "فهن يزودنك بقليل من الوهم. على الأقل يثرن قتالاً". والأمر نفسه حين ننظر عبر المصطبة، فلا تكاد توجد عاهرة واحدة على مرمى النظر لم ينكها في وقت أو آخر. ويشير إليهن واحدة بعد أخرى وهو يقف على البار، ويمر عليهن وكأنه يشرّجهن، ويصف خصالهن ونقائصهن، ويقول "كلهن باردات"، وبعدها يبدأ بتحريك يديه، مفكراً في العذراوات الرائعات النضرات اللواتي يتحرقن اشتياقاً.

ووسط أحلام يقظته يكبح نفسه فجأة، ويشير، قابضاً على ذراعي بقوة وقد اهتاج، إلى امرأة ضخمة كالحوت تكاد تجلس على مقعد. ويزجر "ها

هي عاهرتي الدانماركية، أترى مؤخرتها؟ دانماركية تماماً. آه، كم تحب هذه المرأة النيك! إنها تتوسل إلي كي أفعله معها. تعال من هنا... والآن انظر إليها، من هذه الناحية. انظر إلى تلك المؤخرة. أترى؟ هائلة. سأخبرك بشيء، حين تمتطيني لا أكاد أتمكن من إحاطتها بذراعي. إنها كفيلة بتغطية العالم كله. تجعلني أشعر وكأنني بقعة صغيرة تزحف داخلها. لا أدري لماذا وقعت صريعها - أعتقد أن تلك المؤخرة هل السبب. تشبه شيئاً عظيم التنافر. ويا للتفضنات التي فيها! لا يمكنك نسيان مؤخرة مثلها. هذه حقيقة.... حقيقة صلبة. أما الأخريات، فإما أنهن يُسئمنك، أو يمنحنك برهة وهم، أما هذه - مؤخرتها! - زروي، لا يمكن استبعادها..... كأنك تأوي إلى السرير وتضع تمثالاً فوقك".

ويبدو أن العاهرة الدانماركية هزته بعنف. والآن تخلص من كل كسله. عيناه جاحظتان من رأسه. وطبعاً صار الشيء بالشيء يذكر. يريد أن يخرج من الفندق المنيك لأن الضجيج يزعجه. يريد أيضاً أن يكتب كتاباً عن مونبرناس.... أريد أن أكتب حياتي، أفكاري. أريد أن أتفصّل الأقدار من بطني... اسمع، إحصل على تلك المرأة التي هناك لقد سبق وحصلت أنا عليها منذ فترة. كانت تقطن قرب ليزال. عاهرة مضحكة. تستلقي على طرف السرير وترفع ثوبها. هل جربت هذه الطريقة؟ لا بأس بها. إنها حتى لم تستحشني. بل اكتفت بالاستلقاء على ظهرها وهي تعبت بقبعتها بينما زحفت عليها. وحين قذفت قالت بنبرة ملول - "هل انتهيت؟" وكأن الأمر سيان لديها. وطبعاً الأمر سيان، أعرف هذا الشيء اللعين تماماً..... ولكن يا للطريقة الباردة التي تتصرف بها.... تعجبني حقاً... مذهلة، أتعلم هذا؟ وحين تذهب لتتلف نفسك تبدأ بالغناء. وأثناء خروجها من الفندق تكون لا تزال تغني. وحتى إنها لا تقول *au revoir* وترحل وهي تهز قبعتها وتهمم كأنها تحدث نفسها. هذه عاهرة ثلاثمك! تقضي معها مضاجعة جيدة. أعتقد أنني أفضلها على عذرائي. ثمة نكهة فسق في خرط امرأة لا تولي الأمر أية أهمية. إنها تحمي دمك....."، وبعدها، بعد لحظة تأمل يتابع - "هل تتصور كيف يمكن أن تكون لو أن لها أي مشاعر؟".

ويقول " اسمع، أريدك أن تأتي إلى النادي معي غداً بعد الظهر.... ثمة حفلة راقصة "

"غداً لا أستطيع يا حو. وعدتُ كارل أن أساعده في.... "

"اسمع، انس هذا الأيرا أريدك أن تقدم لي معروفاً. وهو ما يلي " - ويبدأ بتحريك يديه من جديد. " لـدي عاهرة أحتفظ بها جانباً.... وعدت أن تقضي معي الليلة. غير أنني لم أنسجم معها بعد. في الواقع، ترافقها أمها.... رسامة خرية، كلما تقابلنا تعضُ أذني حتى تكاد تخلعها. وأعتقد أن الحقيقة هي أن الأم غيور. ولا أعتقد أنها تمنع إن ضاجعتها أولاً. أنت تفهم الوضع.... مهما يكن، لا أظن أنك ترفض أن تأخذ الأم.... ليست سيئة كثيراً.... ولو لم أر الابنة لفكرت بها. الابنة جميلة وصغيرة، ونضرة، أتفهم ما أعني؟ يفرح منها عقب النظافة.... "

"اسمع يا حو، الأفضل أن تجد غيري.... "

"أوه، لا تفهم الأمر هكذا! أعرف كيف تشعر. إنني أطلب منك معروفاً صغيراً تقدمه لي. لا أعرف كيف أتخلص من الدجاجة العجوز. فكرت أول الأمر في أن أسكر ثم أحرقها - ولكن لا أعتقد أن هذا يعجب الصغرى. إنهن عاطفيات أيضاً. قدمتا من مينيسوتا أو ما شابه. على أية حال، تعال إلي غداً وأيقظني، ألا تفعل؟ وإلا بقيت نائماً. ثم، أريدك أن تساعدني في إيجاد غرفة. أنت تعرف كم أنا بائس. جد لي غرفة في شارع هاديء، في مكان قريب من هنا. يجب أن أبقى في هذا الجوار.... لدي سمعة طيبة هنا. اسمع، عدني أن تفعل هذا من أجلي، وسأعزمك على وجبة بين الحين والآخر. تعال في كل الأحوال، لأنني أكاد أجن وأنا أتحدث مع أولائي العاهرات الغيات. أريد أن أتحدث معك عن هيفلوك أليس. يا يسوع، لقد استعرت الكتاب منذ ثلاثة أسابيع ولم أنظر فيه حتى الآن. المرء يتعفن هنا. أتصدق أنني لم أزر اللوفر حتى الآن - ولا الكوميدي فرانسيز. هل يستحق الأمر الذهاب إلى تلك الأماكن؟ أظن أنها تبقى أشياء تسلب لبك. ماذا تفعل بنفسك طوال النهار؟ ألا تمل؟ ماذا تفعل لتحصل على مضاجعة؟ اسمع... اقرب! لا تهرب الآن.... أنا وحيد. أتعلم - إذا استمر الحال على هذا المنوال

عاماً آخر ساجن. يجب أن أخرج من هذا البلد المنيك. لا شيء يلائمني هنا. أعرف أن هذا الأمر أضحي قدراً الآن، في أميركا، ولكن سيان..... إن المرء يصبح شاذاً هنا... كل أولئك الخروات الحبراء الجالسين على مؤخراتهم طوال النهار يتججحون بعملهم ولا أحد منهم يساوي قدارة عفنة. كلهم فاشلون - لهذا يأتون إلى هنا. إسمع يا جو، أما شعرت أبداً بالحنين إلى الوطن؟ أنت شاب غريب.... يبدو أن المكان يعجبك. ماذا يعجبك فيه؟ ليتك تخبرني. أتمنى من المسيح أن يجعلني أكف عن التفكير في نفسي. أنا مشوّه من الداخل. كأن ثمة عقدة هناك إسمع، أعلم أنني أسبب لك السأم، ولكن يجب أن أتحدث مع شخص ما. لا أستطيع أن أتحدث مع شبان الطابق العلوي..... أتعرف ماذا يشبه أولاد الحرام أولئك..... إنهم جميعاً يسلكون دروباً ملتوية. وكارل، الأمير الصغير، أناني لعين. أما أنا فذاتي، ولكن لست أنانياً. وثمة فرق. أنا عصابي على ما أعتقد. لا أتوقف عن التفكير في نفسي. هذا لا يعني أنني مترفع ببساطة لا أستطيع التفكير في شيء آخر، هذا كل شيء. لو أتمكن من عشق امرأة فقد يساعدني هذا قليلاً. لكني لا أجد امرأة تثير اهتمامي. أنا مشوش، ألا توافقني؟ ماذا تنصحين أن أفعل؟ ماذا تفعل لو كنت مكاني؟ إسمع، لا أريد أن أحتجزك أكثر من هذا، ولكن أيقظني غداً - في الواحدة والنصف - هل تفعل؟ وسوف أنفحك مبلغاً زائداً إذا لمعت لي حذائي. وإسمع، إذا كان لديك قميص إضافي نظيف أحضره لي، هل تفعل؟ اللعنة، إنني أطحن خصيتي بهذا العمل، ولا يتيح لي شراء قميص نظيف. لقد حشرنا هنا كعصبة من الزنوج. آه، حسن، اللعنة! سأذهب لأتمشى..... لأخلص بطني من الأقدار. لا تنس، غداً!".

وتستمر مراسلتنا للعاهرة الثرية إيرين طوال ستة أشهر أو أكثر. ومنذ وقت قريب وأنا ألح على كارل كل يوم ليوصل المسألة إلى ذروتها، لأنه ما دام الأمر يتعلق بايرين فإنه سيستمر إلى الأبد. وخلال الأيام القليلة الأخيرة تبادلنا كمية هائلة من الرسائل، والأخيرة منها كانت بطول أربعين صفحة، مكتوبة بثلاث لغات. كانت عبارة عن مقتطفات - أطراف من روايات لرابليه وبترونيوس - باختصار، هلكنا. وأخيراً تقرر إيرين أن تخرج من قوقعتها. وتصل رسالة تحدد فيها موعداً في فندقها. ويتبول كارل في ثيابه. أن

تكتب رسالة إلى امرأة لا تعرفها شيء، وأن تذهب إليها وتمارس معها الجنس شيء آخر تماماً. وفي آخر لحظة يقرر في أذني حتى لأكد أنحشني أنني يجب أن أحل محله. وحين يخرج من التاكسي أمام فندقها أخذ يرتجف حتى أنني أخذته لتمشي قليلاً. كان قد تناول لتوه كأسين من البرونو، ولكن لا يبدو أنه كان لهما أي تأثير عليه. وكان مرأى الفندق وحده كافياً لتحطيمه: وهو أحد تلك الأبنية المغالية في مظهرها، فيه ردهة هائلة اللحم وفارغة تجلس فيها النساء الإنكليزيات ساعات طوال وعلى وجوههن نظرة خاوية. ولكي أضمن أنه لن يهرب وقفت جانباً بينما تكلم الحمال في الهاتف معلناً وصوله. كانت إيرين موجودة، تنتظره. وحين دخل المصعد نظر إليّ نظرة أخيرة يائسة، استغاثة بكاء كالتّي يحملها كلب حين تضع الأنشطة حول رقبته. واجتزت الباب الدوار وأنا أفكر بفان نوردن.....

أعود إلى الفندق وأنتظر مكالمة هاتفية. ليس لديه من الوقت إلا ساعة وقد وعدني بإبلاغي النتائج قبل عودته إلى العمل. وأنظر إلى مسودة الرسالة التي أرسلناها إليها سوية. وأحاول أن أتخيل الوضع كما هو فعلاً، لكنني أعجز. رسائلها أفضل من رسائلنا بكثير - فهي صادقة، وهذا واضح. والآن يكون كل منهما قد تشبّت بالآخر. وأتساءل إن كان لا يزال يتبول في ثيابه.

ويرن الهاتف. يبدو صوته غريباً، يصير صريراً، كأنه نجائف ومتهلل في الوقت نفسه. ويطلب مني أن أحل محله في المكتب. "قل لابن الحرام أي عذراً قل له أنني أموت..."

"إسمع يا كارل... ألا تخبرني...؟"

"مرحباً! أنت هنري ميللر؟" وأسمع صوت امرأة. إنها إيرين. ترحب بي. ويبدو صوتها جميلاً من خلال الهاتف..... جميلاً. ويتأبني الرعب لحظة. ولا أدري ماذا أقول لها. أود لو أقول: "اسمعي يا إيرين، أعتقد أنك جميلة.... أظنك رائعة...، أود لو أقول لها شيئاً حقيقياً واحداً، مهما بدا سخيفاً، لأنني بعد أن سمعت صوتها تغير كل شيء. ولكن قل أن يتاح لي أن أملك حصاتي

أسمع صوت كارل على الهاتف ثانية يقول بصوته الغريب الصار: "إنها معجبة بك يا جو، لقد أخبرتني كل شيء عنك...."

في المكتب أنقل الخير إلى فان نوردن. وعندما يحين وقت الاستراحة يجبرني جانباً ويبدو مكتئباً منهكاً.

"إذن فهو يلفظ أنفاسه، ذلك الأير الصغير، أليس كذلك؟ اسمع، ما معنى هذا؟"

وأجيب بهلوء "أعتقد أنه ذهب إلى عاهرتة الترية".

"ماذا؟ أتعني أنه ذهب إليها؟" وبدا أنه خرج عن طوره، "اسمع، قل لي أين تقطن؟ ما اسمها؟" وأدعي الجهل، "اسمع، أنت شاب محترم. فبحق الجحيم لماذا لا تشركني في هذا اللهو؟"

ولكي أهدئه وعدته أخيراً بأن أخبره بكل شيء حالما أحصل على التفاصيل من كارل. ولم أكن أنا نفسي أحتمل الانتظار حتى أقابل كارل.

ونحو ظهيرة اليوم التالي طرقت بابه. كان قد استيقظ لتوه وهو يضع الصابون على ذقنه. ولم أستطع أن أتكهّن بشيء من التعبير المرتسم على وجهه. ولا أعرف حتى إن كان سيخبرني بالحقيقة. الشمس تتدفق من خلال النافذة المفتوحة، والعصافير ترقزق، ومع ذلك لا أعرف كيف بدت الغرفة أكثر قحطاً وجذباً من أي وقت مضى. فالأرضية مبقعة برغوة الصابون، وعلى المنصب منشفتان قدرتان لم تبدلا، ولا أعرف كيف بدا أن كارل أيضاً لم يتغير، مما حيرني أكثر من أي شيء آخر. في هذا الصباح يجب أن يكون العالم كله قد تغير للأسوأ أو للأفضل. المهم أن يتغير، تغيراً جذرياً. ومع ذلك فما هو ذا كارل واقف يرغي الصابون على ذقنه دون أن يطرأ أي تغير على قسَمات وجهه.

ويقول لي: "اجلس.... اجلس هناك على السرير، وستسمع كل ما تريد.... ولكن انتظر أولاً.... انتظر قليلاً"، ويتابع وضع الصابون على ذقنه، ثم يتخذ موساه. بل إنه أبدى ملاحظة عن الماء... مرة أخرى ليس حاراً.

"اسمع يا كارل، أشعر كأنني معلق. يمكنك أن تعذبني فيما بعد، إذا أحببت، ولكن قل لي الآن، قل لي شيئاً واحداً... أكان الأمر حسناً أم سيئاً؟. ويستدير عن المرأة والفرشاة في يده ويمنحني ابتسامة غريبة "انتظر سأخبرك بكل شيء...."

"هذا يعني أنك قتلت".

ويقول وهو يحجر كلماته جراً "لا، لم أفشل، ولم أنجح أيضاً..... بالمناسبة، هل دبرت الأمر في المكتب؟ ماذا قلت لهم؟".

وأرى أن لا فائدة من سحب الكلام منه. عندما سيصبح طيباً ومستعداً سيخبرني بكل شيء. وليس قبل ذلك. وأستلقي على السرير صامتاً وهادئاً. ويتابع هو حلاقة ذقنه.

وإذ به فجأة، ودون سابق إنذار يبدأ بالكلام - أولاً بتستت، ثم بأكثر وأكثر من الوضوح، والتوكيد والتقرير. وهو يصارع ليخرج الكلام، ولكن يبدو مصمماً على أن يحكي كل شيء. ويتصرف وكأنه يزيح عبء عن ضميره. بل إنه يذكرني بالنظرة التي ألقتها علي وهو يرتقي المصعد. ويبقى على هذا الحال فترة، وكأنما ليلمح إلى أن كل شيء متضمن في تلك البرهة الأخيرة، وكأنه لو كان يتمتع بقدرة تغيير الأشياء، ما كان خطاً خارج المصعد أبداً.

حين استأذن بالدخول كانت ترفل في ثوبها الفضفاض، وكان هناك دلو من الشمبانيا، على طاولة الزينة. كان الظلام يغلب على جو الغرفة، وصوتها يرن جميلاً. ويروح يسرد علي جميع التفاصيل حول الغرفة، وزجاجة الشمبانيا وكيف فتحها الغرسون، والضجة التي صدرت عنها، وعن حفيف ثوبها الفضفاض حين اقتربت لترحب به - ويخبرني بكل شيء عدا ما أريد سماعه.

كانت الساعة تقرب من الثامنة عندما دخل عليها. في الثامنة والنصف صار عصبياً، يفكر في المكتب، ويقول: "حين اتصلت بك كانت الساعة تقرب من التاسعة، أليس كذلك؟"

"نعم، تقريباً"

"في الواقع، كنت عصبياً و...."

"أعرف هذا، استمر....."

ولا أعرف إن كان يجب أن أصدقَه أم لا، وخاصة بعد تلك الرسائل التي لفقهاها. بل لا أعرف إن كنت قد سمعته بدقة، لأن ما يخبرني به يبدو عجباً حقاً. ومع ذلك لا يبدو حقيقياً أيضاً، إذا عرفنا أي نوع من الشبان هو. ومن ثم أتذكر صوته عبر الهاتف، ذاك المريج الغريب من الخوف والابتهاج. ولكن لماذا لا يبدو الآن أكثر ابتهاجاً؟ إنه يتسم طوال الوقت، يتسم بكبة نالت كفايتها. ويعيد القول "كانت الساعة التاسعة حين اتصلت بك، أليس كذلك؟" وأهز رأسي قلقاً. نعم، كانت الساعة التاسعة. وقد تأكد الآن أن الساعة كانت التاسعة لأنه يتذكر أنه نظر إلى ساعته. على أية حال، حين نظر ثانية إلى ساعته كانت العاشرة. في العاشرة كانت مستلقية على الديوان وهي تحمل طيورها البحرية بين يديها. هكذا وصف لي المشهد - قطرة فقطرة. في الحادية عشرة كان كل شيء قد تقرر، وسيهربان، إلى بورنيو. أير في الزوجا إنها لم تحبه على أية حال. وما كانت لتكتب الرسالة الأولى لو لم يكن الزوج عجوزاً بارداً مجرداً من العواطف. "ومن ثم تقول لي: لكن اسمع يا عزيزي، كيف تتأكد من أنك لن تملني؟".

وعند هذا الحد انفجر ضاحكاً. يبدو هذا القول منافياً لعقلي، ولا حيلة لي في هذا.

"وماذا قلت أنت؟".

"وماذا تتوقع مني أن أقول؟ قلت: كيف يمكن لإنسان أن يملك؟".

ثم أخذ يصف لي ما حدث بعد ذلك، كيف انحنى وقبل ثدييها، وكيف، بعد أن أغرقها بالقبل المحمومة أعادهما إلى الصدارة، أو يعلم الله ما اسمها. وبعدها شرب كأساً من الشمبانيا.

وقرابة منتصف الليل يصل الغرسون مع البيرة والشطائر شطائر الكافيار. وطوال الوقت، كما يقول، كان يتحرق رغبة بالتبول. وكان قد حصل لديه انتصاب مرة واحدة، ثم تراخى. وطوال الوقت كانت مثانته على وشك الانفجار، لكنه تصور، وهو الأير الصغير الذكي، أن الوضع يستدعي

الكياسة.

في الواحدة والنصف تستقل عربة خيل وتقودهما خلال غابة البوا. ولم يدر بخلده إلا بفكرة واحدة - ماذا يفعل ليتبول؟ ويقول لها "أحبك... أعبدك، سأرحل معك إلى حيثما شئت استنبول، سنغافورة، هونولولو. لكن يجب أن أذهب الآن.... الوقت يتأخر".

يخبرني بكل هذا في غرفته الصغيرة القذرة، التي تتدفق الشمس إليها، والعصافير ترفزق كالجنونة. ولا أعرف حتى الآن إن كانت جميلة أم لا. هو نفسه لا يعرف، هذا الأبله. يظن أنها ليست جميلة. كانت الغرفة مظلمة ثم هناك تأثير الشمبانيا وتوتر كل أعصابه. "ولكن يجب أن تعرف شيئاً عنها - إلا إذا كان كل كلامك كذبة لعينة".

ويقول: "انتظر لحظة، انتظر.... دعني أفكرا لا، لم تكن جميلة. الآن صرت متأكداً. ولها خصلة شعر بيضاء فوق جبينها.... أذكر ذلك. ولكن هذا ليس شيئاً جدياً - الواقع أنني كدت لا أنساها. لا، إنها ذراعها - كانتا نحيلتين.... نحيلتين وهشتين". ويبدأ بالتمشي جيئة وذهاباً. وفجأة يقف جامداً. ويهتف: "ليتها كانت أصغر بعشر سنين! لو كانت أصغر بعشر سنين لتغاضيت عن خصلة الشعر البيضاء.... بل وحتى عن ذراعها النحيلتين. لكنها عجوز. أتعرف، مع عاهرة كهذه لكل سنة حسابها. في العام القادم لن تكبر سنة واحدة فقط - بل عشر سنين. وبعد سنة أخرى ستكبر عشرين سنة. أما أنا فسأبدو أكثر شباباً - على الأقل للخمس السنين القادمة.....".

وأقاطعه: "ولكن كيف انتهى الأمر؟".

"هذا كل الأمر..... ولم يته. وعدت أن أراها في يوم الثلاثاء في نحو الساعة الخامسة. الواقع إنه أمر سيء! كان في وجهها تغضبات ستبدو أوضح في ضوء النهار. أظن أنها تريدني أن أنيكها في يوم الثلاثاء. إن البياكة النهارية - لا يقوم بها المرء مع عاهرة كهذه. وخاصة في مثل هذا الفندق.

أفضل أن أقوم بها في الليلة التي أكون فيها حراً.... وفي ليلة الثلاثاء لست حراً. وليس هذا كل شيء. فقد وعدتها أن أبعث إليها رسالة حتى ذلك الحين. فكيف سأكتب رسالة الآن؟ ليس لدي ما أقول.... خراءا ليتها كانت أصغر سناً بعشر سنين. هل تظن أن علي أن أرحل معها.... إلى بورنيو أو حيثما شاءت؟ ماذا أفعل بعاهرة ثرية؟ إنني لا أحس إطلاق النار. أخاف البنادق بكل أنواعها. ثم أنها تريدني أن أتيكها ليل نهار.... لن يكون هناك إلا الصيد والنيك طول الوقت.... لن أحتمل هذا!!

"قد لا يكون الأمر بالسوء الذي تتوقعه. سوف تتابع لك ربطات عنق وما شابه...."

"ما رأيك أن تأتي معنا، هه؟ لقد أخبرتها بكل شيء عنك...."

"هل قلت لها أنني فقير؟ هل أخبرتها أنني محتاج؟"

"أخبرتها كل شيء. خراء، كل شيء سيكون على ما يرام، فقط لو أنها كانت أصغر بعشر سنين. قالت إنها في نحو الأربعين. وهذا يعني أنها في الخمسين أو الستين. كأنك تنيك أمك.... لا يمكن.... مستحيل."

"لا بد أن يكون فيها جاذبية ما.... قلت أنك قبلت ثدييها."

"وماذا يعني أن أقبل ثدييها؟ ثم إن الظلام كان حالكا، أؤكد لك."

وبينما هو يزرر بنطاله وقع أحد أزراره. "هل لك أن تبحث لي عنه. هذه البدلة اللعينة تتفكك. إنني ألبسها منذ سبع سنين... ولم أدفع ثمنها بعد. في أحد الأيام كانت بدلة جيدة، أما الآن فهي تفوح قذارة. وتلك العاهرة سوف تشتري لي أيضاً بدلات. وستكون على ذوقي. ولكن هذا ما لا أرغب فيه، أقصد أن أجعل امرأة تنفق عليّ. لم أفعل هذا مرة في حياتي. هذه فكرتك. أفضل أن أعيش وحيداً. خراء، أليست هذه غرفة مريحة؟ ما عبيها؟ أليست أجمل منظراً من غرفتها؟ لا أحب فندقها الفخم. وأنا ضد فنادق كهذه. قلت لها هذا. فقالت إنه لا يهمها أين تسكن.... وإيها سوف تأتي لتعيش معي، إذا أردت. هل تتصورها وهي تنقل صناديقها الكبيرة وعلب قبعاتها وكل تلك الخثالات التي تجرها وراءها؟ عندها أشياء كثيرة - أثواب عديدة وزجاجات وما شابه. ما أشبه غرفتها بمستوصف. إذا جرححت أصبعها

قليلاً فالأمر جلل. ثم إنها يجب أن تخضع للتدليك وتموج شعرها، ويجب أن لا تأكل هذا ولا تأكل ذاك. إسمع يا جو، كان يمكن أن تكون مناسبة لو أنها أصغر قليلاً. يمكن مساحمة عاهرة صغيرة على أي شيء. وليس مطلوباً أن تتمتع بأي قدر من الذكاء. إنهن أفضل بلا ذكاء. أما العاهرة العجوز، حتى وإن كانت لامعة الذكاء، وإن كانت أجمل امرأة في العالم، فالأمر سيان معها. العاهرة الشابة هي مال موظف. والعاهرة العجوز خسارة تامة. إن كل ما يفعله لأجلك هو شراء الأغراض. لكن هذا لا يكسي أذرعهن لحماً ولا يرطب ملتقى أفخذهن. إيرين لا بأس بها. والحقيقة أظن أنها ستعجبك. فمعك يختلف الوضع. لست مضطراً لمضايجتها، وقد تعجبك. قد لا تحب تلك الأثواب والزحاجات، لكنك ستحمل. إنها لن تسئمك، أنا متأكد. بل هي مسلية، لكنها ذابلة، تديها لا يزالان على ما يرام. لكن ذراعيها قلت لها إني سأعرفك بها يوماً ما. تحدثت عنك طويلاً لم أعرف ماذا أقول لها. قد تعجبك، خاصة وهي مرتدية ملابسها. لا أدري.....".

"إسمع، أتقول إنها ثرية؟ سوف تعجبني إذا لا يهمني كم يكون عمرها، ما دامت ليست شمطاء....".

"إنها ليست شمطاء! ما هذا الذي تقوله؟ بل أؤكد لك إنها فاتنة الجمال. حديثها ممتع، وشكلها حسن أيضاً.... ما عدا ذراعيها....".

"لا بأس، إذا كان الأمر على هذا المنوال، سأنيكها أنا - إذا كنت لا ترغب بها. قل لها هذا. وكن مهذباً في قولك. فمع امرأة مثلها يجب أن تعالج الأمور ببطء. قدمني إليها ودع الباقي يجري تلقائياً. هيا امطرنني بالثناء. تصرف وكأنك تغير خراء، ربما نكناها معاً.... وبعد ذلك نذهب إلى أماكن كثيرة ونأكل معاً.... وسوف نتنزه بالسيارة ونصطاد ونرتدي ملابس جميلة. إذا أرادت أن تذهب إلى بورنيو دعها تأخذنا معها. أنا أيضاً لا أحسن الرماية، ولكن لا يهم. وهي أيضاً لا تأبه لهذا الأمر. إن ما تريده هو أن تناك، فقط. أنت تتكلم عن ذراعيها طوال الوقت. فهل يجب أن تنظر إليهما طوال الوقت؟ أنظر إلى غطاء السرير هذا! أنظر إلى المرأة! أتسمي هذه حياة؟ هل تريد أن تكون مرهفاً كالحشرة؟ أنت لا تستطيع أن تدفع فاتورة

الفندق..... ولديك عملك أيضاً. هذه ليست حياة. لا يهمني إن كانت في السبعين - فهي أفضل من هذه الحياة.....".

"إسمع يا حو، نكها من أجلي..... وبعدها سيكون كل شيء على ما يرام. بل وقد أنيكها أنا أحياناً..... في ليلة عطلي. لقد مرت علي أربعة أيام منذ أن تغوطت بشكل جيد. أشعر بشيء لزج يلتصق بي، كأنها حبات عنب....."

"ذلك لأنك مصاب بالبواسير، هذا هو السبب".

"وشعري يتساقط أيضاً.... ويجب أن أزور طبيب الأسنان. أشعر كأني أتفكك. أخبرتها كم أنت فتى طيب..... ستؤدي لي المعروف، هه؟ أنت لست مفرط الرهافة، هه؟ إذا ذهبنا إلى بورنيو لن أصاب بالبواسير بعد الآن. بل قد ينشأ عندي شيء آخر.... شيء أكثر سوء..... الحمى ربما.... أو الكوليرا. خراء، الأفضل أن تموت من مرض جيد كهذا على أن تسفح حياتك هدراً على ورق الصحف وتصاب بحبات العنب في مؤخرتك وتقع الأزرار من فتحة بنطالك. أود لو أكون ثرياً، حتى ولو لأسبوع واحد فقط، وبعدها فلأذهب إلى المستشفى مصاباً بمرض رائع، مرض قاتل، وتوضع لي أزهار في الغرفة وممرضات يتراقصن من حولي وتنهمر علي البرقيات. حين تكون ثرياً يعتنون بك جيداً. يغسلونك بحشوة من القطن. ويمشطون لك شعرك. خراء، أعلم كل هذا. قد أكون محظوظاً ولا أموت أبداً. أو أبقى معاقاً طوال حياتي.... ربما أصبح مشلولاً وأضطر للجلوس على كرسي متحرك وسأظل موضع عناية علي أي حال.... حتى وإن لم يكن معي ما يكفي من المال. إذا كنت عاجزاً - عاجزاً "حقيقياً" - فلن يتركوك تموت جوعاً. وستحصل على سرير نظيف تنام عليه..... ويغيرون المناشف كل يوم. وبهذه الطريقة لا يأبه أحد بك، وخاصة إذا كان لديك عمل. يظنون أن على الإنسان أن يكون سعيداً إذا كان له عمل ثابت. ماذا تفضل - أن تكون معاقاً طوال حياتك، أم أن يسند إليك عمل.... أو أن تتزوج من عاهرة ثرية؟ أرى أنك تفضل أن تتزوج من عاهرة ثرية. أنت لا تفكر إلا في الطعام. لنفرض أنك تزوجتها ومن ثم أصبحت عاجزاً عن الحصول على

انتصاب - وهذا يحدث أحياناً - فماذا ستفعل عندئذ؟ ستكون تحت رحمتها. ستأكل من يدها كجرو صغير. وسيعجبك هذا، أليس كذلك؟ أم لعلك لا تفكر في هذه الأمور؟ أما أنا فأفكر في كل شيء. أفكر في أن البذلات التي سأنتقيها والأماكن التي أحب أن أرتادها، ولكني أفكر أيضاً في الشيء الآخر. وهو الأهم. فما نفع ربطات العنق الرائعة والبذلات الجميلة حين تعجز عن الحصول على انتصاب؟ ولن تتمكن حتى من خيانتها - لأنها ستكون في إثرك دائماً. لا، أفضل شيء هو أن تتزوج منها وتصاب بالمرض بعد ذلك مباشرة. على أن يكون السفلس. فلتكن الكوليرا مثلاً، أو حمى صفراء. فإذا حدثت المعجزة وبقيت على قيد الحياة فستقضي البقية الباقية من حياتك معاقاً. وبعدها لن تقلق أبداً بشأن نياكتها، ولن تقلق أيضاً بشأن الإبحار. وقد تباع لك كرسيًا متحركاً بدواليب مطاطية وشيئاً ما كرافعة أو ما يشبهها. وقد تبقى قادراً على استخدام يديك - أقصد بما يكفي لتكتب. أو قد تحصل على سكرتيرة لهذا الغرض. هذا هو الحل الأمثل للكاتب. ماذا يريد المرء من ذراعيه وساقيه؟ إنه لا يحتاج إلى ذراعيه وساقيه في الكتابة. هو بحاجة إلى الأمان... والهدوء.... والحماية. خسارة إن كل أولئك الأبطال الذين يدرجون على كراسيهم المتحركة ليسوا كتاباً. لو يتأكد المرء حين يذهب إلى الحرب أنه لن يفقد قدميه.... لقلت هيا نقيم حرباً غداً. أيري في الأوسمة كلها - يمكنهم أن يحتفظوا بها. كل ما أريده هو كرسي متحرك وثلاث وجبات يومية. وبعدها سأنفجهم شيئاً يقرأونه، أولئك الأيور.

في اليوم التالي عند الواحدة والنصف، اتصلت بفان نوردن. كان يوم عطلته، أو ربما ليلة عطلته، وقد ترك كلمة مع كارل يطلب مني فيها أن أساعده على الانتقال هذا اليوم.

وأجده في حال غير عادية من الغم. لم ينم لحظة واحدة طوال الليل. هكذا يخبرني. ثمة شيء يشغل باله، شيء ينهشه. وسرعان ما أعرف هذا الشيء، وهو ينتظر وصولي بفارغ الصبر ليفضي إليّ بما لديه.

ويبدأ حديثه عن كارل: "ذاك الشاب، ذاك الشاب فنان. لقد وصف كل التفاصيل بدقة. أخبرني بها بتلك الدقة التي أعرف أنها مجرد كذبة

لعينة..... لكنني لا أستطيع أن أطردها من ذهني. و أنت تعرف كيف يعمل ذهني"

ويقاطع نفسه ليسأل إن كان كارل أخبرني بالحكاية كلها. فهو لا يشك على الإطلاق في احتمال أن يكون كارل قد أخبرني بشيء ثم أخبره بشيء مخالف له. يبدو أنه يظن أن الحكاية قد لفتت خصبصا لتعذيبه. ولا يبدو أنه يأبه كثيراً لعملية التلفيق هذه، ويقول إن ما يأسره هو تلك "التخيلات" التي خلفها عقله. فالتخيلات حقيقية، حتى وإن كانت كل الحكاية مختلفة. ثم إن مسألة وجود عاهرة ثرية في الموضوع وأن كارل زارها فعلاً لا يمكن إنكارها. أما ما حدث فعلاً فأمر ثانوي، وأعتبر أن من البديهي أن كارل طردها. أما ما دفعه إلى اليأس فأن يكون ما وصفه كارل "ممكناً".

ويقول: "لا يمكن إلا لأمرىء مثله أن يخبره بأنه أدخله فيها ست أو سبع مرات. أعلم أن كل هذا خراء ولا آبه له كثيراً. أما أن يقول لي أنها استأجرت عربة وأخذته إلى الغابة وأنهما استخدما معطف الزوج الفرو كملاءة، فهذا كثير. أعتقد أنه أخبرك عين السائق الذي انتظر باحترام.... واسمع، هل أخبرك كيف بقي المحرك دائراً طوال الوقت؟ يا يسوع، لقد لفق هذا بروعة. إن مثل هذه التفاصيل لا يصدر إلا عن مثله.... يكفي أحد هذه التفاصيل لجعل أي شيء يبدو حقيقياً من الناحية النفسية.... وبعد ذلك لن تتمكن من طرده من ذهنك. ويخبرني بهذا بطريقة ناعمة، طبيعية.... ترى، هل فكر بالأمر مسبقاً أم أنه قفز فجأة من ذهنه هكذا، عفو الخاطر؟ إنه كذاب حقير لا يمكنك أن تغفلت منه.... وكأنه يكتب لك رسالة تشبه لوحات أصص الزهور التي يتخذها آناء الليل. لا أفهم كيف يتسنى لأمرىء أن يكتب رسائل كهذه... لا أفهم العقلية الكامنة خلفه... إنه كالاستمناء.... ما رأيك؟"

ولكن قبل أن أتمكن من المغامرة بالإدلاء برأي أو حتى بالضحك في وجهه، يتابع فان نوردون حواراً الفردي.

"اسمع، أظنه أخبرك بكل شيء.... هل أخبرك كيف وقف على الشرفة تحت ضوء القمر وقبلها؟ يبدو هذا مبتذلاً حين تكرر، لكن الطريقة التي

يصفه بها.... أكاد أرى الأير الصغير واقفاً هناك والمرأة بين ذراعيه ثم وهو يكتب رسالة أخرى، هي لوحة أخرى عن السقوف وكل ذاك الخراء الذي يسرقه من المؤلفين الفرنسيين. ذاك الشاب لا يقول شيئاً واحداً أصيلاً، هذا ما اكتشفته. عليك أن تبحث عما يدلك على كذبه.... مثلاً، لمن قرأ مؤخراً.... وهذا شيء صعب معرفته لأنه كتوم لعين جداً. اسمع، لو لم أعلم أنك ذهبت معه لما صدقت أن للمرأة وجوداً. لأن مثله يمكن أن يكتب رسائل لنفسه. ومع ذلك فهو محظوظ.... هزيل جداً، هش جداً، ومظهره عاطفي جداً، حتى إن النساء يقعن في حبائله بين الحين والآخر.... أو قل يتبينه.... ويرثين لحاله، على ما أطن. وبعض العاهرات يرغبن في الحصول على أصص زهور.... فذلك يجعلهن يشعرن بأهميتهن... غير أن هذه المرأة ذكية، كما يقول. لا بد أنك تعلم هذا.... لقد رأيت رسائلها. ماذا تعتقد أن امرأة مثلها تجد فيه؟ أنا أفهم ولعها بالرسائل.... ولكن ماذا تعتقد كان شعورها حين رآته؟.

"ولكن اسمع، إن كل هذا يخرج عن الموضوع. ما أحاول الوصول إليه هو الطريقة التي يرويه لي. وأنت تعلم كيف يزين الأمور.... حسن، بعد مشهد الشرفة - وهو يسرده لي وكأنه يقدم لي طبق مشهيات، كما تعلم - بعد ذلك، كما يقول، دخل وراح يفك أزرار مامتها. لماذا تبتسم؟ أعتقد أنه كان يخبرني عليّ في هذا؟.

"لا، لا أنت تحكيها لي كما أخبرني بها تماماً، تابع...."

"بعد ذلك" وهنا يجد فان نوردن نفسه مضطراً إلى الابتسام بدوره - "بعد ذلك، و أوكد لك، يبدأ بشرح كيف جلست على الكرسي ورفعت ساقيها.... ولم يكن عليها شعرة واحدة.... ويجلس هو على الأرض رافعاً إليها ناظريه، ويخبرها كم هي جميلة.... هل أخبرك أنها بدت كلوحة من لوحات ماتيس؟ ... انتظر لحظة... أريد أن أتذكر بالضبط ما قاله لي. كانت له عبارة صغيرة ذكية عن محظية.... ولكن ماذا تعني محظية بحق الجحيم؟ قالها لي بالفرنسية، لهذا لا أتذكر تلك الكلمة المنيوكة.... لكن وقعها جميل. يُنتظر من مثله أن يقولها. ولعلها من ابتكاره.... وأحسبها تظنه شاعراً أو ما شابه.

ولكن اسمع، كل هذا ليس مهماً.... إنني ألتمس له العذر لخياله ذاك. أما ما دفعني إلى الجنون فهو ما حدث بعد ذلك. لقد قضيت الليل بطوله أتقلب في فراشي، أعيث بالصور التي خلفها في ذهني. لا أستطيع منها فكاًكاً. تبدو لي حقيقة ثاماً بحيث لو أنها تتحقق لشنقت ابن الحرام. فلا يحق لأي كان أن يخلق أشياء كهذه، وإلا كان مريضاً.....

"إن ما أحاول الوصول إليه هو اللحظة التي خرّ فيها، كما يقول، على ركبتيه وباصبعيه النحيلتين ويأعد ما بين شفتي كسها. أتذكر هذا؟ ويقول إنها كانت تجلس وساقاها متدليان من فوق مستدي الكرسي وإذا به، كما يقول، يهبط عليه الإلهام. حدث هذا بعد أن انتهى من مضاجعتها مرتين.... وبعد أن قال ملاحظته الصغيرة عن ماتيس. إذن خر على ركبتيه - خذي هذه - وباصبعيه.... بطرفيهما فقط، انتبه إلى هذا.... فتح التويجين الصغيرين سكويش - سكويش هكذا. صوت لزج خافت لا يكاد يسمع. سكويش - سكويش يا يسوع، كنت أسمع هذا الصوت طوال الليل ويقول بعدئذ - وكان هذا لم يكفني - يخبرني كيف دفن رأسه في كسها. ولما فعل هذا، وليساعدني المسيح، إذا بها تطبق ساقها حول رقبته وهذا قضى عليّ! تصورا تصور امرأة راقية، حساسة مثلها تطبق ساقها حول "رقبته!" - ثمة مساحة سامة تحيط الأمر. إنه عجيب إلى حد الاقتناع. لو أنه اكتفى بإخباري عن الشبانيا والنزهة في الغابة بل وحتى عن مشهد الشرفة لكنت أنكرته. أما هذا فلا يصدق أبداً بحيث بات يبدو أبعد ما يكون عن الكذب. لا أصدق أنه قرأ قط عن هذا في أي مكان، ولا أفهم ما الذي أدخل هذه الفكرة إلى رأسه إلا إذا كانت تحوي بعض الحقيقة. فمع أير صغير مثله، كما تعلم، يمكن أن يحدث أي شيء. كان يمكن أن لا ينيكها على الإطلاق، ولكن ربما تركته يعبث بها... ولا تعرف ماذا يمكن لأولائي العاهرات الثريات أن يتوقعن منك أن تفعله....".

وحين يتزع نفسه أخيراً من السرير ويبدأ بالحلاقة يكون وقت الظهيرة قد تقدم. وأكون قد نجحت في آخر الأمر بتوجيه تفكيره إلى أشياء أخرى، إلى الأشياء المؤثرة في الشاعر في المقام الأول. وتدخل الخادم لترى إن كان

جاهزاً - فقد كان من المفروض أن يغادر الغرفة مع حلول الظهيرة. وكان بالكاد قد بدأ بارتداء بنطاله، وأدهش قليلاً لأنه لم يعتذر أو يستدر. ولما رأيته واقفاً هكذا يزور بنطاله بلا اكتراث وهو يلقي عليها أوامره رحت أضحك بصوت مكبوت ويقول لي "لا تأبه لها"، وهو يلقي عليها نظرة الاحتقار "إنها خنزيرة ضخمة". إقرصها في طيزها إن أردت، فلن تتفوه بكلمة". ومن ثم يخاطبها بالانكليزية قائلاً: "تعالى إلى هنا يا عرصة، ضعي يدك على هذا"، وهنا لا يعود بمقدوري كبج نفسي، وأنفجر بالضحك، ضحكاً هستيرياً، انتقل إلى الخادم نفسها، على الرغم من أنها لم تفهم سببه. وتبدأ الخادم تنزل اللوحات والصور الفوتوغرافية، صوره في معظمها، التي تغطي الجدران. ويقول "أنت" وهو يومئ باصبعه "تعالى إلى هنا هاك شيئاً تذكّرني به" - وينتزع صورة شخصية عن الجدار - "بعد أن أذهب يمكنك أن تمسحي بها طيزك. أترين"، يقول هذا مستديراً نحوي "إنها عرصة خرساء. ولن تبدو أكثر ذكاء لو كررته بالفرنسية". وتقف الخادم في مكانها فاغرة الفم. ومن الواضح أنها مقتنعة أنه مجنون ويصبح بها وكأنها ثقيلة السمع "هيه هيه أنت! نعم، أنت! هكذا....". ويأخذ الصورة، صورته الشخصية، ويمسح بها مؤخرته "comme ça! savvy?" يجب أن ترسم لها لوحات" يقول هذا وهو يخط شفته السفلى باشمئزاز متناه.

ويرقبها عاجزاً وهي ترمي أغراضه في الحقائق الكبيرة، ويقول "هاك، ضعي هذه الأشياء أيضاً. ويمد لها يده بالفرشاة وحقية النضح. ويظل نصف أغراضه ملقى على الأرض. وتزدحم الحقائق ولا يبقى مكان للرسوم والكتب والزجاجات نصف المملأ، ويقول: "إجلس قليلاً، لا زال أمامنا الكثير من الوقت، يجب أن نتدبر أمر هذه الأشياء. لو لم تأت لما نلححت في الخروج من هنا. أترى كم أنا عاجز. لا تدعي أنس أن آخذ المصاييح الكهربائية.... إنها لي. وتنكة الزبالة أيضاً. إنهم ينتظرون منك أن تعيش كالخنازير، أولاد الحرام". وتخرج الخادم لتحضر خيط قنب.... "انتظر لترى.... سوف تطالبني بتمن الخيط حتى ولو كان ثلاثة سوات. إنهم لا يخطن لك زراً واحداً في بنطالك دون أن يتقاضين ثمنه. متسولات قدرات حقيرات!". ومن رف المدفأة يتناول زجاجة كالفادوس ويومئ إلي أن أحمل

الأخرى "لا فائدة من حملها إلى المكان الجديد. دعنا ننتهيها الآن. وإياك أن تعطيهما أية جرعة بنت الحرام تلك، ولن أترك لها ورقة تواليت واحدة. أود أن أحطم الشقة الحفيرة قبل أن أذهب. اسمع.... تبول على الأرض إن أردت. ليتني أستطيع أن أخرى في درج زيتها". ويشعر باشمئزاز عارم من نفسه ومن كل شيء آخر حتى أنه لا يعرف ماذا يفعل لينفـس عن متاعره. يمشي إلى السرير والزجاجة في يده ويزيح الأغطية ويصب الكافادوس فوق الفراش. ولا يكفيه هذا فيأخذ بحفر الفراش بكعبه. ولسوء الحظ لا يوجد في حذائه أي طين. وأخيراً يتناول الملاءة ويتظف بها حذائه. ويغمغم بنغمة انتقام "هذا سيدفعهن لعمل شيء ما". وبعد ذلك، بعد أن يتناول جرعة كبيرة شرهة يرجع رأسه إلى الخلف ويغرغر حنجرته، وبعد أن يغرغرها كما يجب يصبق كل شيء على المرأة. "هاكم يا بنات الحرام الرخيصات! امسحن هذا بعد ذهابي". ويمشي جيئةً وذهاباً ويغمغم لنفسه ويرى جوربه الممزق مرمياً على الأرض فيلتقطه ويقطعه قطعاً صغيرة. واللوحات أيضاً تثير حنقه، فيلتقط واحدة وهي صورته الشخصية رسمتها سحاقيـة من معارفه ويدخل فيها قدمه. "تلك العرصة! هل تعرف ماذا تجرات على الطلب مي؟ طلبت أن أرسل لها عاهراتي بعد أن أفرغ منهن. ولم تمنحني مرة سوا واحداً مقابل كتابة رسائلها. ظنتني معجباً بحق بانحازها، ولم أكن لأحصل على هذه الصورة منها لو لم أرسل لها عاهرة مينيسوتا. كانت مجنونة بها.... وكانت تتبعنا حيثما ذهبنا ككلب محموم.... ولم نعرف كيف نتخلص من تلك العرصة! لقد نغصت علي حياتي كلها. وساء حالي إلى درجة صرت أخشى أن أحضر أية عاهرة إلى هنا مخافة أن تراحمي عليها. كنت أتسلل إلى هنا كلص وحالماً أدخل أقفل الباب ورائي.... تبا لها ولتلك العاهرة الجيورحية - لقد دفعتاني إلى حافة الجنون. إحداهما دائمة الشبق والأخرى دائمة الجوع. أكره أن أنيك امرأة جائعة. وكأنك تدخل فيها الطعام وتسحبه من حديد.... يا يسوع، هذا يذكرني بشيء آخر.... أين وضعت ذاك المرهم الأزرق؟ هذا هو المهم. هل سبق واستعملت أشياء كهذه؟ إنه أسوأ من تناول جرعات الفم. ولا أدري أيضاً من أين حصلت عليها. لقد أحضرت العديد من النسوة إلى هنا خلال الأسبوع المنصرم أو نحوه، لهذا تراني فقدت أثرهن. شيء

مضحك حقاً، لأنهن جميعاً منعشات الرائحة. لكنك تعرف كيف تجري الأمور....".

كانت الخادم قد كومت أغراضه على الرصيف. بينما راح "السيد" ينظر حوله بسيماء واثقة. وبعد أن وضع كل شيء في سيارة الأجرة لم يبق إلا مكان لشخص واحد منا. وحالما انطلقنا أخرج فان نوردن صحيفة وأخذ يحزم طناجره ومقاليه، ففي المكان الجديد يمنع الطبخ منعاً باتاً. ومع وصولنا إلى هدفنا كانت كل أغراضه قد حلت من حرمها، ولم يكن الأمر ليصل إلى تلك الدرجة من الارتباك لو لم تخرج السيدة رأسها من الباب حالما غادرنا سيارة الأجرة. وهتفت: "يا إلهي! ما هذا بحق الشيطان؟ ما معناه؟". وفان نوردن يفيض بالمودة حتى أن كل ما يتفوه به هو "c'est moi... c'est moi madam!" ويلتفت إلي ليتمتم بصراوة: "أنظر إلى هذه المقرقرة! أترى وجهها؟ إنها توي أن تضع عراقيلها في طريقنا".

يقع الفندق في خلفية ممر حقير ويشكل متلثاً هو أقرب شبهاً بالإصلاحات الحديثة. غرفة المكتب كبيرة الحجم، مقبضة، على الرغم من الانعكاسات المتلاثلة المنبعثة من الجدران القرميدية. وثمة أقفاص للعصافير معلقة في النوافذ وشارات صغيرة مصقولة موزعة في كل مكان ترحو من الزوار وبلغة حازمة أن لا يفعلوا كذا وأن لا ينسوا ذلك. والمكان نظيف بشكل يكاد يكون مطلقاً بيد أنه يدل على فقر مدقع، وابتذال وكآبة. الكراسي المنجدة مصمومة إلى بعضها بمجموعة أسلاك، تذكر المرء بشكل بغض بالكروسي الكهربائي. والغرفة التي يشغلها تقع في الطابق الخامس. وبينما نرتقي السلم يخبرني فان نوردن أن موباسان قطن هنا ذات مرة. وينوه بوتيرة الصوت ذاتها إلى أن في القاعة عبقاً خاصاً. وفي الطابق الخامس توجد نوافذ محطمة الزجاج، ونقف برهة ننظر إلى النزلاء عبر الردهة. الوقت يقترب من العشاء والناس يحاهدون ليصلوا إلى غرفهم بتلك السحر القلقة، المحبطة التي يخلفها السعي لكسب العيش بشرف. أغلب النوافذ مفتوحة على مصاريعها، والغرف الحقيمة تشبه في مظهرها أفواهاً كثيرة تشاءب. ونزلاء الغرف يتساءبون أيضاً، أو يهرشون أنفسهم. ويتنقلون

في المكان بتوان ومن الواضح أنه بلا هدف معين، وثمة احتمال آخر معقول في أنهم مجانين.

وحالما نتعطف إلى الرواق متجهين إلى الغرفة رقم ٥٧ يفتح فجأة باب يقع أمامنا ليرز وجه عجوز حيزبون بشعر شعث لها عينا محذوب. وتباغتنا إلى حد أننا نقف جامدين في مكاننا. وخلال دقيقة كاملة نطل نحن الثلاثة وقوفاً عاجزين تماماً عن الحركة أو حتى عن الاتيان بأية إيماءة ناتجة عن التفكير. إلى الخلف من العجوز أرى مائدة مطبخ يستلقي عليها طفل عارٍ تماماً، طفل ضئيل سقيم لا يتعدى حجمه حجم دجاجة متوفة الريش. وأخيراً تلتقط العجوز دلواً موحلاً موجوداً إلى جانبها وتقوم بحركة إلى الأمام. ونفسح لها مجالاً لتمر وبعد أن تغلق الباب يطلق الوليد صرخة ثابتة. إنها غرفة رقم ٥٦، وبين ٥٦ و ٥٧ يقع المرحاض حيث تفرغ العجوز أقذارها.

ومنذ أن بدأنا ارتقاء الدرج لزم فان نوردن الصمت. لكن نظرتة بليغة. وحين يفتح باب الغرفة ٥٧ تجتاحني وللحظة بارقة شعور بالجنون. فتحة مقابل المدخل مباشرة مرآة كبيرة جداً مغطاة بالشاش الأخضر بمقدار ٤٥ درجة فوق عربة للأطفال مملوءة بالكتب. ولا يفتر ثغر فان نوردن حتى عن ابتسامة، وبدلاً من ذلك يتقدم بلا مبالاة من عربة الأطفال ويلتقط منها كتاباً ويبدأ بتصفحه، بطريقة رجل يدخل المكتبة العامة ويتوجه بذهن شارد إلى أقرب منصب للكتاب. وربما ما كان لهذا أن يبدو سخيلاً لو لم ألمح في الوقت نفسه زوجاً من القضبان ذات المقابض قائمين عند الزاوية. بدوا في منتهى السكينة والرضا، وكأنهما ناعسان في مكانهما منذ سنين خلت، بحيث تراءى لي فجأة أننا واقفان في هذه الغرفة، بل وفي هذا الموضع بالذات، منذ زمن طويل لا يمكن حسابه، وأنها وقفة اتخذناها في حلم لم نخرج منه قط، حلم تكفي لتبديده أقل إيماءة، مجرد طرفة عين. والشيء الأكثر غرابة هو الذكرى التي برزت فجأة لحلم تراءى لي في الليلة الفائتة، حلم رأيت فيه فان نوردن يقف في زاوية شبيهة بالتي يشغلها هذان المقبضان الحديديان، إلا أنه بدل المقبضين الحديديين كانت هناك امرأة جائحة وقد رفعت ساقها. أراه واقفاً يطل على المرأة وفي عينيه تلك النظرة اليقظة المتلهفة التي تتبدى كلما

رغب في شيءٍ رغبة عارمة. الشارع الذي يحدث فيه هذا تكتنفه الغشاوة - ليس فيه واضحاً إلا الزاوية التي تشكّلها الحدران، وقامة المرأة المنكمشة. يمكنني رؤيته متحهاً إليها بتلك الطريقة الحيوانية السريعة التي يتميز بها، مهملاً كل ما يجري حوله، وقد انصب تصميمه على متابعة طريقه. وكان النظرة التي في عينيه تقول: "يمكنك قتلي فيما بعد، ولكن دعني أدخله فيها.... يجب أن أدخله". وها هو مائل عليها، رأساهما يرتطمان بالجدار، وقد حصل لديه انتصاب عظيم حتى بات وبساطة من المتعذر إدخاله فيها. وفجأة، وبذاك الجو المقزز الذي يعرف كيف يشيعه معرفة تامة، ينهض ويهندم ثيابه. ويوشك أن يتعد وإذا به يلاحظ فجأة أن أيره لا يزال ملقى على الرصيف. إنه بحجم عصا مكنسة مقتلعة. فيلتقطه بلا مبالاة ويدليه من تحت إبطه. وبينما هو يتعد ألاحظ بصيلتين ضخمتين، كبصيلات زهر التوليب، متدليتين من نهاية عصا المكنسة، ويتناهى إلى سمعي صوته وهو يتمتم لنفسه: "أصص....أصص".

يصل الغرسون لاهثاً متعرقاً. وينظر إليه فان نوردن نظرة عدم فهم. والآن تدخل المدام وتتوجه إلى فان نوردن رأساً، تأخذ الكتاب من يده، وترميه في عربة الأطفال. ودون أن تتفوه بحرف، تسوقها إلى الصالة.

يقول فان نوردن "إنها مستشفى مجانين" مبتسماً بألم. اتسامة واهنة تعصى على الوصف حتى أن الشعور بالحلم يعود للحظة ويسدو لي أنسا واقفان عند نهاية رواق طويل علّقت في نهايته مرآة ذات انعكاس متموج. ويترنح فان نوردن، يترنح متمايلاً على طول هذا الرواق، وهو يهز كربه كقنديل قدر، داخلاً خارجاً وكأنما هنا هناك يُفتح باب وتمتد يد لتتزرعه إلى الداخل، أو حافر يرفسه خارجه. وكلما ابتعد في تجواله زاد حزنه الكئيب، إنه يتقلده كالقنديل الذي يحمله راكبو الدراجات بين أسنانهم ليلة يكون الرصيف مبتلاً زلقاً. ويتقل خارجاً وداخلاً من الغرف القذرة، وحين يجلس يتقوض الكرسي من تحته، وحين يفتح الحقيبة لا يكون فيها إلا فرشاة أسنان. في كل غرفة مرآة يقف أمامها بانتباه ويمضغ ثورته، وقد بات فكاه من طول المضغ والهمهمة والدمدمة والتلعثم وصب اللعنات

محلولين عن مكانيهما ويتدليان حتى يكادا يسقطان، وحين يمسح على لحيته تسقط قطع من فكيه ويشعر باشمئزاز شديد من نفسه حتى أنه يدوس على فكيه، يطحنهما نتفاً صغيرة بكعبيه الضخمين.

في هذه الأثناء سيقت الأمتعة إلى الداخل. وتبدأ الأمور تبدو أكثر جنوناً من ذي قبل — خاصة حين يثبت أداة التمرين الرياضي في عمود السرير ويبدأ تمارين الساندو. ويقول للـ "غارسون" مبتسماً "هذا المكان يعجبني"، ويخلع معطفه وبدلته. ويراقبه "الفارسون" بحيرة وفي إحدى يديه يحمل حقيبة سفر وفي الأخرى حقيبة نضح. وأقف بعيداً في الغرفة المؤدية إلى الداخل حاملاً مرآة يعلوها ضباب أخضر. ولا يبدو أن لأي غرض فائدة عملية. حتى غرفة التوصيل نفسها تبدو بلا فائدة، وهي أشبه بردهة تؤدي إلى حظيرة ماشية. إنه نوع الإحساس نفسه الذي ينتابني حين أدخل الكوميدي فرانسيز أو مسرح الباليه رويال، عالم من سقط المتاع، من الأبواب السرية، من الأذرع والنهود والأرضيات المشمعة، من الشمعدانات والرجال المدرعين، من تماثيل بلا عيون ورسائل حب ملقاة في صناديق زجاجية. ثمّة حادث يجري، ولكن لا معنى له، كشرب زجاجة كالفادوس لحرد أنه لا مكان لها في حقيبة السفر.

أخبرني وهو يرتقي الدرج، كما قلت سابقاً، أن موباسان كان يقطن هنا. ويبدو أن أثر المصادفة قد ترك لديه انطباعاً واضحاً. ويميل إلى الاعتقاد أنه في هذه الغرفة بالذات أبدع موباسان بعضاً من تلك الحكايا الرهيبة التي تركز عليها مكانته الرفيعة. ويقول: "أولاد الحرام أولئك يعيشون عيشة الخنازير". ونجلس حول مائدة على كرسيين مريحين عتيقين حزمًا بالسير والمشابك، السرير يلينا مباشرة، وهو شديد القرب منا بحيث يمكننا أن نصبح أقدامنا عليه. وتقوم الخزانة في الزاوية وراءنا، وهي بدورها قريبة بما يكفي لتكون في المتناول. وكان فان نوردن قد أراق ماءه القدر على الطاولة، ونجلس هناك وأقدامنا مدفونة في جواربه وقمصانه القذرة وندخن بسرور. وتبدو قذارة المكان وكأنها تعمل عمل السحر فيه: إنه سعيد هنا. وحين أنهض لأدير مفتاح النور يقترح أن نلعب الورق قبل أن نخرج لتناول الطعام.

وهكذا يجلس هناك قرب النافذة، والماء القذر مسفوح على الأرضية وأداة تمرين الساندر الرياضي مدلاة من الثريا، ونلعب بضعة أدوار من لعبة البينوكل بشخصين. ويضع فان نوردن غليونه جانباً ويحشر مقداراً من السعوط تحت شفته السفلى. وبين الحين والآخر يصبق من النافذة، كتلاً من العصير البني اللون تتردد أصداً صفعاتها على وجه الرصيف في الأسفل. والآن يبدو راضياً.

ويقول: "في أميركا لا تحلم بالعيش في شقة كهذه. وحتى حين كنت متشرداً نمت في غرف أفضل منها. أما هنا فيبدو الأمر طبيعياً - إنه كالكتب التي تقرأها. إذا ما قدر لي وعدت إلى هناك فسأحاول أن أنسى هذه الحياة، تماماً كما تنسى أنت حلماً مزعجاً. وقد أعود إلى حياتي القديمة حالما أرحل من هنا..... هذا إذا عدت. أحياناً أستلقي على السرير وأحلم بالماضي بصورة شديدة الوضوح حتى أنني أضطر إلى هز نفسي لأعي أين أنا. وخاصة حين تكون إلى جوارى امرأة، فمع امرأة أغوص أبعد من الحلم. وهذا كل ما أريد منهن - أن أنسى نفسي. أحياناً أتمادى في الضياع في أحلامي حتى أنني أعجز عن تذكر اسم العاهرة أو المكان الذي التقطتها فيه. مضحك هذا، هه؟ لذيذ أن يكون إلى جوارك جسد دافئ بض حين تستيقظ في الصباح. إنه ينفحك شعوراً نقياً. تصبح روحانياً.... إلى أن يبدأ بصب ذاك الخراء عن الحب، إلخ. لماذا تتحدث العاهرات كثيراً عن الحب، هل يمكنك أن تجيب؟ يبدو أن مضاجعة جيدة لا تكفيهن..... يردن روحك أحياناً".

كلمة روح هذه التي تقفز باستمرار من نجاوى فان نوردن مع نفسه، كانت ترك لدي أثراً فكاهياً. وكلما سمعت كلمة روح من شفثيه تتأبني نوبة ضحك هستيرية، تبدو لي كقطعة نقد زائفة، وخاصة لأنها غالباً ما كانت ترافق بكثرة من العصير البني اللون يترك خيطاً سائلاً أسفل زاوية فمه. ولما لم أكن أتردد لحظة في الضحك في وجهه كان يحدث دائماً حين تقفز هذه الكلمة الصغيرة أن يصمت فان نوردن فترة كافية من الوقت لأنفجر مقهقهاً، بعدها، وكأن شيئاً لم يكن، يتابع مناجاته، مكرراً الكلمة مرة أخرى وباستمرار وفي كل مرة بتوكيد ملاطف. إن روحه هي التي كانت النساء

تحاول امتلاكها - هذا ما وصحه لي. وشرحه لي مراراً وتكراراً، لكنه في كل مرة يعود إليه ببداية جديدة كعودة مجنون الإضطهاد إلى هاجسه. وفإن نوردن مجنون بشكل ما، أنا مقتنع بهذا. خوفه الوحيد هو أن يُترك وحيداً، وهذا الخوف من العقم والإلحاح بحيث إنه حتى وهو يمتطي امرأة، وهو ملتحم بها، لا يقوى على الهروب من السجن الذي بناه لنفسه. ويشرح لي قائلاً: "إنني أقوم بجميع أنواع المحاولات. أحياناً أعدّ، أو أفكر في مشكلة فلسفية، ولكن لا فائدة، كأني شخصان، وأحدهما يراقبني طوال الوقت. أكاد أجن من نفسي حتى لأود لو أقتلها.... هذا، بشكل ما، هو ما أفعله كلما مررت برعشة اللذة الجنسية. وخلال لحظة واحدة أشعر وكأنني ألقي نفسي. عندئذ لا أكون واحداً فقط.... بل لا يكون هناك شيء.... ولا العاهرة. كأني أتلقى العشاء الرباني. إنني أعني ما أقول، بشرفي. وبعد ذلك أمرّ بفترة وجيزة من التوهج الروحي الصافي.... وقد تستمر دون ضابط - من يدري؟ - لولا وجود امرأة إلى جوارك وحقيقة النضح والماء الجاري.... وكل تلك التفاصيل الصغيرة التي تجعلك منطوياً يائساً، وحيداً بلا أمل. ومن أجل لحظة الحرية هذه تضطر إلى الإنصات إلى كل ذاك الخراء عن الحب.... أحياناً يدفعني إلى الجنون.... وأود لو أرفسهن إلى الخارج في الحال.... وأحياناً أفعل. لكن تصرفني لا يبعدهن عني. فهن في الواقع يحبين الضرب. وكلما أهملتهن تعلقن بك. في النساء سمة منعرفة.... كلهن مازوشيات في أعماقهن.

وأسأله: "ماذا تريد من المرأة؟".

ويبدأ بتشكيل يديه، وقد ارتخت شفتاه. ويسلو عليه الإحباط الكامل. فإذا نجح أخيراً في إخراج بضع عبارات مكسرة وهو يتأنيء فبدافع من الإيمان بأن خلف كلماته يكمن عبث طاغ. ويندفع مفشياً سره بلا وعي: "أريد أن أستسلم لامرأة، أريدها أن تبعدني عن نفسي. لكنها لكي تفعل ذلك يجب أن تكون أفضل مني، أن تملك عقلاً، لا أن تكون مجرد عاهرة. يجب أن تدفعني إلى الإيمان بحاجتي إليها، بأنني لا أستطيع أن أعيش بدونها. اجلب لي عاهرة مثلها، هل تفعل؟ وإذا فعلت فسأنازل لك عن عملي. ولن آبه عندئذ

بما سيحدث لي : لن أحتاج إلى عمل أو إلى أصدقاء أو إلى كتب أو إلى أي شيء. ليتها فقط تستطيع أن تدفعني إلى الإيمان بوجود ما هو أهم مني على وجه الأرض. يا يسوع، كم أكره نفسي! لكني أكره أولائي العاهرات بنات الحرام أكثر - لأنه ولا واحدة منهن تساوي شيئاً.

ويتابع: "أنت تظن أنني معجب بنفسي، وهذا يدل على قلة ما تعرفه عني. أعلم أنني شاب عظيم.... وما كنت لأعاني هذه المشاكل لو لم تكن مهمة بالنسبة لي. ولكن ما ينهشني حتى الهلاك أنني لا أستطيع التعبير عن نفسي. يعتقد الناس أنني صائد عاهرات، وهذا يدل على مدى بلاهة ذوي الحواجب العالية أولئك، الذين يقضون أيامهم جالسين على terrace يعضفون تبغهم النفسي.... لا بأس بهذا "التبغ النفسي" - هه؟ دونها لأجلي، سأستخدمها في عمودي المخصص في الأسبوع القادم..... بالمناسبة، هل سبق وقرأت لستيكل؟ هل هو جيد؟ لا يبدو لي أنه أكثر من حقيبة من التواريخ. أتمنى من المسيح أن أستجمع ما يكفي من الجرأة لزيارة محل نفسي.... أقصد، محلاً جيداً. لا أريد أن أزور أحد أولئك المشبوهين الوضيعين ذوي اللحي المدببة ومعاطف الفراك. أمثال صديقك بوريس. كيف تحمل أمثال أولئك؟ ألا يضجرونك حتى الموت؟ أرى أنك تتكلم مع كل من هب ودب. ولا تأبه لشيء. ربما كنت على حق. أتمنى لو لم أكن انتقادياً إلى هذا الحد. لكن أولئك اليهود الحقيرين القذرين المتسكعين حول الدوم، يا يسوع، إنهم يشيعون بي القشعريرة، يشبهون الكتب المدرسية. لو أستطيع أن أتحدث معك كل يوم فلربما تمكنت من إزاحة الهموم عن صدري. أنت مستمع جيد. أعلم أنك لا تأبه لشأني لكنك صبور. وليست لديك نظريات لتستغلها. أظنك ستدونها في وقت لاحق في دفتر ملاحظاتك ذلك. اسمع، لا يهمني ما تقوله عني، ولكن لا تعتبرني صائد عاهرات - فهذا بالغ السذاجة. يوماً ما سأكتب كتاباً عن نفسي، عن أفكارى. لا أقصد أنه سيكون مجرد قطعة من التحليل الاستبطاني.... بل أعني سأضع نفسي على طاولة العمليات وسأعرض جميع أحشائي... وكل شيء دون استثناء. هل سبق وقام أحد بهذا؟ - علام تبسم بحق الجحيم؟ هل يبدو كلامي ساذجاً إلى هذه الدرجة؟"

وأبتسمُ لأننا كلما تطرقنا إلى موضوع هذا الكتاب الذي ينوي أن يكتبه يوماً ما تتخذ الأمور وضعاً متناقضاً. يكفي أن يقول "كتابي" فإذا بالعالم ينكمش في الحال إلى أبعاد تناسب مقاييس فان نوردن الخاصة وشركاه. فعلى الكتاب أن يكون أصيلاً تماماً في موضوعه، كاملاً كل الكمال. لهذا السبب، ولأسباب أخرى يستحيل عليه البدء به. وحالما يحصل على فكرة يبدأ في استجوابها. ويتذكر أن دوستوفسكي استخدمها، أو هامسن، أو شخص آخر. "لا أقول أنني أريد أن أكون أفضل منهم، ولكن أريد أن أكون مختلفاً". هكذا يفسر الأمور، وهكذا، بدل أن يعالج كتابه يقرأ مؤلفاً بعد آخر حتى يتيقن تمام اليقين من أنه لن يتعدى على أملاكهم الخاصة. وكلما زادت قراءاته أصبح أكثر امتلاءً بالإزدراء. لا أحد منهم يكفيه، لا أحد منهم يصل إلى تلك الدرجة من الكمال التي فرضها على نفسه. وينسى تماماً أنه لم يكتب حتى فصلاً واحداً يخوله التعالي عليهم. وكأن هناك رفاً مملوءاً بالكتب التي تحمل اسمه، كتب يعرفها الجميع لذا لا ضرورة لذكر عناوينها. وعلى رغم أنه لم يكتب قط صراحة بشأن هذه الحقيقة، فمن الواضح أن الناس الذين كان يمسك بتلابيبهم وينفخ فيهم فلسفته الخاصة، ونقده، وشكواه، سلموا بأن خلف ملاحظاته المتقلقلة يقف إنجاز ضخيم واسع. وخاصة العذارى الصغيرات البلهاء اللواتي كان يغويهن بالدخول إلى غرفته متذرعاً برغبته في إلقاء قصائده على مسامعهن، أو بحجة أفضل من هذه هي أن يطلب نصيحتهن. ودون أي وازع من شعور بالذنب أو الخجل يناولهن قطعة من الورق الوسخ خط عليها بضعة أسطر - هي نواة قصيدة جديدة، كما يصفها - ويطلب منهن وعطلق الجديدة أن يعبرن عن آرائهن بصدق. ولما لم يكن لديهن عادة ما يعلقن به، ويسربلهن الارتباك من تفاهة الأبيات المطلقة، يستغل فان نوردن الفرصة ليقدم لهن وجهة نظره عن الفن، ولا داعي للقول أنها وجهة نظر وليدة اللحظة الحاضرة لتناسب الحدث. لقد صار خبيراً ضليعاً بدوره هذا إلى درجة أن انتقاله من أناشيد cantos عزرا باوند إلى السرير يحدث ببساطة وتلقائية كتغير طبقة الصوت من مقام إلى آخر، والحقيقة هي أنه إذا لم يجر هذا الانتقال لوقع تنافر، وهذا يحدث بين آن وآخر حين يرتكب خطأ مع أولائي الحمقاوات اللواتي يلقين بـ "السهلات".

وطبعاً، بما أنه شخصية راسخة، فهو يشير إلى هذه الأخطاء الفادحة في إطلاق الأحكام بنفور. لكنه حين يقرر أن يعترف بخطأ من هذا النوع فإنه يدلي به بصراحة مطلقة، والواقع يبدو أنه يستمد متعة منحرفة من التركيز على قصوره. فمثلاً ثمة امرأة واحدة ظل يحاول الحصول عليها منذ عشر سنين وحتى الآن - أولاً في أميركا، وأخيراً هنا في باريس. وهي الشخص الوحيد من الجنس الآخر الذي أقام معه علاقة ودية عميقة. لم يكونا فقط يتبادلان الإعجاب، بل وكانا متفاهمين. في أول الأمر بدا لي أنه لو تمكن حقاً من إصلاح هذه المخلوقة لحلت مشكلته. فقد توفرت جميع عناصر الاتحاد الناجح - عدا العنصر الأساسي. كانت ييسي صاحبة أسلوب فريد مثله، وكان اهتمامها بشأن وهب نفسها إلى رجل معدوماً كاهتمامها بفاكهة بعد الطعام. وكانت تفرز ما تتقنيه من الأشياء وتبادر إلى التقدم بالعرض. ولا يمكن القول أن مظهرها كان سيئاً، أو إنها كانت جميلة. لقد كان لها جسم رائع، وهو الشيء الأهم - وكانت راضية بهذا، كما يقال.

كانا ودودين جداً، هذان الإثنان، إلى درجة أن فان نوردن كان أحياناً، وإرضاء لفضولها (وأيضاً على أمل يائس في أن يلهبها ببراعته الفائقة) يعتمد إلى إخفائها في خزانته أثناء إحدى جلساته. وبعد انتهاء الجلسة تظهر ييسي من مخبئها ويناقشان القضية عَرَضاً، أو بمعنى آخر لا مبالاة كاملة تقريباً بكل شيء عدا "التقنية". كانت التقنية هي إحدى أفضل اهتماماتها، على الأقل أثناء تلك المناقشات التي كنت أمنح امتياز الظفر بحضورها. فكان يقول: "ما السوء في تقنيتي؟" وتجبب ييسي: "أنت تفتقر إلى الكثير من البراعة. وإذا كنت تتوقع أن تضاجعني فعليك أن تكون أكثر مهارة".

كان بينهما تفاهم تام، كما قلت، حتى أنني كنت أعرج على فان نوردن في الواحدة والنصف أجد ييسي جالسة على السرير، وقد أزيحت الملاءات وفان نوردن يدعوها لتلاطف قضيبه.... "فقط بعض الملاحظات الحريية"، هكذا يقول "حتى أجد الشجاعة على النهوض". أو يحثها على أن تنفخ عليه، فإذا لم تنجح هذه الطريقة، فإنه يمسك به ويهزه كجرس العشاء، وينفجران معاً في نوبة من ضحك حتى تكاد تودي بهما. ويقول: "لن أفصح

في مضاجعة هذه العاهرة، إنها لا تكن لي أي قدر من الاحترام. هذا حزاء
إيلاها ثقي"، ويضيف بعدها على الفور: "ما رأيك بتلك الشقراء التي أريتلك
إياها بالأمس؟" موجهاً حديثه إلي ييسي طبعاً، وتسخر ييسي منه قائلة إنه
يفتقر إلى الذوق، ويقول: "أوه، لا تبدأي معي على هذا الخط"، ثم يردف
عابثاً، وربما للمرة الألف، ولأن الأمر صار نكتة دائمة - "اسمعي يا ييسي، ما
رأيك بمضاجعة عالماشي؟

"واحدة صغيرة فقط..... لا تريدن". وحين ينتهي هذا الأمر بالطريقة
المعتادة يضيف، على الوتيرة نفسها: "حسن، ما رأيك به هو؟ لماذا لا
تضاجعينه هو؟".

مشكلة ييسي كلها تركز على أنها لا تستطيع، أو بالأحرى لا تريد،
أن تعتبر نفسها وسيلة مضاجعة. وتحدث عن الشغف وكأنها كلمة جديدة
مبتكرة. وهي شغوف بكل شيء، حتى وإن كان شيئاً صغيراً كالمضاجعة.
وكان عليها أن تضع كل روحها فيها.

ويقول فان نوردن: "وأنا أيضاً أصبح شغوفاً أحياناً"، وتقول
ييسي: "أوه، أنت، أنت مجرد ساطير مهترى، لا تعرف ما الشغف. فحين
يحدث لديك انتصاب تظن أنك صرت شغوفاً".

"حسن قد لا يكون شغوفاً.... ولكن لا يمكن للمرء أن يشغف دون أن
يحصل لديه انتصاب، وهذا صحيح، ألا تظنين؟".

كل هذا الكلام عن ييسي والنساء الأخريات اللواتي استدرجهن إلى بيته
يوماً بعد آخر، شغل تفكيري ونحن متوجهون إلى المطعم. لقد واءمت نفسي
تماماً مع نجاحاه مع نفسه بحيث كنت أعطيه التعليق المطلوب آلياً دون أن أقطع
على نفسي سلسلة تأملاتي، وذلك في اللحظة التي يسكت فيها صوته. وهذا
يشكل حواراً ثنائياً محفوظاً، كأغلب الثنائيات، وخاصة في هذا الحوار، فإن
أكثر ما يجذب انتباه المرء فيها هو الإشارة التي تعلن ورود صوته هو. وبما
أنها ليلة عطلة، وبما أنني وعدت أن أأزمه، هيأت نفسي لأصرف انتباهي
عن تساؤلاته. وأعرف أنني سأرهق قبل انتهاء السهرة، فإذا كنت محظوظاً،
أي إذا نجحت في أن أسحب منه بضعة فرنكات متعللاً بإحدى الذرائع

فسأروغ منه حالما يذهب إلى المرحاض. إلا أنه يعرف نزوعي إلى الزوغان، وبدل أن يشعر بالمهانة، يعمل ببساطة على مواجهة هذه الإمكانية بصيانة قروشه. فلو طلبت منه نقوداً لأشترى سجائر لأصر على مرافقتي لشرائها. ويقرر أن لا يترك وحيداً، ولا للحظة، وحتى عندما ينجح في الحصول على امرأة، حتى عندئذ يصيبه الرعب من أن يبقى معها لوحده. ولو أمكنه لأجلسني معه في الغرفة أثناء قيامه بممارسته. كما لو أنه يطلب مني أن أنتظره ريثما ينتهي من حلقته.

في ليلة عطلة ينجح فان نوردن تدريجياً في أن يحتفظ في جيبه بما لا يقل عن خمسين فرنكاً، وهذا ظرف لا يمنعه من أن يقوم بلمسة فنية كلما صادفه احتمال بالنجاح، فيقول: "مرحباً، هات عشرين فرنكاً..... أنا بحاجة إليها"، وله طريقته الخاصة في الظهور، في الوقت نفسه، بمظهر المصعوق من الرعب، وحين يصادف صداً يشعر بالمهانة، "يعني على الأقل بإمكانك أن تدعوني إلى مشروب"، وعندما يحصل على المشروب يقول بروح أكثر كياسة: "اسمع، هات خمس فرنكات فقط هات فرنكين...". و تنتقل من بار إلى بار بحثاً عن قليل من الإثارة وطول الوقت نكس بضعة فرنكات أخرى.

وفي الكوبول نصطدم بسكير يعمل في الصحيفة، وهو أحد قاطني الطابق العلوي. ويخبرنا بأنه قد وقع للتو حادث في المكتب، فقد سقط أحد مراجعي التجارب الطباعية في مهوى المصعد، ولا يتوقع أن يبقى على قيد الحياة.

للوهلة الأولى يصعق فان نوردن، يصعق بعمق. ولكن حين يعلم أنه بيكوفر، الانكليزي، يستعيد ارتياحه، ويقول: "الابن الحرام المسكين، من الأفضل له أن يموت على أن يبقى على قيد الحياة. المسكين لم يضع أسنانه الاصطناعية إلا منذ بضعة أيام....".

والتلميح إلى الأسنان الاصطناعية يحرك مشاعر ساكن الطابق العلوي حتى ينخرط باكياً. ويسرد بأسلوب متباك حدثاً صغيراً له علاقة بالحادث، وهو يسبب له القلق، وقلقه على الحدث الصغير أكبر من قلقه على الكارثة نفسها. فيبدو أنه حين اصطدم بيكوفر بقاع المهوى، استعاد وعيه قبل أن يصل إليه أحد. وعلى الرغم أن ساقيه كسرتا وأضلاعه تحطمت فقد نجح في

النهوض على أطرافه ليتلمس فيما حوله بحثاً عن أسنانه الاصطناعية. وفي سيارة الاسعاف كان يصرخ في هياج لفقدانه أسنانه. كانت الحادثة مبكية مضحكة في وقت واحد. ولم يعرف الشاب القاطن في الطابق العلوي أيضاً أم يبكي وهو يحكيها. لقد كانت لحظة دقيقة لأنك لو قمت بأية حركة غير صحيحة أمام سكير كهذا لحطم قنينة على رأسك. ولم يكن قط على علاقة ودية مع ييكوفر - بل إنه، والحق يقال، نادراً ما وطأ مبنى تصحيح التجارب الطباعية : فقد كان بينهما ما يشبه الجدار الخفي كالذي كان بين سكان الطابق العلوي والسفلي. أما الآن، وبعد أن شعر بلمسة الموت، أراد أن يكشف عن احساسه بالصدقة. أراد أن يبكي إن أمكن، أن يبين إنه إنسان طبيعي. أما جو وأنا، اللذان كنا نعرف ييكوفر جيداً ونعرف أيضاً أنه لم يكن يساوي شيئاً، ولا حتى بضع دمعات، فانزعجنا من مبالغة هذا السكير في إبراز عواطفه. وأردنا أيضاً أن نقصص عن هذا الانزعاج، ولكن لا يسع المرء أن يكون صادقاً، إذ عليك أن تشتري إكليلاً من الزهور وترافق إلى الجنازة وتدعي أنك في حال يرثى لها من الحزن. ويجب أيضاً أن تهتئ على النعي الرقيق الذي كتبه. وسوف يظل يحمل معه نعيه الصغير الرقيق أينما ذهب طوال شهور، ممطراً نفسه بفيض من التقريظ لأنه أحسن معالجة الوضع. شعرنا بكل هذا، أنا وجو، دون أن نتبادل كلمة واحدة. اكتفينا بالوقوف والانصات باحتقار مهلك صامت. وحالما أتاحت لنا فرصة الهرب فعلنا، وتركناه حيث هو عند البار يتحب وحيداً مع كأس من البرنو.

بعد أن غبنا عن ناظره بدأنا ضحكنا المستيري. يا للأسنان الاصطناعية! وبعد كل الكلام الذي قلناه عن ذاك الشيطان المسكين، وقد قلنا عنه أشياء طيبة أيضاً، كنا نعود دائماً إلى ذكر الأسنان الاصطناعية. ففي هذا العالم أناس أشكالهم عجيبية حتى أن الموت نفسه يسخر منهم. وكلما كان موتهم مريعاً بدوا أكثر إثارة للسخرية. ولا فائدة من إحاطة النهاية بشيء من الجلال - فعليك أن تكون كذاباً منافقاً لتكتشف أي شيء مأساوي في رحيلهم. ولما لم نكن مضطرين إلى تلبس واجهة زائفة استطعنا أن نضحك من الحادثة من أعماق قلوبنا. وأمضينا الليل كله نضحك. وكنا بين الحين والآخر نصب جام غضبنا وازدراءنا واحتقارنا على ساكني الطابق العلوي، ذوي الرؤوس

المتفخحة، الذين كانوا يحاولون إقناع أنفسهم، ولا شك، بأن يكوفر هو شاب رائع وأن موته كارثة. وتوافدت على رؤوسنا ذكريات مضحكة - عن الفواصل المنقوطة التي كان يتغاضى عنها والتي كانوا يوجهون إليه أقسى التآنيب بسببها. لقد أفسدوا حياته بفواصلهم المنقوطة المنيوكة، والكسور التي كان دائم الخطأ فيها . وكادوا مرة أن يطردوه لأنه جاء يوماً إلى العمل وهو سكران. وكانوا يزدرونه لأنه كان يبدو دائم البؤس ولأنه كان مصاباً بالأكزيما، وقشرة الرأس. لقد كان نكرة ولا أكثر، حسب وجهة نظرهم، غير أنهم، الآن وبعد أن مات، صاروا يتدافعون بحمية لبيتاعوا له أكبر إكليل ويكتبوا عليه اسمه بحروف كبيرة على النعي. فعلوا كل ما من شأنه إبرازهم. وكانوا على استعداد أن يظهره ككتلة ضخمة من الخراء، إذا اقتضى الأمر. بيد أنهم مع يكوفر، ولسوء الحظ، لم يتمكنوا من إبداع الكثير. كان صفراء، بل إن موته بالذات لم يكن ليضيف صفراً إلى اسمه.

يقول جو: "ثمة شيء واحد جيد في موته، هو أن بإمكانك الحصول على عمله. إذا كان لديك أي قدر من الحظ فستقع أنت أيضاً من مهوى المصعد وتكسر عنقك. وأعدك أن أشترى لك إكليلاً جميلاً".

وصوب الفجر نجلس على مصطبة مقهى الدوم، وقد نسينا أمر يكوفر منذ وقت طويل. وحصلنا على شيء من الإثارة في البال نيفر وعاد ذهن جو إلى هاجسه الأبدي: العاهرة. وفي تلك الساعة بالذات، عند انتهاء عطلة الليلة، يتصاعد قلقه إلى مرحلة الحمى. ويفكر في النسوة اللواتي مر بهن في أول المساء، وبالمشاوير اللواتي كان يمكن أن يحصل عليهن لو أراد، لو لم يكن قد ستمهن. ويتذكر حتماً عاهرته الجيورجية - فقد كانت في المدة الأخيرة تطارده ككلب صيد، وتتوسل إليه أن يستعيد لها على الأقل ريشماً تجد عملاً، ويقول: «لا بأس في أن أطعمها مرة كل حين لكنني لا أستطيع إيوائها دائماً..... وإلا أفسدت علاقتي مع بقية العاهرات». إن أكثر ما يزعجه بشأنها أنها لا تحمل على جسمها أي مقدار من اللحم، ويقول: "وكانك تصحب هيكلاً عظيماً معك إلى السرير. وذات أمسية أحضرتها معي - من باب الشفقة - واحزر ما فعلت هذه العاهرة المجنونة بنفسها؟ لقد حلفت

الشعر عنه حتى صار نظيفاً..... لا تجد عليه شعرة واحدة. هل رأيت امرأة تخلق عشها؟ شيء مقزز، ألا ترى معي؟ ومضحك أيضاً. كأنه مجنون. ولم يعد يشبه العنق في شيء : بل يشبه سمكة صدفية ميتة أو شيئاً من هذا القبيل" ويروح يصف لي، وقد نشط فضوله، كيف خرج من السرير وأخذ يبحث عن مصباحه الومضي. "وجعلتها تفتح ووجهت إليه الضوء. ليتك رأيتني.... كان منظرًا هزليًا. وانشغلت به حتى نسيت أمرها. ولم أكن قبلها قد أمعنت النظر في كس بهذه الجدية. حتى حسبتني لم أر واحداً من قبل. وكلما نظرت إليه ملياً صار أقل إثارة للاهتمام. إذ يتبين لك أن لا شيء استثنائي فيه، وخاصة بعد أن يخلق. فالشعر هو الذي يضيف عليه الغموض. ولهذا ترى أن التمثال لا يثيرك. مرة واحدة فقط رأيت فيها كساً حقيقياً في تمثال - صنعه رودان. يجب أن تراه يوماً..... كانت المرأة متباعدة الساقين.... ولا أظن أنه كان للتمثال رأس. ويمكنك أن تقول إنه لا يوجد إلا الكس. يا يسوع، بدت مرعبة. والجدير بالذكر - إنهن جميعاً يدين متشابهات. حين ننظر إليهن مرتديات ملابسهن تتخيل جميع أنواع الأشياء. تخلع عليهن شخصية متميزة، لا يتحلين بها أصلاً، طبعاً. وبين الساقين لا يوجد إلا شق وترتفع حرارتك لرؤيته. - بل إنك لا تكاد تنظر إليه معظم الوقت. وتعرف أنه موجود هناك وكل ما تفكر به هو أن تقحم فيه مدكك، وكأن أيرك هو الذي يفكر نيابة عنك. هذا وهم وأنت تتحرق للأشياء..... تحرق لشق عليه شعر، أو بدونه. إنه خال تماماً من أي معنى إلى درجة أن النظر إليه يفتني. لا بد أنني بقيت أدرسه لعشر دقائق أو أكثر. وحين تنظر إليه بهذه الصورة، باعتباره شيئاً منفصلاً، تخطر في ذهنك خواطر مضحكة. وبعد كل الغموض الذي يكتنف الجنس تكشف أنه لا شيء - مجرد فراغ. أليس مضحكاً لو أنك تجد داخله هارمونيكا.... أو روزنامة؟ ولكن لا يوجد شيء.... لا شيء بالمرة. أنه مقزز. كاد يجرفني إلى الجنون.... اسمع، أتعلم ماذا فعلت بعد هذا؟ ضاجعتها بسرعة ومن ثم أدت ظهري. نعم، وتناولت كتاباً ورحت أقرأ. فمن كتاب يمكنك أن تحصل على شيء ذي بال، وإن كان سيئاً..... أما كس، فمضيعة للوقت.... "

وتصادف أنه بينما كان ينهي حديثه إذا بإحدى العاهرات ترنو إليه.

وبدون أية فترة انتقال يقول لي مسرعاً: "هل تريد أن تطرحها؟ لن تكلف كثيراً.... وستأخذنا معاً" ودون أن ينتظر جوابي يقف مترنحاً ويتوجه إليها. ويعود بعد بضع دقائق. يقول "تم الأمر. أكمل شرب كأسك. إنها جائعة. لم يعد هناك عمل بعد هذه الساعة.... ستأخذنا معاً لقاء خمسة عشر فرنكاً. وسنذهب إلى غرفتي.... هكذا أرخص".

في الطريق إلى الفندق تصيب الفتاة رجفة شديدة حتى تضطر إلى التوقف لابتاع لها كأساً من القهوة. إنها مخلوقة رقيقة وليست سيئة المنظر أبداً. واضح أنها تعرف فان نوردن، تعرف أنها يمكن أن تتوقع منه أكثر من خمسة عشر فرنكاً. ويقول مغمغماً بصوت منخفض "أنت لا تحمل أية نقود"، ولما لم أكن أملك ستيماً واحداً لا أفهم شيئاً مما يقول، إلى أن يتفجر قائلاً: "إكراما للمسيح، تذكر أننا مفلسان. لا تكن رقيق القلب حين نصعد إلى فوق. سوف تطلب منك أن تزيد السعر قليلاً. فأنا أعرف هذه العاهرة! كان يمكنني الحصول عليها مقابل عشرة فرنكات لو أردت. لا داعي لإفسادهن....".

وتقول لي وهي تلملم شتات ملاحظاته بفهمها البليد «il est michant، celuilà. لا ليس خبيثاً إنه لطيف جداً، il n'est pas، me'chant، il est tre's gentil» وتهز رأسها وهي تضحك: "أعرف جيداً هذا الرجل" ثم تبدأ بسرد قصة عشرات حظها، عن المستشفى والإيجار المتأخر والطفل الموجود في القرية. لكنها لا تبالغ. فهي تعرف أن آذاننا موقورة، لكن البؤس ساكن داخلها، كالحجر، ولا مكان لأية أفكار أخرى. ولا تحاول أن تستدر عطفنا - وهي فقط تنقل هذا العبء الثقيل الكامن داخلها من مكان إلى آخر. وأشعر بميل إليها. وأتمنى من المسيح أن لا تكون مصابة بمرض....

في الغرفة تقوم باستعداداتها بطريقة آلية. وتسالنا، وهي تجلس على الـ «bidet» ألا أجد عندكما أي كسرة خبز» ويضحك فان نوردن من هذا السؤال ويقول، وهو يدفع إليها بزجاجة «خذي اشربي». إنها لا ترغب بشرب أي شيء، فمعدتها خاوية، وتشتكي.

يقول فان نوردن: "هذا هو أسلوبها دائماً، لا تتركها تتلاعب

بعواطفك. على أية حال أتمنى لو تتكلم عن أي شيء آخر. بحق الجحيم كيف يمكنك أن تفعل وأنت مع عاهرة تتضور جوعاً؟".

بالضبط! ليس لدى أي منا أي شغف. أما هي فيتوقع منها أن تقدم مدلاة من الحجارة الكريمة لتكشف عن قبس من ولعها. ولكن ثمة خمسة عشر فرنكاً ويجب عمل شيء بشأنها. وكأنا في حالة حرب: فحالما ينفجر الوضع لا يعود أحد يفكر في غير السلام، في إنهاء الأمر كله. ومع ذلك لا أحد يملك الشجاعة ليخفض سلاحه ويقول: «لقد مللت.... لقد طفح كيلى»، لا، ثمة خمسة عشر فرنكاً في مكان ما، ولم يعد أحد يأبه بها، ولن ينالها أحد في النهاية على أية حال، لكن الخمسة عشر فرنكاً هي كعلة الأشياء الأولى وبدل أن ينصت المرء إلى صوته الخاص، بدل أن يتخلى عن العلة الأولى، يستسلم للأمر الواقع، ويروح يقتل ويذبح وكلما زاد جبنه تصرف بطولية أكبر، إلى أن يأتي يوم ينهار فيه الأساس وإذا بالمدافع تسكت فجأة ويلتقط حاملو المحفات الأبطال المشوهين النازفين والنياشين معلقة على صدورهم. وبعدها يكون لدى المرء البقية الباقية من حياته ليقضيه في التفكير بالخمسة عشر فرنكاً. يكون قد فقد عينيه، أو ذراعيه، أو ساقيه، ولكن يبقى له أن يعزى نفسه بقية حياته بالخمسة عشر فرنكاً التي نسيها الجميع.

الأمر يشبه تماماً حالة حرب - لا أستطيع نسيان هذا. وأسلوبها في التأثير عليّ، لتشعل لدي قبساً من الشغف، يجعلني أفكر كم كنت سأبدو جندياً بائساً لو أنني كنت أحمق إلى درجة الوقوع في مثل هذا الفخ وأجر إلى الجبهة. لا أستطيع احتمالها، وهذا كل ما يسعني قوله. لكن تفكيرها كله منصب على الخمسة عشر فرنكاً وإذا لم أرغب في المقاتلة للحصول عليها فستلغمني هي إلى ذلك. لكنك لا تستطيع أن تدخل الفكرة إلى رأس رجل ليس في نفسه أي قتال. إن بعضنا هو من الجبن بحيث يتعذر عليك أن تخلق منا أبطالاً، حتى ولو أرعبتنا حتى الموت. ربما لأن معرفتنا أكبر مما ينبغي. إن بعضنا لا يعيش اللحظة، بل يعيش بعدها بقليل أو قبلها بقليل. إن ذهني مشغول طوال الوقت بمعاودة السلام. ولا أستطيع أن أنسى أن الخمسة عشر فرنكاً هي أصل كل هذا البلاء. خمسة عشر فرنكاً ماذا تعني لي خمسة عشر

فرنكا، خاصة أنها ليست ملكي؟.

ويبدو أن فان نوردن يتبنى موقفاً طبيعياً أكثر من الموضوع فهو حتى الآن لا يأبه قط بالخمسة عشر فرنكا، لكن الوضع يجد ذاته هو الذي يفتته. كأنه يدعو لتقديم عرض مفعم بالهمة والنشاط - ورجولته متورطة في الأمر. لقد ضاعت الخمسة عشر فرنكا، سواء نجحنا أم لم نتجح. وثمة شيء آخر أكثر تورطاً - ربما ليس فقط الرجولة، بل والإرادة. وكأن رجلاً عاد إلى الخنادق ثانية لأنه لم يعد يفهم الداعي ليعتبر في الحياة، وإذا هرب الآن فسيقبض عليه لاحقاً، لذا يواصل عمله، وعلي رغم أنه يحمل روح صرصار ويعترف بهذا لنفسه، اعطه مسدساً أو سكيناً أو حتى مجرد أظافره دون غيرها وسيظل يذبح ويقتل، وسيفصل أن يذبح مليوناً من الناس على أن يتوقف ليتساءل لماذا.

وبينما أراقب فان نوردن وهو يعالجها ببراعة، يخيل إلي أنني أنظر إلى آلة انزلقت مستناتها. وإذا تركتهما وشأنهما فسيتانعان حركتهما إلى الأبد، يطحنان وينزلقان، دون أن يحدث أي شيء، إلى أن تمتد يد لتوقف المحرك. ومرآهما متشابكين معاً كزوج من الماعز بلا أوهي شرارة من عاطفة، يطحنان ويطحنان لسبب وحيد هو الخمسة عشر فرنكا، يزيل آخر ذرة من شعور لدى ذاك اللاإنساني المسمى إشباع الفضول. الفتاة مستلقية على طرف السرير وفان نوردن مائل فوقها كالساطر وقدماه مثبتتان بقوة على الأرض. وأنا جالس على كرسي خلفه، أراقب حركتهما بتجرد علمي بارد، ولا يهمني إن استمرت إلى الأبد. وكأنني أراقب إحدى تلك الآلات المجنونة التي تلفظ الصحف بالملايين، والبلايين، والتريلايين بعناوينها الرئيسية الخالية من أي معنى. إن مراقبة الآلة يجنونها تبلو مفهومة أكثر، وفاتنة أكثر من مراقبة المخلوقات البشرية والأحداث التي أنتجتها. إن اهتمامي بفان نوردن والفتاة هو صفر، وإذا أمكنتني أن أجلس هكذا أراقب كل حركة تنجز في هذه اللحظة في جميع أركان العالم لكان اهتمامي عندئذ هو أقل من صفر، ولما تمكنت من التفريق بين هذه الظاهرة وتساقط المطر أو تفجر بركان. وما دامت شرارة العاطفة تلك مفقودة فلن تكون هناك دلالة إنسانية في الإنجاز،

ويكون من الأفضل مراقبة الآلة. وهذان الإثنان أشبه بآلة انزلت مسنناتها، وهي تحتاج إلى لمسة من يد إنسانية لإصلاحها، تحتاج إلى ميكانيكي.

أخرُ على ركبتي خلف فان نوردن ولأفحص الآلة بتركيز أشد. الفتاة ترمي برأسها إلى أحد الجانبين وتنظر إلى نظرة بائسة، وتقول "لا فائدة، مستحيل". وعلى الأثر يشرع فان نوردن بالعمل بطاقة متجددة، كتييس عجوز. إنه تيس عنيد جداً بحيث يفضل أن يحطم قرنيه على أن يستسلم. والآن يزداد غضبه لأنني ادغدغه من ردفه :

"إكراماً لله يا جو، كفى! ستقتل الفتاة المسكينة".

وينخر قائلاً: "دعني وشأني، كدت أدخله الآن".

وفجأة تعيد وقفته والطريقة المصممة التي نطق بها عبارته إلى ذهني، وللمرة الثانية، ذكرى حلمي. الآن فقط يبدو وكأن عصا المكنسة تلك، التي كان يديها بلا مبالاة، من تحت إبطه، وهو يمضي في طريقه، قد ضاعت إلى الأبد. وكأنه تنمة الحلم - إن فان نوردن هو نفسه، لكنه بدون العلة الأولى. إنه أشبه ببطل عائد من الحرب، ابن حرام مسكين مقعد يعيش على واقع أحلامه. أينما يجلس يتقوص الكرسي من تحته، وكل باب يدخله يؤدي إلى عرفة خاوية، وكل ما يضع في فمه يترك مذاقاً مرّاً. كل شيء هو كما كان من قبل، العناصر الأولى لم تتغير، ولا يختلف الحلم عن الواقع. غير أنه أحياناً يخلد إلى النوم وحين يستيقظ يجد أن جسمه قد سرق. إنه كآلة ترمي الصحف، ملايين وبلايين منها كل يوم، صفحاتها الأولى زاخرة بأخبار الكوارث، وحوادث الشغب، والجرائم، والانتفجارات، والتصادمات، لكنه لا يشعر بأي شيء. إذا لم يتبرع أحدهم بإيقاف التدفق فلن يعرف معنى الموت، ولا يمكنك أن تموت إذا سرق منك جسدك الحقيقي. يمكنك أن تمتطي عاهرة وتعمل فيها كتييس وإلى الأبد، يمكنك أن تذهب إلى الخنادق لتنسف فتاتاً، لا يمكن لأي شيء أن يقدح شرارة العاطفة إذا لم تتدخل يد إنسانية. على أحدهم أن يمد يد المساعدة إلى الآلة ويعشق المسننات من جديد. على أحدهم أن يفعل هذا دون انتظار لمكافأة، دون اهتمام بالخمسة عشر فربكاً، شخص بصدور ضعيف بحيث أن الميدالية تحني ظهره. على

أحدهم أن يدخل القوت إلى عاهرة تتضور جوعاً دون خوف أن يخرجها منها ثانية. وإلا فإن هذا المشهد سيستمر إلى الأبد. ولا يخرج من المعمة....

بعد التمسح بأذيال الرئيس طوال أسبوع كامل - وهذا هو الأسلوب المتبع - نجحت في الحصول على وظيفة بيكوفر. لقد مات ذاك الشيطان المسكين فعلاً، بعد أن خبط المهوى بوضع ساعات. وكما توقعت، أقاموا له جنازة فخمة، مع قداس مهيب وأكاليل ضخمة، وما إليها. "كل شيء مفهوم" tout compris وبعد مراسيم الدفن استعادوا إشرافهم، أقصد بهم شبان الطابق العلوي، في المقهى. من المؤسف أن بيكوفر لم يكن يستطيع أن يتناول معهم وجبة سريعة - لكان رحب بالجلوس مع شبان الطابق العلوي وسماع اسمه يتردد مراراً.

يجب أن أقول، منذ البدء، أنه ليس لدي ما أشتكي منه. وكأني في مستشفى للمجانين، مسموح لك فيها أن تستمني طوال ما بقي لك من حياة. العالم كله موضوع تحت أنفي والمطلوب مني أن أعين أوقات الفواجع. ليس هناك شيء لا يضع فيه سكان الطابق العلوي الزلقون أصابعهم، لا يمر فرح، ولا يأس مرور الكرام. فهم يعيشون بين حقائق الحياة الصعبة، أو الواقع، كما تسمى. إنها الواقع المستنقي وهم فيه الضفادع التي لا عمل لها غير النقيق. وكلما زاد نقيقتها صارت الحياة أكثر واقعية. المحامي، والكاهن، والطبيب، ورجال البوليس، والصحافي - هؤلاء هم المشغوفون الذين يجسسون باصابعهم نبض العالم. ثمة جو مستمر من الفاجعة. وهو رائع. وكأن مقياس الحرارة لا يتغير، وكأن الراية لا تزال عند منتصف الساري. بات مفهومنا الآن كيف تستحوذ فكرة اللجنة على وعي الناس، وكيف تبرز تقدماً حتى بعد أن تنقوض كل الدعائم من تحتها. لا بد أن هناك عالماً آخر إلى جانب هذا المستنقع فيه كل شيء مبعثر شلراً. من الصعب تصور اللجنة المحتملة التي يحلم بها الناس. هي جنة الضفادع، ولا شك، مكونة من الأبخرة العفنة، والنفاية، والماء الراكد. إجلس على حشية من الليلك لا يزعجك أحد ونق طوال يومك. اللجنة شيء يشبه هذا، في تصوري.

إن لكل من هذه الفواجع التي أصحح طباعتها - أثراً علاجياً عليّ. تصور

حالة من المناعة التامة، من الوجود الساحر، من الحياة المطلقة الأمان وسط
العصيات السامة. لا شيء يؤثر بي، لا الزلازل ولا حركات الشغب ولا
المصادمات ولا الحروب ولا الثورات. إنني ملقح ضد كل مرض، كل فاجعة،
كل حسرة وبؤس. إنه أروح حياة الثبات والجلد. في كوتي الصغيرة تكمن
كل السموم التي ينفثها العالم كل يوم بين يدي. لا يتلوث مني قلامة ظفر. أنا
منيع مناعة مطلقة. بل إنني أفضل حالاً من مساعد في غيري، إذ ليس تمة روائح
كريهة هنا، لا تفوح إلا رائحة رصاص يحترق. يمكن للعالم أن يتفجر — ومع
ذلك سأبقى هنا لأضع فاصلة هنا وأخرى منقوطة هناك. بل قد أتجاوز قليلاً
إلى الوقت الإضافي، فمع حدث كذاك من المؤكد أن تكون هناك زيادة
أخيرة. وعندما سينفجر العالم ويرسل العدد الأخير إلى المطبعة سوف يجمع
مصححو المطبوعات ويهدوء كل الفواصل، والفواصل المنقوطة، والواصلات،
وعلامات النجم، والأقواس، والأهلة، والنقاط، وعلامات التعجب، إلخ،
ويضعونها في صندوق صغير فوق كرسي رئيس التحرير، "وهكذا ينتظم كل
شيء"..... comme ca tout est re'gle".

والفاجعة العظمى بالنسبة لمصحح المطبوعات هي التهديد بفقدان عمله.
وحين يجتمع وقت الاستراحة يكون السؤال الذي يشيع الرجفة في ظهورنا
هو: ماذا ستفعل إذا فقدت عملك؟ فبالنسبة لرحل يعمل كناساً للروث في
اسطبل ترويض الخيول، الرعب الأعظم هو وجود عالم بلا خيول. ومن
البلاهة بمكان أن تقول له إنه من المثير للاشمئزاز أن يقضي المرء حياته يجرف
الروث الساخن. فبوسع الإنسان أن يحب الخراء إذا كان رزقه يعتمد عليه،
وسعادته مرهونة به.

هذه الحياة التي، لو كنت ما أزال فيها الرجل ذا الأنفة، والشرف
والطموح وما إليها، لبدت كأنها أدنى درجات الانحطاط، أرحب بها الآن،
ترحيب المعتل بالموت. هذه حقيقة سلبية، كالموت تماماً — وهي نوع من
الفردوس خال من ألم ورعب الموت. في هذا العالم الجهنمي أهم شيء على
الإطلاق هو علم الإملاء والترقيم. ومهما تكن طبيعة الفاجعة، فكلمة طقس
وحدها تهجئ بشكل صحيح. كل شيء موجود على مستوى واحد، سواء

أكان آخر أزياء السهرة، أو اكتشافاً فلكياً، أو تراحماً على مصرف لاستيراد
الودائع، أو كارثة على سكة الحديد، أو سوق التيران، أو طلبة المائة إلى
واحد، أو إعداماً، أو سرقة، أو اغتيالاً، أو أي شيء آخر. لا شيء يخفى على
عين مصصح المطبوعات، ولكن لا شيء يخترق بدلتته المضادة للرصاص.
وتكتب مدام شير (الآنسة استيف سابقاً) للهندوسي آغا مير تقول إنها
مرتاحة تمام الارتياح لعمله "تزوجت في السادس من حزيران وأقدم لك
شكري. نحن سعيدان وآمل أن تدوم هذه السعادة، بفضل مقدرتك، إلى
الأبد. لقد أبرقت لك نقوداً على شكل حوالة بريدية بمبلغ مكافأة
لك...."، والهندوسي آغا مير يتنبأ لك بمستقبلك ويقرأ كل أفكارك بطريقة
دقيقة وغير قابلة للتفسير. وسوف يمدك بالنصيحة، ويساعدك على التخلص
من كل همومك ومشاكلك من أي نوع كانت، إلخ. "اتصل أو اكتب إلى
١٠ شارع ماكماهون، باريس".

إنه يقرأ جميع أفكارك بطريقة رائعة! وأقصد بكلامي كلها ودون
استثناء، من أتفه الأفكار إلى أكثرها خزيًا. ولا بد أن متسعا فسيحا من
الوقت يتوفر لدى هذا الآغا مير. أم هل يركز فقط على أفكار الذين يرسلون
إليه النقود لمحاولات بريدية؟ وألاحظ في العدد نفسه عنواناً رئيسياً يقول إن
"الكون يتسع بسرعة كبيرة جداً حتى يكاد ينفجر" وتحت صورة تمثل صدى
نصفياً. ومن ثم كلام حول اللؤلؤة الموقعة بكلمة تكل، tecla. وهو يخبر
الجميع بلا استثناء أن الصدفه تعطي كليهما، أي "البرية" أو اللؤلؤة الشرقية،
واللؤلؤة "المتحضرة". وفي اليوم نفسه، في كاتدرائية تريه، يعرض الألمان
معطف المسيح، وهي المرة الأولى التي يُخرج فيها من المحفوظية منذ إثنين
وأربعين عاماً. لم يذكر شيئاً عن البنطلون والبدلة. في سالزبورغ وفي اليوم
نفسه أيضاً ولد فاران في بطن رجل، صديق أو لا تصدق، ومثله سينمائية
مشهورة صورت وهي تضع ساقاً فوق ساق: إنها تقضي وقت راحتها في
الهايدبارك، وتحت الصورة علق أحد المصورين المعروفين "سأعترف أن للسيدة
كوليدج من السحر والشخصية المتميزة ما كان سيحولها لتكون إحدى أشهر
١٢ أميركيا، حتى وإن لم يكن زوجها رئيس جمهورية". ومع حديث
صحفي مع السيد همال من قينا اقتطف مايلي... قال السيد همال: "قبل أن

أتوقف أود أن أقول لا يكفي أن تكون القصة وتطابق المقاييس مثالية، فالبرهان على الخياطة الجيدة، يبدو عند اللبس. على البدلة أن تكون مفصلة على مقاس الجسم، وتبقى طيتها حين يمشي لابسها أو يجلس". وكلما حدث انفجار في منجم للفحم - منجم بريطاني - فأرجو أن تلاحظوا أن الملك والملكة دائماً يرسلان تعازيهما على جناح السرعة، "برقياً". وهما دائماً يحضران السباقات الهامة، على رغم أنه قبل بضعة أيام، وحسب ما جاء في المخطوطة هطل في حلبة سباق دربي، على ما أعتقد، "مطر غزير، وكم كانت دهشة الملك والملكة عظيمة". أما الخمر المفجع أكثر فهو التالي: "ادعي في إيطاليا أن المضايقات ليست موجهة ضد الكنيسة، لكنها مع ذلك موجهة ضد أكثر أجزاء الكنيسة رفعة. وادعي أنها ليست ضد البابا، لكنها ضد قلب البابا وعينه".

كان عليّ أن أسافر، ودون مبالغة، إلى جميع انحاء العالم بحثاً عن محراب مريح تماماً وممتع كهذا. يبدو أمراً لا يصدق على الإطلاق. فكيف كان لي أن أتنبأ، وفي أميركا، حيث يحشون مؤخرتك بالمفرقات النارية ليملاؤوك شجاعة وإقداماً، أن العمل المثالي لإنسان ذي مزاج خاص مثلي هو البحث عن الأخطاء الإملائية؟ هناك لا تفكر إلا في أن تصبح رئيساً للولايات المتحدة يوماً ما. ففي داخل كل إنسان مزاج رئاسي. هنا يختلف الأمر. هنا كل إنسان هو في داخله صفر. إذا أصبحت ذا شأن أو ذا شخصية بارزة فهذه طفرة، معجزة، ونسبة الفرصة في عدم مغادرة قريتك هي ألف إلى واحد. ونسبة الفرصة في أن تنسف ساقك أو تقلع عينك هي ألف إلى واحد. إلا إذا حدثت المعجزة ووجدت نفسك لواءاً أو عميداً بحرياً.

بالذات لأن جميع الفرص هي ضدك، ولأنه ليس ثمة إلا النادر من الأمل فإن الحياة حلوة هنا. الأيام تتعاقب. بلا ماض ولا مستقبل. ومقياس الضغط الجوي لا يتغير، والراية ثابتة عند منتصف السارية. وتضع قطعة قماش من الكريب على ذراعك، وشريطاً صغيراً في عروة زرك، وإذا كنت محظوظاً مادياً ستتمكن من شراء زوج من الأعضاء الاصطناعية الخفيفة الوزن لنفسك، ويفضل أن تكون من الألومنيوم. وهذا لن يعيقك عن الاستمتاع

بتناول مشروب فاتح للشهية أو مشاهدة الحيوانات في حديقة الحيوانات أو مغازلة الصقور اللواتي يحرن في طول الشوارع وعرضها، يترقب وصول جيفة جديدة. ويمر الوقت. فإذا كنت غريباً وكانت أوراقك نظامية يمكنك أن تعرض نفسك للإصابة بمرض معد دون خوف من التلوث، ويفضل، إذا أمكن، أن تحصل على وظيفة مصصح مطبوعات، وهكذا ينتظم كل شيء *comme ca tout s'arrange*. وهذا يعني إذا تصادف واعترضك رجال شرطة المرور، وأنت في الطريق إلى البيت في الثالثة صباحاً، يمكنك أن تفرق بأصابعك في وجوههم. وفي الصباح عندما تكون السوق في ذروة نشاطها، يمكنك أن تبتاع بيضاً بلجيكياً، البيضه بخمسين سنتيماً. ومصحح المطبوعات لا يستيقظ عادة حتى الظهيرة، أو بعدها بقليل. ومن الأفضل أن تختار فندقاً قريباً من دار للسينما، حتى إذا غلبك النوم توقظك أجراس بدء الحفلة الصباحية. وإذا لم تجد فندقاً قريباً من دار للسينما، اختر واحداً قريباً من مقبرة، فالنتيجة واحدة. ولكن قبل كل شيء لا تيأس *il ne faut jamais de'sesperer*.

هذا ما أحاول أن أملاً به رأس كل من كارل وفان نوردن كل ليلة. إنه عالم بلا أمل، لكنه بلا يأس. أبدو وكأنني اهتديت إلى دين جديد، كأنني كنت في كل ليلة أقيم تأسوعية سنوية لسيدتنا المعزية. لا أتصور ماذا كنت سأربح لو عينت مديراً لصحيفة، أو حتى رئيساً للولايات المتحدة. إنني أسير في زقاق مسدود، وكل شيء أليف ومريح. أحمل بيدي جزءاً من مخطوطة طباعية وأنصت إلى الموسيقى المنسابة من حولي، إلى همهمة ودمدمة الأصوات، وطقطقة آلات المناضد السطرية، وكأن ألف سوار فضي يمر من خلال عصارة، وبين آن وآخر يهرع فأر ماراً من أمام أقدامنا أو يصعد صرصار الجدار المقابل لنا، منتقلاً برشاقة وحذر شديد على ساقيه الدقيقتين، وتنزلق أحداث النهار من تحت أنفك، بهدوء، بلا تباه، وبين الحين والآخر يتدخل سطر ثانوي ليدل على وجود يد إنسانية، على لمسة غرور. ويمر الموكب بجلال، كدخول موكب جنائزي من بوابة المقبرة. الورقة الموجودة تحت منضدة التحرير سميقة جداً بحيث تبدو كسجادة لها زغب ناعم، وهي تحت مقعد فان نوردن مبقعة من العصارة البنية. وقرابة

الساعة الحادية عشرة يصل بائع الجوز الأرمني نصف المجنون الذي بدوره قانع بقسمته من الحياة.

بين وقت وآخر تصلني برقية من مونا تقول فيها إنها ستصل على المركب التالي، ودائماً تقول: "ستوالى رسائلي". والأمور تسير على هذا المنوال منذ تسعة أشهر، لكنني لا أجد اسمها في أي من قوائم أسماء الواصلين على المراكب، ولم يحضر لي الغرسون رسالة على صينية من الفضة. بل لم يعد لدي أي أمل في هذا الاتجاه. فإذا وصلت يمكنها أن تبحث عني في الطابق السفلي، خلف المرحاض مباشرة. ولعلها ستقول لي على الفور إنه غير صحي. وهذا أول ما يصدم امرأة أميركية في أوروبا - إنه غير صحي. إذ يستحيل عليهم تصور جنة بلا تمديدات حديثة. وإذا عثروا على بقعة فيسارعون بالكتابة إلى غرفة التجارة. كيف سيتسنى لي أن أشرح لها أنني سعيد هنا؟ فستقول أنني صرت منحطاً. أعرف أسلوبها من البداية وحتى النهاية. سوف ترغب في البحث عن استديو مع حديقة ملحقة به - ومع حوض استحمام، حتماً. إنها تريد أن تكون فقيرة بطريقة رومانطيقية. أعرفها. لكنني مستعد لها هذه المرة.

تمر علي أيام تكون فيها الشمس ساطعة وأسير بعيداً عن الطريق المطروقة وأنا أفكر فيها بنهم. وبين آن وآخر، وعلى رغم رضاي المقيت، يخطر لي أن أفكر بطريقة جديدة للعيش، أن أتساءل إن كان وقوف مخلوقة شابة قلقة إلى جانبي سيحدث أي فرق. المشكلة هي أنني بالكاد أستطيع تذكر شكلها أو شعوري وأنا أضمرها بين ذراعي. إن كل ما يتسنى لي إلى الماضي يبدو وكأنه قد غرق في البحر، إن لدي ذكريات، غير أن الصور فقدت حيويتها، أضحت مينة متقطعة، كمومياءات أكل الزمن عليها وشرب مغرورة في مستنقع. لو حاول أن أستعيد ذكرى حياتي في نيويورك فسأحصل على بضع مزق متفرقة، كابوسية ومغطاة بالزنجار. وكأن وجودي المنسق قد انتهى في مكان ما، ولا أعرف موقع هذا المكان على وجه الدقة. ولم أعد أميركياً، ولا نيويوركياً، بل إنني أقل من هذا أوربي، أو باريصي. لا أكن أي ولاء أو شعور بالمسؤولية، أو أحقاد، أو هموم، أو تحاملات، أو حماس. لست مع أو

ضد. أنا محايد.

حين تمشي نحن الثلاثة، ليلاً متجهين إلى البيت، فإن ذلك غالباً ما يحدث بعد تشنجات التقزز الأولى التي نمر بها عندما نتحدث عن حال الأمور بتلك الحماسة التي لا يتوصل إلى حشدنا إلا الذين ليس لهم أي دور حيوي في الحياة. وما يبدو لي غريباً أحياناً، حين أزحف إلى السرير، أن كل هذه الحماسة وجدت لمجرد قتل الوقت، لمجرد إعدام ثلاثة أرباع الساعة التي يستغرقها التمشي من المكتب إلى مونيرناس. لعل لدينا ألمع الأفكار وأكثرها ملائمة من أجل تحسين هذا الشيء أو ذاك، ولكن لا توجد عربة لنشدها إليها. والأكثر غرابة هو أن غياب أدنى علاقة بين الأفكار والحياة لا يسبب لنا أي ألم أو قلق. أصبحنا متكيفين إلى درجة أنه لو أمرنا غداً بأن نسير على أيدينا فسنفعل بلا أوهى احتجاج. وطبعاً شريطة أن تصدر الصحيفة كالمعتاد، وأن نحصل على أجرنا بانتظام، وكل ما عدا ذلك لا يهم. لا شيء. لقد كُيفنا. صرنا حماليين صينيين، حماليين بقبات بيضاء، تسكتنا حفنة من الأرز نحصل عليها يومياً. كنت أقرأ قبل أيام أن في الجماجم الأميركية ميزة معينة هي وجود العظمة القمرية أو *os incae*، في قفا الرأس. ووجود هذه العظمة، هكذا يتابع العالم قائلًا، منوط بمثابرة الدرزة القذالية المستعرضة والتي تكون عادة مقفلة في الحياة الجنينية. وعلى هذا فهي دلالة على تطور بطيء وسلالة منحطة. ويتابع قائلًا: "إن السعة الوسطية للجمجمة الأميركية تتدنى عند البيض وترتفع عنه عند السود. وبالمقارنة بين الجنسين نجد أن لدى الباريسيين سعة جمجمية تبلغ ٤٤٨،١ سم^٣، والزوج ٣٤٤،١ سم^٣، والهنود الأمريكيين ٣٧٦،١ سم^٣." لا أستتج من كل هذا أي شيء لأنني أميركي ولست هندياً. ولكن من الذكاء شرح الأمور على هذا الشكل، بواسطة عظمة من نوع *os incae*، مثلاً. ولا يحتل توازن نظريته إذا اعترفنا أن نماذج منفردة من الجماجم الهندية قد وهبت سعة غير عادية مقدارها ٩٢٠،١ سم^٣، ولا تزيد السعة الجمجمية إلى أكثر من هذا في أية سلالة أخرى. إن ما ألاحظه بارتياح هو أن للباريسيين، من الجنسين، على ما يبدو سعة جمجمة عادية. فالدرزة القذالية المستعرضة على ما هو واضح ليست متغيرة كثيراً لديهم. هم يعرفون كيف يستمتعون "بمشه" ولا يقلقون إذا لم تدهن المنازل.

ليس في جماجمهم ما هو غير عادي، حسب ما جاء في الفهارس الجمجمية. لا بد أن ثمة تفسيراً آخر لفن العيش الذي وصلوا به إلى درجة عالية من الكمال.

في المطعم الصغير القائم عند الطرف الآخر من الطريق والمسمى المسيو بول ثمة غرفة خلفية مخصصة للصحفيين حيث يمكننا تناول الطعام على الحساب. وهي غرفة صغيرة لطيفة مفروشة أرضيتها بنشارة الخشب، والذباب يعج في موسمه وفي غير موسمه. حين أقول إنها مخصصة للصحفيين لا أقصد أن الملح إلى أننا نتناول طعامنا في عزلة، على العكس، إنه يعني أن لنا امتياز مزاملة العاهرات والقوادين الذين يشكلون العنصر الأساسي بين زبائن المسيو بول. وهذا الترتيب يطابق ميل شبان الطابق العلوي مع حرف t، لأنهم دائماً في حالة بحث عن طرف ثوب tail، وحتى الذين لديهم فتاة فرنسية دائمة لا ينفرون من القيام بتغيير ما بين الحين والآخر. الشيء الأساسي هو عدم الإصابة بالداء، فأحياناً يبدو وكأن وباءاً احتاح المكتب، أو ربما يفسر الأمر بالقول إنهم جميعاً يضاجعون امرأة ذاتها. مهما يكن، من الممتع ملاحظة مدى يؤسهم عندما يضطرون إلى الجلوس بحوار قواد يعيش، على الرغم من مصاعب مهنته الصغيرة، حياة تعتبر بالمقارنة مرفهة. يخطر إلى ذهني الآن وبشكل خاص شخص طويل القامة أشقر يسلم رسائل هافاس ممتطياً دراجة. وهو دائماً يتأخر قليلاً عن وجته، ودائماً يتعرق بغزارة، ووجهه مغطى بالسخام. وله طريقته الرائعة الخرقاء في الدخول، مرحباً بالجميع باصبعين متوجهاً مباشرة إلى المغسلة القائمة بين المرحاض والمطبخ. وبينما هو يجفف وجهه يلقي نظرة متفحصة سريعة على مواد الطعام، فإذا رأى شريحة جميلة من اللحم ممددة على البلاطة يلتقطها ويشمها، أو يغمس المغرفة في الوعاء الكبير، ويتذوق ملء فم من الحساء. إنه أشبه بكلب بوليسي رائع، بأنفه الموجه دائماً إلى الأرض طوال الوقت. وبعد انتهاء الإجراءات التمهيدية، وبعد أن يتبول ويتمخط بعنف، يمشي بلا اكتراث إلى غانيته ويقبلها قبله كبيرة مفرقة مع ربتة رقيقة على الردف. لم أر هذه الغانية تلبو إلا طاهرة - حتى في الثالثة صباحاً بعد ليلة عمل. تبدو وكأنها خرجت لتوها من حمام تركي. من الممتع النظر إلى أولئك الوحوش الصحيححي الأجسام،

كل ذاك الاسترخاء، كل ذاك الحب، وتلك الشهية العارمة التي يبدونها. إنني أتكلم الآن عن راحة العشاء، الوجبة الخفيفة التي تتناولها قبل مباشرة واجباتها. وبعد قليل سوف تضطر إلى الاستئذان من وحشها الأشقر الضخم الجثة، لتزفر إلى مكان ما على الجادة وترتشف شرابها المهضم. وإذا كان العمل مضجراً أو مرهقاً أو مهلكاً، فمن المؤكد أنها لن تظهر ذلك. وحين يصل الشاب الضخم، جائعاً كالذئب، تحيطه بذراعيها وتقبله بنهم - تقبل عينيه، أنفه، خديه، شعره، قفا رقبته.... وقد تقبل مؤخرته إذا استطاعت ذلك علناً. إنها ممتنة له، وهذا واضح. هي جارية بلا أجر. وطوال فترة تناول الطعام تضحك بتشنج. وسوف تعتقد أن الهموم مهما كانت لا تعرف إليها سبيلاً. وبين الفينة والفينة، وكتعبير عن الحب، تكيل له صفة مدوية على وجهه. صفة جديرة بإطاحة مصحح مطبوعات أرضاً.

لا يبدو أنهما واعيان لأي شيء خلاف نفسيهما والطعام الذي يلتهمانه بنهم. يا لرضاهما التام، وتناغمهما، وتفاهمهما المتبادل، ومراقبتهما تكاد تجرف فان نوردن إلى حافة الجنون، خاصة حين تتسلل يدها إلى داخل فتحة بنطال الشاب الضخم وتداعبه، ويستجيب عادة بأن يقبض على ثديها ويعصره عابثاً.

وعادة يصل زوج آخر في الوقت نفسه ويتصرفان كأنهما متزوجان. فيتشاجران، ويغسلان ملبسهما الداخلية علناً، وبعد أن ينغص كل منهما حياة الآخر وحياة كل من عداهما، بعد التهديدات واللعنات والملامات والاتهامات، يعوضان عن كل ذلك بالمغازلة والهديل، تماماً كزوج من طيور القمرية. ولوسيين، كما يناديها، شقراء بلاتينية ضخمة يحيط بها جو قاس كتيب. شفتها السفلى ممتلئة تمضغها بحقد حين تفقد صبرها، وعيناها باردتان مدورتان، بلون الأزرق الصيني الباهت، يتصبب عرقاً كلما ثبتتهما عليه. إلا أن لوسيين فتاة طيبة، على الرغم من صورتها الجانية التي تبدو أقرب شبهاً بنسر الكوندور حين يبدأ الشجار. وحقيرة يدها دائماً ملأى بالدراهم، فإذا كانت حريصة في إنفاقها فذلك فقط لكي لا تشجع عاداته السيئة. وكانت شخصيته ضعيفة، إذا أخذنا تأنيباتها المطولة بعين الجد. وقد ينفق خمسين

فرنكاً حصيلة ليلة وهو ينتظر قدومها، وحين تأتي النادلة لتتلقى طلبه يكون قد فقد شهيته، وتزجر لوسيين "أوه، ها أنت غير جائع من جديد! هميف! أظنك كنت تنتظرني في الفوبورج موعماتر. أمل أن تكون قد قصيت وقتاً ممتعاً هناك بينما أنا أكدح من أجلك. تكلم يا أبله، أين كنت؟".

حين تستشيط غضباً هكذا، حين تثار، ينظر إليها في خوف ومن ثم، وكأنه قد قرر أن السكوت هو أفضل حل، يخفض رأسه ويروح يعبث بفوطته. لكن هذه الحركة الصغيرة تعرفها حق المعرفة وطبعاً تسر لها سرا لأنها باتت مقتنعة الآن بأنه مذنب، لا تعمل إلا على تفاقم غضبها وتزعق "تكلم، يا أبله!" وبصوت متكسر وخائف وضعيف يشرح لها أنه بينما هو ينتظرها وصل به الجوع إلى مداه واضطر إلى التوقف لتناول شطيرة وكأس من البيرة. وكان ذلك كافياً لتدمير شهيته - يقول هذا بحزن بالرغم من أن من الواضح أن الطعام صار آخر ما يقلقه. ثم يردف فجأة "ولكن" - محاولاً أن يكون صوته أكثر إقناعاً - "كنت بانتظارك طوال الوقت".

وتزعق "كذاب! كذاب! آه، لحسن الحظ أنني أنا أيضاً كاذبة.... كاذبة حاذقة. أنت تسقمني بأكاذيبك الصغيرة الحقيرة. لماذا لا تخبرني كذبة كبيرة؟".

ومن جديد يحني رأسه ويروح يللمم بذهن شارد كسرات من الخبز ويضعها في فمه، وعلى الأثر تصفعه على يده "لا تفعل هذا! أنت تضجرني. يا لك من أبله كذاب! انتظرني قليلاً لا زال لدي ما أقوله! أنا أيضاً كاذبة، لكنني لست بلهاء".

لكنهما سرعان ما يجلسان متقاربين، متشابكي الأيدي، وهي تهمهم بنعومة: "آه، يا أرني الصغير، يصعب علي أن أتركك الآن. تعال إلى هنا، قبلني! ماذا لديك هذا المساء؟ قل لي الحقيقة، يا صغيري... آسفة على مزاجي السيء"، ويقبلها بخوف كأرينب بأذنين قرمزيتين، ينقر بلطف على شفيتها وكأنه يقضم ورقة ملفوف. وفي الوقت نفسه تهبط عيناه المستديرتان إلى كيس نقودها لتداعباه وهو ملقى مفتوحاً بجانبها على المقعد. إنه فقط ينتظر اللحظة المناسبة ليفلت منها بلباقة، يتلهف للهرب، ليجلس في إحدى المقاهي

المهاتمة في شارع فوبورج مونماتر.

أعرف هذا الشيطان الصغير الريء، بعينه الأرنبيتين المستديرتين الخائفتين، وأعرف أي شارع شيطاني هو شارع فوبورج مونماتر بلوحاته النحاسية الصفراء وبضاعته المطاطية، والأنوار تتلألأ طوال الليل والجنس يجري على طول الشارع كالمجروح. والسير في شارع لافايت إلى الجادة هو ضرب من التحدي، فهن يلتصقن بك كالقشريات البحرية، ينهشكن كالنمل، ويلاطفن ويداهن ويتوسلن ويتضرعن ويكررن هذا بالألمانية، والانكليزية والإسبانية، يرينك قلوبهن الممزقة وأحذيتهن المشقوقة، وحتى بعد أن تتخلص من مجساتهن، وبعد أن يخفت الهس والبس بزمن طويل يظل عبق "الغسول" عالقا بمنخريك - إنه عبق *perfum de danse* المضمون التأثير على مسافة عشرين ستمتراً فقط. يمكن للمرء أن يتبول حياته كلها في ذاك الامتداد ما بين الجادة وشارع لافايت. كل بار يضج بالحياة، ينبض، وأحجار الترد تلقى، وأمناء الصناديق يثمنون كصقور فوق مقاعدهم العالية وللنقود التي يتداولونها رائحة نتنة كرائحة البشر. لا يوجد في بنك فرنسا ما يعادل النقود المراقبة للتداول هنا. النقود التي تنضح بالعرق البشري، تمتد كحريق غابة من يد إلى أخرى تاركة وراءها دخاناً وثقانة. إن من يتمكن من السير عبر الفوبورج مونماتر ليلاً دون أن يلهث أو يتصبب عرقاً، دون أن يتلو صلاة أو تتردد لعنة على شفتيه، رجلاً كهذا ليس لديه خصيتان، وإذا كان لديه، فيجب أن يخصى.

ماذا لو أن ذاك الأرنب الصغير الخائف أنفق خمسين فرنكاً حصيلة ليلة واحدة وهو ينتظر لوسيين؟ ماذا لو أنه جاع فعلاً فاشترى شطيرة وكأساً من البيرة، أو أنه توقف ليتبادل الحديث مع عاهرة رحل آخر؟ أتظن أنه يجب أن يعمل هذه الجولة ليلة بعد أخرى؟ أعتقد أنها يجب أن تثقل عليه، تغمه، تضجره حتى الموت؟ أأمل أن لا تعتقد أن القواد مخلوق غير إنساني فلقواد أحزانه الخاصة وبؤسه أيضاً، لا تنس هذا. لعله لن يجد ما هو أفضل من الوقوف كل ليلة عند الزاوية مع زوج من الكلاب البيضاء ويراقبهما وهما يتبولان. لعله سيفضل ذلك، إذا ما فتح الباب فوجدما هناك تقرأ الباري -

سوار، وعيناها مثقلتان بمخدر النعاس. لعله ليس شيئاً رائعاً جداً حين يميل على حبيبته لوسيين، أن يتذوق أنفاس رجل آخر. ربما من الأفضل أن لا يكون معك إلا ثلاثة فرنكات وزوج من الكلاب البيضاء يتبولان عند الزاوية على أن تذوق تلك الشفاء المرضوضة. أراهنك على أنها حين تضمه بقوة بين ذراعيها، حين تستجدي منه لفافة الحب تلك التي لا أحد غيره يعرف كيف يمدّها بها، أراهنك على أنه يقاتل كآلف من الشياطين ليدكه، ليريل كل محل أثر لذاك الفوج الذي مشى قدماً بين ساقها. ربما عندما يأخذ جسدها ويياشر التدريب على نغم جديد فإنه لن يتير فيه انفعالاً وفضولاً، بل قتال في الظلام، قتال بيد واحدة ضد الجيش الذي اقتحم الأبواب، الجيش الذي وطئها، داسها، تركها، مع نهم شره لا يكفي لإشباعه ولا حتى رودلف فالانتينو. وحين أنصت إلى الملامات المنهالة على فتاة مثل لوسيين، حين أسمع أحدهم يشوه سمعتها أو يحقرها لأنها باردة ومرتزة، لأنها آلية جداً، أو لأنها دائماً في عجلة من أمرها، أو لهذا السب أو ذاك، أقول لنفسي، تمهل يا هذا، على رسلك! أتذكر أنك تقف في آخر الموكب، تذكر أن فيلقاً كاملاً يحاصرها، وأنها تركت حطاماً، مسلوقة منهوبة. أقول لنفسي، اسمع يا هذا، لا تضمن بالخمسة عشر فرنكاً التي أعطيتها لعمك أن قوادها يبددها في الفوبورج مونمارتر، فالنقود نقودها والقواد قوادها. إنها نقود الدم. نقود لن تسحب من التداول لأنه لا يوجد في بنك فرنسا ما يعوضها.

هكذا أفكر في الأمر غالباً وأنا جالس في محرابي الصغير أتلاعب بتقارير "هافاس" أو أفك البرقيات القادمة من تشيكاغو ولندن ومونتريال. وبين سوقي المطاط والحرائر وسوق حبوب وينيينغ ينز قليل من ضجيج الفوبورج مونمارتر وطشيشها. وعندما تصبح الأربطة ضعيفة ورخوة، وتتوقف المحاور عن دورانها والمواد المتطايرة تفور، وينساب سوق الحبوب وينزلق، وتخور الثيران، وتكون كل كارثة لعينة، وإعلان تجاري، ونبا رياضي وخسر جديد، ووصول زورق، ومحاضرة مصورة، وثرثرة متلاحقة قد ضبطت، وفحصت، وروحت، وصنفت، ومررت بين الأساور الفضية، حين أسمع الصفحة الأولى تطرق وتضرب وأرى الضفادع تتراقص كمفرقات سكري، أفكر في لوسيين وهي تشق عباب الشارع مفروشة الجناحين، كنسر كوندور فضي

هائل معلق فوق حركة المرور الكسلى، كطائر غريب يطير من ذرى جبال
الأنديز يبطن بيضاء كالورد وعورة صغيرة متماسكة. أحياناً أتمشى إلى البيت
وحدي وأتبعها عبر الشوارع المظلمة، أتعها خلال قاعة اللوفر، من فوق
جسر الفنون من تحت القناطر، عبر الصدوع والشقوق، والنعاس، واليباض
المخدر، ومحل اللوكسمبورغ للشواء، والأغصان المتشابكة، والشخير والأنين،
والشرايح الخضراء، والقر على الأوتار والرنين، وأطراف النجوم المديبة وبريق
الزتر، وحواجز الماء، والمظلات المخططة بخطوط زرق وبيض التي لامستها
بأطراف جناحيها.

في زرقة الفجر الكهربائي تبدو قشور الجوز شاحبة متغضنة، وعلى طول
الشاطئ من مونبارناس تنحني أزهار ليلك الماء وتنكسر. وحين ينحسر المد
لا يبقى إلا بضع حوريات مصابات بالسفلس جانحات على الأقدار، يبدو
الدوم كرواق الرماية الذي ضربه إعصار. كل شيء يقطر ببطء عائداً إلى
البالوعة. وتمر قرابة الساعة من السكون الأقرب شبحاً بالموت يزال خلالها
القيء. وفجأة إذا بالأشجار تصرخ، ومن أدنى الجادة إلى أقصاها تتصاعد
أغنية معتوهة، أشبه بالإشارة التي تعلن عن إغلاق سوق البورصة، وتجرف
كل الآمال. ويحين الوقت لإفراغ آخر حقيبة ملأى بالبول. ويتسلل النهار
كمجلوم.....

أحد الأشياء التي يجب عليك أن تتفادها أثناء العمل الليلي هو أن لا
تخرق جدول عملك، فإذا لم تأو إلى السرير قبل أن تبدأ العصفير بالصياح فلا
فائدة مطلقاً من الإيواء إلى السرير. وهذا الصباح وبما أنه لم يكن لدي أي
شيء أعمله، زرت *jardin des plants*. هنا تنظر إليك طيور البطريق
الرائعة من تشابولتايك وطواويس عمراوح مرصعة بعيون بلهاء. وفجأة بدأ
المطر يهطل.

وأثناء عودتي إلى مونبارناس بالباص لاحظت امرأة فرنسية تجلس قبالي
جلسة منتصبية وكأنها تستعد لتتهدم. كانت تجلس على طرف المقعد وكأنها
تخشى أن تفسد طية ثوبها الفخم. فقلت في نفسي، رائع لو أنها تهز نفسها

فجأة ليقفز من مؤخرتها ذيل هائل مرصع ذو ريش طويل حريري.

في مقهى الجادة، حيث أتوقف لأتناول وجبة سريعة، ثمة امرأة ذات بطن مُنتفخ تحاول أن تثير اهتمامي بحالتها الحيدة. تود لو نذهب معاً إلى غرفة لقضاء ساعة أو ساعتين. إنها المرة الأولى التي يقدم لي فيها عرض من امرأة حامل: بل أكاد أرغب في المحاولة. حالما يولد الطفل ويسلم إلى السلطات سوف تعود إلى مهنتها، كما تقول. إنها تصنع القبعات. وحين تلاحظ أن اهتمامي يفتّر تتناول يدي وتضعها على بطنها، فأشعر بشيء يتحرك في الداخل، مما يذهب بشهيتي.

لم أر في حياتي مكاناً يشبه باريس في احتوائه علي تشكيلات من القوت الجنسي. فحالما تفقد امرأة أحد أسنانها الأمامية أو عينا أو ساقاً تحل نفسها من قيود الأخلاق. في أميركا قد تموت جوعاً إذا لم يكن لديها ما يزيكها غير عاهتها. أما هنا فالأمر يختلف. فققدان سن أو بتر أنف أو هبوط فرج، أو أية بلية من شأنها أن تشوه طبيعة بساطة الأنثى، تبدو وكأنها مجرد بهارات تضاف إلى الطعام، عامل مثير لشهية الذكر المنهك القوى.

وأنا أتكلم طبعاً عن ذاك العالم الخاص بالمدن الكبرى، عالم من الرجال والنساء عصرت الآلة آخر قطرة من عصارتهم - فهم شهداء التقدم الحديث. هذه الكومة من العظام وأزرار الياقات يصعب على الرسام أن يلبسها لحماً.

لم أعد ثانية إلى التخوم الصحيحة للعالم الإنساني إلا في وقت متأخر من بعد الظهر، عندما وجدتني في معرض للفن في شارع سيز، يحيط بي رجال ماتيس ونساؤه. وعلى عتبة تلك القاعة الهائلة التي صارت جدرانها الآن تتلظى، توقفت لحظة لأبرأ من الصدمة التي يمر بها المرء حين تتبشر قتامة العالم المعتادة شذراً وتنبجس بهجة الحياة غناءً وشعراً. وأجدني في عالم فطري تماماً، وكامل إلى درجة أنني احس بالضياح، أشعر كأنني مغمور في قلب شبكة الحياة، في محرق أي مكان اختاره، أو موقع أو موقف أتخذه. ضائع كما كنت قد شعرت عندما غصت ذات مرة في قلب أيكة متبرعمة، وجلست في غرفة طعام عالم بعلبك الهائل، ولأول مرة قبضت على المعنى الأعرق لتلك الصور الساكنة الداخلية التي يتحلى حضورها من خلال تعويذة

الرؤية واللمس. وقفت على عتبة ذاك العالم الذي أبدعه ماتيس لأمر من جديد بتجربة قوة ذاك الإلهام الذي أتاح لروست أن يشوه صورة الحياة تشويهاً بالغاً بحيث أنه لا يقدر على تحويل واقعية الحياة السلبية إلى الخطوط الأساسية وذات المغزى للفن إلا من هم على قدر عالٍ من الحساسية، مثله، أمام كيمياء الصوت والإحساس. فقط الذين يستطيعون السماح للنور بالنفاذ إلى أحشائهم يمكنهم أن يترجموا ما في القلب. والآن أتذكر وبحيوية كيف تناثرت ومضة الضوء وشرارته المرتدتان من الشمعدانات الضخمة وجرت دماً، مرقشة زوايا الأمواج التي تضرب برتابة على الذهب الباهت خارج النوافذ. وعلى الشاطئ تضافرت الصواري والمداحن، وكظل قائم انزلقت قامة ألبرت^١ خلال الأمواج، ملتحمة مع سرعة وتنوع عالم البروتوبلازم الطيفي، ضامة ظلها إلى الحلم ونذير الموت. ومع انصرام النهار، يتصاعد الألم كالضباب من الأرض، وينطوي الحزن مسدلاً الستار على مشهد البحر والسماء اللامتناهي. وتستلقي يدان شمعتان بتكاسل على غطاء السرير وعلى طول الشرايين الشاحبة تردد مهمة الصدفة الموسيقية أسطورة ولادتها.

في كل قصيدة رسمها ماتيس دون تاريخ كل ذرة من اللحم الإنساني الذي رفض اكتمال الموت. وانسياب الجسم كله، من الشعر إلى الظفر، يحكي معجزة التنفس، وكأن العين الداخلية، في ظمئها إلى حقيقة أعظم، حولت مسام الجسد إلى أفواه جائعة مبصرة. وكيفما ينظر المرء يمر بتجربة عبق وضجيج رحلة بحرية. ويكون من المستحيل أن يحدق حتى إلى زاوية من أحلامه دون أن يشعر بارتفاع الموج وبرودة رذاذ الماء المتطايرة المنعشة. إنه يقف عند دفة المركب يحدق بعينين زرقاوين ثابتتين إلى حقيقة الزمن. أية زوايا نائية لم تمتد إليها نظرتة الثاقبة الطويلة المائلة؟ ويهبط بنظرتة أسفل نشوء أنفه الهائل لمرى كل شيء - سلاسل الجبال تهبط غائصة في الباسيك، وتاريخ الدياسبورا يكتب على ورق رقي، ومصاريع نوافذ تغرد خريز مياه الشاطئ، والبيانو ينحني كالمحارة، وتويمجات تشر تناغمات الضوء، وحرابي^٢

^١ (١) هي إحدى بطولات الروائي الفرنسي مارسيل بروست - المترجم.

^٢ (١) حرابي: جمع حرباء. من الزواحف التي يتغير جلدها مع الطبيعة - المترجم.

تتولى تحت مكبس الكتب، وسرايات سلطانية تتلاشى في محيطات من الغبار، وموسيقى تنبعث كالنار من اكتناف الألم الخفي، وبوغ ومرجان متشعب يخصبون الأرض، وسرر تلفظ نتاج كريبها البراق.... هو حكيم لامع، عراف راقص يزيل، بحركة من الفرشاة، السقالة البشعة التي أوثقت بها حقائق الحياة التي لا تقبل الجدل الجسد الإنساني. وهو الذي يعرف، إن كان ثمة من يتمتع بهذه الموهبة، أين يلغي الشكل الإنساني، ولديه الشجاعة ليضحى بيت شعر متناغم ليتبع إيقاع وغمغمة الدم، ويأخذ الضوء المنكسر داخله ويدعه يغمر تنوعات اللون. هو يتقصى، خلف تفاصيل الحياة، وفوضاها، وسخريتها، النموذج الخفي، يعلن عن اكتشافاته في الخضاب الميتافيزيقي للفضاء. لا بحث عن مصطلح، لا صلب لأفكار ولا قسر بدل الخلق. وحتى بينما العالم يتفتت يبقى هناك رجل واحد متمركز في لبه، يزداد ثباته ورسوخه صلابة، ونبذه قوة كلما أسرعت عملية التحلل.

يزداد العالم أكثر فأكثر شبيهاً بحلم عالم حشرات، فالأرض تخرج عن مدارها، والمحور غير مركزه، ومن الشمال تهب عواصف الثلوج بهبات عاتية قاطعة كحد السكين، إن عصراً جليدياً جديداً يحل، والخيوط المعترضة تقارب وفي جميع أنحاء النطاق المخروطي يموت العالم الجنيني، متحولاً إلى خشاء mostoid ميت. وتجف الدلتات إنشاً بعد إنش وأحواض الأنهار تصبح ملساء كسطح الزجاج. ثمة نهار جديد يبرز، نهار معدني حين ستصلصل الأرض برذاذ من فلز أصفر براق. ومع هبوط مقياس الحرارة، تسربل الغشاوة شكل العالم، ويبقى التنافذ موجوداً، وترى هنا وهناك تمفصلاً، ولكن على السطح الخارجي كل الأوردة متوسعة، على السطح الخارجي تنحني أمواج الضوء والشمس تدمي كمعي مستقيم محطم.

في محور هذا الدولاب الذي يتفكك يكون ماتيس. وسوف يتابع دورانه إلى أن ينحل كل ما يكون الدولاب. لقد تدحرج حتى الآن قاطعاً رقعة كبيرة من الكرة الرضية، فوق بلاد فارس والهند والصين، وعلقت به ذرات مجهرية من بلاد الأكراد، وبالوخستان، وغمبكتو، والصومال، وأنغكور، وتييرا دل فيوغو، وكأنه مغناطيس. والمحظيات اللواتي رصعن بمعدن الملكيت

دل فيوغو، وكأنه مغناطيس. والمحظيات اللواتي رصعهن بمعدن الملكيت وأحجار اليشب، أجسادهن مستورة بألف عين، عيون معطرة ومغموسة في مني حيتان البحر. وأينما هب السيم ثمة نهود طرية كالهلام، وتأتي الحمامات البيض لتزفر وتحفر في أوردة الهيمالايا الرقء كالثلج.

ورق الجدران الذي غطى به رجال العلم عالم الحقيقة يتساقط ويتفتت. والحياة جعلوا منها ماخوراً هائلاً لا يحتاج إلى أية زخارف، الشيء الوحيد الأساسي هو أن تكون المجارير جارية بانتظام. أما الجمال، الجمال الماكر، الذي قبض علينا من حصينا في أميركا، فقد انتهى. ولكي نسبر أعماق الحقيقة الجديدة يلزم أولاً أن نفك المجارير، ونفتح القنوات المصابة بالغرغرينا حتى آخرها والتي تشكل النظام البولي التناسلي الذي يغذي نفايات الفن. النهار يعبق برائحة البرمنغنات والفورمالدهيد، والمجاري مسدودة بالأجنة المختوقة.

عالم ماتيس مازال جميلاً على طريقة غرفة النوم القديمة. لا يرى فيه حامل كريات، لا صحن، غلاية، لا مكبس، لا مفتاح إنكليزي. إنه العالم القديم نفسه الذي ذهب بمرح إلى الغابة في العصور الريفية أيام الخمر والجحون. إن مما يخفف عني ويعتني أن أنتقل بين تلك المخلوقات ذات المسام الحية التي تتنفس، والخلفية الثابتة الصلبة كالضوء ذاته. أشعر بهذا بحدة حين أتمشي في شارع المادلين والمومسات تحف أثوابها بقربي، حيث مجرد النظر إليهن يجعلني أرتعش. ألاهن أجنيات أم حسنات التغذية؟ لا، فمن النادر أن تجد امرأة جميلة على طول بولفار المادلين. أما في رسوم ماتيس، وباكتشاف من ريشته، هناك تألق مرتعش لعالم لا يتطلب إلا وجود أثني حتى ييلور أكثر الإيجاءات تملصاً. إن رؤية امرأة تعرض نفسها خارج مبرة حيث ألصقت إعلانات ورق السجائر، وشراب الرم، والألعاب البهلوانية، وسباقات الخيل، حيث تحرق أوراق الشجار الكثيفة سُمك الجدران والسقوف، هي تجربة تبدأ حيث ينتهي حدود العالم المعروف. وفي المساء، بينما أطوف حول جدران المقبرة، أتعش، بين حين وآخر، بأشباح محظيات ماتيس موثقات إلى الأشجار، عروفن المتشابكة متبعة بالنسغ. وعلى مبعدة بضعة أقدام، يتمدد الشبح

المحيط الملفوف منكفئاً لبودلير، أو لعالم كامل لن يتردد في جنبااته نفس واحد
بعد الآن، وقد فصلته دهور لا متناهية من الزمن. وفي زوايا المقهى المعتمدة
يقف رجال ونساء متشابكي الأيدي، وأعضاؤهم التناسلية مبرقشة بغزارة،
وعلى مقربة يقف النادل، وجيب مئزره مملوء بالسوات، ينتظر بصبر حلول
الاستراحة لينطرح على زوجته ويحفرها. حتى والعالم ينهار ترتعش باريس
ماتيس برعشات جنسية فاتنة لاهثة، الهواء نفسه مثبت بمني راكد، والأشجار
متشابكة كالشعر. وعلى محوره المتذبذب يتخرج الدولار بانتظام إلى أسفل
التل، وليس فيه مكايح، أو حاملات كريات أو دوايب منطادية. الدولار
ينهار، لكن الثورة سليمة معافاة.....

ذات يوم تصلني رسالة غير متوقعة من بوريس الذي لم أكن قد رأيته منذ شهور عديدة. إنها وثيقة غريبة ولا أدعي فهمي الكامل لها: "إن ما حدث بيننا - بالنسبة لي، على الأقل - هو أنك أثرت بي، أثرت في حياتي، أي، عند النقطة التي لا أزال عندها حياً: موتي. لقد انتقلت بالدفق الشعوري إلى انغمار آخر. عشت ثانية، بت حياً، ليس بالذكريات كالسابق، كما أفعل مع الآخرين، بل بالحياة".

هكذا بدأ الأمر. بلا كلمة ترحيب، بلا تاريخ، ولا عنوان. وكتبت بخربشة ناعمة فخمة على ورقة مسطرة اقتطعت من دفتر فارغ، "لهذا، سواء أعجبت بي أم لم تعجب - أميل في قرارتي إلى الاعتقاد أنك تكرهني - فأنت شديد القرب مني. بواسطتك أعرف كيف مت: أرى نفسي أموت ثانية: وأنا أموت فعلاً. وهذا رائع. أروع من أن أكون ميتاً ببساطة. ربما هذا هو سبب خوفي الشديد من مقابلتك: فلعلك خدعتني ومت. فالأحداث تقع بسرعة هذه الأيام".

إنني أعيد قراءتها سطرًا سطرًا، وأنا واقف بالقرب من طاولات التنضيد. تبدو لي غريبة الأطوار، بهذا اللغو عن الحياة والموت والأشياء التي تحدث بسرعة. لا شيء يحدث حسبما أرى عدا الكوارث المعتادة المدرجة على الصفحة الأولى. كان يعيش وحده خلال الشهور الستة الماضية، منزويًا في غرفة صغيرة رخيصة - وربما يقيم اتصالات تخاطرية telepathic مع كرونستادت. وهو يتحدث عن القوات المتقهقرة، عن إخلاء قطاع من الجبهة، وهلم جرا، وكأنه يقبع داخل خندق ويكتب تقريراً إلى مركز القيادة، ولعله كان يرتدي

معطف الفراك عندما جلس ليحط هذه الرسالة، وربما فرك يديه عدة مرات كما اعتاد أن يفعل حين يخبره أحد الزبائن عن رغبته في استئجار الشقة. وبدأ من جديد قائلاً: "السبب في أنني أردت أن تتحرر..."، وهنا انفجر بالضحك، لقد كان يتمشى في طول المكان وعرضه، ويده مدسوسة في طية ذيل سترته في فيلا بورعيز، أو في بيت كرونستادت - وحيثما وجد فسحة مكان، كما كان الحال دائماً - يروح يسرد بسرعة كل ذاك الهراء حول العيش والموت، حتى يشفي غليله. ويجب أن أعترف أنني لم أفهم دهري كلمة مما يقول، غير أنه كان عرضاً جيداً، وما أنني رحل مهذب، فكان من الطبيعي أن أهتم بما يجري داخل معرض الوحوش في قحف دماغه. وأحياناً كان يستلقي على مقعده ممداً على طولهِ، مرهقاً من فيض الأفكار التي تحتاج رأسه. وتمس قدماه مساً رقيقاً حامل الكتب حيث يحتفظ بمؤلفات أفلاطون واسينوزا - إنه لا يفهم لماذا لا ألجأ إليهما. ويجب أن أعترف بأنه كان يجعلهما يبدوان ممتعين، بالرغم من أنني لم أكن أعرف شيئاً عنهما. أحياناً كنت ألقى نظرة مختلسة إلى أحد المجلدات، لأطلع على تلك الأفكار الوحشية التي عزاها إليهما - بيد أن الصلة كانت واهية، ضعيفة. وحين كنت أنفرد به أقصد بوريس، كان يستخدم لغة خاصة به، ولكن حين أنصت إلى كرونستادت بدأت لي أن بوريس قد انتحل أفكاره الرائعة. كانا يتكلمان شيئاً أشبه بالرياضيات العالية، لا يبدو فيه أي أثر للحم أو الدم، كان حديثاً مجرداً، عجيباً، شبيهاً غولياً. وحين يصلان إلى موضوع الموت يبدو حديثهما أكثر تماسكاً: فقبل كل شيء، يجب أن يكون للساطور أو للفأس مقبض. لقد استمتعت بتلك الجلسات إنما استمتع. كانت المرة الأولى في حياتي التي بدا لي فيها الموت فاتناً - كل تلك الميتات المجردة التي تتضمن نوعاً من النزع الخالي من الدم. وكانا بين الحين والآخر يقرظاني لكوني مملوءاً بالحياة، ولكن بطريقة تربكني. لقد جعلاني أشعر أنني أعاصر القرن التاسع عشر، اني نوع من رفاة رجعية *atavestic remenant*، أو مزقة رومانطيقية، أو انتصاب مفعم بالانفعال عند إنسان حاوا. وبوريس بشكل خاص كان لا يحصد إلا الخيبة جراء تماسه معي، أرادني أن أكون حياً حتى يموت هو من كل قلبه. كنت تظن من طريقته في النظر إلي وملامستي أن كل تلك الملايين من الناس السائرين في الشارع ما هم إلا أبقار ميتة. ولكن

الرسالة... إني أنسى الرسالة.....

"إن سبب رغبتي في أن تتحرر في تلك الليلة في بيت كرونستادت، حين أصبح مولدورف هو الله، يعود إلى أنني كنت شديد القرب منك عندئذ. وربما أكثر قرباً مما سأكون يوماً. كنت خائفاً، خائفاً جداً، من أن يأتي يوم وتتخلى عني، أن تموت بسبب. عندئذ سأبقى ببساطة وحيداً منبوذاً لا أملك غير فكري عنك، وبلا أي سند. ولن أسألك على ذلك".

قد تتصوره أنت يقول شيئاً من هذا القبيل! أما أنا فلا أفهم ماذا كانت فكرته عني، أو على الأقل، أفهم أنني كنت محض فكرة، فكرة بقيت على قيد الحياة بلا قوت. إن بوريس لم يول بالبحر أهمية لمشكلة القوت. لقد حاول أن يغذيني بالأفكار، فكل شيء كان فكرة. ومع ذلك، حين كان يصمم على تأجير الشقة، كان ينسى أن يضع مغسلة جديدة في المرحاض. على أية حال، لم يردني أن أموت بسببه. ويكتب قائلاً: "يجب أن تكون مصدراً لحياتي حتى النهاية. هذه هي الطريقة الوحيدة لموازرة فكري عنك. لأنك، كما ترى، مرتبط بشيء فائق الحيوية بالنسبة لي، ولا أعتقد أنني سأفصل منك، ولا أرغب في ذلك. أريدك أن تعيش بحيوية أكثر كل يوم، بقدر ما أنا ميت. لذا فحين أحدث عنك الآخرين أشعر بشيء من الخجل. فمن الصعب أن يتحدث المرء عن نفسه بحميمية شديدة".

لعلك تتصور أنه كان مشتاقاً إلى رؤيتي، أو يود أن يعرف ما أفعل - ولكن لا، لا يوجد سطر واحد عن شيء ملموس أو شخصي، اللهم إلا في لغة الحياة والموت هذه، لا شيء غير هذه الرسالة الصغيرة الآتية من الخنادق، ونفخة من الغاز السام يخبر بها كل من هب ودب أن الحرب لا تزال ناشبة. أحياناً أتساءل لماذا لا أنجح إلا في اجتذاب مشروخي العقول، ومرهقي الأعصاب، وعصابيين، ومضطربين عقلياً - وخاصة من اليهود. لا بد أن شيئاً في الإنسان المتهذب الصحيح يثير العقل اليهودي، كما يحدث عندما يرى، مثلاً، رغيفاً أسود عفناً. هناك على سبيل المثال، مولدورف، الذي جعل نفسه الله، كما يقول بوريس وكرونستادت. وهو يكرهني دون شك، ذاك التعبان الحثير - ومع ذلك ما كان ليستطيع أن يتعد عني. إنه يعرج بانتظام ليتناول جرعة الصغيرة من الإهانات -

فهي بمثابة مقول له. صحيح أنني في البدء تساهلت معه، فقد كان يدفع لي لأنصت إليه. وعلى الرغم من أنني لم أظهر مرة تعاطفاً زائداً كنت أعرف كيف أصمت حين يكون الأمر متعلقاً بوجبة ومبلغ صغير من المال. غير أنني وبعد فترة من الوقت، بعد أن عرفت مدى مازوشيته، سمحت لنفسني بالضحك في وجهه بين حين وآخر، مما كان يعمل عمل السوط عليه، ويجعل الحزن والأسى يتفجران منه بنشاط متجدد. وكان من الممكن أن يجري كل شيء على ما يرام لو لم يشعر أن من واجبه أن يحمي تانيا. ولكن كون تانيا يهودية أثار لديه مشكلات أخلاقية. وانتظر مني أن ألزم الأنسة كلود التي أعترف أنني ضمرت لها حباً حقيقياً، بل إنه كان يدفع لي نقوداً أحياناً لأضاجعها. إلى أن أدرك أنني فاسق لا أمل يرجى منه.

أذكر تانيا الآن أنها عادت لتوها من روسيا - قبل بضعة أيام فقط. وتختلف سيلفستر عن الحضور ليتدبر أمر العشور على عمل. لقد تخلى عن الأدب نهائياً، وسخر نفسه للمدينة الفاضلة الجديدة. وتانيا تريدني أن أعود معها إلى هناك، وتفضل مدينة "كريميا"، لنبدأ فيها حياة جديدة. قبل أيام تناولنا مقداراً لا بأس به من المشروب في غرفة كارل ونحن نناقش الإمكانيات المتوفرة. أردت أن أعرف ما يمكنني القيام به لأكسب عيشي هناك - ليت بإمكانني أن أعمل مصصح مطبوعان مثلاً. قالت إنه لا مبرر لقلقي حول ما علي أن أعمله - هم سيجدون لي عملاً طالما إنني جاد مخلص. حاولت أن أبدو جاداً، ولم أنجح إلا في أن أبدو حزيناً. هم لا يريدون أن يروا وجوهاً حزينة في روسيا، يريدونك أن تكون مرحاً، متحمساً، جذلاً، متفائلاً. وبدأ لي ذلك أقرب شبهاً بالجو العام في أميركا. لم أكن قد ورثت هذا النوع من الحماس. وطبعاً لم أبح لها بهذا، لكنني كنت أصلي بيني وبين نفسي لتتركني وشأني، لأعود إلى محرابي الصغير، وأبقى هناك إلى أن تندلع الحرب. كل ذاك الهراء عن روسيا أزعجني قليلاً. أما هي، تانيا، فكانت متحمسة لهذا الأمر حتى أننا شربنا نحو نصف دزينة من الـ "vin ordinaire" النبيذ العادي. كان كارل يقفز كالصرصار. وفيه من الصفات كيهودي ما جعله يفقد عقله عند ذكر روسيا. لن يحل الأمر إلا تزويجنا - وعلى الفور. ويقول "هيا! ليس لديك ما تفقده!" ومن ثم يتظاهر بالقيام بمهمة صغيرة حتى يتيح لنا أن نقوم

بمضاجعة سريعة. ومع أنها كانت راغبة فيها، أقصده تانيا، غير أن قضية روسيا بقيت تتجذر بقوة في دماغها حتى أنها بسلدت فترة الاستراحة وهي تمضغ أذني بها، وجعلتني نكداً مضطرباً. على أية حال، كان علينا أن نفكر في الأكل والذهاب إلى المكتب، وهكذا تكومنا في تاكسي في شارع ادغار - كينته على مرمى حجر من المقبرة، وانطلقنا. كانت ساعة ممتعة طفنا خلالها باريس في سيارة مكشوفة، والخمر الدائر في خوايتنا جعل التزهة تبدو أكثر إمتاعاً من المعتاد. جلس كارل قبالتنا على الكرسي المستود، ووجهه أحمر كالشوندر. كان سعيداً، ابن الحرام المسكين، وهو يفكر في الحياة الجديدة الفخمة التي سيعيشها في الجانب الآخر من أوروبا. ولكنه في الوقت نفسه كان يشعر أيضاً بشيء من الحزن - كما لا حظت. ورغبته في مغادرة باريس لم تكن أكبر من رغبتني. ولم تكن باريس منصفة له أو لأي إنسان آخر، ولكن حين تكون قد تأملت هنا وعانيت الأمرين عندئذ تسلب باريس لبك، وتقبض عليك من خصيتيك، إن صح التعبير، مثل عاهرة أضناها الحب تفضل الموت على أن تغلت من قبضتها. هكذا بدا الأمر له، في نظري. وتنطلق عبر السين وترسم على وجهه تكشيرة ويتلفت حوله إلى الأبنية والتماثيل وكأنه يراها في الحلم. وكالحلم بدت لي أيضاً: يدي تتلمس صدر تانيا وتضغط حلمتيها بكل قواي وأرى الماء يجري تحت الجسور والمراكب وكنيسة نوتردام في السفلى، كما تصورها بطاقات البريد، وأفكر ثملاً وأنا أقول في دخيلتي هكذا يُنَاك المرء، لكنني كنت أيضاً ماكرأ بهذا الشأن وأدرك أنني ما كنت لأقايض كل هذا الدوار الذي يلف رأسي بروسيا أو بالجنة أو بأي شيء على الأرض. قلت في نفسي الجو رائع، وبعد قليل تدفع بالطعام إلى بطوننا وبكل ما يسعنا أن نطلبه في مناسبة خاصة، مع نبيذ ثقيل جيد كفيل بمسح كل ذاك الحديث عن روسيا. ومع امرأة كتانيا، مملوءة بالحياة وكل شيء، لا يابيهون لما قد يحدث لك طالما هناك فكرة تستحوذ على تفكيرهم. اتركهم يتمادون معك وسترى كيف يجردونك من ملابسك وأنت قابع في التاكسي. كانت نزهتنا فخمة، نمخر عباب حركة المرور، وجوهنا ملطخة بأحمر الشفاه والنبيذ يفرغر داخلنا كما في بالوعة، ونحن ندخل شارع لافيت العريض بما يكفي ليبرز المعبد الموجود في نهاية الشارع وفوقه كنيسة القلب الأقدس،

وهي نوع من الهندسة المختلطة الغريبة، فكرة فرسية نيرة تخرق ثمالتك وتتركك سابحاً عاجزاً في الماضي، في حلم متدفق يجعلك يقظاً تماماً ولكن دون أن يوتر أعصابك.

مع عودة تانيا إلى مسرح الأحداث، وإيجاد عمل ثابت، والحديث المنتشي عن روسيا، والتمشي باتجاه البيت، وباريس في قلب الصيف، تبدو الحياة كأنها ترفع رأسها أعلى قليلاً. وربما كان هذا هو السبب في أن رسالة كاتي أرسلها لي بوريس تبدو حولاء تماماً. أقابل تانيا كل يوم تقريباً عند نحو الساعة الخامسة، لأتناول البورتو معها، هكذا تسميه، وأدعها تأخذني إلى أماكن لم أرتدها من قبل، إلى حانات مزدحمة في منطقة الشانزليزيه حيث يبدو صدح موسيقى الجاز مع دندنة أصوات الأطفال كأنها تشبع خشب الماهو غاني. وحتى حين تذهب إلى المغسلة تلاحقك الأصوات الريانة اللينة، وتظهر إليك داخلية المرحاض خلال المكيفات وتجعل الحياة كلها صابون وفقااعات متعددة الألوان، وسواء أ بسبب غياب سيلفستر وشعورها بأنها حرة، أو مهما كان السبب، تحاول تانيا طبعاً أن تتصرف كملاك. وتقول لي في أحد الأيام: "لقد عاملتني معاملة سيئة قبيل رحيلي. لماذا أردت أن تفعل ذلك؟ أنا لم أسبب لك أي أذى، أليس كذلك؟". وأصبح مزاجنا رومانطيقياً، مع وجود الأنوار الخافتة وتلك الموسيقى الدسمة الماهو غانية التي تنساب في المكان. واقترب وقت التوجه إلى العمل ولم نكن قد تناولنا الطعام بعد. كانت الأرومات ملقاة أمامنا - ستة فرنكات، أربعة فرنكات وخمسون سنتيماً، سبعة فرنكات، فرنكان وخمسون سنتيماً، كنت أعدها بشكل آلي متسائلاً في الوقت نفسه إن كنت أفضل أن أكون ساقياً في حانة. وفي أحيان كثيرة كنتك، وأثناء تحدثها معي، وهي تنطلق في الحديث عن روسيا، والمستقبل، والحب وكل ذاك الخراء، أنشغل أنا بالتفكير في أمور أبعد ما تكون عن ذاك الموضوع، عن أحذية لماعة أو عن كوني حارس مراحيض، وخاصة حسب ما أعتقد لأن الأماكن التي أخذتني إليها كانت أليفة جداً ولم يخطر ببالي قط أنني سوف أغدو وقوراً أو ربما عجوزاً محني الظهر..... لا، كنت دائماً أتخيل أن المستقبل، مهما كان متواضعاً، سيكون شيئاً شبيهاً بتلك الصورة، مع الأنغام نفسها التي تصدح في رأسي والكؤوس التي ترن، وخلف

كل مؤخرة أنيقة ذيل من العطر عرضه ياردة كفيل بمحو التتانة من الحياة كلها، حتى تلك الموجودة في المغاسل.

الغريب في الأمر هو أنني لم أفسد بالتردد معها على الحانات الراقية على ذاك الشكل. طبعاً، كان صعباً علي أن أتركها. كنت أقودها إلى رواق كنيسة كائنة بالقرب من المكتب ونقف هناك في الظلام تتعاقب للمرة الأخيرة، وتهمس لي "يا إلهي، ماذا سأفعل الآن؟". أرادتني أن أترك العمل لأمارس معها الحب ليل نهار، ولم تعد تأبه حتى بروسيا، ما دمنا معا. ولكن حالما غادرتها صفا ذهني. وحين دفعت الباب الهزاز داخلاً رحبت موسيقى من نوع آخر، ليست دندنة رقيقة لكنها جيدة مع ذلك، بأذني. وبدا كأن نوعاً آخر من العطر، عرضه ليس فقط ياردة، بل هو كلي الوجود، وهو مزيج من العرق وعبق الباتشولي ينبعث من الآلات. ودخلت وأنا ممتلىء بالخمر، كما هي عادتي، وكأني أسقط فجأة إلى علو منخفض. وفي العادة أتوجه من فوري إلى المرحاض - لأجلد قواي. فهناك الجو أكثر برودة أو ربما تحرير الماء الجداري يجعله يبدو بارداً. ولطالما كان المرحاض بمثابة دوش بارد، بحق. وقبل أن تدخل كان عليك أن تخرق صفاً من الفرنسيين يتخلعون ملابسهم. تفووه! رائحتهم كريهة، أولئك الشياطين! وكانوا ينالون سعراً عالياً لهذا أيضاً. ولكن ها هم، عراة، بعضهم بسرابيل داخلية طويلة، وبعضهم لحى، وأغلبهم شاحب لون السحنة، كجذرذان سقيمة يجري في عروقها الرصاص. وداخل المرحاض يمكنك أن تجري عملية جرد لأفكارهم البليدة. الجدران مزدحمة برسوم مرتجلة وألقاب، كلها بذئبة بذاءة مضحكة، سهلة الفهم، وبشكل عام جميلة ومتجانسة. لا بد أن بعضها احتاج إلى سلم لتدوينه في أماكن معينة، لكنني أعتقد أن الأمر كان يستحق العناء حتى لجرد الاطلاع عليه من وجهة النظر النفسية. أحياناً كنت أتساءل، وأنا واقف هنا أتبول، عن الانطباع الذي يمكن أن أتركه لدى تلك النسوة الموثرات اللواتي رأيتهن داخلات خارجات من المراحيض الجميلة في الشانزليزيه. تساءلت إن كن سيرفعن أذيال أثوابهن عالياً جداً تباهياً لو رأين ما كتب عن المؤخرة هنا. لا شك في أن كل شيء في عالمهن شفاف محلي - أو هكذا يجعلونك تعتقد بالعطور الرائعة التي يفوح عبقها منهن، أثناء مرورهن بك. بل إن بعضهن لم

يكن دائماً من السيدات الراقيات، وبعضهن يتمشى ذهاباً وإياباً فقط لعرض بضاعته. وربما حين يختلن بأنفسهن، حين يتكلمن بصوت عال في غرف الزينة، تفلت من أفواههن بعض الأمور الغريبة أيضاً، لأن في ذاك العالم، كما في أي عالم آخر، القسم الأكبر مما يحدث هو مجرد قذارة وفحش، قدر كأي برمبل زبالة، كل ما في الأمر أن لديهن من الحظ ما يتيح لهن وضع غطاء على البرميل.

وكما كنت أقول، في ظهيرة ذلك اليوم لم يكن للحياة مع تانيا حتى ذلك الحين أي أثر سيء عليّ. أحياناً كنت أسرف في الشرب فأضع أصبعي في حنجرتي لأتقيأ - لأنه من الصعب قراءة بروفة طباعية إذا لم تكن في كامل وعيك. فالتفتيش عن فاصلة ضائعة يحتاج من التركيز أكثر مما يتطلبه تلخيص فلسفة نيتشه. وحين تكون ثملاً يمكنك أحياناً أن تتفوق، ولكن التفوق في قسم تصحيح المطبوعات لا مكان له. التواريخ، الأجزاء الصغيرة، والفواصل المنقطة، هي الأشياء المهمة. وهي الأشياء التي يصعب جداً تقصيدها حين يكون الذهن متوقداً. وبين حين وآخر كنت أرتكب الأخطاء الفاحشة، ولو لم أعلم كيف أقبل مؤخراً الرئيس، لطردت حتماً. بل إنني تسلمت رسالة ذات يوم من المغولي الضخم القاطن في الطابق العلوي، مع أنني لم أقابله قط، وكان قوي النفوذ، وقد ألمح لي بوضوح تام، بين بضع فقرات تهكمية حول ذكائي غير العادي، إلى أنه من الأفضل لي أن أعرف مقامي وألزمه وإلا دفعت الثمن. وبصراحة، لقد بث في هذا الكلام رعباً شديداً. وبعد ذلك لم أعد أستخدم قط كلمة مؤلفة من عدة مقاطع في أي حديث، والواقع، لم أعد أفتح بوزي طوال الليل. ومثلت دور الأبله الراقى، وهو ما أرادوه منا. كنت، بين حين وآخر، وعلى سبيل تملق الرئيس، أذهب إليه لأسأله بأدب عن معنى هذه الكلمة أو تلك. وكان يجب ذلك. فصاحبنا كان أشبه بقاموس وقائمة أسماء. ومهما جرع من البيرة أثناء الاستراحة - وهو أيضاً يقرر استراحاته الخاصة حسب تقديره لسرعة سير العمل - لا يمكنك أن توقعه في خطأ تاريخ أو تعريف. لقد ولد لهذا العمل. أسفي الوحيد أنني كنت أعرف أكثر مما ينبغي. وهذه المعرفة كانت تفلت مني أحياناً، على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها. وإذا تصادف وأتيت إلى العمل وأنا أتأبط كتاباً فإن

صاحبنا الرئيس يلاحظه، فإذا كان كتاباً جيداً أثار ضغيتته. غير أنني لم أقم بأي عمل قصد إزعاجه، لقد أحبيت العمل كثيراً بحيث لا يمكن أن أضع الأنشطة حول عنقي. ومع ذلك يصعب التحدث إلى رجل لا تشترك معه في أي شيء، حيثُ تخدع نفسك، حتى وإن لم تستخدم إلا الكلمات ذوات المقاطع الأحادية. كان يعلم جيداً، أقصد الرئيس، أنني لا أُولي أدنى اهتمام لحكاياته، ومع ذلك، وكيفما فهمت الموضوع، كان يسعده أن يقصيني عن أحلامي ويملأني حتى آخري بالتواريخ والأحداث التاريخية. وأعتقد أن تلك كانت طريقته في الأخذ بالثأر.

والنتيجة أنني ازددت عصاوية. وصار مجرد ملامستي للهواء تجعلني متهوراً. ومهما كان موضوع الحديث الدائر أثناء عودتنا إلى مونيرناس في الصباح الباكر، فإني سرعان ما أصب النار عليه، أحمده، لكي أعرض للعيان أحلامي المارقة. وأحبيت أكثر ما أحبيت التحدث عن تلك الأشياء التي لا أحد منا يعرف أي شيء عنها. وكنت قد نمت نوعاً معتدلاً من الجنون، يسمى بالمصاداة^٢ (echalabia). وكل بقايا ليلة من مراجعة المطبوعات كانت ترقص على طرف لساني. "دالماتيا" - حملت نسخة من إعلان عن ذاك المصيف الجميل النادر. حسن، فلتكن دالماتيا. أستقل قطاراً ومع حلول الصباح تبدأ مسامك تنضج بالعرق وتكاد حبات العنب تمزق قشورها. كان بإمكانني أن أطوف كل دالماتيا من الشارع الكبير إلى قصر الكاردينال مازاران، بل وإلى أبعد من ذلك لو أردت. إنني حتى لا أعرف أين تقع على الخريطة، ولا أريد أن أعرف، ولكن عندما تكون الساعة الثالثة فجراً والرصاص يجري في عروقك وثيابك منقوعة بالعرق، وعبق باتشولي مع قرقة الأصناف المارة عبر العصابة والحكايا التي تدور مع كأس البيرة وكنت مولعاً بها، لا تعود أشياء صغيرة كالجغرافيا، والبدلة، والخطاب، وفن العمارة، تعني أي شيء. دالماتيا تنتمي إلى ساعة معينة من الليل بعد أن تسكت تلك الأجراس الكهربائية وتبدو قاعة اللوفر مثيرة للسخرية بشكل رائع حتى أنك تشعر برغبة في البكاء بلا أي داع، فقط لأن ثمة صمتاً رائعاً الجمال، وفراغاً،

^٢ (١) المصاداة : الترداد المرضي لما يقوله الآخرون - المترجم.

لأن الجو يختلف تمام الاختلاف عما يظهر في الصفحة الأولى، وعن الشبان الذين يدحرجون النرد في الطابق العلوي. ومع وجود مكان صغير كدالماتيا يحشم على أعصابي النابضة كحد سكين بارد أمكنني اختبار أكثر أحاسيس الرحيل روعة. والطريف في الأمر أنه أمكنني أن أطوف العالم دون أن تخطر أمركا على بالي، كانت أكثر ضياعاً حتى من قارة مفقودة، لأنني كنت أشعر نحو القارات المفقودة برباط غامض، في حين أنني لم أشعر بأي شيء نحو أميركا. صحيح أنني كنت بين حين وآخر أفكر بمونا، ولكن ليس كما أفكر في شخص ضمن هالة محددة من الزمان والمكان، بل بشكل منفصل، منفرد، وكأنها تفجرت فصارت كتلة من السحاب عظيمة طمست الماضي. لم أستطع السماح لنفسي بالتفكير طويلاً، ولو فعلت لقفزت من فوق الجسر. شيء غريب. لقد صرت متوافقاً كثيراً مع هذه الحياة بدونها، ومع ذلك فلو فكرت فيها ولو لدقيقة لكانت كافية لحرق عظام رضاي ولبه، ولقدفتني ثانية، إلى حمأة الماضي التعيس المؤلمة.

سبع سنين وأنا أتقل، ليل نهار، لا أحمل إلا فكرة واحدة في رأسي — هي لو كان هناك مسيحي مخلص لربه كإخلاصي لها لبات كل منا الآن يسوع مسيح. فكرت فيها ليل نهار، حتى وأنا اخذعها. والآن أحياناً، في غمرة الأشياء، حين أشعر أنني متحرر حرية تامة من كل ذلك، إذ فجأة، وربما عند منعطف زاوية، تظهر بغتة ساحة صغيرة، بضع شجيرات ومقعد خشبي، بقعة مهجورة كنا قد وقفنا عندها وحسمنا الأمر بيننا، وأثار كل منا جنون الآخر بمشاهد مريبة غيور. ثمّة دائماً بعض البقع المنبوذة، مثل بلاس دو لسيتراباد، أو تلك الشوارع القذرة المملوءة أسي في الطرف الآخر للجامع، أو المحاذية لقبر شارع دو بريتوي المفتوح، تغلو عند الساعة العاشرة ليلاً في منتهى السكون، والموت، تدفع المرء إلى التفكير في جرائم القتل أو في الانتحار، أو في أي شيء من شأنه أن يخلق أثراً من الدراما الإنسانية. وحين أدرك أنها رحلت، وربما إلى الأبد، يفغر فراغ عظيم فاه وأشعر أنني أغوص، أغوص، أغوص إلى الخواء الأسود اللامتناهي. وهذا أسوأ من ذرف الدموع، أعمق من الندم أو الألم أو الأسي، هو اللجة التي غاص فيها الشيطان. ولا سبيل للتراجع، لا بارقة نور، لا نبرة صوت إنساني أو لمسة يد إنسانية.

كم ألف مرة ومرة تساءلت، وأنا أجوس الشوارع ليلاً، إن كان سيعود اليوم الذي أجدها فيه إلى جانبي: منحت كل تلك النظرات المشتاقة للأبنية والتماثيل، نظرت إليها بنهم عظيم، ويأس، إلى درجة أن أفكاري أضحت الآن جزءاً من تلك الأبنية والتماثيل، ولا بد أنها أشبعت بالمي. ولا يسعني إلا أن أتذكر أيضاً أننا كنا نسير جنباً إلى جنب في تلك الشوارع الوسخة المترعة بالغم والتي باتت الآن مشبعة بأحلامي وحنيني، لم تلاحظ شيئاً، ولم تشعر بشيء، كانت بالنسبة لها كغيرها من الشوارع، ربما أكثر قذارة بقليل، ولا أكثر. لم تتذكر أنني عند ركن معين وقفت لألتقط دبوس شعرها، أو أنني حين انحنيت لأربط حذاءها، تعرفت على البقعة التي استقرت قدمها عليها وقلت إنها ستبقى هناك إلى الأبد، حتى بعد أن تهدم الكاتدرائيات وتقنى الحضارة اللاتينية كلها عن بكرة أبيها وإلى أبد الأبد.

بينما أنا أشق طريقي في شارع لومون ذات أمسية وسط نوبة من الألم والوحشة غير العاديين، تبدت لي أشياء معينة بوضوح حاد. ولا أدري إن كان السبب هو أنني كثيراً ما مشيت في هذه الشوارع تملأني المرارة واليأس أو أنني تذكرت عبارة ألقته في إحدى الليالي ونحن واقفان في ساحة لوسيان - هر، حين قالت: "لماذا لا تريني تلك باريس التي كتبت عنها؟". ثم شيء واحد أعرفه، هو أنه عند تذكري لهذه الكلمات أدركت فجأة استحالة أن أوضح لها أن باريس التي عرفتھا، باريس ذات الأبعاد اللامتناهية، هي باريس لم توجد إلا كإفراز من وحدتي، وشوقي إليها. وما أضخمها من باريس! ويحتاج اكتشافها إلى حياة بأكملها. هذه باريس التي لم تعط مفاتيحها لغيري، لا تكاد تمنح نفسها مقابل جولة قصيرة، حتى بوجود أفضل النوايا، إنها باريس التي يجب معاشتها، معاناتها يومياً بألف شكل مختلف من العذاب، باريس التي تنمو كالسرطان، وتنمو وتنمو حتى تستهلكك تماماً.

وأطرق شارع موفيتار، حاملاً هذه الذكريات التي تشب في رأسي، وأذكر حادثة أخرى غريبة من الماضي، من ذاك الكتاب المرشد الذي طلبت مني أن أمزق أوراقه، بيد أنني، وبسبب ثقل غلافه الكبير، لم أتمكن من فتحه ولا بالقوة. وبدون أدنى سبب - ولأن أفكاري في هذه اللحظة كانت

مشغولة بسالافان الذي صرت أهيمن على وجهي في تخومه المقدسة الآن - أقول وبلون أي سبب، خطرت على بالي ذكرى أحد الأيام حين دخلت مندفعاً نزل أورفيلا، يلهمني دبوس زينة كنت أمر به يوماً بعد يوم، وطلبت رؤية غرفة ستريندبرغ التي كان يشغلها. وحتى ذلك الوقت لم يكن قد وقع لي أي حدث مريع، على رغم أنني كنت قد فقدت لتوي جميع ممتلكاتي الدنيوية وعرفت معنى التسكع في الشوارع على الطوى والخوف من الشرطة. حتى ذلك الحين لم أكن قد عثرت على صديق واحد في باريس، وهي حالة لم تكن مقبضة قدر كونها محيرة، لأنني حيثما همت على وجهي في هذا العالم كان أسهل شيء بالنسبة لي هو اكتشاف صديق. ولكن على أرض الواقع لم يكن قد حدث أمر مريع بعد. يمكن للإنسان أن يحيا بلا أصدقاء، مثلما يستطيع أن يحيا بلا حب، أو حتى بلا نقود، التي تعتبر شيئاً لا غنى عنه sine qua non. يمكن للإنسان أن يعيش في باريس - هذا ما اكتشفته! - على قوت الأسى والألم. فالعقم - بالنسبة لبعض الناس هو أفضل غذاء. على أية حال، لم أكن قد وصلت بعد إلى نهاية أمدى. كنت فقط الهو مع الكارثة. كان لدي من الوقت والعاطفة ما يكفي ويزيد لأتلصص على حيوات الآخرين، لأعبث بتاج الرومانسية الميت الذي، مهما بدا مرضياً، فإنه حين يغلف بلفتي كتاب يبدو نائياً بشكل لذيذ ومجهول الهوية. وبينما أنا أغادر المكان وعيت وجود ابتسامة ساخرة تحوم لترسم على شفتي، وكأني أقول لنفسي "ليس الآن، يا نزل أورفيلا".

ومنذ ذلك الحين طبعاً تعلمت ما يكتشفه كل مجنون في باريس عاجلاً أم آجلاً، أي أنه ليس هناك جهنمات جاهزة للمعذنين.

يبدو لي أنني بت الآن أفهم بشكل أفضل قليلاً سبب استمتاعها المفرط بقراءة ستريندبرغ. أكاد أراها وهي ترفع بصرها عن الكتاب بعد قراءة فقرة "لذيذة" وتقول لي، ودموع الضحك تطفر من عينيها: "أنت مجنون مثله تماماً....". ترغب بتلقي العقاب! ما أعظم متعة السادية حين تكتشف مازوشيتها الخاصة! حين تعض نفسها لتختير حدة أسنانها. في تلك الأيام، حين تعرفت إليها للمرة الأولى، كانت متخمة بستريندبرغ. ومهرجان

البرقات الماكن ذاك الذي قصف فيه، تلك المبارزة الأبدية بين الجنسين،
والضراوة العنكبوتية التي حببته إلى البلهاء الخرق الشماليين، كل ذلك كان
سبب تقاربنا. لقد اجتمعنا لترقص رقصة الموت وسرعان ما ابتلعتني الدوامة
بحيث أنني حين عدت إلى السطح ثانية كانت الموسيقى قد سكنت، وانتهى
المهرجان وخرجت منه تقياً.....

بعد مغادرتي لنزل أورفيلا بعد ظهيرة ذاك اليوم توجهت إلى المكتبة
وهناك، وبعد أن اغتسلت في نهر الغانج وتفكرت في رموز دائرة البروج،
رحت أتأمل في معنى ذاك الجحيم الذي رسمه ستريندبرغ بلا رحمة. بينما أنا
هكذا، أخذت الصورة تتضح لي، سر حجته، وتحليق الشاعر فوق وجه
الأرض ومن ثم، وكأنما كتب عليه أن يعيد أداء دراما ضائعة، والهبوط
البطولي إلى أعماق الأرض، والمقام المظلم المخيف في بطن الحوت والصراع
الدموي لتحرير نفسه، ليخرج من الماضي نظيفاً، شمساً ساطعة تجمد الدم في
العروق ألقى الله ضيائها على شاطئ غريب. لم يعد سراً بالنسبة لي سبب
حجته والآخرين (داني، رابليه، فان غوغ، إلخ، إلخ) إلى باريس. فهمت
عندئذ لماذا جذبت باريس المعذيين، والمهلوسين، والعشاق المهوسين العظام.
فهمت لماذا يمكن للمرء هنا، في محور الولا ببالذات، أن يعاني أشد
النظريات روعة، وأكثرها استحالة، دون أن يجد فيها أدنى قدر من الغرابة،
هنا يعيد المرء قراءة كتب فترة الشباب الأول وتتخذ الألغاز معان جديدة،
معنى لكل شعرة بيضاء. ويمشي المرء في الشارع وهو يعلم أنه مجنون،
ممسوس، لأنه من الواضح أن تلك الوجوه الباردة اللامبالية هي وجوه
سجانيه. هنا تتمحي كل الحدود ويتضح أن العالم هو مسلخ مجنون. يظل فيه
دولاب التعذيب يشد إلى الأبد وتغلق المنافذ الصغيرة بإحكام، ويتفشى
المنطق، ويومض ساطور يقطر دماً. الهواء بارد قارس وراكداً، واللغة رؤيوية.
لا أثر لشارة مخرج في أي مكان، لا منفذ إلا إلى الموت. زقاق مسلود عند
نهايته مشنقة.

خالدة، باريس! أكثر خلوداً من روما، أشد روعة من فينوي. هي سره
العالم يزحف المرء عائداً إليها، كمعتوه أعمى يتعثر، على يديه وركبتيه،

ويطفو كقطعة فلين جرفت إلى قلب المحيط، هنا وسط غيث البحار ومخلفاتها، فاتر الهمة، يائساً، غافلاً حتى عن كولومبوس لو مر بقربه. إن مهود الحضارة ما هي إلا بلاليع فاسدة للعالم، مقبرة إليها تعهد الأرحام العفنة بلفائفها اللعينة من اللحم والعظم.

كانت الشوارع ملاحثي. ولا يمكن لإنسان أن يفهم فتنة الشوارع إلى أن يضطر إلى اللجوء إليها، إلى أن يغدو قشة تذروها زفرة من الريح إلى هنا وهناك. يسير المرء في أحد الشوارع في يوم شتائي فيرى كلباً معروضاً للبيع فإذا به يتأثر حتى تطفر الدموع من عينيه. في حين يقوم في الطرف الآخر من الشارع، جذلاً كمقبرة، كوخ بائس يسمى "فندق ضريح الأرانب hotel du tombeau des lapins" يدفع المرء إلى الضحك، الضحك حتى الموت. إلى أن يلاحظ أن ثمة فنادق في كل مكان للأرانب، والكلاب، والقمل، والأباطرة والوزراء، والمسترهنين، وتجار الخيول وما إليهم. وبعد كل فندق هناك آخر يدعى "فندق المستقبل"، مما يشير أكثر فأكثر حفيظة المرء. ما أكثر فنادق المستقبل! لا توجد فنادق لاسم المفعول، ولا لا للصيغ الشرطية، ولا لالتهابات الملتحمة. كل شيء وقور، رهيب، مرح بشكل يوقف شعر الرأس، متورم بالمستقبل، كأنه خراج اللثة. وأترنج ثملاً من أكزيما المستقبل الفاسقة هذه وأنا في طريقي إلى بلاس فيوليت، كل الألوان خبازي واردوازي، والأبواب واطئة جداً بحيث لا يستطيع الولوج منها إلا الأقزام والعفاريت، وفوق جمجمة "زولا" الباهتة تنفث المداخن فحماً صرفاً، بينما مادونا الشطائر تنصت بأذنين تشبهان ورقتي ملفوف إلى بقبة أوعية الغاز، إلى تلك الضفادع المتفخة الجميلة المقرصة على جانبي الطريق.

لماذا أتذكر فجأة ممر التير مويل؟ لأنه في ذلك اليوم كانت هناك امرأة تخاطب جروتها بلغة المسلخ الرؤيوية، وكانت الجروّة الصغير تفهم ما تقوله تلك "الداية" العاهرة المزينة. كم كدرني ذلك! أكثر حتى من مشهد تلك الكلاب التي تباع وهي تن على طريق برانسيون، إذ ليست الكلاب هي التي كانت تملأني بالشفقة، بل الحاجز الحديدي الكبير، والتواءات المدينة الصدفية التي بدت كأنها تقف حائلاً بيني وبين حياتي الملائمة. وفي الزقاق الصغير

اللطيف قرب الأباتوار دو فوجيرار (مسلخ لحم الخيول) والذي يسمى طريق البيريشو، لاحظت وجدود بقع متناثرة من الدم. وكما كان ستزيندبرغ أثناء فترة جنونه قد رأى بشائر وإشارات المعجزة في ممشي نزل أورفيلا نفسه، كذا أنا، بينما كنت أتجول بلا وجهة في هذا الزقاق الموحد الملطخ بالدم، طفت أمام عيني بتكاسل مزق منفصلة من الماضي، تنذرني بأوخم العواقب. تراءى لي من أبعد نقطة في ذاكرتي، بل من بدايتها الأولى، دمي يراق، والطريق الموحلة تتلطح به. إن الإنسان ليقذف به إلى العالم كمومياء قلرة حقيرة، الطرقات زلقة من الدم ولا أحد يعلم لماذا هي كذلك. كل يسير في طريقه وعلى رغم أن الأرض تتعفن بالطيبات، فليس هناك متسع من الوقت لقطف الثمار، ويتدافع الموكب بالمناكب نحو إشارة تدل على المخرج، وكم من رعب هائل يعم، وكم من العرق ينضح جهاداً للهرب، حتى أن الضعفاء واليائسين يداسون في الوحل ولا من يسمع صراخهم.

اندثر عالمي الذي يقطنه الآدميون، وبت وحيداً تماماً في العالم واتخذت من الشوارع أصدقاء، وتحدثت الشوارع إلي بتلك اللغة الحزينة المريرة المؤلفة من البؤس، والشوق، والندم والفشل، والجهد المهدور الإنساني. وأثناء مروري من تحت الجسر على شارع بروكا، في الليلة التي تلت علمي أن مونا مريضة وتقاسي الجوع، تذكرت فجأة أنها هنا في قذارة وكآبة هذا الشارع الغائر، تشبثت بي، مرتعبة ربما من هاجس مستقبلي، وتوسلت إلي بصوت متهدج أن أعدها بأن لا أتخلي عنها، أبداً، ومهما حدث. وبعد ذلك بأيام قليلة وقفت على رصيف محطة القديس أليعازر أراقب القطار يقلع، القطار الذي يحملها: كانت تطل من النافذة، تماماً كما أطلت من النافذة حين تركتها في نيويورك، وهناك أيضاً كانت الابتسامة الحزينة المبهمة نفسها على وجهها، نظرة اللحظة الأخيرة تلك المقصود بها أن تعبر عن الكثير، لكنها ليست إلا قناعاً التوت قسماته لترسم ابتسامة فارغة. وقبل ذلك ببضعة أيام فقط كانت قد تشبثت بي تشبثاً يائساً ومن ثم حدث أمر، أمر لم تتضح لي ابعاده حتى الآن، وباختيارها الكامل استقلت القطار وراحت تنظر إلي ثانية مع تلك الابتسامة الحزينة المبهمة التي تحيرني، الظالم، الشاذة، التي أرتاب فيها من كل روحي. الآن حان دوري، وأنا أقف في ظل الجسر، لأرحل إليها،

لأتعلق بها بهيام ولترتسم الابتسامة الغامضة نفسها على شفتي، القناع الذي أحكمت تركيبه فوق ألمي. يمكنني أن أقف هنا وأبتسم ابتسامة فارغة، ومهما بلغ توهم صلواتي، مهما بلغ قنوط اشتياقي، سيظل يفصلنا محيط كامل، ستبقى هي هناك تعاني الجوع، وأبقى أنا هنا أتسكع متقلاً من شارع إلى آخر، تلسع الدموع الحارة وجهي.

مثل ذاك النوع من الوحشية هو الذي ينطمر في الشوارع، "ذاك" هو الشيء الذي يحرق إلينا من الجدران ويرعبنا حين تستجيب فجأة إلى خوف لا إسم له، حين يغزو أرواحنا فجأة رعب مقزز للنفس. "ذاك" هو الشيء الذي يضيف على مصاييح الشارع انحناءاتها الغولية، يجعلها تومىء إلينا وتغريتنا إلى أن نقع في قبضتها الخائفة، "ذاك" هو الشيء الذي يجعل بيوتاً معينة تلبو كحماة لجرائم سرية وتجعل نوافذها المظلمة كمحاجر خاوية لعيون رأت أكثر مما ينبغي. مثل ذاك الشيء، المكتوب داخل الأسارير الإنسانية للشوارع، هو الذي يدفعني إلى الهرب حين أرى فجأة فوقى لوحة مكتوب عليها "طريق مسدود. شيطان". هو الذي يجعلني أرتجف حين أرى على مدخل الجامع مباشرة عبارة تقول: "أيام الإثنين والخميس سُل، والأربعاء والجمعة سفلس". في كل محطة للمترو توجد جماجم مكشورة تحيك بعبارة "إحذر من السفلس! Defendez - vous contre la syphilis". حيث وجدت جدران هناك ملصقات تمثل سلطعونات بشعة لامعة تعلن عن وصول مرض السرطان. وأينما تتوجه، وفي كل ما تلمس، يوجد السرطان السفلس. إنه مكتوب على صفحة السماء، يتلفى ويرقص، كنذير الشؤم. لقد نخر عميقاً في أرواحنا ولم نعد نشكل غير عنصر ميت كالقمر.

أعتقد أنه كان الرابع من تموز حين أخذوا الكرسي من تحتي ثانية. بلا كلمة تحذير. فقد قرر أحد القذرين الكبار من الطرف الآخر للمحيط أن يقتصد، فالأقتطاع من أجور مصححي المطبوعات وضاربي الآلة الكاتبة الصغار المساكين سيمكثه من تسديد نفقات رحلاته ذهاباً وإياباً والشقق الفخمة التي يشغلها في الريتز. وبعد أن سددت الديون الصغيرة التي ترتبت علي بين عمال المنضدة السطرية ودفعت عربون المودة في المقهى الصغير الكائن عبر الشارع، لكي أحافظ على سمعتي، ولم يبق معي شيء من أجري الأخير. كان علي أن أبلغ صاحب الفندق بأنني سأغادره، ولم أعطه سبباً لأنه سيقلق على المئتي فرنك الحقيرة التي له علي.

"ماذا ستفعل إذا فقدت عملك؟". هذه هي العبارة التي كانت ترن في أذني باستمرار "ca' y est maintenant! ausgespielt". لا شيء افعله غير أن أنزل إلى الشارع من جديد، أمشي، أتسكع، أجلس على المقاعد، أقتل الوقت. وطبعاً، بات وجهي مألوفاً في مونيرناس، وبقيت فترة أدعي أنني لا أزال أعمل في الصحيفة. وكان ذلك يسهل علي قليلاً الحصول على وجبة إفطار أو عشاء. كان الوقت صيفاً والسياح يتدفقون. وكنت أخفي خططاً في كمي لتغريمهم. "ماذا ستفعل.....؟". حسن لن أموت جوعاً، هذا كل شيء. ولو أنني اكتفيت بالتركيز على الطعام لمنعني هذا من الانهيار. وتمكنت على مدى أسبوع أو أسبوعين من أن أتوجه إلى محل الميسوبول وأتناول وجبة مشبعة كل مساء، دون أن يعلم إن كنت أعمل أم لا. فالأكل هو أهم شيء. وكل ما عداه إعهد به إلى العناية الإلهية!

طبيعي أنني أصبحت سمعي إلى كل ما له رنين. الدراهم. وسعيت إلى تكوين مجموعة جديدة كاملة من المعارف - مضجرون كنت حتى ذلك الحين أبتغهم بالحاح، وسكاري كنت أشمئز منهم، وفنانون لا يكادون يملكون أي مال، ورجال نالوا جائزة غوغنهايم، إلخ. وليس من الصعب أن تعقد صداقات وأنت قابع على مصطبة أثني عشرة ساعة كل يوم. هناك ستتعرف على كل سكير في مونبرناس. إنهم يتعلقون بك كالقمل، حتى وإن لم يكن لديك ما تعيرهم غير أذنيك.

والآن بعد أن فقدت عملي صار لدى كارل وفان نوردن عبارة جديدة يلقيانها على سمعي. "وماذا لو وصلت زوجتك الآن؟". حسن، وماذا في الأمر؟ سأطعم فمين بدل فم. سيصبح لدي رفيق في البؤس. وإذا لم تكن قد فقدت شكلها الحسن، فربما من الأفضل لي وجود زوجة من أن أكون وحيداً: إن العالم لا يسمح بوجود امرأة جميلة تعاني الجوع. ولم أتمكن من الاعتماد على تانيا في مساعدتي، لقد كانت ترسل النقود إلى سيلفستر. وفي أول الأمر اعتقدت أنها قد تسمح لي بمشاركتها غرفتها، لكنها كانت تخشى التعرض للسمعة السيئة، ثم إنه كان عليها أن تعامل رئيسها بلطف.

إن أول من هم جديرون بالاعتماد عليهم بين الناس حين تكون مقهوراً هم اليهود. وكان لدي ثلاثة منهم بين يدي دفعة واحدة. إنهم أرواح متعاطفة. أحدهم تاجر فرو متقاعد يتوق إلى أن يرى اسمه مكتوباً في الصحف، اقترح علي أن أكتب سلسلة من المقالات موقعة باسمه في جريدة يهودية يومية تطبع في نيويورك. وكان علي أن أقوم بجولة استكشاف في الدوم والكوبول بحثاً عن يهود مرموقين. وأول من قابلت كان عالم رياضيات شهيراً، لم يكن يحسن النطق بكلمة انكليزية واحدة. وكان علي أن أكتب عن نظرية الصدمة من المخططات التي تركها علي القوطات الورقية، وأن أصف حركات الأجسام الفضائية وأفند مفهوم أينشتاين في الوقت نفسه. كل هذا مقابل خمسة وعشرين فرنكاً. وعندما رأيت مقالاتي في الصحيفة لم أتمكن من قراءتها، إلا أنها بدت مؤثرة، والنتيجة واحدة، خاصة حين تكون موقعة بالاسم الزائف لتاجر فرو.

حلال هذه الفترة حررت الكثير من الكتابات بأسماء مستعارة. وحين افتتح الماخور الكبير الجديد أبوابه في بولفار إدغار - كينه حصلت على عمولة صغيرة مقابل كتابة كراريس المناسبة. بمعنى، زجاجة شمبانيا ونياقة مجانية في إحدى الغرف المصرية. وإذا نحت في جلب زبون أحصل على العمولة، تماماً كما كان كيي يحصل عليها سابقاً. وفي إحدى الأمسيات أحضرت فان نوردن، وكان سيتيح لي فرصة ربح مبلغ مقابل توفير المتعة له في الطابق العلوي. زجاجة شمبانيا ونياقة مجانية. ولم ينلني شيء من الصفقة. والحقيقة هي أنني اضطررت إلى أن أكتب القصة نيابة عنه لأنه لم يكن يعرف كيف يبدأ الموضوع دون ذكر نوع المكان الذي حدثت فيه. وتمر الأمور على هذه الوتيرة. وكنت أنا أناك على أعلى مستوى.

أما أسوأ عمل على الإطلاق فكان دراسة تكفلت بكتابتها لعالم نفسي اصم وأبكم. وهي رسالة في موضوع العناية بالأطفال المعاقين. وامتلاً رأسي بالعاهات والمشايبك ومناضد العمل ونظريات الهواء الطلق، واستغرق هذا العمل مدة متقطعة مجموعها ستة أسابيع، ومن ثم، مما زاد الطين بلة، كان يجب أن أراجع ذلك الشيء اللعين. كانت مكتوبة بالفرنسية، بتلك الفرنسية التي لم أر أو أسمع مثيلاً لها في حياتي. لكنها وفرت لي يوماً إفطاراً جيداً، إفطاراً أمريكياً، مع عصير برتقال، وطحين الشوفان، والكرéma، وقهوة، وأحياناً لحم خنزير وبيض على سبيل التغيير. كانت الفترة الوحيدة من أيامي في باريس التي انغمست أثناءها بتناول إفطار محترم، والفضل للأطفال المعاقين في روكا واي بيتش، والحى الشرقي وجميع الخلجان الصغيرة والمنافذ البحرية التي تجمد هذه النقاط المترعة بالألم.

و ذات يوم قابلت مصوراً، كان يجمع تشكيلة من الصور من الملاهي القذرة الباريسية لبعض المنحطين في ميونيخ. أراد أن يعرف إن كنت أرغب أن يصورني بدون سروال داخلي، وبأوضاع أخرى. وفكرت بأولئك الأقرام الصغار الهزلين الذين يبدون كخدم الفنادق وصبية البريد الذي نراهم أحياناً على البطاقات البريدية الإباحية التي تعرض في واجهات المكاتب الصغيرة، بالأشباح الغامضة التي تسكن شارع دولالون وزوايا أخرى من المدينة التي

تفوح منها الروائح الكريهة. لم تعجبني كثيراً فكرة عرض تضاريسي الطبيعية برفقة تلك النحبة. ولكن بما أنهم أكدوا لي أن الصور هي من أجل مجموعة خاصة محاطة بسرية تامة، وبما أنها سترسل إلى ميونيخ، وافقت. فحين لا تكون في مسقط رأسك يمكنك أن تسمح لنفسك بقليل من الحرية، وخاصة من أجل دافع وجيه مثل كسب قوت يومك. وأولاً، لم أكن مشيراً للتقزز كثيراً، حين أفكر بالأمر، حتى وأنا في نيويورك. لقد مرت علي ليال كنت أغرق خلالها في اليأس هناك، إلى درجة أنني كنت أخرج إلى حيناً نفسه وأستجدي.

لم نكن نذهب إلى أماكن الآثار المعروفة لدى السياح، بل إلى المربع الصغيرة الحفيرة حيث الجو العام أكثر ملائمة، إلى حيث يمكننا أن نلعب لعبة ورق بعد الظهر قبل التوجه إلى العمل. كان ذاك المصور رفيقاً جيداً، ويعرف المدينة كلها وخاصة الأسوار، وكثيراً ما حدثني عن غوته، وأيام هومبشتاوفن، وعن مذبحة اليهود أثناء تفشي الطاعون الأسود. مواضيع ممتعة ودائماً تتعلق بطريقة غامضة بأشياء كان يقوم بها. ولديه أفكار تصلح سيناريوهات أيضاً، أفكار مذهلة، ولكن لا أحد كانت لديه الشجاعة لتنفيذها. كان منظر حصان مشطور ومفتوح كباب حانة يمكن أن يلهمه بالحديث عن دانتى أو ليوناردو دافينتشى أو رامبرانت، ومن المسلخ في الفيليت قد يقفز إلى سيارة تاكسي ويدفعني إلى متحف التروكاديرو لكي يلفت انتباهي إلى جمجمة أو مومياء كانت قد سحرت. وقمنا بمسح المناطق الإدارية الخامسة والثالثة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين كلها. وكانت أماكن استراحتنا المفضلة عبارة عن بقاع صغيرة كئيبة مثل الساحة الوطنية وساحة أشجار الحور، وساحة سور الخندق، وساحة بول فرلين. وأغلب هذه الأماكن كان مألوفاً لدي مسبقاً، أما الآن فبتأراها جميعاً بشكل مختلف على ضوء النكهة النادرة الحديثة. فإذا تصادف ومررت في هذه الأيام من شارع قصر النبلاء، مثلاً، وشممت عبق النتانة القوي المنبعث من أسرة المستشفى التي تكتنف جنبات الدائرة الثالثة عشرة، لانتفتحت بلا شك فتحتاً أنفي بهجة، لأن ذلك سيكون عبير رحلاتنا الخيالية خلال مشرحة أوروبا التي أوجدها الطاعون الأسود، ممزوجاً مع عبق البول الجاف والقورمالدهايد.

من خلاله تعرّفتُ على شخص ذي تفكير روحاني اسمه كروغر، وكان نحّاتاً ورساماً. وأولعت به لسبب أو لآخر، فقد استحال علي الإفلات منه بعدما اكتشف أنني راغب في الاستماع إلى أفكاره "السرية". ففي هذا العالم أناس يبدو أن لكلمة "سري" فعل دم الآلهة المقدس عليهم، ككلمة "راسخ" بالنسبة للهر بير كورن في رواية "الجبل السحري". كان كروغر أحد أولئك القديسين الذين أصابهم خلل، فهو مازوشي، نموذج شرطي قانونه الشك والاستقامة والضمير الحي، في يوم عطلة يضرب رجلاً ويجعله يتلع أسنانه دون أن يهتز له طرف. كان يعتقد أنني من النضج بحيث أستحق أن أنتقل إلى مستوى آخر، "مستوى أعلى"، كما كان يقول. وكنت مستعداً للانتقال إلى أي مستوى يقرره، شريطة أن لا يضطرني إلى الإقلال من الأكل والشرب. وقد هرس رأسي بحديثه عن "الروح الخيطية" و"الجسد السبي" و"الاستئصال" و"الأوبانيشاد، وبلوتونيوس، وكرشنا مورتى" و"كساء الروح القديري" و"الوعي النيرفاني"، وكل ذاك الهراء الذي يهب من الشرق كاجتياح الوباء. أحياناً كان يدخل في غيبوبة ويتكلم عن تحسداته السابقة، أو هكذا كان يتخيلها، على الأقل. أو يسرد أحلامه التي، حسبما رأيت، كانت تافهة تماماً ومبتذلة، ولا تكاد تستحق ولا حتى التفاتة واحدة من أحد أنصار فرويد، أما هو فرأى أنها تنطوي على عدد كبير من الأعاجيب السرية في أعماقها، وكان علي أن أعينه على فك مغاليقها، وكشف عن دخليته، كمعطف اهترأ زغبه.

وشيئاً فشيئاً كسبت ثقته، وشققت طريقي إلى قلبه. سيطرت عليه إلى درجة أنه بات يركض خلفي، في الشارع، ليسألني إن كان يستطيع أن يقرضني بضعة فرنكات. أراد أن يتحد معي ليعايش عملية الانتقال إلى المستوى الأعلى. وتصرفت كإجاصة تنضج على الشجرة. وكانت لي نكسات أحياناً فأعترف بحاجتي إلى مزيد من القوت الأرضي - إلى زيارة إلى السفينكس أو شارع سان أبولين حيث علمت أنه كان يذهب في لحظات ضعف حين تصبح متطلبات الجسد فائقة الإلحاح.

كرسام كان لا شيء، وكنحات كان أقل من لا شيء. كان رجل بيت

ناجحاً، وأنا أشهد بذلك، واقتصادياً حتى أحمسه. لا شيء يهدر، ولا حتى الورقة التي يلف بها اللحم. في اماسي أيام الجمعة يفتح باب مرسمه لرفاقه من الفنانين، حيث يدور الكثير من الشراب والشطائر اللذيذة، فإذا حدث وتخلف عنهم أي شيء آتي في اليوم التالي وأللمه.

وخلف بال بوليه كان هناك مرسم آخر اعتدت أن اتردد عليه - هو مرسم مارك سويقت - وإذا لم نقل أنه عبقرى فهذا الإيرلندي الساخر حتماً من غربي الأطوار. كان يتخذ من إحدى اليهوديات موديلاً وكان يعاشرها قبلها بسنين عديدة، أما الآن فقد سئمها وأخذ يبحث عن ذريعة للتخلص منها. ولكن بما أنه استولى على المهر الذي أحضرته معها، فقد احتار كيف يتحرر منها دون أن يعطيها تعويضاً. وكان أسهل حل أن يثير عداوتها بحيث تختار الموت جوعاً على أن تتحمل وحشيته.

كانت مخلوقة رائعة، خليلته تلك، وأسوأ ما كان يمكن لأي مخلوق أن يقوله ضدها هو أنها فقدت شكلها الحسن، ثم أنها لم تعد قادرة على إعالته قط. وهي بدورها رسامة، وكان يقال، بين العارفين، أن موهبتها تفوق موهبته بمراحل. لكن بالرغم من كل محاولاته لينغص حياتها كانت عادلة، فلم تسمح لأي كان أن يقول إنه ليس رساماً عظيماً. وكانت تقول إن عبقريته بالذات هي سبب كونه إنساناً عفناً. ولا ترى أياً من رسومها معلقة على الجدران - كلها رسومه هو. رسوماتها كانت محشورة في المطبخ. وحدث مرة في حضورها أن ألح أحدهم على مشاهدة أعمالها هي. وكانت النتيجة مؤلة. قال سويقت "أترى هذا الشكل"، مشيراً إلى إحدى لوحاتها بقدمه الكبيرة، "الرجل الواقف عند مدخل الباب ينوي أن يخرج ليتبول. وهو لن يتمكن من العودة لأن رأسه موضوع بشكل خطأ.... والآن إليك هذه العارية هناك.... كانت جيدة تماماً إلى أن بدأت برسم الكس. لا أدري بماذا كانت تفكر، إلا أنها جعلته كثيراً إلى حد أن الفرشاة انزلقت فيه ولم تستطع إخراجها بعد ذلك".

ولكي يرينا كيف يجب أن ترسم العارية يسحب لوحة كبيرة كان قد انتهى من رسمها حديثاً. كانت صورتها هي، لوحة تمثل انتقاماً ألهمه بها

إحساس بالذنب. كان عمل رجل مجنون - شرير، حقير، خبيث، لامع. ويتتابك شعور بأنه تلصص عليها من ثقب الباب، بأنه فاجأها في لحظة شرود، وهي تعبت بأنفها أو هي تهرش مؤخرتها. كانت تجلس هناك على مقعدها في غرفة تفتقر إلى التهوية، غرفة هائلة الحجم ليس فيها نافذة واحدة، ولعلها كانت في السابق فلقة أمامية من غدة صنوبرية. وإلى الخلف منها امتد درج سلم متعرج يؤدي إلى الشرفة، غطي بسجادة ذات لون أخضر مصفر، لون أخضر لا ينبثق إلا من كون ذوى. أما أبرز ما فيها فردفاها، المنكفئان والمملوءان بالجرب، وقد بدت وكأنها رفعت مؤخرتها قليلاً عن الصوفاء، كأنما لتضبط بصوت عال. وقد رسم لها وجهها بشكل مثالي: بدا حلواً بريثاً، نقياً كقرص السعال. لكن صدرها كان متفخفاً بغاز الجحارير، وكأنها تسبح في بحر حيضي، كجنين متضخم له نظرة ملاك بلهاء حلوة كالشراب.

مع ذلك لم يكن يملك المرء إلا أن يعجب به. كان شغياً لا يعمل، رجلاً لا يحمل في رأسه إلا فكرة الرسم. وكان فوق ذلك مأكراً كوشق. وهو الذي أدخل في رأسي أن انمي صداقتي مع فيلمور، وهو شاب يعمل في السلك الدبلوماسي اهتدى إلى الفريق الصغير المحيط بكروغر وسويقت. قال: "اطلب منه أن يساعدك، إنه لا يدري ماذا يفعل بنقوده".

عندما ينفق المرء ماله على نفسه، عندما يقضي وقتاً طيباً بفضل نقوده، يقول الناس "إنه لا يدري ماذا يفعل بنقوده". أما أنا فلا أرى طريقة أفضل لإنفاق النقود. ولا يمكن أن يقال عن أناس كهؤلاء إنهم كرماء أو تتنون. هم يطرحون نقودهم للتداول - هذا هو المبدأ الأساسي. وكان فيلمور يعلم أن أيامه في فرنسا قد أضحت معدودة، وصمم على الاستمتاع بها. ولما كان الإنسان يستمتع دائماً بشكل أفضل بصحبة صديق فمن الطبيعي أن يلتفت إلى صديق مثلي، لديه الكثير من الوقت ليتصرف به، ليوفر له الصحبة التي يحتاجها. وقال الناس عنه إنه ممل.

وأعتقد أن هذا صحيح، ولكن عندما تكون بأمر الحاجة إلى الطعام فإن بإمكانك أن تتحمل أشياء أسوأ من كونك ملولاً. وعلى كل حال، وعلى رغم أنه كان لا يكف عن الكلام، وغالباً ما كان كلامه يدور حول

نفسه أو عن المؤلفين المعجب بهم بخضوع - بعصافير أمتال أناطول فرائس وجوزيف كونراد - إلا أنه أضفى السرور على أمسياتي بطرق أخرى. كان يحب الرقص، والخمر الجيدة والنساء. وأمكنني أن أغفر له إعجابه ببايرون وفيكتور هوغو أيضاً، فلم يكن قد مضى على تخرجه من الجامعة إلا بضع سنين، وكان أمامه الكثير من الوقت ليشفى من مثل تلك الأذواق. أما ما أحبته فيه فهو حس المغامرة.

يمكنني أن أقول إن معرفتنا قد تطورت إلى الأفضل، أضحت أكثر حميمية، وذلك بعد حادثة وقعت أثناء إقامتي القصيرة مع كروغر. حدث ذلك بعد وصول كوليتز، وهو بحار تعرف عليه فيلمور في طريق قدومه من أميركا. كنا نحن الثلاثة نتقابل بانتظام على مصطبة مقهى الروتوند قبل تناول طعام العشاء. وكان شراينا الدائم هو البرنو، الذي كان يجعل كوليتز في مزاج مرح، ويشكل قاعدة لبدء شرب النبيذ والبيرة، و"الروائع" إلخ، التي يجب ازديادها جميعاً بعد ذلك. وطوال فترة مكوث كوليتز في باريس عشت كدوق، لا أكل إلا الدجاج، ولا أشرب إلا الخمر الجيدة، بالإضافة إلى الفاكهة التي لم أكن حتى سمعت بها من قبل. ولو استمر ذلك النظام شهراً آخر لكان لزاماً علي أن اذهب إلى بادن - بادن أو فيشي أو إيه - ليه بين. في تلك الأثناء كان كروغر يبيتني في مرسه. وصرت مصدر إزعاج لأنني لم أكن أظهر قبل الساعة الثالثة صباحاً، وكان من الصعب انتزاعي من السرير قبل الظهيرة. ولم يتفوه كروغر صراحة بكلمة تأنيب لكن مظهره كان يدل بما يكفي من الوضوح إلى أن أتحوّل إلى متبطل متطفل.

في أحد الأيام وقعت مريضاً. فقد أخذ النظام الغذائي الغني يترك أثره علي. لا أدري ماذا ألم بي حتى عجزت عن مغادرة الفراش. فقدت تماماً قدرتي على الاحتمال ومعها ما كنت أملك من شجاعة، واضطر كروغر إلى الاعتناء بي، وإعداد الحساء لي، وما إلى ذلك. كانت فترة تجربة بالنسبة له، وعلى الأخص لأنه كان علي وشك أن يقيم معرضاً هاماً في مرسه، وهو عرض خاص لبعض الخبراء من الأغنياء الذين كان ينتظر منهم بعض المساعدة. كان السرير النقال الذي أستلقي عليه موجوداً في المرسم، ولا

وجود لغرفة أخرى أنتقل إليها.

وفي صباح يوم إقامة المعرض استيقظ كروغر وهو حائق تماماً. ولو كان باستطاعتي أن أقف على قدمي أعرف أنه كان سيضربني ويرميني إلى الخارج. إلا أنني كنت مسجى، وضعيفا كقطعة. وحاول أن يستدرجني لأغادر الفراش، مبيتاً أن يوصد علي باب المطبخ عند وصول الزوار. وأدركت أنني أسبب له فوضى عظيمة. إذ لا يمكن للناس أن ينظروا إلى اللوحات والتماثيل بحماس حين يكون هناك رجل يجتصر أمام عيونهم. لا شك في أن كروغر كان يعتقد وبحق أنني موشك على الموت، وكذا أنا. ولهذا، وعلى رغم شعوري بالذنب، لم أستطع حشد أي قدر من الحماس حين اقترح استدعاء الإسعاف لنقلي إلى المستشفى الأميركي. أردت أن أموت حيث كنت، براحة، في قلب المرسم، لم يعجبني حتي على مغادرة المكان لأموت في آخر أفضل. لم يكن يهمني أين أموت، حقاً، ما دمت لن أضطر إلى النهوض.

حين سمع كروغر كلامي هذا أصيب بالرعب. فأسوأ من وجود رجل مريض عند وصول الزوار كان وجود رجل ميت. مما كان جديراً بتدمير آماله تدميراً كاملاً، على ضآلتها. وهو طبعاً لم يصرح بهذا لكني لاحظت من توتره أن هذا ما يقلقه، ودفعني إلى أن أقف موقف المعاند. فرفضت قبول الاتصال بالمستشفى، ورفضت قبول استدعاء الطبيب. رفضت كل شيء.

أخيراً تصاعد غضبه مني، حتى أنه، على رغم احتجاجاتي، بدأ يلبسني ثيائي، وكنت أضعف من أن أقاوم. وأقصى ما استطعت عمله، كان أن أغغم بوهن - "أنت يا ابن الحرام"، ومع أن الجو في الخارج كان دافئاً كنت أرتجف ككلب. وبعد أن وضع علي كل ثيائي رمى بمعطف علي كتفي وانسل خارجاً ليجري اتصالاً هاتفياً، ورحلت أردد "لا أريد أن أذهب! لا أريد أن أذهب!" لكنه وببساطة صفع الباب في وجهي. وبعد بضع دقائق ودون أن يخاطبني بكلمة واحدة، شغل نفسه في المرسم باستعدادات الدقيقة الأخيرة. وبعد قليل سمع قرع جرس الباب. كان فيلمور. قال إن كوليتز ينتظر في الأسفل.

تعارن الإثنان، فيلمور وكروغر علي حملي وأوقفاني علي قدمي.

وجراني إلى المصعد، وهذا غضب كروغر وقال "إن هذا لصالحك. ثم إن وجودك سيضر بي. أنت تعلم كم ناضلت طوال تلك السنين. يجب أن تفكر بي أيضاً". وأوشكت الدموع أن تطفر من عينيه.

على الرغم من إحساسي بيؤسي وقلة حيلتي فإن كلماته كادت ترسم الابتسامة على شفتي. كان أكبر مني سناً بكثير، وعلى رغم أنه كان رساما عفناً، فنناً عفناً على طول الخط، فقد كان يستحق فترة استراحة - ولو مرة في حياته.

غمغمتُ: "إني لا أتحامل عليك وأفهم وضعك" وأجاب "أنت تعلم أنني أحيتك دائماً، وحين تتحسن حالك يمكنك أن تعود ويمكنك أن تمكث قدر ما تشاء".

"طبعاً أعلم هذا..... سوف أكف عن النقيق"، ونجحت في الخروج. حين رأيت كوليتز في الأسفل استعدت شيئاً من معنوياتي. فإذا كان هناك من يتمتع بحيوية فائقة، والثروة، والمرح، والشهامة، فهو. لقد رفعت يديه كأني لعبة ووضعتني على مقعد السيارة - وبرق أيضاً، وقد قدرت له هذا بعد طريقة كروغر الخشنة في المعاملة.

حين ذهبنا إلى الفندق - الفندق الذي كان ينزل فيه كوليتز - دارت مناقشة قصيرة مع المالك، كنت أثناءها ممداً في الخارج على صوفا في غرفة المكتب. واستطعت سماع كوليتز وهو يقول للمالك إن مرضه ليس خطيراً إنها مجرد وعكة بسيطة..... سيكون على ما يرام خلال أيام قليلة. ورأيت يده يضع في يد الرجل ورقة نقدية متفضضة ومن ثم استدار بسرعة ورشاقة وعاد إلى حيث كنت وقال "هيا، انهض لا تجعله يظن أنك تحتضر" ثم شدني لأقف على قدمي وأحاطني بذراع واحدة، ورافقني إلى المصعد.

"لا تجعله يظن أنك تحتضر". كان واضحاً أن من قلة الذوق أن يموت المرء بين أيدي الناس. على المرء أن يموت بين أحضان عائلته سراً، إذا صح التعبير. كانت كلماته مشجعة. وبدأت أرى الأمر على أنه مزحة سخيفة. وفي الطابق العلوي، وبعد أن أوصلوا الباب، خلعوا ملابسني ودسوني بين الملاءات، وقال لي كوليتز: "لا يمكن أن تموت الآن، اللعنة سوف توقعني في

ورطة... ثم، ماذا ألم بك بحق الحميم؟ ألا تحمل العيش الرغيد؟ إرفع رأسك
عالياً ستعود إلى تناول الشريحة من البيت بعد يوم أو يومين. وتظن أنك مريض!
يا إلهي، انتظر حتى تصاب بالسفلس! ذاك مرض سيجعلك تقلق حقاً....". وبدأ
يحكي، بطريقة فكهة، رحلته إلى يانغتس كيانغ، وكيف أخذ شعره. يسقط
وأسنانه تتعفن وتهترىء، وفي حالة الضعف التي كنت فيها كان لقصته التي يلقها
تأثير مهديء غير عادي. أبعدتني عن نفسي تماماً. شجاع ذاك الفنى. ربما كان
يضيف ويغالي فيها قليلاً، لأجلي، لكنني لم أكن أنصت في تلك الأثناء بحس
نقدي. كنت مؤلفاً فقط من آذان وعيون. رايت مصب النهر الأصفر القذر،
والأنوار تشمخ فوق هانكو، وبحراً من الوجوه الصفرة، وزوارق السامبان تندفع
خلال المضائق والمنحدرات النهرية تلهب بنفث التين الكبيرتي. ويا لها من قصة!
الحمالون البؤساء الذين يحتشون حول القارب كل يوم، ليلتقطوا النفائات
المقلوبة إلى اليم، وتوم سلا ترى ينهض وهو على فراش الموت ليلقي نظرة أخيرة
على أضواء هانكو، وذاك الأوراسي الجميل الذي يستلقي في غرفة مظلمة وقد
ملأ شرايينه بالسّم، ورتابة الجاككات الزرق والوجوه الصفرة، وملايين ملايين منهم
غائرون من شدة الجوع، مهترئون من المرض، يقتاتون على الجردان والكلاب
والجنور، يعضفون العشب عن الأرض ويلتهمون أطفالهم. كان من الصعب
تصور أن جسد هذا الرجل كان يوماً كتلة من القروح، وأنه قد نبذ كمجنوم،
كان صوته هادئاً جداً ورقيقاً، وكأن روحه قد تطهرت جراء كل الآلام التي
تحملها. وبينما هو يمد يده ليتناول مشروبه أخذت تعابير وجهه ترق شيئاً فشيئاً
بل إن كلماته بدت وكأنها تداعبي. وطوال الوقت كانت الصين تخيم علينا
كالقدر المحتوم نفسه. صين تتعفن وتهترىء، تهدم حتى تصبح تراباً كديناصور
هائل، لكنها تحتفظ حتى النهاية ببريق، بسحر، بغموض، بقسوة أساطيرها
الجليلة.

لم أعد أستطيع متابعة قصته، فقد ارتد عقلي إلى الرابع من تموز حين
ابتعت أول مجموعة مفرقات ومعها قطعاً طويلة من خشب الصوفان السريعة
الانكسار، الخشب الذي تنفخ عليه لتحصل على لهب أحمر جيد، الخشب
الذي تعلق رائحته بأصابعك أياماً طويلة وتجعلك تحلم بأشياء غريبة. في الرابع
من تموز تشعشع الشوارع بالورق الأحمر اللامع المزين بأشكال سوداء وذهبية

والفرقعات الذهبية التي لها أغرب الالتواءات، لفائف ولفائف كثيرة في كل مكان، كلها معلقة معا من خيوط إمعائها الرفيعة، المسطحة الصغيرة، ولها لون العقول الإنسانية. وطوال اليوم تشم رائحة البارود وخشب الصوفان وغبار الذهب تتقل من ورق اللف الأحمر اللامع لتعلق بأصابعك. والصين لا تخطر على ذهن المرء أبداً، لكنها متواجدة دائماً على رؤوس أصابعك وتخرش أنفك، وبعد ذلك بوقت طويل، بعد أن تنسى رائحة الفرقعات الأصلية، تستيقظ ذات يوم وورقة ذهب تكاد تخنقك وقطع صغيرة من خشب الصوفان تعيد عبقها الحريف ويمنحك ورق اللف الأحمر اللامع شعوراً بالحنين إلى أناس وتربة لم تعرفهما دهرك، لكنه موجود في دمك، موجود في دمك بشكل غامض، كالإحساس بالزمان أو بالفراغ، هو قيمة هائلة متواصلة تعود إليها أكثر فأكثر كلما تقدمت بك العمر وتحاول أن تقبض عليها بعقلك، ولكن دون فائدة، لأنه في كل ما هو صيني ثمة حكمة وغموض وتعجز عن الإمساك به بيديك أو بعقلك، بل عليك أن تتركه يزول، تدعه يلتصق بأصابعك، تدعه يرشح ببطء إلى شرايينك.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، وإبان تسلمي دعوة ملحة من كوليتز الذي كان قد عاد إلى الهافر، استقلنا أنا وفيلمور القطار في صباح أحد الأيام، استعداداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أخرج فيها من باريس منذ وصولي إليها. كنا في مزاج رائع، نحتسي الآنجو طول الطريق إلى الشاطئ، وكان كوليتز قد اعطانا عنوان الحانة التي ستقابل فيها، وهي مكان يدعى حانة جيمي، من المفروض أن يعرفها كل من يقطن الهافر.

استقلنا عربة مكشوفة من المحطة، وانطلقنا بخطوة رشيقة لنلحق موعدنا، وكان لا يزال معنا نصف زجاجة من الآنجو لنسفحها في طريقنا. بدا الهافر بهيجاً، مشمساً والهواء منعشاً، ممزوجاً بتلك النكهة الملحية الحادة القوية التي كادت تجعلني أحن إلى نيويورك. كانت هناك سوار وهياكل سفن تظهر بشكل مفاجيء في كل مكان، وأطراف من ساحات رحبة، متفرقة، براقعة، ومقاهٍ عالية سقوفها كتلك التي يراها المرء في الضواحي. وحصلنا في الحال على انطباع رائع، كانت المدينة تستقبلنا بذراعين مفتوحين.

قبل أن نصل إلى الحانة رأينا كولينز يقترب بخطى رشيقة قاصداً المحطة، بلا شك، ومتأخراً قليلاً كعادته. وسرعان ما اقترح فيلمور تناول البرنو، وتبادلنا جميعاً الربت على الأكتاف ونحن نضحك ونبصق، وقد سكرنا لتونا من أشعة الشمس وهواء البحر المملح. في أول الأمر بدا كولينز متردداً بشأن البرنو. ثم أخبرنا أنه أصيب إصابة خفيفة بالسيلان. لا شيء يدعو إلى القلق - هو من "الإجهاد" على الأغلب. وأرانا زجاجة كان يضعها في جيبه - وتدعى "venetienne" إن لم تخني ذاكرتي. وهي علاج البحارة ضد السيلان.

توقفنا في أحد المطاعم لتناول وجبة خفيفة قبل أن نلجأ إلى حانة جيمي. كانت حانة فسيحة، في سقفها عوارص مائلة وموائد تنوء بما عليها من طعام. وشربنا بإفراط من الخمر التي أوصى كولينز بطلبها. ثم جلسنا على المصطبة وتناولنا قهوة ومشروبات معطرة. كان كولينز يتحدث عن بارون دو شارلو، وهو رجل يعيش كما يهوى تماماً، كما قال. ويقطن الهافر منذ عام تقريباً ويعيش من النقود التي جمعها خلال أيام التهريب. كانت أذواقه بسيطة، طعام، شراب، نساء، كتب. وحمام خاصاً وهذا ما يصر عليه.

حين وصلنا حانة جيمي كنا لا نزال نتحدث عن البارون دو شارلو. كان المساء أخذ يقترب وقد بدأ المكان يمتلئ. كان جيمي موجوداً هناك، بوجهه الأحمر كالثوندر، وإلى جانبه جلست زوجته، وهي امرأة فرنسية رائعة وممتلئة لها عيناان براقتان. واحتفى الجميع بنا. وضعت أمانا كؤوس البرنو من حديد، وكان الحاكي يزعم، والناس يغمغمون بالإنكليزية والفرنسية والهولندية والنرويجية والإسبانية، وجيمي وزوجته، وقد بدا كل منهما في منتهى الانتعاش والنشاط، يتبادلان الصفعات العابثة والقبل بود ويرفعان كأسيهما ويقرعانهما - ومع كل هذا الهرج المرج تتناك رغبة في خلع ملابسك وأداء رقصة الحرب. والنساء يتجمهرن عند البار كحشد من الذباب. وإذا كنا أصدقاء كولينز فهذا يعني أننا أغنياء، ولا يهم إن أتينا بملابسنا القديمة، فكل الإنكليز يلبسون هكذا. ولم أكن أحمل سوا واحدا في جيب، وهذا لا يهم، بالطبع، ما دمت صيف شرف. ومع ذلك شعرت بشيء من الحرج بوجود عاهرتين رائعتي الجمال متعلقان بذراعي، تنتظران أن أطلب

لهما شيئاً. وقررت أن أقبض على الثور من قرنيه. لم يعد بالإمكان التمييز بين المشارب التي تقدم على حساب المحل وتلك التي عليك أن تدفع ثمنها. وكان علي أن أتصرف كجنتلمان، حتى وإن لم يكن في جيبي سو واحد.

كانت إيفيت - زوحة جيمي - غاية في الكرم والمودة معنا. كانت تعد وليمة صغيرة على شرفنا، وسيستغرق تحضيرها بعض الوقت. وعلينا أن لا نسرف في الشراب - فقد أردتنا أن نستمتع بتناول الطعام. الحاكي يزأر كالوحش وقد نهض فيلمور ليراقص خلّاسية جميلة ترتدي ثوبا مخملياً ضيقاً يكشف عن جميع مفاتها. وانزلق كوليتز إلى جانبي وهمس لي بضع كلمات عن الفتاة الجالسة إلى جوارِي، قال "ستعزمها المدام إلى طاولة العشاء، إن كنت ترغب في الحصول عليها". كانت عاهرة سابقة تملك منزلاً جميلاً في ضواحي المدينة، وهي الآن خليعة قبطان بحري، وهو غائب وليس ثمة ما يخشى منه، وأضاف "إذا أعجبتها ستدعوك لتبقى معها".

كان ذلك كافياً بالنسبة لي. وفي الحال استدرت إلى مارسيل وبدأت أمطرها بالمديح. ووقفنا عند زاوية البار، نتظاهر بالرقص، ونحتك ببعضنا بشكل مسعور. وأرسل لي جيمي غمزة حصان كبيرة وهز رأسه مستحسناً. كانت عاهرة شبيقة، هذه المارسيل، ولطيفة في الوقت نفسه. وما لبثت أن تخلصت من الفتاة الأخرى، كما لاحظت، وبعدها جلسنا ودار حديث طويل وودي قطعه ويا لسوء الحظ إعلان أن العشاء بات جاهزاً.

كنا عشرين شخصاً على المائدة، وجلست مع مارسيل في طرف واحد مقابل جيمي وزوجته. وبدأت الوليمة بفرقة فلين الشّمانيّا وسرعان ما تبعتها خطابات سكرى، وأثناءها كنت ومارسيل نعبث معاً من تحت الطاولة، وحين جاء دوري لأقف وألقي بعض كلمات كان علي أن أضع فوطة أمامي. وكان موقفاً مؤلماً ومثيراً في وقت واحد. واضطرت إلى احتصار خطابي كثيراً لأن مارسيل كانت تدغدغي طوال الوقت من ملتقى فخذي.

استمرت وجبة العشاء حتى قرابة منتصف الليل. وكنت أصبر إلى قضاء الليل مع مارسيل في ذاك المنزل الجميل القائم فوق الجرف. لكن الحلم لم يتحقق، فقد قرر كوليتز أن يرينا المنطقة ولم أتمكن من الرفض هكذا ببساطة.

قال لي "لا تقلق بشأنها، سوف تشبع من مضاجعتها قبل أن تغادر المكان. قل لها أن تنتظرك هنا حتى نعود".

أضحت مارسيل نكدة بعض الشيء لسماع هذا الكلام، ولكن عندما أبلغناها أنه لا زال أمامنا عدة أيام ابتهججت. ولدى خروجنا استوقفنا فيلمور ممسكاً بنا من ذراعينا بمنتهى الجدية وقال أن لديه اعترافاً صغيراً يدلي به إلينا. وبدأ شاحباً وقلقاً.

قال كولينز بمرح "حسن، ماذا لديك؟ انطق!" ولم يتمكن فيلمور من النطق هكذا دفعة واحدة. فهمهم وتنحنح، وأخيراً اندفع قائلاً "الواقع، حين ذهبت قبل قليل إلى المرحاض لاحظت شيئاً....."

قال كولينز بلهجة المنتصر "إذن فقد أصبت به!"، وهو يلوح بقنينة الـ "venetienne" ثم أضاف بحقد "لا تذهب إلى أي طبيب فسيمتصرون دمك، أولاد الحرام الجشعون. ولا تتوقف عن الشرب أيضاً..... فكل هذا هراء. خذ من هذا مرتين في اليوم.... رجّها جيداً قبل الاستعمال. واعلم أن لا شيء أسوأ من القلق، أتفهم؟ هيا بنا الآن، سأعطيك حقنة وبعض البرمنغنات عند عودتنا".

وهكذا انطلقنا نخوض في الليل، متجهين صوب الشاطئ حيث كانت تنبعث الألحان الموسيقية والصيحات وتجديفات السكاري، ويتحدث كولينز طوال الوقت بهدوء عن هذا الشيء وذاك، عن فتى وقع في غرامه، وعن الوقت الشيطاني الذي استغرقه ليخرج من الورطة حين علم أبواه الأمر. ومن ثم عاد ثانية إلى الحديث عن بارون دو شارلو ومنه انتقل إلى كورتز الذي صعد أعالي النهر وضاع. وهذا موضوعه المفضل. كنت أحب طريقة كولينز في التحرك أمام هذه الخلفية الأدبية بشكل مستمر، وكأنه مليونير لا يغادر سيارته الرولز رويس مطلقاً. بالنسبة له لم يكن هناك وجود لعالم وسيط بين الواقع والفكر. وحين دخلنا الماخور في الكويه فولتير، وبعد أن ارتقى على الديوان ورن الجرس طالباً حضور الفتيات والمشروبات، كان لا يزال يسرد قصته عن النهر وكورتز، ولم تتوقف تهيأاته إلا حين تقلبت الفتيات معه على السرير وحشت فمه بالقبل. ثم، وكأنه أدرك فجأة أين هو، التفت إلى

الأم العجوز التي تدير المنزل وبدأ يحدثها بكلام منمق عن صديقيه اللذين جاءا من باريس خصيصاً لزيارة المربع. وكان في الغرفة نحو نصف دزينة من الفتيات، جميعهن عاريات ومتعة للنظر، يجب أن أعترف بهذا. كن يقفزون كالعصافير في حين حاولنا نحن الثلاثة أن ندبر مصاجعة الجدة. وأخيراً استأذنت هذه الأخيرة وطلبت ما أن نتصرف وكأننا في بيوتنا وكانت قد استحوذت على اهتمامي تماماً، فقد كانت غاية في الظرف واللفظ، غاية في الرقة والعطف، وشوأكابرا ولو كانت أصغر سناً بقليل لقدمت لها عروضي، وطبعاً ما كان ليخطر ببالك أننا كنا في ما يسمى "بؤرة رذيلة".

مهما يكن، مكثنا هناك ساعة أو نحوها، ولما كنت الوحيد الذي استمتع بامتيازات المحل، بقي كل من كوليتز وفيلمور في الطابق السفلي يثرثران مع الفتيات. ولدى عودتي رأيتهما متمدنان معاً في السرير، والفتيات يشكلن نصف دائرة حول السرير وهن يغنين بأجمل الأصوات الجماعية الملائكية أغنية "ورود في بيكاردي". وعندما غادرنا المنزل شعرنا بانقباض عاطفي - وخاصة فيلمور. وفي الحال قادنا كوليتز إلى مربع ضاح مزدحم بالبحارة السكران الذين في إجازة على الشاطئ، وحلستنا هناك بعض الوقت نستمتع بهرج الشاذين جنسياً الذي كان في أوجه. وفي طريق العودة كان علينا أن نمر من المنطقة الحمراء حيث المزيد من الجذبات اللواتي يلفعن أعناقهن بالشالات وهن حالسات على عتبات الأبواب يلوحن بالمراوح طلباً للبرودة، ويومثن يدمائة للمارة. وكلهن من الأرواح المبهجة للنظر والرقيقة، وكأنهن يحرسن داراً للحضانة. وكانت جماعات صغيرة من البحارة تشق طريقها متهادية وتندفع مع كثير من الضجيج لتلج المربع المبهجة. الجنس في كل مكان: يحتاج كل شيء، كمد محافي يقوض الدعائم من تحت المدينة. وقابعنا عبثنا عند حافة حوض السفن حيث يختلط كل شيء ويتشابك، ويخيل إليك أن تلك السفن، ومراكب الصيد، واليخوت والمراكب الشراعية والبوارج قد حرفت إلى الشاطئ بفعل عاصفة عاتية.

في غضون ثمان وأربعين ساعة حدثت أمور كثيرة حتى بدا وكأننا كنا موجودين في الهافر منذ شهر وأكثر. كنا نعد للسفر في صباح الإثنين الباكر، لأنه كان على فيلمور أن يلتحق بعمله. وقضينا يوم الأحد نشرب ونصخب،

رغم أنف السيلان. بعد ظهيرة ذاك اليوم أسر كولينز إلينا بأنه يفكر في العودة إلى مزرعته الكبيرة في أيداهو، فلم يكن قد زار بيته منذ ثماني سنوات، وأراد أن يلقي نظرة على الجبال ثانية قبل أن يقوم برحلة أخرى شرقاً.

في ذلك الحين كنا جالسين في ماخور، بانتظار مجيء إحدى الفتيات، وكان قد وعدنا أن يهرب لها بعض الكوكايين. وأخبرنا أنه سئم الهافر. فهناك الكثير من الصقور يتعلقن بعنقه. ثم إن زوجة جيمي عشقته وقد أخذت تنغص عليه بنوبات غيرتها. وفي كل ليلة تقريباً كان يقع فصل. وقد التزمت بسلوكها المذهب منذ وصولنا، إلا أن ذلك لن يدوم طويلاً، كما وعدنا. كانت تغير بصورة خاصة من فتاة روسية تأتي إلى الحانة أحياناً عندما تسكر. وهي مثيرة مشاكل. وفوق كل ذلك كان واقعاً بصورة يائسة في حب ذاك الفتى الذي حكى لنا عنه في أول يوم. قال "يمكن لفتى أن يحطم قلبك، يا لله ما أجمله! وما أقساه!" وكان علينا أن نضحك على هذا. فقد بدا منافياً للطبيعة وللعقل. لكن كولينز كان جاداً.

عند نحو منتصف ليلة الأحد انسحبت مع فيلمور، وكانوا قد خصصوا لنا غرفة في الطابق العلوي من الحانة. كانت شديدة الحرارة والرطوبة كالبحيم، ولا تدخلها نسمة هواء. وكانت تتناهى إلينا من خلال النوافذ صيحاتهم آتية من الطابق السفلي، والحاكي يدور طول الوقت. وفجأة هبت عاصفة - قصف رعد عادي. وبين قصف الرعود وهبات الريح المصاحبة للمطر التي تصفع زجاج النوافذ تناهى إلى آذاننا صوت عاصفة من نوع آخر تحتدم أسفلاً في الحانة. بلدت قرية جداً، ومخيفة، وتنذر بالشر المستطير، وكانت النسوة تزعم من أعماقها، وزجاجات تهشم، وطاولات تقلب، وسمع ذاك الصوت المكتوم المألوف المقرز للنفس الذي يصدر عن الجسم الإنساني حين يرتطم بالأرض.

نحو الساعة السادسة أطل كولينز برأسه من الباب. كان وجهه مضطرباً كله وإحدى ذراعيه معلقة بحمالة وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه. قال "كما قلت تماماً، لقد فقدت أعصابها في الليلة الفائتة. أظنك سمعت الجلبة؟".

ارتدينا ملابسنا على عجل وهبطنا إلى أسفل لتوديع جيمي. كان المكان مهشماً تماماً، لا توجد زجاجة واحدة في مكانها، ولا كرسي غير مكسور. والمرأة وواجهة المعروضات تحطمت شذراً. وكان جيمي يعد لنفسه شراب البيض.

في طريقنا إلى المحطة رحنا نركب خيوط القصة معاً. فقد أتت الفتاة الروسية بعد أن أوينا إلى أسرتنا وسرعان ما وجهت لها إيفيت إهانة، دون أن تنتظر توفر مبرر ما. وبدأت كل منهما تشد شعر الأخرى، ووسط هذه المعركة تقدم سويدي ضخيم وصفع الفتاة الروسية صفعة رنانة على فكها - ليعيدها إلى صوابها. واشتعلت النار. أراد كولينز أن يفهم بأي حق يتدخل هذا السكر الضخم في شجار خاص. وجاءه الجواب على شكل لكمة على فكه، لكمة جيدة أطاحت به إلى الطرف الآخر من الحانة. "تستاهل!" هكذا صرخت إيفيت، وانتهزت الفرصة وأطاحت بزجاجة إلى رأس الفتاة الروسية. وفي هذه اللحظة تفجرت الصاعقة. ومرت فترة من الصخب المنتظم، النسوة مهسترات ومشتاقات لتتهاز الفرصة لإطلاق العنان لأحقادهن الخاصة. لا شيء مماثل شجاراً في حانة ليس أسهل من غرز سكين في ظهر رجل أو ضربه بزجاجة حين يكون مستلقياً تحت طاولة. وألقى السويدي المسكين نفسه في عيش اللدبابير، كان الجميع يكرهونه، وخاصة رفاقه من البحارة. وودوا لو يرونه ميتاً. فأغلقوا الباب، ونحوا الطاولات جانباً وتركوا مساحة صغيرة أمام البار بحيث يتمكن إثنان منهم من إنهاء الأمر، وأنهياه! واضطروا إلى نقل الشيطان المسكين إلى المستشفى بعد أن انتهوا. وكان كولينز محظوظاً - خرج فقط برسغ ملوي وأصبعين مخلوعين، وأنف مدمى وعين سوداء. إنها مجرد نخلوش بسيطة، هكذا وصفها. ولكن لو أنه اشتبك مع ذاك السويدي لأجهز عليه. لكن الأمر لم ينته بعد. كما وعدنا.

ولم تكن تلك نهاية الشجار أيضاً. فبعد ذلك اضطرت إيفيت إلى التوجه إلى حانة أخرى لتشرب. لقد أهينت وقررت أن تضع حداً لكل شيء. وهكذا استأجرت سيارة تاكسي وأمرت السائق أن يوصلها إلى حافة الجرف المطل على البحر. لقد قررت أن تقتل نفسها، هذا ما ستفعله. غير أنها كانت شديدة السكر بحيث أنها حين انطرحت خارج التاكسي بدأت تبكي وقبل أن يتمكن من تهدئتها أخذت تحلع ثيابها. وأعادها السائق إلى البيت وهي

على هذه الحال، نصف عارية، ولما رأى جيمي حالها هذه غضب أشد الغضب وتناول مشحذ الموسيقى وأخذ يضربها به ضرباً مبرحاً، وأعجبها هذا، تلك العاهرة، وتوسلت إليه "إضربني أيضاً". وركعت على ركبتيها وتشبثت بساقيه بكلتا ذراعيها. لكن جيمي كان قد اكتفى، وقال لها "ما أنت إلا خنزيرة عجوز قذرة"، وسدد بجذائه رفسة إلى أحشائها أخرجت ريجها - وأصاب أيضاً عضوها الجنسي النافه أيضاً.

حان وقت الرحيل. بدت المدينة مختلفة في ضوء الصباح الباكر. وآخر ما تحدثنا فيه، ونحن واقفون ننتظر القطار ليقلنا، كان ايدهو. كنا نحن الثلاثة أميركيين. أتينا من مناطق مختلفة، ولكن كان بيننا قاسم مشترك - يمكن القول إننا كنا وحدة واحدة. وصار مزاجنا عاطفياً، وهذا ما يحدث للأمريكيين عند الفراق. كانت حماقتنا تزداد باضطراب ونحن نتحدث عن الأبقار والأغنام والمساحات الشاسعة المكشوفة حيث الرحال رجال وكل ذاك الهراء. ولو أن بدل القطار تهادى إلينا من بعيد قارب لقفزنا فوقه وقلنا وداعاً لكل شيء. ولكن قدر لكولينز أن لا يرى أميركا قط كما عرفت فيما بعد، وفيلمور.... الواقع لقد قدر لفيلمور أن ينال عقابه أيضاً، بطريقة لم يتوقعها أي منا. إن من الأفضل أن تبقى أميركا كما هي، دائماً في الخلفية، أشبه بصورة على بطاقة بريدية، تنظر إليها في لحظة ضعف. وهكذا، تتصور دائماً أنها كانت تنتظرك، لا تتغير، لا تفسد، مساحة شاسعة وطنية مكشوفة فيها أبقار ورجال رقيقو القلوب مستعدون للواط كل ما يقع عليه نظرهم، رجلاً أو امرأة أو بهيمة. أميركا غير موجودة، إنها اسم تطلقه على فكرة مجردة.....

باريس أشبه بعاهرة. من بعيد تبدو لك فاتنة، ولا تطيق صبراً لتضمها بين ذراعيك. وبعد خمس دقائق تشعر بالخواء، بالإشمئزاز من نفسك. تشعر أنك مخدوع.

عدت إلى باريس وفي جيبي بعض النقود - بضع مئات من الفرنكات - دسها كولينز في جيبي حالما استقلت القطار. وكانت كافية لدفع أجرة غرفة ومصروف طعام لما لا يقل عن أسبوع. مبلغ يفوق أي مبلغ وقع في يدي مرة واحدة طوال سنين عديدة. شعرت بالابتهاج، وكأنما حياة جديدة تفتح

أبوابها أمامي. ورغبت أيضاً في أن أصونها، فبحثت عن فندق رخيص فوق أحد الفران في شارع شاتو، لا يبعد كثيراً عن شارع فانف، وهو مكان كان أوجين قد دلي إليه ذات يوم. وعلى مبعده منه كان الجسر الذي يمتد فوق مونبرناس. وهو حي معروف.

وكان بإمكانني أن أستأجر غرفة مقابل مائة فرنك في الشهر، مع العلم أنها غرفة لا تتوفر فيها أي وسيلة من وسائل الراحة - ولا حتى نوافذ - وربما كنت أخذتها، فقط لأضمن مكاناً أهجع إليه لبعض الوقت، لولا أنني لكي أصل إلى غرفتي كنت سأضطر إلى المرور أولاً بغرفة رجل ضريّر. لقد كان لمجرد فكرة المرور بالقرب من سريره كل مساء أثر مقبض علي. لذا قررت أن أبحث في مكان آخر. فانتقلت إلى شارع سل الواقع وراء المقبرة مباشرة، فرأيت ما يشبه مصيدة فئران لها شرفات تطل على الفناء من كل الجهات. وقد علّقت أيضاً أقفاص عصافير في الشرفة، وعلى طول الطابق السفلي. لعله كان مشهداً ساراً، بيد أنه بالنسبة لي بدا كجناح عام في مستشفى. حتى المالك لم يكن يبدو أنه يسيطر على كامل قواه العقلية. وقررت أن أنتظر حتى المساء، لألقي نظرة شاملة إلى الجوار، ومن ثم أختار مسكناً جميلاً صغيراً في جانب هادئ من الشارع.

أنفقت خمسة عشر فرنكاً على العشاء، وهو مقدار يزيد بنسبة الضعف على ما كنت قررت أن أنفقه. مما جعلني تعيشاً جلاً حتى أنني حرمت نفسي من البقاء لتناول القهوة، بالرغم من أنها كانت قد بدأت تمطر. لا، سأتمشى قليلاً ثم آوي بهلوء إلى فراشي، في ساعة معقولة. وسيطر علي الغم بسبب محاولتي ادخار مواردني بهذه الطريقة. إنني لم أفعل ذلك مرة في حياتي، فليس ذلك من طبعي.

أخيراً أخذت تمطر بغزارة. وكنت سعيداً، فهذا سيمنحني عنراً أحجاجة لأنلس في مكان ما وأمدد قلبي على طولهما. كان الوقت لا يزال باكراً للإيواء إلى السرير. ورحت أبحث خطاي، عائداً إلى بولفار راسيل. وفجأة إذ بامرأة تتقدم مني وتستوقفني، تحت وابل للمطر. تريد أن تعرف كم الساعة. أخبرتها أنني لا أحمل ساعة يد وإذ بها تهتف فجأة قائلة: "أوه يا سيدي الطيب، أترك تتكلم الإنكليزية صديقة؟". فهزرت رأسي إيجاباً. باتت الآن تمطر سيولاً. "لعلك يا سيدي الطيب العزيز، تتلطف وتصحبني إلى للمهى، فالسماء تمطر وليس معي

نقود لأجلس في اي مكان. ستعذرني، يا سيدي الطيب، لكن وجهك سمح.... وعرفت على الفور أنك إنكليزي". قالت هذا وابتسمت لي ابتسامة غريبة نصف معتوهة، "وربما يمكنك أن تعطيني نصيحة صغيرة، يا سيدي العزيز. فأنا وحيدة في هذا العالم... يا إلهي، ما أبشع أن لا يكون معك نقود.....".

أوصلتني هذه "السيدة العزيز" و "سيدي اللطيف" و "سيدي الطيب"، إلخ، إلى حافة الجنون. وقد شعرت بالرثاء لأجلها ومع ذلك كان يجب أن أضحك. وضحكت في وجهها. وبعدها ضحكت هي أيضاً، ضحكة عجيبة، عالية النبرة، ونشاز، وكلها معاً قهقهة غير متوقعة. وأمسكتها من ذراعها وهرعنا إلى أقرب مقهى. كانت لا تزال تقهقه حين دخلنا إلى المقهى الصغير. وعادت تقول من جديد "يا سيدي العزيز الطيب، ربما تظن أنني لا أقول لك الحقيقة. أنني فتاة طيبة... أنحدر من عائلة كريمة... غير أنني" - وهنا ابتسمت لي تلك الابتسامة الباهتة المتصدعة - "غير أنني ذات حظ عاثر لأنني لا أجد مكاناً أجلس فيه"، وهنا أخذت أضحك من جديد. لم أستطع كبح نفسي - العبارات التي تستخدمها، النبرة الغريبة، والقبة البلهاء التي تعتمرها، وتلك الابتسامة المعتوهة....

وقاطعتها "اسمعي، ما هي جنسيتك؟".

أجابت "أنا إنكليزية، أقصد أنني ولدت في بولندا، لكن أبي إيرلندي".

"وهذا يجعلك إنكليزية؟".

قالت "نعم"، وبدأت تقهقه من جديد، بارتباك، مدعية الخجل.

"أعتقد أنك تعرفين فندقاً جميلاً صغيراً ستأخذيني إليه؟". لم أقل هذا لأنه في نيتي أن أصبح بها، بل لجرد أن أوفر عليها التوطئات المعتادة.

قالت وكأنني ارتكبت خطأ جسيماً "أوه سيدي العزيز، أنا متأكدة من أنك لا تقصد ما تقول! لست من هذا النوع. كنت تمزح أفهم ذلك. أنت طيب جداً.... ولك وجه سمح. ما كنت لأجرؤ على مخاطبة رجل فرنسي كما فعلت معك. إنهم يهينونك على الفور....".

تابعت كلامها على هذه الوتيرة لبعض الوقت. وأردت أن أفلت منها. لكنها لم تكن ترغب في أن تترك وحدها. كانت خائفة - فأوراقها غير نظامية.

فهل أتلف وأصبحها إلى فندقها؟ وربما بإمكانني أن "أقرضها" خمسة عشر أو عشرين فرنكاً، لإسكات صاحب الفندق؟. وصحبته إلى الفندق الذي قالت أنها تنزل فيه ووضعت في يدها ورقة من فئة الخمسين فرنكاً. إما أنها كانت في منتهى الذكاء أو في منتهى البراءة - أحياناً يصعب إيجاد الفرق - لكنها على أية حال أرادتني أن أنتظر ريثما تسرع إلى المقهى الصغير لتعيد إلي الباقي. قلت لها أن لا تزعج نفسها. وهنا أمسكت بيدي باندفاع ورفعتها إلى شفتيها. وصعقت. وشعرت برغبة في إعطائها كل ما كنت أملك. لقد أثرت بي تلك الإيماءة الصغيرة المجنونة. وقلت لنفسي، جميل أن تكون غنياً ولو لمرة واحدة، لمجرد أن تحصل على إثارة مثل هذه. سيان لدي، فلم أفقد رأسي. خمسون فرنكاً يكفي هذا التبريد في ليلة ماطرة. وحين رحت أبعد لوحتي لي بتلك الطاقة التي لم تكن تعرف كيف تعتمرها. وكأننا أصدقاء قدامى. وشعرت أنني أبله ورأسي يدور. "سيدي العزيز اللطيف.... يا لسماحة وجهك..... أنت طيب جداً، إلخ.... وشعرت أنني قد يس.

حين تشعر أنك متفخ من الداخل ليس من السهل أن تلجأ إلى السرير فوراً. إنك تشعر وكأن عليك أن تكفر عن نوبات الطيبة هذه غير المتوقعة، ولدى مروري بـ "الغاب" ألقيت نظرة على صالة الرقص، رأيت نسوة بظهور عارية وحبال من اللائع تكاد تخنقهن - أو هكذا بدا - يهززن مؤخراتهن الجميلة في وجهي. وتوجهت رأساً إلى البار وطلبت كأساً من الشمبانيا. وعندما سكنت الموسيقى، اتخذت شقراء جميلة - بدت نرويجية - مجلسها إلى جانبي. ولم يكن المكان مزدحماً أو يشيع فيه المرح كما بدا من الخارج، لم يكن هناك غير عدد قليل من الراقصين - ويبدو أنهم جميعاً كانوا يرقصون في وقت واحد. وطلبت كأساً أخرى من الشمبانيا حتى لا تغادرني شجاعتي.

عندما نهضت لأطلب من الشقراء مراقبتي لم يكن هناك غيرنا في الحلبة. ولو حدث هذا في أي وقت آخر لغلبنى الخجل، لكن تأثير الشمبانيا وطريقتها في التشبث بي، والأضواء الخافتة والاحساس المتين بالأمان الذي منحني إياه المئات القليلة من الفرنكات، حسن.... ورقصنا معاً ثانية، على سبيل العرض الخاص، ثم انهمكنا في الحديث. وبدأت تبكي - هكذا بدأ الأمر. وفكرت أنها

ربما شربت كثيراً، فتظاهرت بعدم الاهتمام. وأخذت أقلب ناظري فيما حولي لأرى إن كان هناك أحد غيرنا. لكن المكان بات قفراً تماماً.

أفضل شيء تفعله حين تقع في فح هو أن تتنفس - وعلى الفور. فإذا لم تفعل، ضعت. وما استقاني، ويا للغرابة، كان مخافتي من أن أفكر في دفع مبلغ آخر مقابل خدعة. والمرء دائماً يدع نفسه يقع في مثل تلك الخدع لسبب تافه.

سرعان ما اكتشفت أن سبب بكائها هو أنها قد دفنت وليدها لتوها. وهي ليست نرويجية، بل فرنسية، وهي قابلة حتى أخصبها. ويجب أن أعترف أنها قابلة أنيقة، حتى من الدموع التي جرت على وجهها. وسألتها إن كان كأس صغير يساعد على مواساتها، وعلى الأثر طلبت ويسكي وجرعته دفعة واحدة وفي لمح البصر. واقترحت قائلاً "كأساً أخرى؟"، فوافقت، إن حالتها سيئة جداً، وهي في منتهى الغم. واعتقدت أنها ترغب في علبة سجائر "كامل" أيضاً، ثم أردفت "لا، أنتظر لحظة، أظني أفضل البول مول"، وقلت في نفسي، اطلبي ما شئت ولكن كفاك بكاءاً، حباً بالمسيح، لقد انهارت أعصابي. وساعدتها لتقف على قدميها لرقص رقصة أخرى، وحين وقفت على قدميها بدت شخصاً آخر. ربما لأن الأسى يجعل الإنسان يبدو أكثر فسقاً، لا أدري. وغمغمت بشيء عن خروجنا، فقالت بلهفة "إلى أين؟ أوه، إلى أي مكان. إلى مكان هادئ حيث يمكننا أن نتحدث".

ذهبت إلى المرحاض لأعد النقود من جديد هناك. خبأت قطعة بمئة فرنك في جيب الساعة وأبقيت قطعة بخمسين فرنكاً والقطع الصغيرة في جيب البنطلون، وعدت إلى البار وأنا أنوي أن أتحدث بصراحة تامة.

سهلت الأمر علي لأنها هي التي دخلت في الموضوع. كانت تعاني من مشاكل، ليس فقط لأنها فقدت وليدها، بل لأن أمها في البيت مريضة، بل هي في حالة متردية، ويجب أن تدفع للطبيب ويجب أن تشتري الدواء وهكذا دواليك. لم اصدق كلمة واحدة مما قالت، طبعاً. ولما كان علي أن أجد فندقاً لنفسي، اقترحت عليها أن تأتي معي وتمضي هذه الليلة. وقلت لنفسي سأقتصد قليلاً. لكنها رفضت. وأصرت علي أن نذهب إلى البيت، قالت إن

لديها شقة خاصة بها - ثم إن عليها أن تعتني بأمها. وبعد تفكير قررت أنه من الأفضل أن أبيت عندها، فوافقت وذهبتا على الفور. وقبل أن ننطلق، قررت أنه من الأفضل أن تعرف وضعي، وذلك كي لا يكون هناك أية شكوى في اللحظة الأخيرة. وأعتقد أنه كاد يغمى عليها حين علمت مقدار ما معي من نقود. قالت "سيان عندي"، وبدأت مهانة جداً. وظننتها ستثور.... بيد أنني اتخذت موقفاً صارماً، غير هباب، وقلت بهدوء "حسن جداً، أنا ذاهب، لعلني ارتكبت خطأ".

وأعلنت قائلة: "نعم ارتكبت أ"، لكنها في الوقت نفسه تشبثت بذراعي *"Ecoute cheri،....."* *"sois raisonable!"* اسمع يا عزيزي كن عاقلاً". ولما سمعت هذا استعدت ثقتي بنفسي، وعرفت أن المسألة كلها تتعلق بوعدنا بالمزيد وبعدئذ سيكون كل شيء على ما يرام، قلت ضحيراً "حسن، سأكون لطيفاً معك وسرير". قالت "إذن كنت تكذب علي؟". ابتسمت "نعم، كنت أكذب...".

قبل أن أضع قبعتي على رأسي كانت قد هتفت لسيارة أجرة. وسمعتها تعطيه عنوانها في بولفار دو كليشي. وقلت في نفسي إن هذا يساوي أكثر من أحرة غرفة. أوه، حسن لا يزال هناك متسع من الوقت.... سنرى. لم أعد أذكر كيف بدأ الأمر، لكنها سرعان ما راحت تهذي عن هنري بوردو. وحتى ذلك الحين لم أكن قد قابلت عاهرة لا تعرف هنري بوردو. لكن هذه بالذات موهوبة تماماً، وقد أضحت لغتها الآن جميلة، رقيقة جداً، وفطنة جداً، حتى أنني تساءلت كم سأعطيها. لقد خيل إلي أنني سمعتها تقول عبارة *"quand il n'y aura plus de temps"* حين لن يتبقى متسع من الوقت". أو شيئاً من هذا القبيل، على أي حال. وفي حالي تلك كانت عبارة كهذه تساوي مائة فرنك. وتساءلت إن كانت من عندها أو سرقتها من هنري بوردو. لا يهم. كانت العبارة هي الأمثل لنعبر بها أسفل مونمارتر. وقلت لنفسني "عمت مساء، يا أم، ابتك وأنا سنعتني بك" *"quand il n'y aura plus de temps"*. وكانت تنوي أن تريني شهادتها أيضاً، لقد تذكرت الآن.

حالما أغلق الباب خلفنا، اهتمجت أعصابها. تبلبلت. أخذت تعصر كفيها وتتخذ أوضاعاً على طريقة سارة برنار، وهي نصف عارية، وتتوقف بين الحين والآخر لتحتني على الإسراع، لخلع ملابسها، لأفعل هذا أو ذاك. وأخيراً، بعدما تعرت وراحت تتنقل في المكان وهي تحمل قميصها بيدها، تبحث عن ثوب الكيمونو، احتضنتها وعصرتها بقوة. وعندما حررتها كان على وجهها علامة الكرب. وهتفت "يا إلهي! يا إلهي! يجب أن انزل لألقي نظرة على أمي! يمكنك أن تستحم إذا أردت، شيري. هناك! وسأعود بعد دقائق"، وعند الباب عانقتها من جديد. كنت بملابسي الداخلية وقد حصل لدي انتصاب هائل. وبشكل ما زاد كل هذا الحزن والإثارة، كل هذا الأسى والحركات المصطنعة من شهيتي. ربما كانت ستتزل إلى أسفل لمجرد أن تهديء من ثورة "قوادها". وتكون لدي إحساس بأن شيئاً غير عادي يجري، أشبه بحدث درامي سأقرأ عنه في صحف الصباح. وألقيت نظرة سريعة على المكان. هناك غرفتان وحمام، لابأس في أثابهما. تغلب عليه الخلاعة. شهادتها معلقة على الجدار - "درجة أولى" ككل الشهادات. وثمة صورة لطفلة، فتاة صغيرة لها خصلات جميلة، موضوعة على طاولة الزينة. فتحت الصنبور استعداداً للاستحمام، ثم غيرت رأبي. إذا حدث شيء وأنا جالس في حوض الاستحمام لم تعجبي الفكرة. ورحت أتمشي جيئة وذهاباً، وأزداد قلقاً مع مرور الوقت.

حين رجعت كانت أشد ارتباكاً من ذي قبل. قالت وهي تكن "إنها تحتضر إنها تحتضر!". للوهلة الأولى خطر لي أن أغادر المكان، فكيف يمكن لإنسان أن يمتطي امرأة وأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة في الطابق السفلي، وربما تحتك مباشرة؟ وأحطتها بذراعي، أولاً بدافع الشفقة وثانياً لأنني صممت علي نيل ما جئت لأجله. وبينما نحن واقفان هكذا همست، وكأنها حريفة فعلاً تعلن عن حاجتها إلى النقود التي وعدتها بها. إنها لك "ماما". خراء، لم أكن أرغب في المساومة حول الفرنكات في تلك اللحظة. ومشيت إلى الكرسي حيث كانت ملابسها وأخذت مائة فرنك من جيب الساعة وأنا أحرص أن أدير ظهري لها. وزيادة في الحذر وضعت بنطالي على طرف السرير حيث عرفت أنني سأضطجع. ولم ترض تماماً بالمائة فرنك، لكنني فهمت من احتجاجها الواهن أن المبلغ كاف جداً. وثم، وبنشاط منها أدهشني، تفضت

عنها الكيمونو وقفزت إلى السرير. وخالما أحطتها بذراعي وشددتها إلى ضغطت على مفتاح النور وغمر الظلام المكان. عانقتني بشبق، وراحت تكن ككل العاهرات الفرنسيات حين يلمبن معك إلى السرير. كانت تهيجني بصورة مخيفة بتصرفها، فمسألة إطفاء الأنوار كانت جديدة لدي.... وكان الموقف حقيقي. لكن ارتبت أيضاً، وخالما بدأت أعمل بشكل جيد مددت يدي خارج السرير لأتحسس إن كان مكان بنطالي لا يزال على الكرسي.

أظن أننا قضينا ليلة رائعة. كان السرير مريحاً جداً، أكثر نعومة من أسرة فندق متوسط. والملاءات نظيفة، كما لاحظت. لكن ليتها لم تكن تكثر من التلوي والارتجاف وكأنها لم تضاجع رجلاً منذ شهر. وددت لو أطيّل مكوثي، أردت أن أنال القيمة الكاملة مقابل مئة فرنك. لكنها كانت تغمغم بأشياء كثيرة بتلك اللغة السريرية المجنونة التي تغلغل في دمك بسرعة أكبر في الظلام. لقد كنت أواجه قتلاً عنيفاً، لكنه كان مستحيلاً وهي تتأوه وتلهث، وتتمتم "أسرع يا حبيبي أسرع يا حبيبي أوه، هذا رائع أوه، أوه، أسرع، أسرع، أسرع، يا حبيبي". حاولت أن أعد تأوهاتنا، غير أنها كانت كإنذار الحريق لا تتوقف. "أسرع يا حبيبي". وهذه المرة أصدرت تأوهاً مرتعشاً انطلق، بانغوا سمعت النجوم تفرع وها هي المائة فرنك قد ذهبت هباءاً والخمسون فرنك التي نسيت كل شيء عنها وأضيأت الأنوار من جديد وبالرشاقة التي وقفزت بها إلى السرير وقفزت بها منه أيضاً وهي تنخر وتشتكي كخنزيرة عجوز. استلقيت على ظهري ورحت أدخن سيجارة متأملًا ثيابي الداخلية بكآبة، كانت مجمدة كثيراً. وفي الحال عادت إلى طبيعتها، وهي تلتفح بالكيمونو، وتخبرني بطريقتها القلقة التي بدأت تؤثر على أعصابي بأن أتصرف بحرية. وقالت «سأنزل لأرى أمي، ولكن يمكنك أن تتصرف وكأنك في بيتك، يا عزيزي. سأعود حالاً»

بعد مضي ربع ساعة بدأت أشعر بقلق غامر. ثم ولجت إلى الداخل ورحت أقرأ رسالة وجدتها على الطاولة. لم تكن على أي جانب من الأهمية - مجرد رسالة حب. وفي الحمام تفحصت جميع الزجاجات الموجودة على الرف، لديها كل ما تتطلبه المرأة لتجعل رائحتها جميلة. كنت لا أزال آمل في

أن تعود لتمنحني ما يعادل خمسين فرنكاً. لكن الوقت مر ولم يظهر أثر. وبدأ يتتابني الذعر. فربما كان هناك من يموت حقاً في الطابق السفلي. وبذهن شارد وبدافع من حب الذات على ما أعتقد، رحت أرتدي ملابسني. وبينما أنا أعقد حزامي تذكرت فجأة كيف حشرت المائة فرنك في كيس النقود. فوسط إثارة تلك اللحظة وضعت كيس النقود في خزانة الملابس، على الرف العلوي... تذكرت حركتها - وهي تشرئب على أطراف أصابع قدميها لتصل إلى الرف. وفي الحال فتحت الخزانة وتحسست المكان بحثاً عن كيس النقود. كان لا يزال هناك. فتحتني على عجل ورأيت ورقة المائة فرنك لا تزال مستقرة في مكانها باستكانة بين تضاعيف الحرير. أعدت الكيس كما كان وانزلت داخل معطفي وخذائي، وذهبت إلى مبسط الدرج وارهفت سمعي. لم اسمع شيئاً. المسيح وحده يعلم إلى أين ذهبت. وعدت بسرعة البرق إلى الخزانة ورحت أحوس داخل كيسها. وضعت المائة فرنك في جيبي وجميع القطع الصغيرة أيضاً. ومن ثم أغلقت الباب بهدوء ورائي ونزلت الدرج بأسرع ما أوتيت من قوة في ساقني. وتوقفت قليلاً في مقهى بودون. كانت العاهرات هناك يستمتعن بوقتتهن وهن يضربن رجلاً سمينا نام أثناء تناول وجبته. كان غارقاً في النوم، ويشخر، ومع ذلك كان فكاه لا يزالان يعملان بصورة آلية. كان المكان غارقاً في الفوضى والضجيج، وثمة من يصرخ "الجميع إلى متن السفينة!"، وتبع ذلك رنين مختلط لسكاكين وأشواك. فتح عينيه فجأة ورفرفهما بغباء، ومن ثم مال رأسه ثانية على صدره. وضعت فئة المائة فرنك بحذر في جيب الساعة وعددت الفراطة. كانت الجلبة حولي تزداد ووجدت صعوبة في تذكر إن كنت قد رأيت بوضوح عبارة "درحة أولى" على شهادتها أم لا. وأزعجني ذلك. أما أمها فلم آبه لها. إنه أطيب من أن يصدق، مع "أسرع يا حبيبي، أسرع، أسرع"، وتلك الأخرى نصف المعتوهة مع "سيدي الطيب" و"إن لك وجهاً سمحاً" التي بت أتساءل إن كانت حقاً استأجرت غرفة في ذاك الفندق الذي توقفنا عنده.

قراية نهاية الصيف دعاني فيلمور لآتي وأعيش معه. كان يملك شقة صغيرة تطل على ثكنة الفرسان القريبة من بلاس دويلي. وكانت لقاءاتنا قد تكررت منذ رحلتنا القصيرة تلك إلى الهافر. ولولا فيلمور لا أدري إلام كان سيؤول حالي اليوم - ربما الموت، على الأغلب.

قال لي: "كان من الممكن أن أطلب منك الحضور قبل الآن بوقت طويل لولا تلك العاهرة الحقيمة جاكلي. لم أدر كيف أتخلص منها".

كان يجب أن أتسم. هكذا الأمر دائماً مع فيلمور، كان عبقرياً في اجتذاب العاهرات المشرذات. على أية حال لقد رحلت جاكلي أخيراً برضاها.

كان فصل الأمطار يقترّب، وهو فترة طويلة موحشة من الزوجة والضباب وسيول الأمطار التي تجعلك رطباً ومكتئباً. باريس يا لذاك المكان المقيت في الشتاء. مناخها يستهلك روحك، يتركك عارياً كشاطئ لابرادور. ولاحظت مع بعض القلق أن الوسيلة الوحيدة لتدفئة المكان كانت مدفأة صغيرة موجودة في الشقة الصغيرة. ومع ذلك، ظل البيت مريحاً. والمشهد من النافذة بديع.

في كل صباح كان فيلمور يوقظني بهزة عنيفة ويترك لي ورقة من فئة العشر فرنكات على المائدة. وحالما يذهب أعود لأغفو غفوة أخيرة. أحياناً كنت أظل في السرير حتى الظهر، فلم يكن ثمة ما يستدعي العجلة، عدا إنهاء الكتاب، وهذا ما لم يكن يقلقني كثيراً لأنني كنت مقتنعة سلفاً بأن أحداً لن يقبله مني في كل الأحوال. ومع ذلك كان فيلمور هو الأكثر تأثراً به. وعقب عودته في المساء حاملاً قنينة تحت ذراعه كان أول ما يقوم به هو أن

يتوجه إلى الطاولة ليرى كم صفحة أنهيت. في أول الأمر استمتعت بهذا المظهر من الحماس ولكن فيما بعد، حين جفت ينابيعي، صرت كالشيطان المضطرب وأنا أراه يفتش في المكان، بحثاً عن الصفحات التي من المفروض أن تقطر مني كالماء من الصنبور. وحين لا يكون ثمة ما أكتبه أشعر تماماً كما أحدى العاهرات التي أوامها يوماً عنده. كان يتحدث عن جاكى عادة قائلاً، حسب ما أذكر - "كان يمكن أن يغدو كل شيء على ما يرام لو أنها سمحت لي بمضاجعتها أحياناً". لو كنت امرأة لسمحت له بمضاجعتي، إذ أن ذلك أسهل بكثير من تزويده بالصفحات التي يتوقعها.

غير أنه حاول أن يوفر الراحة لي. فكان هناك دائماً الكثير من الطعام والخمر، وأحياناً كان يصير على اصطحابي إلى حفلة راقصة. وكان ولوعاً بارتياح ملهى للزنوج في شارع أوديسا حيث يلتقي مع خلاسية كانت تصبحنا أحياناً إلى المنزل. الشيء الوحيد الذي أزعجه هو أنه لم يتمكن من إيجاد فتاة فرنسية ترغب في الشرب. كن جميعاً أكثر اتزاناً من أن يرضينه - كان يجب أن يصحب معه امرأة إلى الشقة لمعاقرة الشراب معه قبيل الانصراف إلى العمل. وكان أيضاً يحب أن يدخل في خلدها أنه فنان. ولما كان الرجل الذي استأجر منه المكان رساماً، فلم يكن من الصعب ترك انطباع قوي لديه، وسرعان ما وزعت اللوحات التي وجدناها في الخزانة حول المكان ووضعت إحدى اللوحات غير المكتملة على الحامل. ولسوء الحظ كانت جميعاً من النوع السريالي والانطباع الذي تخلقه ليس مشجعاً. وفيما يتعلق بتلوق اللوحات الفنية ليس هناك كبير فرق بين عاهرة أو بوابة أو أحد الوزراء. كانت زيارات مارك سوفيت المنتظمة لنا بقصد رسم لوحة شخصية لي مصدر ارتياح لفيلمور. فقد كان فيلمور شديد الإعجاب بسوفيت وقال عنه أنه عبقرى. وعلى رغم أن شيئاً ضارباً كان يحيط بكل ما يعالجه، إلا أنه عندما كان يرسم رجلاً أو شيئاً ما كان بالإمكان التعرف عليه.

تركت لحيتي تسترسل حسب طلب سوفيت. قال إن شكل جمجمتي لا يكتمل إلا بلحية. وطلب مني أن أجلس بالقرب من النافذة وإلى الخلف مني

برج إيفل لأنه أراد أيضاً أن يظهر معي برج إيفل. وأراد أيضاً إظهار الآلة الكاتبة. واعتاد كروغر أن يصل فجأة في مثل ذاك الوقت، وكان يؤكد أن سوفيت لا يفهم شيئاً في الرسم. ويغضبه أن يرى الأشياء بدون أبعادها المعتادة، ويؤمن إيماناً مطلقاً بقوانين الطبيعة. أما سوفيت فلم يكن يأبه للطبيعة، وكان يريد أن يرسم ما في رأسه. على أية حال، صورتني موجودة على الحامل الآن، وعلى رغم أن كل شيء دون أبعاده الطبيعية، فيمكن حتى لأي وزير أن يرى أنه رأس مخلوق بشري، لرجل ملتج. وقد بدأت البوابة بإظهار اهتمام هائل بالصورة ورأت أن التشابه مذهل. وأعجبتها فكرة إظهار برج إيفل في الخلفية.

استمرت الأمور على هذا المنوال بسلام قرابة الشهر أو أكثر. أعجبني الحى، خاصة أثناء الليل عندما يكشف المكان عن كآبته وقذارته. إن الساحة الصغيرة، التي تبدو غاية في السحر والهدوء عند الفجر، يمكن أن تتخذ أشد السمات كآبة وشؤماً عندما يحل الظلام. كان هناك ذاك الجدار الممتد، العالي الذي يخفي أحد جوانب الثكنة حيث ترى دائماً عنده عاشقين يتعانقان خلصة - وغالباً تحت المطر. إن لمن المقبض رؤية إثنين من العشاق مضغوطين على جدار السجن تحت نور شارع كئيب، وكأنهما قد جرفا إلى آخر الحدود. وما كان يجري داخل المكان المغلق لا يقل إثارة للانقباض. وقد اعتدت أن أقف في يوم ممطر عند النافذة وأنظر إلى ما يجري في الأسفل، فيبدو تماماً كأنه يجري على سطح كوكب آخر. كان يبدو لي شيئاً عصياً على الفهم، كل شيء يتم طبقاً لجدول معين، ولكن لا بد أنه كان جدولاً من تصميم مجنون. ها هم يتخبطون في الوحل، الأبواق تنفخ، والأحصنة تسرج، وكله يحدث بين أربعة جدران. إنها معركة كاذبة. وعدد كبير من جنود التنك ليس لديهم أدنى اهتمام بتعلم فنون القتل أو بتلميع أحذيتهم أو بتمشيط شعر الجياد. كل شيء سخيّف سخافة مطلقة، بيد أنه جزء في مخطط الأشياء. وحين لا يبقى ما يفعلونه يبدون أكثر سخافة : يهرشون أنفسهم، يتجولون في المكان، أيديهم في جيوبهم، يرفعون أبصارهم إلى السماء. وعندما يأتي ملازم يضمون أكعابهم ويحيون. إنه مأوى للمجانين، كما يبدو لي. حتى الجياد تبدو بلهاء. أحياناً يجرون المدافع إلى الخارج وينطلقون وهم

يقعقعون علي أرض الشارع في استعراض عسكري ويقف الناس فاغري الأفواه إعجاباً بملابسهم الجميلة. كانوا دائماً يبدون كفيلق مسلح يتراجع، يحيط بهم جو من الرثاثة، والوساخة والاكتئاب، ثيابهم متهلهة فوق أجسادهم، وكل النشاط، الذي كانوا يملكونه كأفراد إلى درجة رائعة، قد زال عنهم.

لكن عند بزوغ الشمس كان كل شيء يبدو مختلفاً. يظهر في عيونهم شعاع من أمل، يمشون بمرونة أكثر، ويبدون القليل من الحماس. عندئذ يطل الجانب المبهج من الأشياء بصورة فاتنة، ويصدر ذلك الضجيج والقرقرة اللذان يميزان الفرنسيين. وفي المقهى الصغير الكائن عند الزاوية يتحادثون بمرح وهم يشربون الخمر ويبدو الضباط أكثر إنسانية، أكثر فرنسية. وحين تبرز الشمس تبدو أية بقعة من باريس جميلة، ففي كل مقهى صغير به ظلة مرخية، وبضع طاولات موضوعة على الرصيف ومشروبات ملونة في الكؤوس، يبدو الناس أكثر إنسانية، يكونون حقاً بشراً - أروع أناس في العالم وقت شروق الشمس! متوقدي الذكاء، متكاسلين جداً، سعداء جداً إنها لجريمة أن يحشر هؤلاء الشبان في ثكنة، لإخضاعهم للتدريب، لتصنيفهم إلى جنود ورقباء وكولونيالات ورتب أخرى...

وكما أقول، كانت الأمور على أحسن ما يرام، وكان كارل يسعى بين حين وآخر ليوفر لي عملاً، هو مقالات عن السفر كان يكره أن يقوم بها بنفسه. فهم لا يدفعون إلا خمسين فرنكاً على القطعة، لكنها كانت سهلة لأن كل ما كان علي أن أفعله هو أن أراجع الإصدارات السابقة وأنقح المقالات القديمة. فالناس لا يقرأون هذه الأشياء إلا وهم جالسون في المرحاض أو يقتلون الوقت في غرفة الانتظار. الشيء الأساسي هو الحفاظ على الصفات مصقولة جيداً - أما الباقي فمسألة تواريخ وإحصاءات. فإذا كانت المقالة مهمة وقع عليها رئيس القسم بنفسه، وكان شبه معتوه لا يحسن التحدث بأية لغة بشكل جيد، لكنه يعرف كيف يكتشف الأخطاء. فإذا وجد أن إحدى الفقرات قد كتبت بشكل جيد يقول "هكذا أريدك أن تكتب! هذه جميلة. أسمح لك باستخدامها في كتابك". وهذه الفقرات الجميلة

نكون أحياناً قد اقتبسناها من الموسوعة أو من مرشد قديم. وكان كارل يستخدم بعضها في كتابه - فقد كانت تتميز بصبغة سريرية.

وفي إحدى الأمسيات، إبان عودتي من نزهتي، فتحت الباب وإذا بامرأة تقفز من غرفة النوم وتهتف على الفور "إذن أنت الكاتب!" وتنظر إلى حيتي وكأنما لتؤكد فكرتها عني "ما أبشعها من حيلة! أعتقد أنكم القاطنون هنا كلكم مجانين"، وإذا بفيلمور يتبعها وهو يحمل الملاءة في يده ويقول "إنها أميرة" ويفرقع بشفتيه وكأنه يتذوق الكافيار لأول مرة. كانا يستعدان للخروج، ولم أفهم ماذا كانا يفعلان بملاءات السرير، وتبين لي على الفور أنه لا بد أن فيلمور جرها إلى غرفة النوم ليربها حقيبة الغسيل القذر. وهو دائماً يفعل هذا بالجديدات، خاصة إذا كانت فرنسية. "لا أكياس مخدات، لا قمصان!". هذا ما كان غطاً على حقيبة الغسيل القذر، وكان فيلمور مهووساً بشرح هذا الشعار لكل أثى تصل. ولكن هذه السيدة ليست فرنسية - وقد أوضح لي هذه النقطة على الفور. هي روسية - وأميرة، لا أقل.

كان يتدفق بالإنارة، كطفل عثر لتوه على دمية. قال: "إنها تتكلم خمس لغات!". وكان واضحاً أن شديد الفرح بهذه المأثرة.

وتصحح له على الفور "لا، أربع".

"حسن، أربع إذن.... لا بأس، إنها ذكية جداً. يجب أن تسمعها وهي تتكلم".

الأميرة عصبية - ظلت طول الوقت تهرش فخذها وتعرك أنفها. وسألتني على فوراً "لماذا يريد أن يعد سريريه الآن؟ أليظن أنه سينال مني بهذه الطريقة؟ إنه طفل كبير. يتصرف بطريقة شائنة. لقد صحبتته إلى مطعم روسي فأخذ يرقص كالزنجير"، وراحت تهز نصفها الأسفل لتصور لي ما فعل. "ثم إنه يتكلم كثيراً. وبصوت عال. وحديثه بايخ". وبدأت تتجول في الغرفة، تتفحص الرسومات والكتب، وهي تشمخ بذقنها طوال الوقت لكنها كانت تهرش نفسها بشكل متقطع. وبين الحين والآخر كانت تمخر طريقها كسفينة حربية مصوبة مدافعها الجانبية. وكان فيلمور يتبعها وهو يحمل قنينة في يد

وكأساً في الأخرى، حتى صاحت "كفاك متابعة لي! ثم أليس لديك إلا هذا تشربه؟ ألا تستطيع أن تحضر زجاجة شمبانيا؟ يجب أن أشرب شمبانيا. أعصابي! أعصابي!".

ويحاول فيلمور أن يهمس ببعض الكلمات في أذني "ممثلة نجمة سينمائية هجرها أحدهم ولا تستطيع نسيان المر... سأسكرها....".

"سأذهب إذن" كنت أقول هذا حين قاطعتنا بصرخة "لماذا تتهاamanan هكذا؟". وهي تضرب قدمها بالأرض "ألا تعلمان أن هذا قلة أدب؟ وأنت، ظننتك ستأخذني لنسهر؟ يجب أن أسكر هذه الليلة، لقد قلت لك هذا لتوي".

قال فيلمور "نعم، نعم، سنذهب بعد دقيقة، أريد فقط أن أشرب كأساً أخرى".

وزعقت "أنت خنزير! لكنك فتى لطيف أيضاً. لكن صوتك عال، وقليل التهذيب". ثم التفتت نحوي "هل يمكنني الاعتماد عليه في حسن السلوك؟ يجب أن أسكر هذه الليلة ولكن لا أريده أن يخزيني. قد اعود إلى هنا فيما بعد. أود أن أتحدث معك. تبدو لي أكثر ذكاءً".

حين قررا الذهاب شدت الأميرة على يدي بمودة ووعدت بالاجيء على العشاء في إحدى الأمسيات - وقالت "حين أكون بكامل وعيي".

قلت "عظيم! أحضري معك أميرة أخرى - أو كوتيسة على الأقل. إننا نغير الملاءات كل يوم سبت".

عند قرابة الثالثة صباحاً عاد فيلمور وهو يترنح.... وحده، مشرقاً كمنارة المحيط، وهو يثير ضجيجاً كأعمى يضرب عصاه، تاب، تاب، تاب على أرض الزقاق، ويقول وهو يتجاوزني "إلى السرير فوراً، سأخبرك بكل شيء في الغد". ويدخل غرفته ويزيح الأغطية جانباً. وأسمعه يزجر "يا لها من امرأة! يا لها من امرأة!". وبعد لحظة يخرج ثانية، معتمراً قبعته وعصاه في يده "كنت أعرف أن شيئاً كهذا سيحدث. إنها مجنونة!".

ويدور في المطبخ باحثاً، ويعود بعد قليل إلى الداخل مع زجاجة من

الآنبحو. وأضطط إلى الجلوس لأشاركه معاقرة الخمر.

حسبما تسعفني الذاكرة على للممة أطراف القصة فإن كل شيء بدأ في الرون - بوان دو شانزليزيه حيث توقف لشرب كأس في الطريق إلى المنزل. وكالعادة في تلك الساعة كانت المصطبة مزدحمة بالصقور، وهذه المرأة كانت جالسة في الممشى وقد وضعت أمامها كومة من الصحف، كانت جالسة وحدها تسكر بهدوء حين تصادف أن مر فيلمور ووقع نظره عليها. وقهقهت قائلة "إنني سكرى، ألا تود أن تجالسيني؟"، ثم، وكأن ما تفعله هو أكثر الأمور عادية في العالم بدأت تصخب وهي تتحدث عن قصتها مع مخرجها السينمائي، وكيف أساء معاملتها وكيف رمت بنفسها في السين وهكذا، إلخ، إلخ. ولم تعد تذكر على أي جسر حدث هذا، لا تذكر إلا الحشد الذي تجمع بعد أن انتشلوها من الماء. ثم، أية أهمية في معرفة الجسر الذي رمت بنفسها منه - لماذا يسأل مثل هذه الأسئلة؟ كانت تضحك ضحكاً هستيرياً على ما حدث، وفجأة تملكها رغبة بالانطلاق - أرادت أن ترقص. ولما رأت تردده فتحت حقيبتها باندفاع وأخرجت ورقة بمئة فرنك. وفي اللحظة التالي قررت أن المائة فرنك لن تكفي. قالت "ألا تحمل أية نقود؟". لا، لا يحمل الكثير منه في جيبه، ولكن لديه دفتر شيكات في المنزل. وهكذا انطلقا طلباً للدفتر الشيكات. وبعدئذ، طبعاً، تصادف أن دخلت في الوقت الذي كان يشرح لها الـ "لا أكياس مخدات، لا قمصان"!

في طريقهما إلى المنزل توقفا في محل "السبكة الذهبية" لتناول الترويقة التي ازدردتها مع قليل من الفودكا. كانت وسط الجو الذي يلائمها والكل يقبل يدها ويغمغم "أميرتي، أميرتي". وعلى رغم سكرها تمكنت من الحفاظ على وقارها، وبينما هما يرقصان راحت تكرر "كفاك هزاً لموخرتك هكذا!"

كانت فكرة فيلمور، حين أعادها إلى الشقة الصغيرة، أن يمكثا هناك، ولكن لما كانت فتاة ذكية وغريبة الأطوار، قرر أن يصبر على نزواتها ويؤجل الحدث الجلل. بل إنه تصور إمكانية إيجاد أميرة أخرى والعودة بهما معاً إلى المنزل. لذا حين خرجا لقضاء الأمسية كان مزاجه رائقاً ومستعداً، عند

الضرورة، لإنفاق بضع مئات من الفرنكات عليها. فقبل كل شيء، لا يصادف المرء أميرة كل يوم.

هذه المرة جرت به إلى مكان آخر، مكان كانت فيه معروفة أكثر، حيث لم يحدث التباس حول صرف الشيك، كما قالت. الجميع يرتدون ثياب السهرة وكان هناك الكثير من التفاهات مثل الانحناءات التي تكسر الظهر، وتقييل الأيدي بينما النادل يقودهما إلى المائدة.

في منتصف الرقصة إذا بها فجأة تندفع خارجة من الحلبة والدموع في عينيها، فقال "ماذا حدث؟ ماذا فعلت هذه المرة؟"، وبحركة عفوية وضع يده على عجزه مخافة أن يكون ما يزال يهتز. قالت "لا شيء، أنت لم تفعل أي شيء. هيا، أنت ولد طيب". وبهذه الكلمات سحبته ثانية إلى الحلبة وانخرطا في الرقص، وغمغم "ولكن ما بك؟" وكررت "لا شيء، رأيت أحدهم، هذا كل شيء" ثم، وبنوبة غضب مفاجئة — "لماذا أسكرتني؟ ألا تعرف أن هذا يجنني؟".

ثم اردفت "هل معك شيك؟ يجب أن نخرج من هنا". ثم نادى على النادل وهمست له بالروسية. وبعد ذهاب النادل، سألته "هل هوشيك مضمون؟". وبعد ذلك تابعت بالندفاع "انتظرنى في الطابق السفلي في غرفة الملابس. يجب أن أتلفن لأحدهم".

بعد أن أحضر النادل باقي النقود هبط فيلمور الدرج متهادياً إلى غرفة الملابس في الطابق السفلي لينتظرها. وراح يتمشى جيئة وذهاباً، مهمهماً ومصفراً بصوت ناعم، يتلمظ بشفتيه متوقفاً بجيء الكافيار. ومرت خمس دقائق. ثم عشر. ولا يزال يصفر بهدوء. ولما مرت عشرون دقيقة ولم تعد الأميرة بدأت ريته تتعاضم. وقال له خادماً غرفة الملابس إنها غادرت منذ زمن طويل، فاندفع إلى الخارج. كان هناك زنجي في زيه الرسمي يقف هناك وعلى وجهه ابتسامة عريضة. فهل يعرف الزنجي إلى أين فرت؟ ويتسمم الزنجي، ويقول الزنجي "سمعت كلمة الكوبول، فقط يا سيدي".

في الكوبول، في الطابق السفلي، يجدها جالسة أمام كأس من الكوكتيل وعلى وجهها تعبير حالم هو أقرب إلى النشوة. وحين تراه تبتسم. فيقول

"أمن اللباقة أن تهربي هكذا؟ كان من الممكن أن تقولي إنني لا أعجبك.....".

استعرت غضباً لهذا الكلام، وتلبستها مسحة مسرحية. وبعد الكثير من الصراخ بدأت تن وتريّل، وقالت وهي تنتحب "أنا مجنونة، وأنت أيضاً مجنون. وتريدني أن أنام معك، وأنا لا أريد أن أنام معك". ثم باشرت هذيانها عن حبيبها، المخرج السينمائي الذي رآته في حلبة الرقص. هذا هو سبب هروبها. ولهذا هي تتعاطى المخدرات وتسكر لكل ليلة. ولهذا رمت بنفسها في السين. وتابعت ثرثرتها فتحدثت عن مدى جنونها، وفجأة خطرت على بالها فكرة، "فلنذهب إلى محل بريكتوب" فهناك رجل تعرفه وعدّها ذات مرة بعمل، وهي متأكدة من أنه سيساعدها.

سألها فيلمور بحذر "وكم سيكلف هذا؟".

سيكلف كثيراً، أخبرته بهذا دون موارد "ولكن اسمع، إذا أخذتني إلى محل بريكتوب، أعدك بالذهاب معك إلى البيت". كانت صادقة إلى درجة أنها اضافت أن هذا سيكلفه خمسمئة أو ستمئة فرنك. "لكنني أستهل هذا المبلغ! أنت لا تعلم قيمتي كامرأة. لن تجد مثيلة لي في باريس كلها.....".

وثارت حميته الأميركية "هذا رأيك أنت! أما أنا فلا أرى هذا. أنا لا أرى أنك تستحقين أي شيء. ما أنت غير عاهرة حقيرة مجنونة. بصراحة، أفضل أن أعطي خمسين فرنكاً لفتاة فرنسية مسكينة، فهن على الأقل يعطينني شيئاً في المقابل".

كادت ترتطم بالسقف عند ذكر الفرنسيات "إياك أن تذكر أولائي النسوة! أنا أكرههن! إنهن حمقات وديميمات إنهن مرتزقات. أقول لك كفى!".

خلال دقيقة من الزمن كانت قد خمدت من جديد. وبدأت نغمة جديدة، فغمغمت "حبيبي، أنت لا تعرف كيف ابدو حين أتعري. أنا جميلة". وحملت ثدييها بكلتا يديها.

لكن فيلمور ظل جامداً وقال بيروود "أنت عاهرة! لن أنفق عليك ولا حتى بضع مئات من الفرنكات، لكنك معتوهة. إنك حتى لم تغسلي

وجهك. وأنفاسك كريهة. لا يهمني إن كنت أميرة أم لا..... لا أريد أي شيء من تشكيلتك الروسية ذوات المؤخرات العالية. يجب أن تخرجني إلى الشارع وتحرشي بالرحال لتحصلي على ما تريدين. لست أفضل من فتاة فرنسية مسكينة. ولا تجارينها في الجودة. لن أتبول سواً واحداً عليك. يجب أن تذهبي إلى أميركا - فهي المكان المناسب لعلقة مصاصة دماء مثلك....".

لم يد عليها أنها تأثرت بهذا الكلام، بل قالت "أعتقد أنك تخافني قليلاً".

"أنا أخاف منك؟ أنت؟".

قالت "ما أنت إلا ولد صغير. ولست لبقاً. حين ستعرفني بشكل أفضل ستغير طريقة حديثك معي.... لماذا لا تحاول أن تكون رقيقاً؟ إذا لم تكن ترغب في الذهاب معي هذه الليلة، لا بأس سأكون في الرون - بوان غداً بين الساعة الخامسة والحادية عشرة. أنت تعجبني".

"لن أكون في الرون - بوان غداً، ولا في أية أمسية أخرى! لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن.... أبداً. انتهى كل شيء بيننا. سأذهب لأبحث لنفسي عن فتاة فرنسية صغيرة وجميلة. أما أنت فاذهي إلى الجحيم!".

نظرت إليه وابتسمت بضجر "هذا ما تقوله الآن. لكن مهلاً مهلاً حتى تضاجعني. أنت لا تعرف بعد أي جسم جميل لدي. أنت تعتقد أن الفرنسيات يعرفن ممارسة الحب.... ولكن انتظرا! سأجعلك تجن بي. أنت تعجبني. كل ما في الأمر أنك غير متحضر. ما أنت غير صبي. وثرثار....".

قال فيلمور "أنت مجنونة، لن أقع في حبالك، ولو كنت آخر امرأة على وجه الأرض. اذهبي إلى بيتك واغسلي وجهك". وابتعد دون أن يدفع ثمن المشروب.

وفي غضون بضعة أيام نُصِّبَت الأميرة. إنها أميرة حقيقية، ونحن متأكدون تماماً من هذا. لكنها مصابة بالسيلان. مهما يكن، الحياة أبعد ما تكون عن الملل هنا. وأصيب فيلمور بالنزلة الشعبية. وكما قلت، أصيبت الأميرة بالسيلان، وأصيبت أنا بالبواسير. لم أكن أقوم سوى بتبديل الزجاجات الست الفارغة من عند البقال الروسي الكائن في الطرف الآخر من الشارع.

ولم تنزل منها قطرة واحدة في حنجرتي. لا لحم، لا خمر، لا طرائد دسمة، لا نساء. فقط فاكهة وزيت اليراقين، وقطرات الأرنيكاء ومرهم الأدرنالين، وممنوع الجلوس على مقعد مريح جداً. والآن، وأنا أنظر إلى الأميرة، أنتصب في جلستي كأتى باشا. باشا! هذا يذكرني باسمها: ماشا. لا يبدو لي اسماً أرستقراطياً. يذكرني بقصة "الجنة الميتة".

في أول الأمر ظننت أنها ستكون شيئاً مريباً، أقصد هذه "العلاقة الثلاثية" لكنها لم تكن كذلك قط. وحين رأيته تدخل ظننت أنه لم يعد لي شأن في البيت، وأن علي أن أجد لي مكاناً آخر. لكن سرعان ما أفهمني فيلمور أنه فقط ينزلها عنده ريثما تقف على قدميها. ولا أعرف ماذا تعني عبارة كهذه مع امرأة مثله، فحسبما أرى كانت أحوالها رخيصة طوال حياتها. تقول إن الثورة سببت نزوحها عن روسيا، لكنني متأكد من أنه لو لم تكن الثورة لكان شيئاً آخر. وهي تتوهم دائماً أنها ممثلة عظيمة، ولم نحاول أن نعارضها في أي شيء تقوله لأنه مضيعة للوقت. وفيلمور يجدها مسلية. حين يتوجه إلى مكتبه صباحاً يترك عشر فرنكات على وسادتها وعشراً على وسادتي، وفي المساء نذهب نحن الثلاثة إلى المطعم الروسي في المنطقة السفلى. الحى مملوء بالروس وقد وجدت ماشا لتوها مكاناً تلجأ إليه عندما تحتاج إلى المال. وطبعاً عشر فرنكات في اليوم لا تساوي أي شيء بالنسبة لأميرة، فهي تريد كافيئاً بين الحين والآخر مع شبنانيا، وهي بحاجة إلى خزانة ملابس جديدة تماماً لتعود إلى العمل في السينما من جديد. ليس لديها ما تفعله سوى قتل الوقت. وهي تزداد بدانة.

هذا الصباح أصبت برعب حقيقي. فبعد أن غسلت وجهي تناولت منشفتها خطأ. ويبدو أننا لا ننجح في تعويدها على تعليق منشفتها على المشجب المخصص لها. وحين وبختها لأجل هذا أجابت بنعومة "يا عزيزي، لو أن هذا يسبب العمى لأحد لأصبت بالعمى منذ سنين طويلة".

ثم هناك المرحاض، وكلنا يستعمله. حاولت أن أكلمها بطريقة أبوية عن مقعد المرحاض، فإذا بها تقول "أوه، اللعنة! إن كنت خائفاً إلى هذا الحد سأذهب إلى مرحاض المقهى"، فأشرح لها أن لا داعي لذلك. فقط كوني

حريصة في استخدامه، فتقول "تت، تت، تت إذن لن أجلس سأبقى واقفة".

في وجودها اضطربت كل الأمور. أولاً أخذت تتحاشانا لأنها كانت تمر بدورتها الشهرية. استمرت ثمانية أيام. وبدأنا نظن أنها تخدعنا. ولكن لا، لم تكن تخدعنا، ففي أحد الأيام، بينما كنت أرتب المكان، عثرت على بعض القطن محشوراً تحت السرير ملطخ بالدم. وكل شيء معها يذهب تحت السرير قشور البرتقال، حشوة السطم، قطع الفلين، زجاجات فارغة، مقص، واقيات ذكرية مستعملة، كتب، وسائد..... ولا تعد السرير إلا عندما تريد اللجوء إليه. طوال الوقت تضطجع على السرير تقرأ صحفها الروسية، وتقول "يا عزيزي، لولا صحفي لما خرجت من السرير أبداً". هذا هو حالها تماماً! لا شيء غير الصحف الروسية. ولا تجدد قطعة واحدة من ورق المرحاض حولك - لا تجدد غير الصحف الروسية لتمسح بها مؤخرتك.

على أية حال بمناسبة الحديث عن حساسياتها المفرطة، فبعد أن انتهى حيضها الشهري، وبعد أن استراحت كما يجب وكدست كمية لا بأس بها من الدهن حول بطنها، ظلت تتحاشانا، مدعية أنها لا تميل إلا إلى النساء، ولكي تقبل برجل يجب أن تستشار أولاً كما يجب. وطلبت منا أن نأخذها إلى بيت للدعارة حيث يعرضون فصل الكلب والرجل. أو ليته يكون، كما قالت، مشهد ليدا والبجعة: فإن تصفيق الجناحين يثيرها بقوة.

و ذات ليلة وعلى سبيل اختبارها، صحبناها إلى مكان اقترحته بنفسها. ولكن قبل أن تتاح لنا فرصة شرح الموضوع للمدام، انخرط إنكليزي ثمل، كان يجلس على المائدة المجاورة في الحديث معنا. كان قد صعد إلى الطابق العلوي مرتين حتي الآن ولكنه أراد أن يجرب مرة أخرى. لم يكن في جيبه غير عشرين فرنكاً، ولا يعرف أية كلمة فرنسية، فطلب أن نساعدته في عقد صفقة مع فتاة وضع عينه عليها. وتصادف أن كانت زنجية، فتاة قوية من المارتينيك، وجميلة جمال فهد. وكان مزاجها رائقاً أيضاً. ولكي يقنعها بقبول فرنكات الإنكليزي المتبقية كان على فيلمور أن يعدها بالذهب معها حالما تنتهي من الإنكليزي. ورأت الأميرة وسمعت كل ما قيل، وأظهرت تحفظها المتعص. لقد أهينت. قال فيلمور "حسن، لقد اردت بعض الإثارة - يمكنك

أن تراقبي وأنا أمارس الجنس!". لم ترغب بمشاهدته بل أرادت أن تراقب ذكر البط، فقال "يا إلهي! إنني جيد مثل ذكر البط في أي يوم تريدن بل ربما كنت أفضل بقليل". وهكذا كلمة جرت أخرى، ووجدنا أخيراً أن الطريقة الوحيدة لتهدئتها هي إحضار إحدى الفتيات لتدغدغ إحدهما الأخرى.... ولما عاد فيلمور مع الزنجية كانت عيناها تلتهبان. وفهمت من طريقة فيلمور في النظر إليها أنها قامت بأداء فائق للعادة، وبدأت أحتاج بدوري، ولا بد أن فيلمور أحس بشعوري هذا، وعمدى صعوبة محبة مجرد الجلوس والنظر، لأنه فحاة تناول من حبيه ورقة بمئة فرنك وقال وهو يصعها بقوة أمامه "أنظر هنا، ربما كنت بحاجة إلى مضاجعة أكثر من أي إنسان. خذ هذه واختر لنفسك من تشاء"، وقد جعلته هذه اللفتة محبباً لدي أكثر من أي شيء آخر فعله لأجلي، وقد فعل الكثير. وقبلت النقود بالروح نفسها التي منحت لي وعلى الفور أشرت إلى الزنجية بالاستعداد لمضاجعة أخرى. ويسدو أن هذا أثار سخط الأميرة إلى أقصى حد. وأرادت أن تعرف ألا يوجد في المكان أفضل من هذه الزنجية. فأجبتها بفظاظة لا. وبت الأمر - وكانت الزنجية هي ملكة الحريم. كان يكفيك أن تنظر إلى وجهها حتى يحصل لديك انتصاب. كانت عيناها تبدوان وكأنهما تسبحان في المني. وكانت ثمة بالطلبات المنهالة عليها. ولم تعد تستطيع أن تسير باستقامة - أو على الأقل هذا ما نجيل إلي. كنت وأنا أتبعها صاعداً الدرج الضيق اللولبي لا أقوى على مقاومة إغراء زلق يدي في فرجها، وتابعنا طريقنا صعوداً ونحن على هذا المنوال، وهي تنظر إلي وتبتسم عرج وتهز مؤخرتها قليلاً حين لا تعود تصبر على شدة الدغدغة.

كانت جلسة طيبة على الجميع. والكل سعيد. حتى ماشا بدت بمزاج طيب. وفي الليلة التالية، بعد أن نالت نصيبها من الشمبانيا والكافيار، ذهب فيلمور ليعمل فيها، وبدا وكأنه قد أوشك على الفوز بجائزته أخيراً، فقد توقفت عن إثارة الشجار، واستلقت على ظهرها وباعدت ما بين ساقها وتركتها يحاورها ويداورها ومن ثم، وما أن بدأ باغتلائها، وكاد أن يدخله فيها تحيره بلا مبالاة أنها مصابة بالسيلان. ورفسها بعيداً عنه كقطعة من الخشب. وأسمعه يتحسس في المطبخ بحثاً عن الصابونة السوداء التي كان

يستخدمها في مناسبات خاصة، وبعد قليل وقف بجوار سريري وهو يحمل منشفة بيديه ويقول "أرأيت؟ بنت الحرام الأميرة مصابة بالسيلان"، وبدأ عليه الخوف الكامل. وكانت الأميرة في تلك الأثناء تمضغ تفاحة وتتصل هاتفياً لإحضار صحفها الروسية. فالأمر بالنسبة لها محض فكاهاة. وتخطبنا وهي مستلقية هناك على السرير من خلال الباب المفتوح "ثمة أشياء أسوأ من هذا". وأخيراً يبدأ فيلمور بدوره بتقبل الأمر على أنه فكاهاة فيفتح قنينة أنجو ويصب لنفسه كأساً ويعبه عباً. ولم تكن الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً لذا جلس ليتحدث معي قليلاً. قال لي إنه لن يدع أمراً كهذا يخلدله. وطبعاً عليه أن يأخذ حذره... فلا يزال يذكر المرض القديم الذي أصيب به في الهافر. ولم يعد يذكر كيف وقع ذلك. أحياناً حين يسكر ينسى أن ينظف نفسه. والأمر ليس مريعاً جداً، ولكن لا يعلم المرء كيف يمكن أن يتطور. لم يكن يرغب في أن يدلك له أحد غدة البروستات. لا، لم يكن يستسيغ ذلك. وقد أصيب به لأول مرة حين كان في الجامعة. ولا يعرف إن كانت الفتاة هي التي نقلت المرض له أو هو الذي نقله إليها، فثمة الكثير من الأشياء الغريبة تجري حول حرم الجامعة حتى أنك لا تعرف من تصدق. جميع الطالبات تقريباً كن يجبلن في وقت من الأوقات. إنهن جاهلات تماماً.... حتى الأساتذة أيضاً كانوا جهلة. وأحدهم أخصى نفسه، كما أشيع....

مهما يكن، في الليلة التالية قرر أن يجازف - بغلاف واق. لا كبير مجازفة في هذا، إلا إذا تمزق. لقد اشترى واحداً من مجموعة جلد السمك الطويل - وأكد لي أنه الأجود. ولكن، حتى هذا لم ينجح. لقد كانت كتيمة جداً. وقال "يا إلهي! ليس بي ما هو غير سوي، فكيف تفهم هذا؟ لا شك في أن أحدهم قد دخل فيها ونقل إليها المرض. لا بد أنه كان قصيراً بصورة شاذة".

وهكذا تتالى الفشل بعد الآخر، وتخلي عن الأمر كله. وأصبحت الآن يستلقيان هناك كأخ وأخت، يحلمان أحلاماً سفاحية. وتقول ماشا، بأسلوبها الفلسفي "في روسيا كثيراً ما يحدث أن ينام رجل مع امرأة دون أن يلمسها. ويمكنهما أن يستمررا على هذا الشكل مدة أسابيع وأسابيع دون أن يفكرا

بالعملية. وفحاة ما أن يلمسها حتى بف! بف! وبعد ذلك يستمر البف،
بف، بف!".

تتركز جميع الجهود الآن لعلاج ماشا. ويفكر فيلمور أنه إذا شفاها من
سيلانها فقد تلين. فكرة غريبة. لذا ابتاع لها حقيبة دوش، وبعض البرمنغانات،
وحقنة دواء وأشياء صغيرة أخرى كان أوصاه بها طبيب هنغاري، وهو
دجال اختصاصي في الإجهاض يقطن قريباً من البلاس داليغر. ويبدو أن
رئيسه كان قد تسبب في حبل فتاة في السادسة عشرة ذات مرة وهي التي
عرفته بالهنغاري، ومن ثم أصيب الرئيس بقرحة تناسلية جميلة واستدعى
الهنغاري مرة أخرى. هكذا يتعارف الناس في باريس - إنها صداقات بول -
تناسلية geneto - urinary . مهما يكن، أخذت ماشا تعتني بنفسها تحت
إشرافنا الصارم. إلا أننا ذات ليلة وقعنا في مأزق صغير. ففقد وضعت
التحmيلة داخلها ولم نعثر على الخيط المعلق بها وصرخت "يا إلهي أين الخيط؟
يا إلهي! إنني لا أرى الخيط!".

فقال لها فيلمور "هل بحثت تحت السرير؟".

وأخيراً هدأت. ولكن فقط لبضع دقائق. أما الحدث الثاني فكان: "يا
إلهي! إنني أنزف من جديد. لقد أنهيت دورتي للتو وها أنا أرى اللطخ من
جديد. لا بد أنه بسبب تلك الشمبانيا الرخيصة التي جلبتها. يا إلهي أتريدني
أن أنزف حتى الموت؟". وتخرج بشوب الكيمونو وقد حشرت منشفة بين
فخذيهما، محاولة كماداتها، أن تبدو محترمة. وتقول "حياتي كلها على هذا
الشكل. إنني منهارة الأعصاب. طوال النهار ألف وأدور وفي الليل أسكر
ثانية. حين أتيت إلى باريس كنت لا أزال فتاة بريئة. لم أقرأ إلا فيلسون
وبودلير. ولكن لما كنت أملك عندئذ ٣٠٠٠٠٠ فرنكاً سويسرياً في البنك
كدت أجن رغبة بالانغماس في المتعة، لأنهم في روسيا كانوا متشددين معي.
وكنت عندئذ أكثر جمالاً مما أنا الآن، كان الرجال يرمون تحت قدمي". وهنا
رفعت بسرعة ثوبها المتراكم عند الخصر "لا يجب أن تظن أنه كان لي كرش
كهذا حين أتيت إلى هنا.... إنه من السموم التي قدمت لي وشربتها... تلك
المشهيات الرهيبة التي يولع الفرنسيون بشربها.... وبعد هذا قابلت مخرجي

السينمائي وطلب مني أن أمثل له مشهداً تمثلياً. قال إنني أروع مخلوقة في العالم وتوسل إلي أن أضاحعه كل ليلة. كنت عذراء صغيرة بلهاء، وهكذا سمحت له باغتصابي ذات ليلة. لقد أردت أن أكون ممثلة عظيمة ولم أعرف أنه مملوء بالسم الزعاف. وأصابني بالسيلان.... والآن أريده أن يأخذه ثانية. لقد حاولت الانتحار في السين بسببه... لماذا تضحك؟ ألا تصدق أنني حاولت الانتحار؟ يمكنني أن أريك الصحف.... إن صورتني تظهر في جميع الصحف. سأريك الصحف الروسية ذات يوم.... لقد كتبوا عني كلاماً رائعاً... لكن، يا عزيزي، أنت تعرف أنني أولاً يجب أن أحصل على ثوب جديد. لا يمكنني أن أغوي هذا الرجل بهذه الأسماك القذرة التي ارتديها. ثم أنني ما زلت أدين للخياط بـ ١٢٠٠٠ فرنك....".

ومنذ هذه النقطة فصاعداً تبدأ قصة طويلة عن الميراث الذي تحاول تحصيله. لديها محام شاب، فرنسي، وهو رعديد، على ما يبدو، ويحاول أن يربح قضية استعادة ثروتها. وبين آن وآخر يعطيها مائة فرنك أو نحوها على الحساب. وتقول عنه "إنه شحيح، كجميع الفرنسيين. ثم إنني كنت جميلة جداً أيضاً، حتى أنه لم يكن يبعد عينيه عني. وظل يتوسل إلي كي أنيكه. ومللت الاستماع إليه حتى أنني في إحدى الأمسيات قلت نعم، فقط لإسكاته، وأيضاً لكي لا أخسر المائة فرنك التي أحصل عليها أحياناً". وسكنت لحظة لتضحك بعصبية. ثم تابعت "يا عزيزي إن ما حدث لي مضحك بحيث يعسر التعبير عنه بالكلمات. فقد اتصل بي ذات يوم هاتفياً ليقول لي يجب أن أراك الآن.... لأمر هام جداً. وحين قابلته عرض علي ورقة من الطبيب - إنه السيلان! يا إلهي، لقد ضحكت في وجهه. كيف كان يمكن أن أعرف أنني ما زلت مصابة به؟ قلت له "أردت أن تنيكني فنكتك"، فسكت. هذه هي الحياة.... في أول الأمر لا ينتابك أي ريب في شيء، وفجأة بف، بف، بف! لقد كان مغفلاً كبيراً حتى يقع في حياثلي مرة ثانية. كل ما طلبه مني كان أن أحترق ولا أقضي الليل متجولة في أرجاء مونبرناس أسكر وأنيك. وقال إنني أدفعه إلى الجنون. وطلب أن يتزوجني ثم سمع أهله عني وأقنعوه بالذهاب إلى الهند الصينية....".

ومن هذا الموضوع تحولت ماشا بهدوء إلى علاقة كانت تقيمها مع إحدى السحاقيات. "كان أمراً مضحكاً، يا عزيزي، حين أخذتني معها ذات ليلة. كنت في "الفتيش" وكنت ثمة كالعادة. وراحت تنقلني من مكان إلى مكان ومارست الحب معي تحت الطاولة طوال الليل حتى هلكت. ثم صحبتني إلى شقتها ومقابل مئتي فرنك تركتها تمتصني. أرادت أن تستبقيني لأعيش معها لكنني كرهت أن تمتصني كل ليلة..... إنه شيء مهلك. ثم أؤكد لك أنني لم أعد آبه بالسحاقيات كما كنت قبلاً. وأفضل أن أضطجع مع رجل على رغم أن هذا يؤذيني. فحين يصل هياجي إلى أقصاه لا أستطيع منع نفسي.... ثلاث، أربع، خمس مرات.... ومن ثم هكذا بف، بف، بف! وأنزف وهذا غير صحي بالنسبة لي لأن لدي استعداداً للإصابة بفقر الدم. لهذا كما ترى يجب أن أدع إحدى السحاقيات تمتصني مرة كل حين....".

ما إن حل فصل البرد حتى اختفت الأميرة. وازداد الوضع قساوة مع قلة فحم المدفأة في الشقة الصغيرة، وباتت غرفة النوم كعلبة من الجليد، ولم يكن المطبخ أحسن حالاً. كانت هناك فقط دائرة صغيرة حول المدفأة تتمتع بدفء حقيقي. وعثرت ماشا على نحات مخصي. وأخبرتنا بشأنه قبل ذهابها. وبعد بضعة أيام حاولت أن تعود إلينا، لكن فيلمور لم يقبلها. اشتكت من أن النحات حرّمها من نوم الليل وهو يقبلها. ثم إنه لا يوجد ماء ساخن لتأخذ دوشها. لكنها أخيراً قررت أنها مع ذلك لا تود أن تعود. "فلا أريد أن أجد ذاك الشمعدان بجاني بعد اليوم، دائماً أجد ذاك الشمعدان إنه يثير أعصابي. لو أنك كنت شاذاً جنسياً لبقيت معك....".

وبذهاب ماشا أصبح لأمسياتنا طابع مختلف. كنا كثيراً ما نجلس بالقرب من الموقد نشرب التودى الساخن ونناقش حياتنا حين كنا في الولايات المتحدة. كنا نتحدث عنها وكأننا لا نتوقع أن نعود إلى هناك قط. وكان لدى فيلمور خريطة لمدينة نيويورك، معلقة على الجدار، واعتدنا أن نقضي أمسيات بكاملها ونحن نقيم مقارنة بين حسنات كل من باريس ونيويورك النسبية. وكان لا بد من أن يتسلل إلى مناقشاتنا شخص ويتمان، ذاك العملاق الفريد الذي أنجبته لنا أميركا خلال حياتها القصيرة. في ويتمان يبعث المشهد الأميركي كله حياً، ماضيها ومستقبلها، ميلادها وموتها. وقد عبر ويتمان عن كل قيمة موجودة في أميركا، ولم يبق شيء ليقال. المستقبل هو للإله، للبشر الآليين. كان ويتمان شاعر الجسد والروح. أول وآخر شاعر. ويكاد اليوم يكون مغلقاً على الفهم، نصباً مغطى بكلمات هيروغليفية

بدائية لا مجال لحل طلسمها. بل إنه لمن الغريب تقريباً ذكر اسمه هنا، فلا مثيل في اللغات الأوربية للغة الروح التي خلدها. أوربا مشبعة بالفن وتربتها مفعمة بعظام الموتى، ومتاحفها تضيق بكنوز مسلوبة، أما ما تفتقده أوربا فهو روح حرة سليمة الصحة، يمكنك أن تسميها "إنسان". كان غوته أقرب مدخل، لكن غوته كان قميصاً محشواً، بالمقارنة. غوته كان مواطناً محترماً، متحذلقاً، ملولاً، روحاً كونية، لكنه مختوم بالعلامة الألمانية التجارية، بالصقر المزدوج. إن صفاء غوته، وهدوءه، وموقفه الأولمبي، ما هو إلا غيبوبة النوم لإله برجوازي ألماني. إن غوته هو نهاية شيء، وريتما هو بدايته.

بعد مناقشة من هذا النوع كنت أحياناً أرتدي ثيابي وأخرج لأتمشى، مرتدياً كتزة سميكة، ومعطف فيلمور الريعوي وفوقه رداء الكتفين. إن البرد الرطب الشنيع لا مجال لمجابهته إلا بروح قوية. يقال إن أميركا هي بلد الدرجات القصوى، وصحيح أن ميزان الحرارة يسجل درجات من البرودة لا يسمع بها، عملياً، أحد هنا، لكن برد شتاء باريس هو برد لا تعرفه أميركا، إنه نفسي، داخلي بقدر ما هو خارجي. فإذا كان البرد لا يصل إلى درجة التجمد هنا فإنه لا يزول أيضاً. وكما يحتمي الناس ضد غزو عزلتهم بجدرانهم العالية، بأقفالهم ومصاريع نوافذهم، بحجابهم المزجرجين، البذيين، ذوي الألفاظ القذرة، كذلك تعلموا أن يحتموا ضد برودة وحرارة مناخ قوي ومنشط. لقد حصنوا أنفسهم: الحماية هي كلمة السر. الحماية والأمان. وذلك كي يتعفوا بارتياح. وفي ليلة شتائية رطبة ليس من الضروري أن ننظر إلى الخريطة لنكتشف خط عرض باريس. إنها مدينة شمالية، مخفر أمامي أقيم فوق مستنقع مملوء بالجماجم والعظام. على طول الشوارع تمتد محاكاة كهربائية باردة للحرارة. وعبارة "tout va bein" كتبت بأشعة فوق بنفسجية تجعل زبائن سلسلة مقاهي دوبون يدون كجثث مصابة بالآكال. "tout va bien" هذا هو الشعار الذي يقتات عليه المتسولون البائسون الذين يتسكعون طوال الليل تحت رذاذ الأشعة البنفسجية. حيثما توجد الأضواء يوجد قليل من الدفء. ويتدفأ المرء بالنظر إلى أولاد حرام بدينين مطعمين وهم يجرعون مشروباتهم، ويرتشفون أكواب القهوة السوداء المتبخرة. وحيثما توجد الأضواء يوجد أناس يقفون على الأرصفة، يحك بعضهم بعضاً، يعيشون قليلاً من الحرارة الحيوانية من خلال

ثيابهم الداخلية القذرة، وأنفاسهم الكريهة المجدفة. وقد يبدو على مدى ثمانية أو عشرة من الأبنية مظهر من البهجة، وفجأة يتراجع مسرعاً داخل الليل، ليل موحش، بشع، أسود كتشمع متجمد في وعاء حساء. كتل وكتل من المباني المتلصقة، كل نافذة فيها موصلة بإحكام، كل واجهة محل مزلجة ومقفلة. أميال وأميال من السجون الحجرية تخلو من أوهى وهج من دفء الكلاب والقطط كلها في الداخل مع عصافير الكناري. حتى الصراصير وبق الفراش محجوزة بآمان. tout va bien. إذا لم يكن معك سو واحد فلماذا لا تأخذ صحفاً قديمة وتفترش درج الكاتدرائية. الأبواب محكمة الإغلاق ولا خوف من إزعاج التيارات الهوائية. وأفضل من هذا أن تنام على عتبة أبواب المئذنة، فهناك ستجد لنفسك رفيقاً. أنظر إليهم في ليلة ماطرة، متمددون هناك، متيسرون كالحشيات - رجال، نساء، قمل، كلهم رابضون معاً تحميهم الصحف من البصاق والهمام التي تمشي بلا سيقان. أنظر إليهم تحت الجسور أو تحت سقيفات السوق العامة. كم يبدوون حقيرين بالمقارنة مع الخضروات النظيفة المعلقة المرصعة كالجواهر. حتى الخيول الميتة والأبقار والمواشي المعلقة من الخطافات المشحمة تبدو أكثر إغراءً. إننا على الأقل سنأكل هذه اللحوم غداً وحتى الإمعاء ستكون ذات نفع. لكن هؤلاء المعدمين القديرين المستلقين تحت المطر، إلام يهدفون؟ ماذا يمكن أن يقدموا لنا؟ إنهم يجعلون قلوبنا تنفطر عليهم مدة خمس دقائق، وهذا كل شيء.

آه، حسن، ما هذه إلا أفكار ليلية يفرزها المشي تحت المطر بعد ألفي عام من سواد المسيحية. على الأقل الآن أطعمت العصافير والقطط والكلاب جيداً. كلما أمرت تحت نافذة الحاجة ألح نظرتها الجليدية القاسية تمسني رغبة مجنونة في خنق جميع عصافير الكون. ففي قرارة كل قلب متجمد ثمة قطرة أو قطرتان من الحب - كافيتان لإطعام العصافير.

ما زلت عاجزاً عن نسيان مدى التناقض القائم بين الفكر والحياة. إنه تشويش مستمر، بالرغم من أننا نحاول تغطيتهما بكساء لماع. لكنه لن ينفع. فيجب أن تكون الأفكار مقرونة بالعمل، فبدون الجنس بدون الحيوية، لا عمل. الأفكار لا توجد في فراغ العقل. الأفكار متصلة بالعيش: أفكار كبدية، أفكار

كلوية، أفكار معوية.... إلخ. لو أن الفكر هو للفكر نفسه لحطم كوبرنيكوس الوجود ولغرق كولومبوس في بحر سارغاسو. إن جمالية الأفكار تنتج أصص الزهور وأنت تضع أصص الزهور على طرف النافذة. ولكن إذا لم يكن ثمة مطر أو شمس فما نفع وضع أصص الزهور خارج النافذة؟

لدى فيلمور الكثير من الأفكار عن الذهب. ويسميا "أساطير" الذهب. أحب الـ "أساطير" وأحب فكرة الذهب، لكن لا اهتمام لدي بالموضوع ولا أرى داعياً لصنع أصص للزهور، حتى وإن تكن من ذهب. يقول لي إن الفرنسيين يخفون ذهبهم داخل حجيرات مملوءة حتى آخرها بالماء وهي بدورها موجودة عميقاً تحت الأرض، ويقول لي إن ثمة قطارا صغيراً يتجول داخل هذه الأقبية والأروقة تحت أرضية. تعجبي الفكرة أيما إعجاب. صمت عميق، لا يعكره شيء، يغفو فيه الذهب بهلوء في درجة حرارة تبلغ ١٧، ٥ درجة مئوية. وهو يقول إن جيشاً يعمل ٤٦ يوماً و٣٧ ساعة لن يكون كافياً لإحصاء كل الذهب المخبأ تحت بنك فرنسا، وأنه يوجد مخزون من الأسنان المستعارة، والأساور وخواتيم الزواج، إلخ، ويوجد أيضاً طعام يكفي ثمانية أيام وثمانية بحيرة فوق كومة الذهب لمقاومة الهزة الناجمة عن الانفجارات الهائلة. ويقول إن الذهب يغدو خفياً أكثر فأكثر، أسطورة، ولن تحدث اختلاسات أخرى. رائع! أتساءل ماذا سيحدث للعالم حين سنبعد عن قاعدة الذهب في الأفكار، والمليس، والأخلاق، إلخ، عن "قاعدة الذهب في الحب".

حتى هذا الوقت كانت فكرتي عن تعاوني مع نفسي هي في الابتعاد عن قاعدة الذهب في الأدب. لقد كانت فكرتي باختصار هي أن أحدث نهضة في الشاعر، أن أصور سلوك كائن بشري ضمن جو ستراتفوري من الأفكار، أي، في قبضة الهذيان، أن أرسم مخلوقاً ما قبل - سقراطي، نصفه تيس، ونصفه جبار. باختصار أن أقيم عالماً على أساس النصب المركزي omphalos، وليس على فكرة مجردة مسمرة على صليب. وقد تصادف فيه هنا وهناك ثنائيل مهمة، وواحات لم تطأها قدم، وطواحين هواء عاينها سرفانتيس، أنهاراً تصعد التل، نساء ذوات خمسة أو ستة أئداء مرتبة طولانياً على طول الجذع، (كتب ستريندبرغ إلى غوغان، قال: "رأيت أشجاراً لم

يعرفها عالم نبات، وحيوانات لم تكن لتخطر على بال كوفييه وأناساً لا يستطيع غيرك خلقهم".

حين بلغ رامبرانت القيمة الإسمية هبط مع قوالب الذهب والطعام والأسرة الخفيفة. الذهب كلمة ليلية تنتمي إلى العقل التحت أرضي: chthonian^(١٤) تحتوي على حلم وأساطير. إننا نرتد إلى علم الخيمياء، إلى تلك الحكمة الإسكندرية الزائفة التي أنتجت رموزنا الضخمة. لقد خزن بخلاء المعرفة الحكمة الحقيقية في أقبية تحتية، وسيأتي اليوم الذي سيلورون فيه حول أنفسهم في الطبقة الجوية الوسطى مزودين بأجهزة ممغنطة، ولكي تعثر على قطعة فلز سيكون عليك عندئذ أن تصعد في الجو عشرة آلاف قدم مزوداً بالتين - ويفضل أن يكون هذا في منطقة باردة - وتقيم اتصالاً تخاطرياً مع أحشاء الأرض وأشباح الموتى. لم يعد هناك مناجم ذهب، ولا مناجم ثراء. عليك أن تتعلم قليلاً من الغناء والطفر، أن تقرأ الطالع وتدرس أحشاءك. إن كل الذهب المنجأ بعيداً في جيوب الأرض يجب أن يعاد استخراجها، يجب إخراج كل هذه المظاهر الرمزية من أحشاء الإنسان. ولكن يجب أولاً أن تحسن الأدوات حتى الكمال. من الضروري أولاً أن تبتكر طائرات أفضل، أن تعرف "مصدر" التشويش وأن لا تخرج عن وعيك لمجرد أن تسمع انفجاراً من تحتك. وثانياً من الضروري أن تعتاد على الطبقات الجوية الباردة الستراتفورية، أن تصبح سمكة فضائية ذات دم بارد. لا توقير. لا شفقة. لا ندامات. لا هذيان. وقبل كل شيء، وكما يقول فيليب داتس "لا إحباط!"

هذه أفكار مشرقة ألهمني إياها خمر فيرموث في البلاس دو لا ترينيتيه. إنه بعد ظهر يوم سبت وبين يدي كتاب "محقق". كل شيء يسبح في سائل مخاطي مقدس. الخمر يخلف وراءه مذاقاً عشياً مرّاً في فمي، ورواسب حضارتنا الغربية العظمية تتعفن الآن كأظافر أقدام القديسين. النسوة تمر - أفواجاً أفواجاً - كلهن يهززن مؤخراتها أمامي، وأحراس الكنيسة تقررع والباصات ترتقي الأرصفة وتقبل بعضها. صبي المقهى يمسح الطاولة بخرقه قذرة بينما سيده يدغدغ صندوق المحاسبة بطرب شيطاني. وعلى وجهي نظرة بلهاء، سكرى، غامضة

(١٤) - الأصل باللغة الفرنسية - المترجم.

بحدة، تقررص المؤخرات التي تحف بي. وفي برج الكنيسة عند الطرف المقابل يقرع الأحذب الأجراس بمطرقة من ذهب والحمام يصرخ من الفزع. أفتح الكتاب الذي سماه نيتشه "أفضل كتاب الماني موجود". يقول: "سيصبح الرجال أكثر حذقاً وأكثر ذكاءاً، ولكن ليس أفضل، أو أسعد، أو أقوى في الفعل - هذا ما سيحدث، على الأقل، في عهود معينة. إنني أستشرف وقت لن يقي الله فيهم أية بهجة، بل سيبيد كل شيء ليبدأ خلقاً جديداً. أنا متأكد من أن كل شيء مقرر له أن ينتهي هذه النهاية، وأن زمن ذلك وساعته محددان في المستقبل البعيد. ولكن قبل ذلك سينقضي ربح من الزمان، وقد تبقى آلاف وآلاف من السنين تتسلى على هذه الأرض العتيقة العزيرة".

ممتازاً على الأقل فقبل مئة عام كان هناك رجل لديه رؤى كافية ليدرك أن العالم قد تورم. "عالمنا الغربي" - حين أشاهد قامات الرجال والنساء تتحرك بلا مبالاة خلف جدران سجنهم مطمئنين، منعزلين لبضع ساعات، ارتعد من الطاقات الهائلة التي لا تزال كامنة في هذه الأجساد الواهنة. خلف الجدران القائمة ثمة شرارات إنسانية، ومع ذلك فلا حريق. وأتساءل، هلي هؤلاء رجال ونساء، أم هم ظلال، ظلال دمي، معلقة بخيوط خفية؟ ظاهرياً يبدو وكأنهم يتحركون بحرية، ولكن ليست لديهم وجهة ييغونها. هم أحرار في عالم واحد فقط يتنقلون فيه على هواهم - لكنهم لم يتعلموا بعد كيف يخلقون. حتى الآن لم توجد بعد أحلام مخلقة. لم يولد بعد رجل خفيف بما يكفي، "مرح" بما يكفي، ليقدر على مغادرة الأرض! الصقور التي صفقت قليلاً بأجنحتها الجبارة تحطمت بقوة على الأرض. أصابتنا بالدوار من تصفيق وخفقان أجنحتها. إبقى على الأرض يا صقور المستقبل! السماوات ريدت، وهي خاوية. وما تحت الأرض خواء أيضاً، مملوء فقط بالعظام والأشباح. إبقى على الأرض واسبحي بضع مئات أخرى من آلاف السنين!

الساعة الآن الثالثة صباحاً ومعنا عاهرتان تقومان بشقلياتهما على البلاط. فيلمور يتجول وهو عار وفي يده كأس، وبطنه مشدود كالطبل وقاس كالناسور. وكل البرنو والشمبانيا والكونياك والآنجو الذي عبه منذ الثالثة من بعد الظهر وحتى الآن، يغرغر في محبسه كالجحور. وتضع الفتاتان

أذنيهما علي بطنه وكأنه صندوق موسيقى، وتفتحان فمه بالمررة وتضعان قرصاً معدنيا في الشق. وحين يغرغر المجرور أسمع الوطاويط تطير خارجة من برج الكنيسة وينزلق الحلم ليغدو خدعة بارعة.

تعرت الفتاتان وأخذنا نتفحص الأرضية لتأكد من أنهما لن تصابا بأية شظية في مؤخرتيهما. لا زالتا ترتديان حذاءيهما ذوا الكعب العالي. ولكن المؤخرة! المؤخرة مهترئة، مكشوفة، ومسنفرة، ناعمة، صلبة، لامعة ككرة البليارد أو كجمجمة المخلوم. على الجدار علفت صورة مونا: إنها تواجه ناحية الشمال الشرقي على خط واحد معه كلمة "كراكو" مكتوبة بالحبر الأخضر. إلى يسارها كلمة "دوردوني" محاطة بدائرة بقلم خشب أحمر. وفجأة أرى شقاً معتماً شعراً على كرة بليارد صقيلة لامعة، وتضمني الساقان كطرفي مقص. وألقي نظرة إلى ذاك الجرح المعتم المفتوح، فينفتح في رأسي صدع عميق: وتتدفق منه كل الصور والذكريات التي، بقصد أو بلا قصد، صنفت، وبوبت، ودعمت بالوثائق، وضربت، وختمت، ووضع عليها الطابع، تتدفق عشوائياً كمنل ينهمر من شق على الرصيف، ويكف العالم عن الدوران ويتوقف الزمن، حتى ترابط أحلامي يتفكك وينحل وتتدفق أحشائي بانلفاع انفصامي عظيم، إنه تفريغ يتركني وحهاً لوجه مع المطلق. أرى من جديد أمهات ييكاسو المتمددات الضخمات، أئداءهن مغطاة بالعناكب، أسطورتهن مخبأة عميقاً في المتاهة، ومولي بلوم^(١٥) مستلقية على حشية قذرة إلى الأبد. وعلى باب المرحاض رُسِمت أيور ذكرية حمراء بالطباشير والسيدة العذراء تطلق صرخة متناغمة من هول الكارثة. وأسمع ضحكة وحشية هستيرية، وثمة غرفة ملأى بالكزاز، والجسم الذي كان أسود صار يتوهج كالفسفور. ضحك وحشي، وحشي لا يمكن كبحه بحال من الأحوال، وذاك الشق يضحك من خلال سبتيه الطحليتين، ضحكة تغضن سطح كرة البليارد اللامع الصقيل. عاهرة عظيمة وأم الإنسان في عروقها يجري شراب الجن. يا أم جميع العاهرات، العنكبوت يدحرجنا إلى قبرك اللوغاريتمي، قبرك النهم، شيطان رحيم يمزقني ضحكاً! أنظر داخل فوهة الركان الغائصة تلك، إلى عالم ضائع لم يخلف وراءه

(١٥) - بطله زوايه "عوليس" لجيمس جويس - المترجم.

أي أثر، وأسمع أحراساً تقرر، وثمة راهبتان في ساحة ستانيسلاس ورائحة زبد فاسد تنبعث من تحت أثوابهن، وبيان رسمي يطبع لأنها كانت تمطر، وحرب أضرمت تأييداً للجراحة التقويمية، وأمير ويلز يطير حول العالم ليزين قبور أبطال معهولين. وكل وطواط يطير خارجاً من برج الكنيسة هو سبب ضائع، كل صبيحة فرح هي أنين منبعث من المذيع من الخنادق الخاصة بالملعونين. من ذاك الجرح، المظلم، المفتوح، بالوعة الأحقاد تلك، مهد مدن غارقة في السواد حيث تفرق موسيقى الأفكار في شحم بارد، ومن مدن فاضلة مشنوقة ولد مهرج، مخلوق موزع بين الجمال والقباحة، بين النور والفوضى، مهرج حين ينظر إلى أسفل وبشكل منحرف يكون الشيطان عينه، وحين ينظر إلى أعلى يرى ملاكاً مدهوناً بالزبد، حلزواً مجنحاً.

عندما أنظر داخل ذاك الشق أرى إشارة مساواة، العالم في حالة توازن، علماً مختصراً إلى الصفر ولا أثر لباقي. إنه ليس صفراً كالذي سلط عليه فان نوردن ضوءه الكاشف، ليس الشق الفارغ للإنسان المحيط قبل الأوان، بل هو أقرب إلى الصفر العربي، الإشارة التي تنبثق منها عوالم رياضية لا نهاية لها، نقطة الارتكاز التي توازن النحوم والأحلام الخفيفة والآلات الأخف وزناً من الهواء والأعضاء الخفيفة الوزن والمتفجرات التي تتجههم جميعاً. أود أن أنفذ إلى داخل ذاك الشق وأصعد منه إلى العينين، وأجعلهما تهتزان بعنف، تينك العينين، العزيزيتين، المجنوتتين، اللتين تنتميان إلى علم المعادن. عندما ستهتز العينان سأسمع من جديد كلمات دوستوفسكي، أسمعها تتدحرج على صفحة بعد صفحة، بانتباه عظيم الرفاهة، بأكثر طرق الاستبطان جنونا، بكل أصوات البؤس الخفيفة التي تارة تلمس برقة وطرافة، وطوراً كنغمة الأرغن حتى يكاد القلب ينفجر ولا يبقى إلا ضوء مبهر حاد، مشع يحمل بذور النحوم المخصبة. إنها قصة الفن الذي تمتد جذوره في المذبحة.

حين أنظر إلى عمق ذاك الكس المتناك تماماً لعاهرة أشعر بالعالم كله تحت قدمي، عالم يتداعى وينهار، عالم مستهلك وملمع كجمجمة مجذوم. لو أن هناك رجلاً يجرؤ على قول كل ما يدور في خلده عن هذا العالم لما بقي له قدم مربع واحد على الأرض ليقف عليه. وعندما يظهر للوجود رجل حق ينقض

عليه العالم كله ويقصم ظهره. هناك دائماً الكثير من الأعمدة العفنة تظل قائمة، وهناك الكثير من الإنسانية المتقرحة تنتظر الإنسان ليزهرها. البناء الفوقي كذبة والأساس خوف هائل مزلزل. فإذا ظهر بين تضاعيف القرون رجل يحمل في عينيه نظرة يأس وجوع، رجل قادر على قلب العالم رأساً على عقب لكي يخلق سلالة جديدة، يحول الحب الذي يجلبه إلى العالم إلى نكد ويصبح هو بلاءاً. لو أننا نصادف بين حين وآخر صفحات تتفجر، صفحات تخرج وتلفح، تنتزع الأئين والدموع واللغات، فاعلم أنها آتية من رجل متصبب القامة، رجل ليس لديه ما يحميه إلا كلماته وكلماته هي دائماً أقوى من ثقل العالم الجرائم الساحق، أقوى من كل مخالغ ودواليب التعذيب التي يخترعها الجبناء لسحق معجزة الذات الشخصية. لو جرؤ أي رجل على ترجمة كل ما يعتلج في قلبه، أن يخط تجربته الحق، حقيقته الفعلية، فأعتقد أن العالم سيتفتت، سينسف إلى ذرات ولن يتمكن أي إله، أو حدث جلل، أو إرادة أن تعيد تجميع هذه الشذر، الذرات، العناصر الخالدة التي بات من المستحيل أن تعيد تكوين العالم.

خلال الأربعمئة سنة منذ ظهور آخر روح مفترس، أي آخر رجل عرف معنى النشوة، كان هناك انحدار مستمر ومضطرب للإنسان في الفن، في الفكر، وفي الفعل. العالم متورم: ولم يبق أي ضراط جاف. مَنْ ممن له عين يائسة جائعة يمكنه أن يولي أدنى اعتبار لهذه الحكومات، والقوانين، والديساتير، والمبادئ، والمثل، والأفكار والرموز المقدسة، والمحظورات المقدسة السائدة؟ لو أن أي إنسان عرف مغزى قراءة لغز هذا الشيء الذي يسمى هذه الأيام "شق" أو "ثقب" لو كان لأي امرئ أدنى حس بالغموض الذي يحيط بالظاهرة التي توصف بالـ "فاسقة" لصعق هذا العالم أشلاءً. إن الرعب الفاسق، الجانب الجاف، المتناك تماماً من الأشياء هو الذي يجعل هذه الحصارة المجنونة تبدو كفوهة بركان. هذه الهوة العظيمة الفاعرة من العدم هي ما تحمله الأرواح الخلاقة وأمهاات الجنس البشري بين سيقانهم. حين يظهر للوجود روح جائع يائس ويدفع الخنازير الغينية على الزعيق فذلك لأنه يعرف أين يضع سلك الجنس الحي، لأنه يعرف أن تحت درع اللامبالاة يختفي الجرح البليغ البشع، الجرح الذي لا يلتئم. ويضع السلك الحي بين الساقين بالضبط، ويضرب تحت الحزام، ويسفع الأحشاء نفسها. لا فائدة من ارتداء قفاز

مظاطي، فكل ما يمكن أن يُعمل بروية وذكاء يتعلق بالذرع القاسي والإنسان المصمم على الخلق دائماً يغوص أعمق، حتى يصل إلى الجرح المفتوح، إلى الرعب الفاسق العفن. إنه يحرك المحرك حتى أدق أجزائه، ولو لم يبق غير جرح مفتوح إذن لكان شيئاً رائعاً. إذن فالقوهة البركانية الجافة المتناكة هي فاسقة. إن الأشد فسقاً من أي شيء هو الجمود، والأشد كفرةً من ألعين تجديف هو الشلل. ولو لم يبق غير جرح مفتوح فيجب أن ينبجس حتى وإن كان كل ما يخرج منه شراغف ووطاويط وأقزام.

كل شيء محصور داخل لحظة وهي إما مكتملة وإما غير مكتملة. الأرض ليست نجداً قاحلاً من الصحة والراحة، بل أثى ضخمة ممتدة على طولها لها جذع غملي يتنفخ ويرتفع كأمواج المحيط، إنها تتلوى تحت تاج من العرق واللم. وتندرج بين السحب عارية مشيرة يغمرها ضوء النجوم البنفسجي. كلها، من ثدييها السخيين إلى فخذيها المتلألئين، تتقد بحرارة ملتهبة. تتقل بين الفصول والسنين بصخب مرح عظيم يلف جذعها بنوبة غضب، ينفض خيوط العنكبوت عن السماء، إنها تستقر على مدارها المحوري بارتعاشات بركانية. أحياناً تبلو كظبية، ظبية وقعت في شرك ولبثت تنتظر بقلب خافق ضجيج الصنوج وعواء الكلاب. حب وكراهية، يأس، شفقة، غضب، اشمئزاز - ما أهمية كل هذا وسط آثام الكواكب؟ ما الحرب، والمرض، والقسوة، والرعب، حين يمنح الليل نشوة شمس ملتهبة لا تحصى؟ ما هذا التبن الذي نمضغه أثناء نومنا إن لم يكن ذكرى ناب ملته ومجموعة نجوم.

كانت مونا دائماً تقول لي، في فورات شعورية، "أنت مخلوق عظيم". وعلى رغم أنها تركتني هنا لأفنى، على رغم أنها وضعت تحت قدمي هاوية عظيمة تعوي من العدم، فإن الكلمات التي تقبع في أعماق روحي تنتفض وتضيء الظلام الكامن أسفلي. أنا إنسان ضاع في الحشد، دوختني الأضواء التي تمور، صفر رأى كل ما حوله بمسح إلى زيف. مر بي رجال ونساء يشتعلون بالكبريت، وجمالون بأثواب من كالسيوم يفتحون فوهة الجحيم، وشهرة تمشي على عكاز، ضاءلتها ناطحات السحاب، مضغتها الآلات بفمها الشائك حتى الاهتزاز. مشيت بين الأبنية الشاهقة متوجهاً إلى برودة النهر ورأيت الضواء

تُقذف عالياً من بين أضلاع الهياكل العظيمة كالصواريخ. لو أنني كنت مخلوقاً عظيماً حقاً، كما قالت، فما معنى تلك البلاهة المستعبدة التي كانت تحيط بي؟ لقد كنت رحلاً ذا حسد وروح، ذا قلب لا تحميه قنطرة فولاذية. مررت بأوقات نشوة وصدحت بشعر مشتعل. غنيت عن مسطرة الاستواء، عن ساقها ذوي الريش الأحمر، وعن الجزر وهي تغيب عن الأنظار. ولكن لا أحد سمع. أطلقت عبارات نارية من بندقيّة عبر الشلالات الباسيفيكية نحو الفضاء لأن الأرض كروية والحمام تطير وهي مقلوبة. رأيته تنظر إلي عبر الطاولة بعينين حزينتين، والأسى يمتد نحو الداخل ويفلطح أنفه على عمودها الفقري، نقي العظام المنخفض ليصير شفقة تحول إلى سائل. كانت خفيفة كجثة طافية في البحر الميت. أصابعها تنزف حزناً والدم تحول إلى لعاب. مع مجيء الصبح الندي ضج قرع النواقيس المتواصل على طول شبكة أعصابي وكانت ألسنتها تطرق على جدار قلبي وترن بنجبت معدني. والغريب هو أن تضح النواقيس هكذا، ولكن الأكثر غرابة هو تفجر الجسد، وتحول هذه المرأة إلى ليل وكلماتها البرقية تنخر في الحشية. وانتقلت إلى ما تحت خط الاستواء، سمعت الضحك الشنيع للضبع ذي اللثة الخضراء، رأيت ابن آوى ذا الذيل الحريري والحمار والفهد المنقط، كلهم بقوا في جنة عدن. ثم اتسع حزنها، كاتساع قوس المدرعة وغمر ثقل غرقها أذني. الطمي اللزج والياقوت الأزرق ينزلق، يتدفق خلال الخلايا العصبية المرحّة، والأطراف تتراكب والشفائر تغوص. سمعت عربات المدافع تدور بوقع كخطوة الأسد المكتومة، رأيتهما تنقياً وتريل: قبة السماء تراخت والنجوم اسودت. ومحيط أسود ينزف والنجوم الحاضنة تلد قطعاً من اللحم الدسم الطري والعصافير في الفضاء انطلقت مسرعة ومن السماء المهلوسة سقط الميزان مع هاون ومدقته وعيني العدالة المعصوبتين. وكل ما أذكره هنا يتحرك بخطوة خيالية على طول الخطوط المتوازية لأجرام سماوية مندثرة، وكل ما رأيته المحاجر الخاوية يتفجر كعشب مزهر. من العدم تنهض بشارة الأبدية، وتتعمق ببطء الحفرة الواسعة تحت اللوالب الصاعدة أبداً. اليابسة والماء يصلان الأرقام ببعضها البعض، وقصيدة مكتوبة باللحم وهي أقوى من الفولاذ أو الغرائث. وتدوم الأرض في ليل أبدي متجهة نحو خلق مجهول....

اليوم استيقظت من نوم عميق وعلى شفتي سباب منبعه الفرح، وعلى

لساني بربرة مبهمة، أردد لنفسي شيئاً كالابتهاال – "إفعل ما يحلو لك!...
إفعل ما يحلو لك! إفعل أي شيء، ولكن ليكن ناشراً للفرح. إفعل أي شيء،
ولكن ليكن باعثاً للنشوة. عندما أقول هذا لنفسي تموج في رأسي حشود
غفيرة: صورة بعضها مرح، بعضها فظيع، بعضها يثير الجنون، الدثب والعنزة،
العنكبوت، السلطعون، سفلس بجناحين مفروشين وباب الرحم دائماً مزيج،
دائماً مفتوح، مهياً كالقصر. شبق، جريمة، قداسة: حيوات أجبائي، فشل
أجبائي، الكلمات التي خلفوها، الكلمات التي لم يكملوها، الخير الذي جرّوه
وراءهم والشر، والحزن، والتنافر، والضعيفة، والصراع الذي خلقوه. ولكن
قبل كل هذا "النشوة"!

أشياء، أشياء معينة عن أجبائي القدامى تثير الدموع في عيني: المقاطعات
أثناء الكلام، الفوضى، وقبل كل شيء، الحقد الذي أثاروه. حين أفكر في
تشوّهاتهم، في الأزياء الرهيبة التي كانوا يختارونها، في الادعاء الفارغ لأعمالهم
والضجر الذي أثارته، في كل الفوضى العارمة والبلبلّة التي كانوا يتخبطون فيها،
والموانع التي أقاموها حولهم، أشعر بفيض من الانتشاء. كانوا جميعاً يتمرغون في
قذارتهم. وكلهم رجال مغالون في التدقيق. وصحيح تماماً أنني أميل إلى القول: "أرني رجلاً يغالي في التدقيق أركّ رجلاً عظيماً". إن ما يسمى بـ "مغالاتهم في
التدقيق" هو ما أحتاج إليه: إنها دلالة الصراع، هي الصراع نفسه مع كل
الطبائع المتعلقة به، إنها هالة الروح المتناقضة وحوها الخاص. وحين تريني رجلاً
يعبر عن نفسه بدقة قلن أقول إنه ليس عظيماً، ولكن سأقول إنه لا يشير
اهتمامي.... إنني مشتاق إلى الخواص المتخمة. حين أفكر كيف أن المهمة التي
يتكبتها الفنان ضمناً هي قلب القيم السائدة، وتنظيم الفوضى التي تعيث حوله،
على طريقته، وإثارة الشقاق والهياج وذلك كي يعود الموتى إلى الحياة عن طريق
تحرير الشعور، عندئذ أهرع بفرح إلى العظماء غير الكاملين، لأن اضطرابهم
يغذي، وتأتأتهم في أذني موسيقى علوية. أرى في الصفحات المتفخخة بشكل
حميل التي تلي المقاطعات الكلامية آثار محو تعديت صغيرة، وآثار الأقدام
القدرة، إذا جاز التعبير، للجناء، والكذابين، واللصوص، والمخربين، والمفترين.
أرى في العضلات المنفوخة لحناجرهم الصداحة الجهد المذهل الواجب الذي
بذلوه لتدوير الدولاب، للانطلاق من جديد من حيث كان التوقف. أرى أن

وراء المزعجات اليومية والتعدييات، خلف الخبث الرخيص المتألق للضعفاء والكسالى يقف رمز قوة الحياة المحبطة، وإن من استطاع أن يخلق نظاماً، من يزرع بذور الشقاق والفوضى، لأنه مشبع بالإرادة، مثل هذا الرجل يجب أن يذهب مراراً وتكراراً إلى الخازوق والمشقة. أرى أن خلف نبالة إيماءاته يكمن شبح سخافة كل شيء - إنه ليس فقط سامياً، بل وتافه.

في وقت من الأوقات اعتقدت أن أسمى هدف يمكن لإنسان أن يبلغه هو أن يكون إنسانياً، أما الآن فأرى أن ذاك الاعتقاد كان جديراً بتدميري. اليوم أنا فخور إذ أقول إنني "لا إنساني"، إنني لا أُنتمي إلى الناس والحكومات، وأنه لا شأن لي بآلية الإنسانية الصارة - أنا أُنتمي إلى الأرض! أقول هذا وأنا أسند رأسي إلى الوسادة، وأكاد أشعر بقرنين ينبتان من صدغي. أرى حولي جميع أسلافي المعتوهين يرقصون حول السرير، يواسوني، يحثوني على الاستمرار، يسوطوني بالسنتهم الأفعرانية، يكشرون وينظرون إلي شزراً بجماعهم المتسللة. "أنا لا إنساني".

أقولها وأنا أرسم ابتسامة عريضة بجنونة هاذية، وسأظل أقولها على رغم أن الدنيا تمطر تماسيح. خلف كلماتي تكمن تلك الجماجم المتسللة بابتساماتها العريضة ونظراتها الشزرة، بعضها ميت يرسم تكشيره العريضة منذ زمن طويل، وأخرى تكشر وكأنها مصابة بالكزاز، وبعضها يكشر وكأنه يدعي التكشير العريض، إنه الدلالة السابقة والنتيجة اللاحقة لكل ما يجري دائماً. أما ما أراه أوضح من كل شيء فجمعهمي المكشرة، أرى الهيكل العظمي يرقص في وجه الريح، وأفاعي تنبثق من اللسان العفن والصفحات المتفخخة بالنشوة ملطخة بالغائط. وأضرم قذارتني، وغائطي، وحنوني، ونشوتي إلى الدارة الضخمة التي تجري خلال الأقواس تحت الأرضية للحم. سيجري كل هذا القبيء الذي لا يريده أحد ولا يطلبه، قبيء السكر، بلا توقف عبر عقول أولئك القادمين ليصب في الوعاء الذي لا يكل ويحوي تاريخ البشر. وجنباً إلى جنب مع السلالة البشرية تجري سلالة أخرى من المخلوقات، السلالة اللاإنسانية، سلالة الفنانين الذين، بإلحاح من دوافع مجهولة، يأخذون الكتلة الميتة من الإنسانية ويحولون، بالحمية والهاج نفسيهما اللتين تشرباها، هذه العجينة الرطبة

إلى خبز، والخبز إلى خمر والخمر إلى أغنية. ومن السماد الميت والخبث الراكد يستخرجون أغنية تلوث. أرى هذه السلالة الأخرى من أفراد يفتشون الكون بدقة، يقلبون كل شيء رأساً على عقب، وأقدامهم تفوص باضطراب في الدم والدموع، وأيديهم دائماً فارغة، ودائماً تتشبث وتمسك بالغيب، ياله بعيد المنال، يذبحون كل ما يقع تحت أيديهم لتهدئة الوحش الهائل الذي ينهش أعضاءهم الحيوية. أرى أنهم حين ينتفون شعورهم وهم يركزون بقوة ليفهموا، ليقبضوا على ذاك البعيد المنال أبداً، أرى أنهم عندما يجأرون كوحوش مخبولة ويمزقون ويخربون، أرى أن هذا حق، أنه لا وجود لدرب آخر يسلك. إن أنساناً ينتمي إلى هذه السلالة يجب أن يقف فوق مكان عال وفي فمه بربرة ويمزق أحشائه. وهذا حق وعدل لأنه يجب أن يفعل هذا وكل ما يقل عين مستوى هذا المشهد المريع، كل ما هو أقل بشاً للشعريرة، أقل رعباً، أقل جنوناً، أقل ثمالة، أقل تلويثاً، ليس فناً. كل ما عداه تزييف. كل ما عداه إنساني. كل ما عداه ينتمي إلى الحياة واللا حياة.

حين أفكر مثلاً في ستافروحين، أفكر في وحش قدسي يقف فوق مكان عال يقذف إلينا أحشائه الممزقة. في قصة "المسوسون" تهتز الأرض: ليس كارثة ما يحل بالفرد الواسع الخيال، بل زلزال دفن فيه قسم هائل من الإنسانية وزال إلى الأبد. ستافروجين كان دوستويفسكي ودوستويفسكي كان مجموع كل تلك التناقضات التي إما تشل الإنسان أو تقوده إلى الأعالي. لم يكن هناك عالم أصغر من أن يدخله، ولا مكان من العلو بحيث يخشى أن يرتقيه. لقد مر على السلسلة كلها من اللجة إلى النجوم. ومن المؤسف أنه لن نتاح لنا فرصة أخرى لرؤية إنسان جالس في قلب الغموض يضيء لنا بوميضه المبهر أعماق الظلام وحلكته.

اليوم أنا أعني نسي، ولا حاجة بي إلى استشارة طالعي أو شجرة العائلة. إن ما هو مكتوب في النجوم، أو في دمي لا أعرف عنه شيء. أعرف أنني انحدرت من مؤسسي السلالة البشرية الأسطورية. إنني الرجل الذي يرفع الزجاجة المقدسة إلى شفتيه، والمجرم الذي يجثو وسط السوق، والبريء الذي يكتشف أن "كل" الجثث تفوح نثانة، والمجنون الذي يرقص والبرق بين يديه،

والراهب الذي يرفع أطراف ثوبه ليتبول على العالم، والمتعصب الذي ينش المکتبات لكي يجد "الكلمة" - كل هؤلاء معاً هم أنا، كل هؤلاء يشكلون فوصاي، شوتي. فإذا كنت لا إنسانياً فذلك لأن عالمي تخطي حدوده الإنسانية، لأنه أن تكون إنساناً يبدو وضعاً مسكيناً، آسفاً، وبائساً، محدوداً بالأحاسيس، محاصراً بالأخلاقيات والدساتير، ومعرفاً من خلال التفاهات والمذاهب السائدة. أصب عصير العنب في جوفي وأجد فيه الحكمة، لكن حكمتي تنشأ من العنب، وثمالي لا تدين بشيء للخمر.....

أريد أن أصنع نقطة تحول من تلك السلالة الجبلية القاحلة السامقة حيث يموت الإنسان من العطش والبرد، من ذاك التاريخ "اللازمي"، ذاك المطلق من الزمان والفراغ حيث لا وجود لإنسان، أو حيوان، أو نبات، حيث يجن المرء من الوحدة مع لغة هي مجرد مجموعة كلمات، حيث كل شيء محلول، معطل، مفصول عن الأزمنة. أريد عالماً من رجال ونساء، من أشجار لا تتكلم (لأن في العالم كما هو ما يكفي من الكلام) عن أنهار تملك إلى أماكن شتى، ليس عن أنهار أساطير، بل أنهار تجعلك على اتصال مع رجال ونساء آخرين، مع أنماط العمارة، والدين والنبات، والحيوانات، أنهار تبحر فيها زوارق وفيها يغرق رجال ليس في الخرافة، والأسطورة والكتب والغبار والماضي، بل في الزمان والفراغ والتاريخ. أريد أنهاراً تصنع محيطات أمثال شكسبير ودانتي، أنهاراً لا تجف في هوة الماضي. محيطات، نعم دعونا نحصل على مزيد من المحيطات، محيطات جديدة تمحو الماضي، محيطات تخلق تشكيلات جيولوجية جديدة، يمكننا أن نبحر فيها، أن ننطلق منها إلى مكتشفات جديدة، آفاق جديدة. فلنحصل على مزيد من المحيطات، مزيد من النهضات، مزيد من الحروب، مزيد من المحرقات. فليكن لدينا عالم من رجال ونساء بين سيقانهم مولدات فعالة، عالم يتسم بعنفوان فطري، بحماس، بقدرة على الفعل، بالإثارة، بالأحلام، بالجنون، عالم يولد نشوة وليس ضراطاً جافاً. أو من أن اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، يجب البحث عن كتاب حتى وإن لم يكن يحتوي على فلز، عن أي شيء قادر على إنعاش الجسد والروح.

لعل الهلاك هو قدرنا، وليس لدينا، "لدى أي منا"، أي أمل، ولكن إذا كان

الأمر كذلك دعونا نطلق صرخة أخيرة معذبة، عواءً مريعاً، صرخة تحدد، صبيحة حرب، كفانا عويلاً! كفانا مرثي وترايم جنائزية! كفانا تراجم ذاتية وتواريخ، ومكتبات ومتاحف! دعوا الموتى يأكلون الموتى. دعونا نحن معشر الأحياء نرقص حول حافة فوهة البركان، رقصة الرمق الأخير. ولكن ليكن رقصاً.

"أحب ما يتدفق"، هذا ما قاله الأعمى العظيم ملتون زمانا. فكرت فيه هذا الصباح لدى استيقاظي وأنا أصرخ صرخة عظيمة لعينة من الفرح: فكرت في أنهاره وأشجاره وفي كل ذاك العالم الليلي الذي يكتشفه. نعم، قلت لنفسى، أنا أيضاً أحب كل ما يتدفق: الأنهار، البحار، حمم البراكين، المني، الدم، الصفراء، الكلمات، الجمل. أحب الدفق النخطي amniotic fluid حين يقذف من الكيس. أحب الكلية بحصياتها المؤلمة، وأحجارها وكل شيء، أحب البول الذي ينصب بانديفاع والسيلان الذي لا يتوقف، أحب كلمات المهسترين والجمل التي تنهمر كالزحار وتعكس جميع التصورات المريضة للروح، أحب الأنهار العظيمة كالأمازون والأورينوكو، حيث يبحر رجال مجانين أمثال مورافاجين في الحلم والأسطورة على متن زورق مفتوح ليغرقوا في المصبات الخفية للنهر. أحب كل ما يتدفق، سواء أكان بلغة هيرية hieratic، أم خفية، أم منحرفة، أم متعددة الأشكال، أم مكتوباً على جنانب واحد. أحب كل ما يتدفق، وكل ما يحتوي على زمن وصيرورة، كل ما يعيدنا إلى البداية حيث لا نهاية: عنف الأنبياء، والفسق الذي هو نشوة، وحكمة التعصب، والكاهن مع ابتهالاته المطاطية، وكلمات العاهرة البلهاء، والبصاق العائم مع تيار المجرور، وحليب الثدي والعسل المر الذي يتدفق من الفرج، وكل ما يتدفق، يلذوب، ما هو فاسق ومذيب، وكل القيسح والقذارة التي تتطهر مع تدفقها، وكل ما يفقد الحس بالأصل، وما يقوم بالدورة العظمى باتجاه الموت والفناء. إن الرغبة السفاحية العظمى هي في التدفق المستمر، بإيقاع واحد مع الزمن، في دمج الصورة العظمى للغيب من هنا والآن. هي رغبة حمقاء انتحارية مصابة بإمساك الكلمات ومشلولة بالفكر.

كان الوقت يقترب من فجر يوم عيد الميلاد حين عدنا إلى المنزل من شارع أوديسا مع زنجيتين من شركة الهاتف. كانت النار قد خمدت ونحن تعبون حتى أننا لجأنا إلى السرير ولا نزال بملابسنا وعرقنا فتاتي، وكانت طوال الأمسية كفهد مقيد، في نوم عميق وأنا أمتطيها. وبقيت أعمل فيها فترة كما يعمل المرء في شخص غارق أو محتق. ثم تخلت بدوري عن الأمر ورحت في نوم عميق.

كنا أثناء العطل نشرب الشمبانيا صباحاً وظهراً ومساءً - من أرحض الأنواع وأفضلها. ومع اقتراب نهاية العام كان علي أن أسافر إلى ديجون حيث عرضت علي وظيفة تافهة كأستاذ إنكليزي بديل، وهي إحد عقود الصداقة الفرانكو - أميركية التي كان من المفترض أن تزيد التفاهم والنية الطيبة بين الأخوة الجمهوريات. وكان فيلمور أكثر ابتهاجاً مني بالعرض - وكان لديه سبب معقول لذلك. كان الأمر بالنسبة لي مجرد انتقال من مطهر purgatory إلى آخر. لم يكن أمامي مستقبل، ولم يكن هناك حتى راتب مع الوظيفة. فقد كان علي المرء منا أن يعتبر نفسه محظوظاً لأنه يحظى بامتياز نشر الصداقة الفرانكو - أميركية. لقد كانت وظيفة خليقة بابن رجل ثري.

في الليلة التي سبقت مغادرتي قضينا وقتاً ممتعاً. وعند الفجر بدأ الثلج يتساقط، ورحنا نتقل من حي إلى آخر نلقي نظرة أخيرة على باريس. وأثناء مرورنا في شارع سان دومنيك عثرنا فجأة على ساحة صغيرة حيث كنيسة كلوتيد. كان الناس ذاهبين لحضور القداس، فأبدي فيلمور بدوره، وكان لا يزال مشوش الذهن قليلاً، رغبة في المشاركة في القداس. "لمجرد المتعة"، كما

قال. وشعرت بنوع من عدم الارتياح، فأولاً أنا لم أحضر أي قداس في حياتي، وثانياً كان مظهري يبدو رثاً وكنت أشعر بتوعك. وفيلمور أيضاً بدا زرياً، بل وأكثر رثاءة مني، وكانت قبعة الكبيرة المترهلة كأنها تعرضت للجلوس عليها مراراً ومعطفه كان لا يزال مملوءاً بالنشارة من آخر حانة كنا فيها. وعلى كل حال، دخلنا. وأسوأ ما كان يمكن أن يفعلوه هو أن يرموا بنا إلى الخارج.

ذهلت للمشهد الذي استقبل عيني حتى أنني تخلصت من اضطرابي. واستغرق تعودي على الضوء الخافت بعض الوقت. وتعثرت في خطاي خلف فيلمور، وأنا أتمسك بكفه. وأغار على أذني ضجيج سحري علوي، نوع من الأزيز الأجوف انبعث من المشي اللوحي البارد. كان المكان أشبه بضريح موحش والنائحون يندفعون دخولاً إليه وخروجاً منه، حجرة مؤدية إلى العالم السفلي. كانت الحرارة تبلغ نحو ٥٥ أو ٦٠ فهرنهايت. لا موسيقى غير هذه الترنيمة الجنائزية المبهمة المصنعة في القبر السفلي - كمليون رأس من القرنبيط ينتحبون في الظلام. وأناس ملفعون بأكفانهم يواصلون المضغ وعلى وجوههم نظرة الشحاذين اليائسة المكتئبة الذين يمدون أيديهم في غشية ويتمنون باستجداء غير مفهوم.

كنت أعرف أن شيئاً كهذا موجود، لكن المرء يعرف أيضاً أن هناك مسالخ ومشارح وغرف تشريح. والإنسان يتجنب غريزياً مثل تلك الأماكن. إنني كثيراً ما مررت في الشارع بكاهن وبين يديه كتاب صغير للصلوات وهو يستظهر يجد أمثولته. فأقول لنفسي، "أبله"، وأوقف الأمر عند هذا الحد. إن المرء ليقابل في الشارع جميع أشكال الخبل والكاهن ليس أكثرها إثارة للدهشة. إن ألفين من السنين خدرتنا حتى البلاهة. ولكن حين تنقل فجأة إلى قلب عالمه حين ترى العالم الصغير الذي يعمل فيه الكاهن كالساعة المنبهة، فلا شك أنك تحصل على أحاسيس مختلفة تماماً.

وفي الحال بدأ كل هذا اللعاب السائل والتواءات الشفتين يكتسبان معنى، ثم شيء يحدث، نوع من المشهد الصامت الذي، لا أقول أذهلني تماماً، بل سحرنني. وفي جميع أنحاء العالم، وحشما وجدت الأضرحة ذات الأنوار الخافتة، ترى مثل هذا المشهد الذي لا يكاد يصدق - ترى درجة الحرارة المعتدلة نفسها،

الوهج الغسقي نفسه، الطنين والأزيز نفسيهما في جميع أنحاء العالم المسيحي، وفي ساعات مشروطة، ينبطح أناس يتلفعون بأردية سوداء أمام المذبح، حيث يقف الكاهن يحمل في إحدى يديه كتاباً صغيراً وجرس الإعلان عن وجبة العشاء أو مرذاذاً في الأخرى ويغمغم إليهم بلغة، حتى وإن كانت مفهومة، لم تعد تحوي مزقة من معنى، هو يباركهم على الأغلب، يبارك البلد، يبارك الحاكم، يبارك الأسلحة الصغيرة والسفن الحربية والذخيرة والقنابل اليدوية. ويحيط به على المذبح صبية صفار يلبسون أردية كملائكة الرب الذين يغنون بطبقتي الصوت القرار والجواب. حُملان بريئة. كلهم يرتدون التنانير، لا جنس لهم، كالكاهن الذي هو نفسه أمسح وقصير النظر حتى أخمص قدميه. نحشي رائعة تموء. جنس في جمالة الأعضاء التناسلية، على مقام جي - مول.

كنت أشمل المشهد قدر ما أتاح لي النور الخافت. شيء فائن ومذهل في وقت واحد. قلت لنفسي، الحال هو نفسه في جميع أرجاء العالم المتحضر. في جميع أركان العالم. رائع. أكان مطراً أم صحواً، برداً أم مطراً نصف متجمد، ثلجاً، رعداً برقاً، حرباً، مجاعة، وباءاً - فإنه لا يشكل أدنى فرق. دائماً درجة الحرارة المعتدلة نفسها، اللغو الفارغ نفسه، الحذاء ذو الرقبة العالية نفسه وملائكة الرب الصفار بطبقة الصوت القرار والجواب. وبالقرب من باب الخروج صندوق ذو شق - مهمته متابعة العمل الرباني، عسى ولعل بركة الرب تنهمر مدراراً على الملك والبلاد والقوات المسلحة والمتفجرات العالية الانفجار والدبابات والطائرات، وعسى ولعل تزداد قوة ساعدي العامل، قوة لذبح الخيول والأبقار والأغنام، قوة في المثاقب الحديدية لحفر الثقوب، قوة الخياطة الأزرار في سراويل الآخرين الداخلية، قوة لبيع الجزر وآلات الخياطة السيارات، قوة لإبادة الحشرات وتنظيف الاسطبلات وتفريغ براميل القمامة وحك المغاسل والمراحيض، قوة لكتابة العناوين الرئيسية وشق البطاقات في أنفاق القطارات. قوة قوة. كل مضغ الشفاه ذاك والنفخ في البوق هو من أجل استمداد قليل من القوة !

كنا نتقل من بقعة إلى أخرى، تستعرض المشهد بذاك الصفاء الذهني الذي يأتي بعد جلسة استغرقت الليل كله. ولا بد أننا لم نرسم مرة إشارة الصليب، ولم

نحرك شفاهنا إلا لبهمس بملاحظة فظة. وربما كان كل شيء قد مر بسلام دون أن يلاحظنا أحد لو لم يصير فيلمور على أن نسير أمام المذبح في وسط سير المركب. كان يبحث عن المخرج، وأعتقد أنه أثناء ذلك فكر في أن يلقي نظرة على قوس الأقداس، وأن يقترب منه كثيراً. وكنا نمر بسلام ونحن نتحه صوب شرخ من ضوء بدا أنه المخرج حين ظهر لنا من الظلام فجأة كاهن وسد علينا السبيل. أراد أن يعرف إلى أين نحن ذاهبان وماذا تفعل. أخبرناه بأدب أننا نبحث عن مخرج. قلنا "مخرج" لأننا في تلك اللحظة كنا من الذهول بحيث لم تمكن من التفكير في المرادف لكلمة "مخرج" بالفرنسية. وبدون أن يجيب بكلمة واحدة أخذنا عنوة من يدينا، ثم فتح باباً جانبياً ودفعنا إلى الخارج، لتدحرج إلى ضوء النهار المبهر. حدث ذلك بغتة وبشكل غير متوقع، حتى أننا حين اصطدمنا بالرصيف كنا منبهرين. ومشينا عدة خطوات، بطرف عيوننا، ومن ثم وبحركة غريزية استلرنا، فإذا بالكاهن لا يزال واقفاً على الدرج، شاحباً كشبح، عبوساً كالشيطان نفسه. لا بد أنه كان يغلي كالجحيم. وحين أستعيد التفكير في الحادثة، لا ألومه. ولكن في تلك اللحظة، وأنا أراه بردائه الطويل وقلنسوته الضيقة الجائمة على جمجمته، بدا لي مثيراً للسخرية، حتى أنني انفجرت في نوبة من الضحك. ونظرت إلى فيلمور فأخذ يضحك بدوره. وطوال دقيقة كاملة وقفنا نضحك في وحه ذلك اللوطي المسكين. كان مرتبكاً أيما ارتباك، على ما أعتقد، حتى أنه ظل على مدى دقيقة لا يعرف ماذا يفعل، وفجأة بدأ يهبط الدرج إلى الطريق وهو يهز قبضته في وجهينا، وكأنه جاد فيما ينوي. وحالما أصبح خارج الأسوار راح يركض. عندئذ وبتحذير من غريزة حب البقاء تحركت. قبضتُ على فيلمور من كفه وبدأنا نركض. وكان يقول كالأبله "لا، لا، لا أريد أن أركض!" - فصرخت: "هيا! يجب أن نبتعد من هنا. لقد حن الرجل تماماً". وانطلقنا تطرق الطريق بأسرع ما تسعفنا به أرحلنا.

في الطريق إلى ديجون، وكنا لا نزال نضحك على ما جرى، إنجهمت أفكارني إلى واقعة مضحكة، مشابهة لهذه تقريباً، وقعت أثناء إقامتي القصيرة في فلوريدا. كان ذلك أثناء الضجة الشهيرة حين وجدته، مع آلاف غيري، في وضع لا أحسد عليه. وقد قبض علي في آخر لحظة أثناء محاولتي، مع صديق لي، الهرب. وكانت مدينة جاكسونفيل، حيث تركنا ونحن في حالة مزرية فترة ستة

أسابيع، في حالة حصار فعلي. وبدأ أن جميع مشردي الأرض وحتى الكثير من الشبان الذين لم يتسكعوا مرة في حياتهم، قد حشروا في مدينة جاكسونفل. كانت جميع الأماكن ممتلئة حتى آخرها: جمعية الشبان المسيحية، جيش الخلاص، المطافيء، مراكز الشرطة، الفنادق، والشقق المؤجرة. "ملأى" تماماً. واللافتات التي تشير إلى ذاك في كل مكان. وأصبح المقيمون في مدينة جاكسونفل محشورين إلى درجة بلوا وكأنهم كانوا يتجولون بمعاطف درع الزرد. وكالمعتاد كانت هناك مشكلة الطعام. طعام ومكان للنوم. كان الطعام يأتي من الأسفل في قطار محمل - يرتقال وعنب وجميع أنواع المأكولات اللذيذة. كنا نمر على السقيفات المحملة نبحت عن فاكهة عفنة ولكن حتى هذه كانت عزيزة.

ذات ليلة، وبدافع من اليأس، سحبت صديقي جو إلى أحد المعابد اليهودية، أثناء القداس. كانت أبرشية مصلحة، وقد ترك الحاخام لدي أثراً مرضياً. والموسيقى أيضاً جذبت انتباهي - ذاك النواح التناقب الصادر عن المصلين اليهود. وحالما انتهى القداس توجهت إلى مكتب الحاخام وطلبت التحدث معه. استقبلني بما يكفي من الكياسة - إلى أن أوضحت له طبيعة مهمتي. فإذا به يصبح خيفاً حقاً. كل ما طلبته منه هو تقديم يد العون لي ولصديقي جو. ولو رأيت كيف نظر إلي لاعتقدت أنني طلبت منه استئجار الكنيس لاستخدامه كملعب للبولينغ.

وفوق كل هذا كله إذا به يسألني فجأة ودون مواربة إن كنت يهودياً أو لا. وحين أجبت بلا، بدا أن غضبه قد بلغ أقصاه. ولكن، بحق الله، لماذا أتيت إلى كاهن يهودي طالباً العون، فقلت له بسذاجة أنني كنت دائماً أشد ولاءً لليهود مني للمسيحيين. قلت ذلك بتواضع وكأنه أحد أبرز عيوبه. وهذه هي الحقيقة فعلاً. ولكي يتخلص مني حرر ملاحظة لجماعة جيش الخلاص. قال "عليك أن تتوجه بطلبك إلى هذا المكان"، قال هذا ثم استدار بفظاظة ليرعى شؤون رعيته.

طبعاً لم يكن لدى جيش الخلاص ما يسعفا به. ولو كان مع كل منا ربع دولار لاستأجرنا حشية ونمنا على الأرض. ولم يكن معنا نكلة واحدة.

فتوجهنا إلى الحديقة العامة وتمددنا على المقعد. وكانت تمطر فتدثرنا بأوراق الصحف. وأعتقد أننا لم نكن قد أمضينا أكثر من نصف ساعة حين جاء شرطي، ودون أن يتقوه بكلمة واحدة كتحذير، ضربنا ضربة قوية جعلتنا نقفز على أقدامنا للتو، بل ورقصنا أيضاً بقليل من الألم، على رغم أننا لم نكن نرغب في الرقص. وشعرت أنني في أقصى حالات الغضب واليأس، والاكتئاب، والقذارة، بعد أن ضربنا ابن الحرام المخبول على مؤخرتنا، حتى كان بوسعي أن أنسف المبنى الحكومي.

في صباح اليوم التالي، وعلى سبيل التعادل مع أولاد الحرام المضيافين أولئك، تقدمنا مشرقين ومبكرين من باب الكاهن الكاثوليكي. في هذه المرة تركت الكلام لجو. كان إيرلندا ولهجته مميزة قليلاً، وله أيضاً عينان زرقاوان ناعستان وكان باستطاعته أن يجعلهما تدمعان قليلاً كلما أراد. فتحت الباب راهبة بلباس أسود، ولم تطلب منا الدخول. كان علينا أن نتظر في الردهة ريثما تنادي على الأب الطيب. وجاء الأب الطيب بعد بضع دقائق ينفث كقطار. وماذا نطلب حتى نزعج أمثاله في تلك الساعة من الصباح؟ نريد شيئاً نأكله ومكاناً ننام فيه، هكذا أجبنا ببراءة. ومن أين أتينا، أراد الأب الطيب أن يعرف بلا تلكؤ. من نيويورك. من نيويورك، هه؟ إذن فمن الأفضل لكما أن تعودا من حيث أتيتما بأسرع ما يمكنكما، يا ولدي، ودون أن يضيف كلمة أخرى صفع ابن الحرام الضخم، ذو الوجه الذي يشبه اللفت المنفوخ، الباب في وجهنا.

بعد ذلك بساعة، وبينما نحن نسير هكذا على غير هدى لا حيلة لنا، كاثنين من السكراري، تصادف أن مررنا ببيت القسيس من جديد. ويشهد الله على أنني رأيت رأس اللفت الداعر الضخم يتسلل من الشارع الخلفي في سيارته الليموزين! ولدى مروره بنا تفخّ سحابة من الدخان في عيوننا. وكأنه يقول - "هذا لأجلكما!". سيارة ليموزين جميلة، لها إطاران إضافيان خلفها، والأب الطيب جالس وراء المقود وفي فمه سيجار ضخمة. إنه حتماً من نوع كورونا كورونا، ضخمة جداً وذكي الرائحة. لقد كان وضعه المادي حسناً جداً، ولا شك في ذلك. لم أتمكن من ملاحظة إن كان لا يزال يرتدي رداءه الكهنوتي أم لا. لم أر إلا اللعاب يسيل من شفثيه - والسيجار الضخم ذا

طوال الطريق إلى ديجون كنت أتذكر الماضي. فكرت في كل الأشياء التي قد أكون قتلها وفعلتها، وتلك التي لم أفلها أو أفعلها، في اللحظات المريعة المذلة حين كان مجرد استجداء كسرة خبز يجعلك تشعر أنك أحقر من دودة. ولما كنت مفرط الرزاة، ظللت أشعر بوخز تلك الإهانات والإساءات اللاذعة القلبية. بل لا أزال أشعر بتلك الرقصة على مؤخرتي التي كاهها لي الشرطي في الحديقة العامة - على رغم أنه كان أمراً تافهاً، أو درساً صغيراً في الرقص، إن صح التعبير. لقد طفت جميع الولايات، ووصلت كندا ومكسيكو، والقصة هي دائماً نفسها في كل مكان، إذا أردت خبزاً فيجب أن تسرح، أن تستعبد. إن سطح الأرض كله مغطى بصحراء غبراء، ببساط من الفولاذ والإسمنت. الإنتاج! مزيداً من بسكويت الكلاب، مزيداً من العزقات والأقفال، مزيداً من الأسلاك الشائكة، مزيداً من قصاصات العشب، مزيداً من حاملات الكريات، مزيداً من المتفجرات عالية الانفجار، مزيداً من الدبابات، مزيداً من الغازات السامة، مزيداً من الصابون، مزيداً من معجون الأسنان، مزيداً من الصحف، مزيداً من الثقافة، مزيداً من الكنائس، مزيداً من المكتبات العامة، مزيداً من المتاحف. إلى الأمام! فالوقت ضيق. الجنين يشق طريقه عبر عنق الرحم، ولا يوجد حتى مقدار بصة لتسهيل مروره. إنها ولادة شاقة تقطع الأنفاس. لا نواح، لا زقزقة. salut au monde! أهلاً بك إلى العالم! أهلاً مع إحدى وعشرين طلقة تطلق من المعى المستقيم. قال والت "أعتمر قبعتي كما أريد في البيت أو خارجه". قاله حين كان لا يزال باستطاعتك أن تحصل على قبعة تناسب رأسك. لكن الزمن يتغير. والآن لكي تحصل على قبعة تناسب رأسك عليك أولاً أن تتوجه إلى الكرسي الكهربائي. فهناك يعطونك قبعة تناسب جمجمتك كلها. تجدها محكمة كثيراً، ماذا؟ لا يهم! إنها مضبوطة.

يجب أن تكون في بلد غريب كفرنسا، تسير على الخط الفاصل بين نصفي كرة الحياة والموت، لتعرف أية آفاق مستقبلية لا تحصى مفتوحة أمامك. "الشبكة الكهربائية! الروح الديمقراطية! طغيان الفيضان!". يا أم الرب المقدسة، ماذا يعني هذا الهراء؟ الأرض محمصة ومشققة. يجتشد الرجال

والنساء معاً كأفراخ الصقور فوق جثة عفنة، ليتزاوحوا ثم يتفرقون من جديد. صقور تسقط من السحاب كأحجار ثقيلة. مخالب ومنقار، هذا نحن! جهاز معوي هائل لا نشتهي إلا اللحم الميت. "إلى الأمام!"، إلى الأمام بلا رحمة، بلا شفقة، بلا حب، بلا مغفرة. لا تطلب ربع دولار، ولا تعط شيئاً! مزيداً من السفن الحربية، مزيداً من الغازات السامة، مزيداً من المتفجرات العالية الانفجار! مزيداً من جراثيم داء السيلان! مزيداً من المكورات العقدية! مزيداً من قاذفات القنابل! مزيداً ومزيداً منها - وإلى أن تنفجر جميع المعامل اللعينة إلى ذرات صغيرة، ومعها الأرض.

حالما خطوط خارج القطار عرفت على الفور أنني ارتكبت خطأ مميتاً. كانت المدرسة لا تبعد إلا قليلاً عن المحطة، مشيت في الشارع الرئيسي في غروب يوم شتائي، ألتمس الطريق إلى وجهتي. كان الندف الخفيف يهطل، والأشجار تلمع من الصقيع. مررت بإثنين من المقاهي الخاوية الهائلة الحجم التي بدت أشبه بغرف الانتظار الموحشة. وحشة صامتة، خاوية - هذا هو الإحساس الذي تركته في نفسي. بلدة بائسة، نائية. ينتج فيها الخردل بكميات كبيرة، بأوعية ضخمة وبراميل وقدر، وبرطمانات صغيرة جذابة المظهر.

أول نظرة إلى المدرسة أشاعت القشعريرة بي. وشعرت بتردد شديد حتى أنني توقفت عند المدخل أتساءل أأدخل أم لا. ولكن لما لم يكن معي ثمن تذكرة عودة فلم يكن من المفيد التفكير في المسألة. وخطر لي للحظة أن أرسل برقية إلى فيلمور، لكنني لم أكن أعرف بماذا أتعلل. وكان الشيء الوحيد الباقي هو أن أدخل وأنا مغمض العينين.

تصادف أن كان السيد المدير غائبا - إنها عطلته، هكذا قالوا. وتقدم مني أحذب وعرض علي أن يقودني إلى مكتب السيد المراقب، المسؤول الثاني. تخلفت عنه قليلا، مسحورا بطريقته في العرج. كان مسنخا صغيرا، كالذي كان يمكن رؤيته فوق أية كاتدرائية نصف بلهاء في أوروبا.

كان مكتب السيد المراقب فسيحا وخالياً من الأثاث. جلست على كرسي قاس أنتظر بينما انطلق الأحذب ليجت عنده. وشعرت يالفة في المكان. ذكرني الجو العام كثيراً بمكتب للإحسان في الولايات المتحدة حيث

اعتدت أن أحلس ساعات طويلة منتظراً أحد أولاد الحرام ذوي الأفواه الطحينية ليستجوبي.

فجأة فتح الباب وبخطوة متبخرة وثب السيد المراقب داخلًا وجاهدت كي أكبت ضحكى. كان يرتدي رداً يشبه تماماً معطفاً كان بوريس يرتديه، وقد أرخى فوق جبينه خصلة شعر، عقصة ملصقة جديرة بسميردياكوف. كان وقوراً وهشاً، له عين كعين الوشق لم يهدر كلماته في الترحيب بي. وفي الحال أحضر أوراقاً كتب عليها أسماء الطلاب، والساعات، والصفوف، إلخ، وكل ذلك بخط يدوي مشوش. وأخبرني عن كمية الفحم والخشب المخصصة لي وبعد ذلك أسرع بإخباري بأني حر التصرف في وقت فراغي. وكان ذاك الخبر الأخير هو أفضل ما سمعت منه. وبدأ الأمر مطمئناً حتى أنني أسرعت بالصلاة لأجل فرنسا - لأجل الجيش والبحرية، والجهاز الثقافي، والمقاهي الصغيرة، ولكل "الأعمال اللينة".

بعد إتمام هذه الأمور التافهة، قرع جرساً صغيراً، وعلى الأثر ظهر الأحدب ليقودني إلى مكتب السيد "إقتصاد". هنا اختلف الجو قليلاً. كان أقرب شبهاً بمحطة شحن، بوجود فواتير الشحن والأختام المطاطية في كل مكان، والموظفين ذوي الوجوه الفطرية الشاحبة الذين يخربشون بأقلام مكسورة في دفاتر حسابات هائلة الحجم ثقيلة. وأفرزت صدقتي من الفحم والخشب، وانطلقنا، أنا والأحدب، مع عربة يد، إلى غرفة النامة. وخصصت لي غرفة في الطابق العلوي، تقع في جناح واحد مع الحجاب. وصار الوضع يأخذ طابعاً فكهاً ولم أعرف ماذا أتوقع بعدئذ. ربما مبصقة. كان كل شيء بطريقة تشبه كثيراً الاستعداد للقيام بحملة، لم يكن ينقصني غير حقيبة ظهر وبنديقة - ورساصة نحاسية.

كانت الغرفة المخصصة لي كبيرة نوعاً ما، فيها مدفأة وصلت بها ماسورة معقوفة مع كوع فوق السرير الحديدي الصغير. وثمة صندوق كبير لحفظ الفحم والخشب موحود بالقرب من الباب. وكانت النوافذ تطل على صف من البيوت البائسة كلها من الحجر ويقطنها السمان والخباز، والحذاء واللحام، إلخ - وكل الريفيين بمظهرهم الأبله. وألقيت نظرة عبر الأسطحة نحو

التلال الجرداء حيث كان قطار يدمدم. وزعق صغير القطار حزناً مهروعاً.

بعد أن أضرم الأحذب النار لأجلي سألته عن الطعام، ولم يكن وقت العشاء قد حان. تمددت على السرير، ولا يزال معطفي علي، ورددت اللحاف فوقى. إلى جانبي كانت الطاولة الليلية المزعزعة الأبدية التي أخفي فيها وعاء البول. أوقفت المنبه على الطاولة وراقبت الدقائق وهي تتك منصرمة. وفي عمق الغرفة نبض ضوء خافت يميل إلى الزرقة آتياً من الشارع. أنصت إلى قرقرة الشاحنات تمر وأنا أحدى بنظرة خاوية إلى ماسورة المدفأة وإلى الكوع الذي ثبت بقطع من الأسلاك وأسر الصندوق انتباهي. لم يكن قد حدث قط من قبل أن شغلت غرفة فيها صندوق للفحم. ولم أضرم مرة في حياتي ناراً أو أعلم أطفالاً. ولم يحدث قط أن عملت دون أجر. شعرت أنني حر ومقيد في الوقت نفسه - كما يشعر المرء عادة قبيل الانتخاب، حين يكون جميع المحتملين قد رشحوا وتوسلوا إليك أن تصوت للرجل المناسب. شعرت وكأنني مستأجر، كأنني رجل الصنائع السبع، ناني قرصان، كأنني أعيد عيد في سفينة، كأنني معلم، ودودة وقطة. كنت حراً، لكن أطرافي مقيدة، روحاً ديموقراطية مع بطاقة توفر وجبة مجانية، ولكن بلا قدرة على التنقل، بلا صوت. شعرت كأنني قنديل يجر مسمر إلى لوح خشبي. وفوق كل ذلك، شعرت بالجوع. كانت يداي تتحركان بشاغل. بقيت لدي عشر دقائق أقتلها قبل أن ينطلق إنذار الحريق. الظلال في الغرفة ازدادت قتامة. وثقل الصمت بشكل مخيف، وتكثف السكون حتى توترت أعصابي. وعلق ندف الثلج بزجاج النافذة. ومن بعيد أطلق قطار زعقة ناقبة. ثم ساد صمت تام من جديد. وبدأت المدفأة تتأجج، ولكن لم تنبعث منها حرارة. وبدأت أخشى أن أغفر ويفوتني العشاء. وكان هذا يعني أن أبقى يقظاً يبطن خاوية طول الليل. واتابني الرعب.

قبيل انطلاق رنين الجرس بلحظة قفزت من السرير، وبعد أن أغلقت الباب ورائي، اندفعت أهبط الدرج إلى الفناء. وهناك وضعت. مصطبة بعد أخرى، وسلماً بعد آخر. وتجولت داخل البناء، وخارجه أبحث باهتياج عن غرفة الطعام. ومررت بصف طويل من الأولاد الصغار يمشون في طابور إلى حيث لا يعلم إلا الله، كانوا يتقدمون كعصبة مكبلية، وعلى رأسهم قائد

العبيد، وأخيراً رأيت شخصاً يبدو نشطاً، بقبعة سوداء مستديرة يتحه صوبي. أوقفته لأسأله عن الطريق إلى قاعة الطعام. وكأني أوقفت الرجل المناسب. فقد كان هو السيد المراقب، وبدأ مبتهجاً لأنه تعثر بي. وطلب أن يعرف بلا مقدمات إن كنت مرتاحاً، وإن كان ثمة أي شيء آخر بوسعه أن يقوم به لأجلي. فأخبرته أن كل شيء على ما يرام، وغامرت فأضفت قائلاً إن الغرفة باردة قليلاً. فأكد لي أن هذا الطقس غير عادي. أحياناً يحل بعض الضباب ويهطل قليل من الثلج، وعندئذ يصبح الطقس مزعجاً لبعض الوقت، وهلم جرا. كان طوال الوقت يمسك بي من ذراعي، ويقودني إلى غرفة الطعام. بدا لي رجلاً دمثاً كيساً. وقلت في نفسي، شاب مثالي. بل لقد بالغت فتصورت أنني قد أقيم معه صداقة حميمة فيما بعد، وأنه قد يعزمني إلى غرفته في ليلة قارسة ويقدم لي شراباً حاراً. وتخيّلت جميع أنواع الأشياء الودية في اللحظات القليلة التي يستغرقها الوصول إلى قاعة الطعام. وهنا، وبينما عقلي يجري بسرعة ميل في الدقيقة، إذا به فجأة يضافني، ويلمس طرف قبعته، ثم يتمنى لي ليلة سعيدة. ووقعت في ارتباك شديد بحيث أنني بدوري لمست طرف قبعتي. فقد كان ذلك هو التصرف المتعارف عليه، كما اكتشفت سريعاً. فكلما مررت بأستاذ، أو حتى بالسيد "إقتصاد"، فيجب أن تلمس قبعتك. وربما تمر بالشخص نفسه مراراً في اليوم الواحد، يجب أن تؤدي التحية، حتى وإن كانت قبعتك مهترئة. فهو التصرف المهدب.

مهما يكن، عثرت على قاعة الطعام. كانت أشبه بمستوصف في الإيست سايد، بجدران مكسوة بالآجر، وضوء ضئيل جداً، وطاولات مكسو أعلاها بالرخام. وطبعاً مدفأة كبيرة بمواسير معقوفة. لم تكن وجبة العشاء قد وزعت بعد. وثمة شخص أعرج يدخل ويخرج بالصحاف والسكاكين والشوك وزجاجات الخمر. وفي إحدى الزوايا جلس بضعة شبان يتحادثون بود. توجهت إليهم وقدمت نفسي فاستقبلوني استقبالاً حاراً. بل ومبالغ في حرارته، في الحقيقة. ولم أفهم السبب. وسرعان ما بدأت الغرفة تمتلئ، ورحلت أتعرف عليهم بسرعة واحداً بعد آخر. ومن ثم شكلوا حولي دائرة، وبعد أن ملأوا الكؤوس راحوا يغنون.....

خطرت لي فكرة ذات مساء
أن أبتكر اسم زيوس من صمغ مدلى،
الريح تهب على المشقة
ها هو مشنوقي متوازن،
يجب أن أحعل الصمغ يقفز،
أبتكر اسم زيوس، لست سعيداً أبداً.
قبلة على كس صغير جداً،
أبتكر اسم زيوس، وأزيد في السرعة،
قبلة على كس كبير جداً،
لا أعرف أين أفرغ،
إنه يهتز لأنه متزعج جداً،
أبتكر اسم زيوس، لست سعيداً أبداً. (١٦)

وهنا دخل كوازيمودو داعياً لتناول طعام العشاء.

كانت مجموعة مرحة، أولئك "المراقبين". كان هناك كروا الذي يتجشأ كالخنزير ودائماً يطلق ضراطاً عالياً أثناء جلوسه إلى المائدة. كان بإمكانه أن يضطر ثلاثين مرة متتالية، هكذا أخبروني. وقد حافظ على الرقم القياسي. ثم المسيو لو برانس، رياضي مغرم بارتداء ملابس السهرة في المساء عندما يذهب إلى المدينة، بشرته جميلة، كفتاة، ولا يقرب الخمر ولا يقرأ أي شيء من شأنه أن يذهب بوعيه. وإلى جانبه جلس بول الصغير، من الميدي، وهو لا يفكر إلا في العاهرات طول الوقت، ويكرر القول كل يوم - "اعتباراً من يوم الخميس لن أعود إلى الحديث عن النساء". وكان هو والمسيو لو برانس كلا لا يتجزأ. ومن ثم هناك باسيلو، وهو غد حقيقي شاب يدرس الطب ويستدين من كل من هب ودب، ويتحدث بلا توقف عن رونسار، وفيلون، وراپليه. وقبلتي جلس موليس، وهو محرض ومنظم المشرفين، ويصر على وزن اللحم ليرى إن لم يكن

(١٦) - الأصل بالعامية الفرنسية - المترجم.

ناقصا بضعة غرامات. يشغل غرفة صغيرة في المشفى. والسيد "إقتصاد" هو عدوه الأمتل، ولم يكن ذلك ليؤثر بشكل خاص على سمعته الحسنة ما دام أن الكل يكرهون هذا الشخص. صديق مولى الوحيد هو لويينيل، وهو شاب قاسي الملامح وصورته الحايية تشبه وجه الصقر، يمارس أشد أشكال الاقتصاد صرامة ويتعاطى المراهبة. ويشبه حفراً من عمل البريشت دورر^(١٧) - أي مركب من جميع الشياطين الأوغاد الفاسدين، المكدين، اللدودين، المنحوسين، المشؤومين، والاستطانيين الذين يؤلفون مدفن العظماء من فرسان ألمانيا القرون الوسطى. كان يهودياً، دون شك. على أية حال، لقد قتل في حادث سيارة بعد وصولي بفترة قصيرة، وهو ظرف جلب لي ثلاثة وعشرين فرنكاً حلالاً. وباستثناء رينو الذي جلس إلى جوارى، أمحت ذكرى جميع الباقيين من رأسي، فهم يتمون إلى تلك الفئة من الناس الذين لا لون لهم، ويشكلون عالم المهندسين والمعماريين وأطباء الأسنان، والصيادلة والمعلمين، إلخ. لم يكن ثمة ما يميزهم عن البلهاء الذين سيمسحون فيما بعد أحييتهم. كانوا أصفاراً بكل ما في الكلمة من معنى، نكرات يمتلون نوى جماعة المواطنين المحترمين الذين يعيشون على الأسى. يأكلون ورؤوسهم منكسة، وهم دائماً الأوائل في طلب المزيد. ينامون نوماً عميقاً ولا يتذمرون، وهم ليسوا مرحين ولا بائسين، إنهم اللامبالون الذين أودعهم داني ردهة الجحيم، إنهم القشور السطحية.

جرت العادة بعد العشاء أن يذهبوا من فورهم إلى المدينة، إلا إذا كان واحد منهم يؤدي خدمته في المنامات. وفي مركز المدينة تقع المقاهي - وهي عبارة عن قاعات واسعة كئيبة يجتمع فيها تجار ديجون الناعسون ليلعبوا الورق وليستمعوا إلى الموسيقى. والمقاهي دافئة، وهذا أفضل ما بوسعي قوله عنها. وأيضاً مقاعدها مريحة، وهناك دائماً حفنة من العاهرات يتجولن في المكان مستعدات، مقابل كأس من البيرة أو فنجان من القهوة، أن يجلسن ويمضغن الشحم معك. من جهة أخرى، كانت الموسيقى شنيعة. ويا لها من موسيقى! ففي الليلة الشتائية، في بؤرة قلرة كديجون لا شيء أكثر إرهاقاً، وإثارة للأعصاب، من صوت أوركسترا فرنسية. خاصة إذا كانت إحدى تلك

(١٧) - البريشت دورر (١٤٧١ - ١٥٢٨) محات ورسام ألماني.

الأوركسترات النسائية الموحدة التي كان يصدر عنها صرير وضراط، مع إيقاع حاف، جري algebraic ، وبقوام معجون أسنان صحي. إنها أزيز وصرير يؤدي مقابل الكثير حداً من الفرنكات في الساعة - فليأخذ الشيطان هذه الأخيرة! ما أشد كآبتها! وكأنما إقليدس العجوز وقف على قدميه الخلفيتين وابتلع حامض البروسيك. لقد استغل العقل فكرة الموسيقى برمتها أيما استغلال حتى لم يبق منها شيء لخلق الموسيقى، اللهم ما عدا ضربات الأوركورديون الفارغة، الذي تصفر الريح من خلاله وتمزق الأثير شذراً. على أية حال، إن الكلام عن الموسيقى في مثل ذاك المكان كأنك تحلم بالشمبانيا وأنت حبيس زنزانة الموت. لقد كانت الموسيقى هي آخر اهتماماتي. إنني حتى لم أفكر في عاهرة، لقد كان كل شيء كئيباً جداً، بارداً جداً، عقيماً جداً، وموحشاً جداً. وفي طريق عودتي إلى البيت في الليلة الأولى لا حظت على باب أحد المقاهي عبارة مأخوذة من كتاب "غارغانتوا" (١٨). وكان داخلها أشبه بمشرفة. ولكن لا يهم، "إلى الأمام"!

كان يتوفر لدي الكثير من الوقت ولا سواً واحداً لأنفقه. في اليوم الواحد هناك ساعتان أو ثلاث من دروس المحادثة، وهذا كل شيء. وما فائدة تعليم أولاد الحرام الفقراء أولئك اللغة الإنكليزية؟ كنت أشعر بأسف جحيمي لأجلهم. فطوال فترة الصباح يغوصون في قراءة قصيدة "رحلة جون غيلبن"، وبعد الظهر يأتون ليتعلموا لغة ميتة. ورحت أفكر في الوقت التمين الذي أضعته في قراءة فيرجيل أو في الخوض في هراء غير مفهوم مثل "هيرمن ودوروثه". يا لجنون هذا! إن التعلم ما هو إلا سلة خبز فارغة! وتذكرت كارل الذي كان يتقن تلاوة "فاوست" بالملقوب، ولم يؤلف كتاباً دون أن يقرظ فيه خراء معبوده الخالد، الذي لا يفنى، غوته. ومع ذلك فلم يكن لديه ما يكفي من الحس ليستقبل عاهرة ثرية ويشترى لنفسه ثياباً داخلية جديدة. ثم في عشق الأيام الماضية هذا شيء ما فاسق ينتهي بطوابير توزيع الخبز والمخاييء. ثم نوع من الفسق في هذا الصنح الروحاني الذي يسمح للأبله

(١٨) - غارغانتوا. شخصية في رواية ساعرة تحمل اسم بطلها. للكاتب الفرنسي رابليه

(١٤٩٣-١٥٥٣).

أن يرش ماءً مقدساً على مدافع ييغ بيرثا والمدفعات والمتفجرات عالية الانفجار. إن كل رجل متختم بالكلاسيكيات هو عدو للجنس البشري.

ها أنا ذا، المنتظر مني أن أنشر مزموذج المحبة الفرانكو - أميركية - مبعوث جثة، بعد أن نهبت من كل حذب وصوب، وسببت ما لا يحصى من الألم والبؤس، حلمت بإقامة سلام عالمي. هراء! عم يتوقعون مني أن أتحدث، أريد أن أعرف؟ عن "أوراق العشب"، عن التعريفات الجمركية، عن إعلان الاستقلال أم عن آخر أخبار العصابات؟ عم؟ فقط عم، أود لو أعرف، حسن، سأقول لك - لم أذكر هذه الأمور من قبل. بدأت فوراً بدرس عن سيولوجيا الحب. كيف تمارس القبلة الحب - هذا هوا وأشاع ما يشبه النار في المشيم. بعد اليوم الأول لم يبق أي مقعد خال، وبعد ذلك الدرس الأول في اللغة الإنكليزية أصبحوا يقفون عند الباب ينتظرونني وسارت الأمور على أحسن ما يرام. وسألوا جميع أنواع الأسئلة، وكأنهم لم يتعلموا أي شيء. تركهم يطلقون كل نيرانهم. علمتهم أن يسألوا مزيداً من الأسئلة الدقيقة. إسألوا أي شيء! هذا كان شعاري. أنا هنا مبعوث مطلق الصلاحية قادم من عالم الأرواح الحرة. أنا هنا أثير الحمى والهيجان. يقول أحد علماء الفلك البارزين "إن الكون للمادي يبدو، بشكل ما، وكأنه يمر كحكاية تحكى، تنحل في العدم كرؤيا". ويبدو أن هذا هو الشعور العام الكامن تحت سلة العلم الفارغة. أما أنا، فلا أصدق هذا. لا أصدق أي شيء منك مما يحاول أولئك أولاد الحرام أن يقحموه في حناجرنا.

بين الجلسات إذا لم يكن معي كتاب أقرأه، أصعد إلى الطابق العلوي إلى المنامة وأثرثر مع المشرفين. كانوا جاهلين بشكل مبهج بكل ما يجري - وخاصة في عالم الفن. وربما كانوا متعادلين في مقدار الجهل مع الطلاب. وكأني دخلت إلى دار خاصة صغيرة للمجانين لا توجد فيها إشارة تدل إلى مخرج. أحياناً كنت أستطلع بفضول تحت القناطر، أراقب الأولاد أثناء مرورهم وهم يحملون قطعاً هائلة من الخبز محشوة في أفواههم القذرة. وكنت أنا دائم الجوع، بما أنه كان من المستحيل علي أن أدرك وجبة الإفطار التي تقدم في ساعة لعينة من الصباح، حين يكون السرير بالكاد قد بدأ يذفاً. وهي

مؤلفة من أوعية ضخمة من القهوة ذات اللون الأزرق وشرائح الخبز الأبيض بدون زبد. أما الغداء ففاصولياء، أو علس بلا ذوق في الطبخ. وكان المسير "إقتصاد" هو المسؤول عن كل هذا. هكذا قالوا. لا أصدق هذا الكلام أيضاً. لقد كان يقبض نقوداً ليقبض رؤوسنا بالكاد فوق سطح الماء. لم يكن يسأل إن كنا نعاني من البواسير أو من الدمامل، لم يكن يستعلم إن كانت لدينا حواس مرهقة أو إمعاء الذئباب. ولم يفعل؟ إنه مستأجر ليضع العديد من الغرامات في كل صحن لينتج الكثير من الكيلوات من الطاقة. كل شيء كان يقاس بقوة الحصان، كل شيء كان محسوباً بعناية في الدفاتر الضخمة التي يخربش فيها الموظفون ذور الوجوه العجينية صباحاً، وظهراً، ومساءً. مدين ودائن مع خط أحمر مرسوم على طول منتصف الصفحة.

أطوف في أنحاء المربع بيطن خاوية معظم الوقت حتى أشعر أنني مجنون قليلاً. كأني تشارلز الأحق، المسكين - ولكن بدون أوديت شاتديفر لألعب معها لعبة الإصبع النتن. أقضي نصف الوقت أنبش السجائر من الطلّاب، وأحياناً أثناء الدروس أشاركهم في قرقشة الخبز اليابس. ولما كانت النار دائماً تخمد نكايه بي فسرعان ما نفدت حصتي من الخشب. ويا لها من تجربة مريرة مررت بها وأنا أتملق ماسكي الدفاتر لأحصل على بعض الخشب. وأخيراً استشاط غيظي وصرت أخرج إلى الشارع وأبحث عن الخشب، كالعرب الرحل، ويا للغرابة ما أقل ما يمكنك الحصول عليه من الخشب في شوارع ديجون. مهما يكن، جرتني حملات الإغارة تلك إلى ضواحي غريبة. وتعرفت على الشارع الصغير المسمى باسم السيد فيليب بايون - وهو موسيقي متوفى، على ما أعتقد - حيث توجد شبكة من بيوت الدعارة. وكانت المناطق المجاورة دائماً أكثر إشاعة للمرح: حيث رائحة الطبخ، والغسيل المعلق ليجف. وأحياناً كنت ألمح أحد المساكين أنصاف المجانين الجالسين بتكاسل في الداخل. لقد كانوا أفضل حالاً من الشياطين المساكين في وسط المدينة الذين كنت أرتطم بهم كلما دخلت أحد المتاجر التتويعية. كنت أتردد إلى هناك غالباً طلباً للدفع. وأعتقد أنهم كانوا يفعلون ذلك لسبب نفسه، بحثاً عن يدعونهم إلى قدح من القهوة. كان يبدو عليهم شيء من الجنون، بسبب البرد والوحشة. وكان يخيم على المدينة كلها قليل من الجنون حين تهبط عليها زرقة المساء.

كان بإمكانك أن تتمشي على طول الشارع الرئيسي في أحد أيام الخميس وحتى يوم القيامة دون أن تقابل نفساً واحداً ذا نزعة خيرية. ستون أو سبعون ألفاً من البشر - وربما أكثر - ملفعون بثياب داخلية صوفية ولا وجهة لهم ولا شيء لديهم يفعلونه. يتتجون الخردل بكميات هائلة. وأوركسترات نسائية تطحن لحن "الأرملة الطروب". خدمة ممتازة في الفنادق الكبرى. قصر الدوقية يتعفن، حجراً بعد حجر، طرفاً بعد طرف. الأشجار تصرخ من الصقيع. فرقة مستمرة من أحذية خشبية. الجامعة تحتفل بذكرى وفاة غوته، أو لعله ميلاده، لم أعد أذكر. (وعادة تكون مناسبات الوفاة هي التي يحتفل بها)، قضية بلهاء، على أية حال. الكل فيها يتأهب ويتمطى.

كنت كلما وصلت إلى أعلى الشارع حيث ساحة مربعة يغمري دائماً إحساس بالعبث المطبق. الخارج كالح وناو، وداخلي كالح وناو. ونعيم على المدينة طفافة من الجذب، ضبابية من علم الكتب. خبث الماضي ورماده. وحول القاعات الداخلية اصطفت قاعات الدرس، وهي أكواخ صغيرة كالتي سيكون علي مواطني الجمهورية القادمين أن يقضوا حياتهم في نسيانها. وكان يتم أحياناً استقبال آباء الأولاد في غرفة الاستقبال الكبرى القرية جداً من الشارع، حيث توجد التماثيل النصفية للأبطال القدامى، أمثال مولير، راسين، فولتير، إلخ، أي جميع الفزاعات التي يذكرها مجلس الوزراء بتلذذ كلما أضيف أحد الخالدين إلى التماثيل الشمعية. (ولا وحوود لتمثال فيلون، لا تمثال لرابليه، لا تمثال لرامبو). مهما يكن، هنا كانوا يعقدون اجتماعاً سريراً مهيباً، الآباء والقمصان المحتسرة الذين تستأجرهم الدولة لتطويع عقول النشء. وكنت دائماً تجدد عملية التطويع هذه، هذا التهذيب للمشهد العام، من أجل جعل العقل أكثر جاذبية. وكان الصغار أيضاً يأتون، أحياناً - أزهار دوار الشمس تلك التي ستتزع من غرفة الحضانة لكي تزين أراضي البلدية العشوشية. بعضهم كان مجرد نباتات مطاطية يمكن تنظيفها بسهولة بخزقة من قميص. وكلهم يهتزون طرباً بالحياة العزيزة في المنامات حالما يحل الليل. المنامات! حيث تتألق الأضواء الحمراء، حيث يقرع الجرس كإنذار الحريق، وحيث يضج وطء الأقدام أثناء التزاحم للوصول إلى زنانات الثقافة.

ثم كان هناك الأساتذة! خلال الأيام القليلة الأولى توصلت إلى أن أصافح بعضهم، وطبعاً كانت هناك التحية بالقبعة أثناء المرور من تحت القناطر. أما حديث القلب للقلب، أما التمشي إلى المنعطف والمشاركة في شرب كأس فلا سبيل إليهما. لقد كان هذا ببساطة أمراً لا يمكن تصور حدوثه. أغلبهم كان يبدو وكأن الرعب قد أمسك بتلابيبه. على كل حال، كنت أتمي إلى طبقة مختلفة. لم يكونوا يشتركون حتى في القمل مع أمتالي. لقد كان مجرد النظر إليهم يثير سخطي، حتى أنني كنت أصب لعناتي عليهم في سري حالما ألحهم من بعيد. كنت ألزم مكاني، مستنداً إلى عامود، وفي زاوية فمي سيجارة وقبعتي مرخية على عيني، وحين يصبحون على مسافة توجب إلقاء التحية أبخ بصقة كبيرة وأرفع قبعتي. لم أكن أزعج نفسي حتى بفتح بوزي وإخبارهم عن الوقت. ومن تحت أسناني أقول ببساطة :

"أيري فيك، جاك!"، وأدع الأمر عند هذا الحد.

بعد أسبوع بدا لي أنني أمضيت هنا حياتي بكاملها. كان الوضع أشبه بكابوس لعين منيك لا يمكنك التخلص منه. وكنت دائماً أقع في سبات التفكير فيه. ولم أكن قد وصلت إلا منذ أيام قلائل. ويهبط الظلام، ويهرع الناس إلى بيوتهم كالقثران تحت الأنوار التي يغلفها الضباب. الأشجار تتلألأ بجثث معين الشكل. فكرت في الأمر وقلبت التفكير فيه ألف مرة ومرة. المسافة من المحطة إلى المدرسة كانت كالتزه داخل نفق دانتزيغ، كل شيء حاد الحواف، متصدع، يحطم الأعصاب. زقاق من عظام الموتى، وأشباح منحنية، منكمشة رعباً وملفعة بالأكفان. أعمدتهم الفقرية من عظام السمك. المدرسة نفسها بدت كأنها تنهض من وسط بحيرة من الندف الهش، جبل مقلوبة قمته إلى أسفل باتجاه مركز الأرض حيث يعمل الله أو الشيطان دائماً وهو يرتدي سترة المجانين يطحن حنطة لتلك الجنة التي هي دائماً حلم رطب. لم أعد أذكر إن كانت الشمس قد أشرقت مرة. لا أذكر إلا الضباب اللزج البارد الذي كان يهب من جهة المستنقعات المتجمدة البعيدة حيث حفرت سكة القطار طريقها داخل الهضاب الرهيبة. وكان بالقرب من المحطة قناة، أو لعله نهر، مستتر عن العيون تحت سماء صفراء وأكواخ صغيرة ألصقت بضربة قوية على ضفتي النهر

المرتفعتين. وكانت هناك أيضاً ثكنات عسكرية، ودهشت، فقد كنت أقابل بين حين وآخر رجالاً صغاراً صفراً من أقزام دجاج الصين المرتبك ذوي وجوه أفيونية يتلصصون من داخل بذاتهم النظامية الفضفاضة كهياكل عظمية مصبوغة معاًة داخل التجارة. كان الطابع القرن أوسطي اللعين بمجمله متقللاً ومتعلماً بشكل جهنمي، يهتز إلى الأمام وإلى الخلف، ويصدر أنيماً خافتاً، ويقفز باتجاهك من الأفريز، يتدلى كرقاب المجرمين المكسورة من رؤوس تماثيل الغرغويل. ظللت أنظر خلفي طوال الوقت، وأمشي كالسرطعون المغرور بشوكة طعام قذرة. كان أولئك المسوخ القزمية البدينة، وتلك الصور الملصقة كالذب على واجهة كنيسة السان ميشيل، كانوا يتبعونني في الأزقة الملتوية وحول المنعطفات. وبدأت واجهة السان ميشيل مفتوحة كالألبوم صور في الليل، تتركك وجهاً لوجه مع رعب الصفحة المطبوعة. وحين أطفئت الأنوار، وبهتت الشخصيات وتسطحت، أضحت ميتة كالكلمات، إذا بالواجهة تغلو رائعة، وتنبعث من كل شق من الواجهة العتيقة الملاءى بالعقد ترنيمه الريح الليلية الجوفاء وفوق الدبش المخرم لأردية الكهنوتية المتبيسة الباردة جرى سائل لعابي قاتم من الضباب والصقيع يشبه شراب الأفسنتين.

هنا، حيث قامت الكنيسة، بدا أن كل شيء تحول إلى واجهة خلفية. ولا بد أن الكنيسة نفسها قد خلعت عن قاعدتها على مدى قرون من التقدم في المطر والثلج. كانت تقع في ساحة إدغار - كينه، جائئة في وجه الريح، كبغل ميت. وكانت الريح تتدفق خلال شارع دو لامونيه كشعر أبيض ينهمر وحشياً: تلوم حول الأعمدة البيضاء المهترئة التي تعيق المرور الحر للحافلات ولفريق من عشرين بغلاً. وبينما أتمايل عابراً هذا المخرج في الساعات الأولى من الصباح قد أتعتر أحياناً بالمسيو رينو المتلفع بقلنسوته كراهب شره، ويبدأ بإلقاء إفتاحيته علي بلغة القرن السادس عشر. وحين ألتقي بالمسيو رينو، والقمر يندفع بقوة عبر السماء اللزجة كبالون مثقوب، أقع على الفور في عالم من الإبهام. فلدى المسيو رينو كلام محدد، جاف كالشمس، وثقيل كقاعدة براندنبرغر. كان يشن علي هجوماً سريعاً بدءاً من غوته أو فيخته، بصوت عميق يتلاطم هادراً بين زوايا الساحة المترامية كقصف رعود العالم الفاتت. يا رجال يوماتان، يا رجال زنجبار، يا رجال تيرا دل فيوغو، نخلصوني من هذا

اللحاء الزغي الأخصر الشاحب بلاد الشمال تكوم حولي، بالأزقة البحرية
الجليدية، والأشواك ذات التواءات المزرقة، والأضواء المجنونة، والترتيل المسيحي
الفاسق الذي يتشر كجلمود هابط من جبل إتنا إلى بحر إيجه. كل شيء
متجمد، صلب كالنفاية، العقل موصد ومحاط بإطار من الصقيع، ومن خلال
الرزم الحزينة من الثثرة الذكية تسمع الغرغرة المختنقة لقديسين نهشهم القمل.
أيضاً أنا حتى العظم، ولكن مع أساس قلوي بارد، وبأصابع أطرافها من
الزعفران. أبيض، نعم، لكني لست راهباً مثقفاً، لست مؤمناً كاثوليكياً. أبيض،
ومتحجر القلب، كالرجال الذين سبقوني وأبحروا منطلقين من جبال الألب.
أنظر إلى البحر، إلى السماء، إلى المبهم والقريب البعيد.

الثلج من تحت القدم يعدو مسرعاً أمام الريح، يعصف، يخز، يقرص،
يتناثر، يدوم عالياً، يمطر، يتفتت، ويهبط رذاذاً. لا شمس، لا هدير أمواج، لا
تكسر أمواج. الرياح الشمالية الباردة مسلحة بأشواك مديبة حادة، مثلجة،
حاقدة، جشعة، مفسدة، شالة. الشوارع تشيح بوجوهها عند منعطفاتها
المعقوفة، إنها تبتعد عن المشهد المسرع، عن النظرة المتجهمة، تهرع متعثرة
من خلال الشبكية المنجرفة، تدير الجانب الخلفي للكنيسة فتجعله واجهة، تجز
التمائيل، تسطح النصب التذكارية، تقتلع الأشجار من جذورها، تيبس
العشب، تمتص الشذا من الأرض. وأوراق أشجار جامدة كالإسمنت، أوراق
يعجز الندى عن إعادة البريق إليها. لا قمر سيضيء وضعها الفاتر. الفصول
وصلت إلى نهاية راكدة، والأشجار تشحب وتذوى، العربات تسير على آثار
الدواليب الزجاجية بصوت يشبه نقراً مكتوباً على القيشارة يتسلل كالأفعى.
وفي تحويف التلال المتوجة بالبياض تهجع ديجون الممتعة الخالية من العظام.
لا مخلوق حياً يخترقها ليلاً عدا الأشباح القلقة متجهة جنوباً صوب الشبكات
المتسامتة الصفيرية اللون. ومع ذلك فأنا يقظ وأتجول، شبح سائر، رجل
أبيض مرتعب من العقلانية الباردة لهندسة المسلخ هذه. من أنا؟ ماذا أفعل
هنا؟ إني أسقط بين أسوار الحقد الإنساني الباردة، قامة بيضاء ترفرف،
أغوص في البحيرة الباردة، وجبل من الجماجم فوقي. أنكب على المناطق
الباردة، والخطوات الطباشيرية غسلت بالنيلة. الأرض بأروقتها المظلمة تعرف
وقع خطوتي، تشعر بانحراف قدم عن السبيل، برفرفة جناح، بلهات ورعشة.

أسمع الدرس يتحول إلى مزاح وضحك، والأرقام تصعد إلى أعلى، وتخفّاش يتبدل عالياً كقطر لزج، ويصفق بجناحين كرتونيتين ذهبيتين، وأسمع القطارات تتصادم، والسلاسل تصلصل، والقاطرة تنفث، تشخر، تتنشق، تطلق بخاراً، وتقبل. كل الأشياء تأتي إلي من خلال الضباب الصافي مع نكهة التكرار، والمخلفات الصفراء والـ gadzooks والـ whittikins . في قلب المركز، إلى السفلى من ديجون بمسافة طويلة، وبعيداً عن مناطق القطب الشمالي، يقف الإله أجاكس، كتفاه موثوقان إلى دولاب طاحونة هواء، الزيتون يسحق، وماء المستنقع الأخضر يضج بضفادع تنق.

الضباب والثلج، المنطقة الباردة، المعرفة الثقيلة، القهوة الزرقاء، الخبز الخالي من الزبد، الشورية والعلس، ويقول تاحر لحم الخنزير الثقيلة، والجبن البائت، والطعام الندي، والنبذ القذر يجعل جميع نزلاء الإصلاحية في حالة إمساك. ولما يشتد إمساك الجميع تتجمد أنابيب مياه المرحاض. ويتكوم الخراء كتلال النمل، ويضطر المرء إلى أن ينزل عن قاعدته ويتغوط على الأرض. ويبقى مكانه جامداً متيساً، ينتظر ذوبان الثلوج. في أيام الخميس يأتي الأحذب مع عربة اليد ليحرف الكتل المتيسة بمكنسة وجاروف، ويذهب جاراً ساقه المرتخية. وترش الأوراق المرحاض، وتلتصق بقدميك كورق الذباب. وحين يعتدل الطقس ينضج العبق، وتستطيع أن تشمه في وينشستر على بعد أربعين ميل. وعندما تقف في الصباح تنظر إلى الروث الناضج، حاملاً فرشاة أسنان، تكون الثتانة من القوة بحيث تجعل رأسك يدور. ونقف في المكان بقمصاننا الداخلية الحمراء، ننتظر أن نتغوض، ويسلو الموقف أشبه بلحن غنائي من إحدى أوبرات فيردي العظيمة - كأننا جوقة سندان الحداد مزودين بيكرات وحقن. وفي الليل، حين تضيق بي الحال، أندفع هابطاً إلى المرحاض الخاص بالسيد المراقب القريب من الشارع العام. وكان برازي دائماً مملوءاً بالدم. وحتى مرحاضه لم يكن جارياً كما يجب ولكن على الأقل كانت تتوفر لي متعة الجلوس، ثم أترك له حزمتي الصغيرة كعربون احترام.

بعد انتهاء الوجبة في كل مساء يأتي الحارس الليلي ليأخذ نصيبه من البهجة. وهذا المخلوق البشري هو الوحيد في المؤسسة كلها الذي شعرت معه يالفة. إنه

نكرة. يحمل مصباحاً ومجموعة مفاتيح. يقوم بحولاته خلال الليل، جامداً كإنسان آلي. وما إن يبدأ توزيع الجبن البائت حتى يظهر فجأة لينال نصيبه من النيذ. يقف هناك، ماداً مخالبه، وشعره منتصب كما الأسلاك، كشعر كلب حراسة، ونحده متوردان، وشارباه يتلألآن بالندف. فيغمغم بكلمة أو كلمتين ويحضر له كوازيمودو القنينة. ومن ثم يقف ثابت القلمين، ويرمي برأسه إلى الخلف ويجرع النيذ، يبطء ويجرعة واحدة طويلة. كان يبدو لي وكأنه يصب في جوفه أحجار ياقوت. وكان في تلك الحركة شيء يقبض علي من شعري. كأنه كان يشرب البقية الباقية من العطف الإنساني، وكأن بالإمكان جرع كل ما في العالم من حب وحنو هكذا دفعة واحدة. وكان ذلك هو كل ما يمكن عصره يوماً بعد يوم. لقد عاملوه على أنه أقل مرتبة من أرنب. ففي نظام الأشياء هو لا يساوي الماء المملح اللازم لتحليل سمكة رنجة واحدة. هو مجرد قطعة روث حية. وكان يعلم ذلك. حين كان ينظر حوله بعد أن ينتهي من الشرب ويتسم لنا، يبدو العالم وكأنه يتهاوى. إنها ابتسامة تلقى عبر لجة، حيث في أسفل الهاوية يقبع كل العالم المتحضر النتن كمستنقع، وفوقه، وكالسراب، تحوم هذه الابتسامة المرفرفة.

الابتسامة هي نفسها التي حيتني ليلاً عند عودتي من تسكعي. أذكر أنني في إحدى تلك الأمسيات، كنت واقفاً عند الباب أنتظر الصديق الحميم لينهي جولاته، وتملكني ذاك الإحساس بالسعادة حتى كان بوسعي أن أبقى منتظراً هكذا إلى الأبد. وانتظرت نحو نصف ساعة قبل أن يفتح لي الباب. وأتلفت حولي بهدوء وارتياح، أتشرب كل ما يحيط بي، الشجرة اليابسة المنتصبة أمام باب المدرسة بأغصانها النحيلة الملتوية، والبيوت على الجانب المقابل من الشارع التي غيرت لونها خلال الليل، وقد انحنى الآن بشكل أوضح، وضجيج القطارات المندفع عبر فيافي سيبيريا، والدرابزينات رسمها أوتريللو، والسماء، وآثار دواليب العربة العميقة. وفجأة، وبلا مقدمات، ظهر عاشقان، كانا كلما سارا بضع ياردات يتوقفان ويتعانقان، ولما لم يعد بإمكانني متابعتهم بعيني صرت أتابع وقع خطواتهما، سمعت توقفهما السريع، ومن ثم سيرهما المتهادي البطيء. كدت أشعر بارتخاء جسديهما ثم

سكونهما عند استنادهما على السور، وسمعت طقطقة حذاءيهما حين كانت تنقبض عضلاتهما وقت العناق. وتجولا في أرجاء المدينة، وخلال الشوارع المتلوية، متوجهين إلى القناة ذات المياه الزجاجية حيث يستقر الماء أسود كالفحم. كان شيئاً استثنائياً. ولم يكن في ديجون كلها إثنان مثلهما.

في تلك الأثناء كان الصديق الحميم يقوم بجولاته، وكان باستطاعتي أن أسمع قرعة مفاتيحه، وسحق حذائه، والخطو الثابت الآلي. وأخيراً سمعته قادماً على الممشى ليفتح الباب الكبير، البوابة الضخمة المقوسة التي لا يوجد أمامها خندق. سمعته يتحسس القفل، بيدتين صارمتين، وبلهن حذر. ولما تمايل الباب وهو ينفرج رأيت فوق رأسه كوكبة من نجوم تتوح الكنيسة. كل الأبواب موصدة، كل زنزانة مرتجة. والكتب مغلقة. الليل مخيم قريب، مدبب كنصل خنجر، ثمل كمهروس. وها هو ذا، خواء لا متناه. وفوق الكنيسة، وكناج الأسقف، شمنت كوكبة النجوم، وكل ليلة، وطوال أشهر الشتاء، تشمخ هناك واطئة فوق الكنيسة. واطئة وبراقة، حفنة من نصال الخناجر، انبهار من الخواء الصرف. تبعتني العجوز حتى انعطافه الممشى، ثم أغلق الباب بصمت. وحين ألقيت عليه تحية المساء لمحت ثانية تلك الابتسامة اليائسة، المستحيلة، كومضة نيزكية عبر شفا عالم مفقود، ومن جديد رأيت واقفاً في قاعة الطعام، رأسه مائل إلى الخلف والياقوت ينسكب في جوفه. وكان البحر المتوسط كله مدفون داخله - بساتين اليرتقال، وأشجار السرو، والتماثيل المجنحة، والمغابد الخشبية، والبحر الأزرق، والأقنعة الجامدة، الأرقام الصوفية، والعصافير الأسطورية، السماوات الياقوتية الزرقة، وأفراخ العقبان، الخلجان الصغيرة للمشمسة، الشعراء العميان، والأبطال الملتحون. كل هذا اختفى، غاص تحت الجلمود الآتي من بلاد الشمال، دفن، مات إلى الأبد، صار ذكرى، أملاً وحشياً.

تلكأت لحظة على درب العربات. كل شيء أشبه بالكفن، بغطاء النعش، بخواء مستحکم لا يوصف. ثم حثت خطاي على طول الممر المفروش بالحصي المحاذي للسور، ماراً بالأقواس والأعمدة، والسلام الحديدية، ومن مربع إلى آخر. كل شيء محكم الإغلاق، موصد استعداداً للشتاء. وأجد القنطرة المؤدية

إلى غرفة الطعام. الضوء المقرز للنفس ينتشر على الدرج من النوافذ المتجهمة المصقعة. والدهان يتقشر عن كل شيء. الأحجار تتحرف، وأعمدة الدرايزين تصر، والعرق الرطب يتز من حجارة الرصف اللوحية ويشكل جواً باهتاً، زغبياً، يخترقه النور الأحمر الضعيف عند أعلى الدرج، وارتقيت آخر مجموعة درج، والبريج، وقد سربلي العرق والرعب. وأخذت أتحسس طريقي في الظلام الحالك خلال الممر القفر. كل الغرف خالية، موصدة، تتعفن. يدي تنزلق على طول الحائط باحثة عن مقر المفتاح. ويمسني الرعب حين أمسك أكرة الباب. ثمّة دائماً على قبتي يد مستعدة لانتزاعي إلى الخلف. وحالما ألبس الغرفة أرتج الباب. إن ما أقوم به كل ليلة إن هو إلا معجزة، معجزة الولوج إلى الداخل دون أن أحنق، دون أن تشق رأسي بفأس. يمكنني أن أسمع الجرذان تعدو خلال الرواق، تقرض فوق يني عوارض السقف الخشبية. الضوء يسطع ككبريت مشتعل وأقابل الرائحة التتنة الحلوة المقرزة للنفس لغرفة لا تهوى على الإطلاق. وفي الزاوية يجثم صندوق الفحم، تماماً كما تركته. النار خامدة. صمت مطبق حتى أنه يهدر كشلالات نياغارا في أذني.

وحدي، مع اشتياق هائل فارغ وخوف. الغرفة كلها من أجل أفكاري. لا شيء غيري وما أفكر، وما أخاف. كان بإمكانني أن أخرج أروع الأفكار، أن أرقص، أبصق، أكشر، ألعن، أنتحب - دون أن يعرف أحد بذلك، دون أن يسمعه أحد. إن مجرد التفكير في تلك العزلة المطلقة يكفي لدفعني إلى حافة الجنون. هي أشبه بولادة متيسرة. قطعت كل الروابط. وأضحيت منفصلاً، عارياً، وحيداً. إنه نعيم وألم في آن واحد. الزمن بين يديك. كل لحظة فيه تجثم عليك كجبل. أنت غارق فيها. صحارى، بحار، بحيرات، محيطات. الزمن يضرب باستمرار كساطرور اللحم. العالم عدم. أنا واللا أنا. "أوماهاروموما". على كل شيء أن يحمل اسماً. يجب تعلم، اختبار، ممارسة كل شيء. "تصرف وكأنك في بيتك يا عزيزي".

يهبط الصمت كالسيول البركانية. وهناك، فوق الهضاب المجذبة، تنطلق القطارات قدماً نحو مناطق معدنية شاسعة، تجر منتجات تجارها. تجري على

مجرى من الفولاذ والحديد، والأرض مفروشة بالخبث، والجمر، والفلز الأرجواني. في عربات البضائع أعشاب محرية، لوح وصل السكة الحديدية، حديد مبروم، راقصات السكة الحديدية، قضبان سلكية، أطباق وملاءات، أدوات صفيحية، أطواق دورت بالتسخين، عربات الصفائح والملاط، وفلز زوره zores. دواليب مقاس 80 ميليمتر أو أكثر. أمر بنماذج بديعة من فن العمارة الأنحلو نورمانية، أمر بمشاة ولوطيين، بأفران الموقد المفتوح، بمطاحن بسمر الساسية، بمحركات ومحولات، بقوالب صب الحديد الخام وسبائك الفولاذ. الناس كافة، مشاة ولوطيين، سمك ذهبي وشجر نخيل من الزجاج المغزول، وقرود تنشج، كلهم يتجولون بحرية في الأزقة التخيمسية quincumcial في ساحة دو بريزيل عين خزامية.

أعود بسرعة البرق إلى امرأة كنت أعرفها. تشبه سلسلة طرققتها من بؤسي. كل واحدة معلقة بالأخرى، نخاف من العيش منفصلين، من البقاء مولودين. باب الرحم دائماً مزيج. رعب واشتياق. عميقاً في الدم يمكن التوق للجنة. الغيب. دائماً الغيب. لا بد أن كل شيء بدأ بالسرة. يقطعون الحبل السري، يصفعون مؤخرتك، وبريستوا يرمون بك إلى العالم، بلا هدف سفينة بلا دفة. وتنظر إلى النجوم ثم تنظر إلى سرتك. يصبح لديك عيون و كل مكان. تحت الإبط، بين الشفاه، في جنور شعرك، في أخمص قدميك. ويغدو البعيد قريباً، والقريب بعيداً. في الداخل والخارج، تدفق مستمر، سلخ جلود، قلب الداخل إلى الخارج، وتنحرف هكذا لسنين وسنين، إلى أن تجد نفسك في المركز تماماً، وهناك تتعفن على مهل، تتفتت ببطء إلى ذرات، وتبدد من جديد، ولا يبقى غير إسمك.

حل الربيع قبل أن أفلح في الهروب من الإصلاحية، ثم فعلت وبضربة حظ. فقد أنبأني تلغراف من كارل يوماً أن ثمة مكاناً شاغراً في الطابق العلوي، وقال إنه سيرسل لي أجرة العودة إذا قررت القبول. وأجبته بتلغراف عاجل ولما وصلت النقود هرعت إلى المحطة دون أن أترك كلمة واحدة للسيد المدير أو لأي كان. مغادرة فرنسية، كما يقولون.

ذهبت من فوري إلى الفندق الكائن في إي - بي، حيث كان يقطن كارل. فتحت لي الباب وهو عار تماماً. كانت ليلة عطلته وكالمعتاد هناك عاهرة في سريره. ويقول: "لا تأبه لها، إنها نائمة. إذا كنت بحاجة إلى مضاجعة يمكنك أخذها. لا بأس بها". ويسحب الأغطية عنها ليبريني نوع بضاعتها. على أية حال، لم أكن أفكر في المضاجعة عندئذ. كنت متوتراً جداً، كرجل هرب لتوه من السجن. أردت فقط أن أرى وأسمع الأشياء. كان قدومي من المحطة أشبه بحلم طويل. وشعرت كأني كنت غائبا منذ سنين عديدة.

لم أدرك تماماً أنني عدت إلى باريس من جديد إلا بعد أن جلست وألقيت نظرة متفحصة إلى الغرفة. إنها غرفة كارل، ولا سبيل إلى الخطأ، شبيهة بقفص السنجاب ويبت خراء معاً. وبالكاد وجد مكان على الطاولة يتسع للآلة الخفيفة التي كان يستخدمها. الأمر هكذا دائماً معه، سواء كانت معه عاهرة أم لا. وهناك دائماً قاموس ملقى وهو مفتوح فوق نسخة ذات حواف مذهبة من فاوست، ودائماً هناك كيس التبغ، وبيريه، وزجاجة من النبيذ الأحمر، ورسائل، ومخطوطات، وجرائد قديمة، ورسوم مائية، وإبريق شاي، وجوارب قذرة، وعيدان لتنظيف الأسنان، وملح كرسشن، وواقيات

ذكرية، إلخ. وفي الـ bidet قشور يرتقال وبقايا شطيرة لحم خنزير.
قال: "يوجد شيء من الطعام في الخزانة، كل ما تشاء! كنت على وشك أن آخذ حقنة"

عزت على الشطيرة التي ذكرها وعلى قطعة من الجبن كان قد قضم منها قضمه. وبينما جلس هو على حافة السرير ليأخذ جرعة من مطهر آرغيرول، ازدردت الشطيرة والجبن بعون من قليل من النيذ.

قال: "أعجبتني الرسالة التي بعثتها إلي وتحدثت عن غوته"، وهو يمسح أيره بسر وال داخلي قدر، "سأريك الجواب عليها حالا - إنني أدونه في كتابي. مشكلتك هي أنك لست ألمانيا. يجب أن تكون ألمانيا لتفهم غوته. خراء، لن اشرح لك هذا الآن. لقد كتبت كل شيء في الكتاب... بالمناسبة، لدي عاهرة جديدة الآن - ليست هذه - هذه شبه مخونة. على الأقل، كانت معي حتى قبل بضعة أيام. لست متأكداً إن كانت ستعود أم لا. ظلت تعيش معي طوال فترة غيابك. وقبل أيام جاء والداها وأخذاهما، قالا إن عمرها لا يتجاوز الخامسة عشرة. أتصدق؟ لقد أخافاني من الرعب.....".

أخذت أضحك، لقد كان من عادة كارل أن يوقع نفسه في ورطة كهذه.

قال: "علام تضحك؟ كان يمكن أن أدخل السجن بسببها. ولحسن الحظ أنني لم أحبلها. وهذا مضحك أيضاً، لأنها لم تكن تعني بنفسها كما يجب. ولكن اتعلم ما الذي أنقذني؟ وهذا ما أعتقده على الأقل، إنه "فاوست". نعم! فقد تصادف أن رأى أبوها العجوز المسرحية ملقاة على الطاولة، فسألني إن كنت أفهم الألمانية. وحديث أدى إلى آخر، وإذا به يقلب النظر في كتابي ولحسن الحظ كنت قد تركت كتاباً لشكسبير مفتوحاً أيضاً، فترك لديه انطبعا جيداً جداً، وقال من الواضح أنني رجل على قدر كبير من الجدية".

"وماذا عن الفتاة - ماذا قالت هي؟".

"كانت خائفة حتى الموت. وما حدث هو أنه كان معها ساعة يد صغيرة حين أتت، ووسط هذا التوتر لم نثر على الساعة، وأصرت أمها على العثور عليها وإلا طلبت الشرطة. أترى كيف تجري الأمور هنا. وقلبت

المكان رأساً على عقب - لكنني لم أعثر على الساعة اللعينة. واستشاطت الأم غضباً. أعجبتني هي الأخرى، على الرغم من كل شيء. بل إنها كانت أجمل من ابنتها. خذ - سأريك رسالة بدأت بكتابتها لها. إني أحبها....".

"تقصد الأم؟"

"طبعاً، ولم لا؟ لو أنني شاهدت الأم أولاً لما نظرت إلى الابنة قط. وكيف كان لي أن أعرف أن عمرها خمسة عشر عاماً فقط؟ إنك لا تسأل العاهرة عن عمرها قبل أن تضاجعها، أليس كذلك؟"

"جو، في الأمر شيء مريب. أرجو أن لا تكون ساخرأً مني؟"

"أنا أسخر منك؟ خذ - أنظر إلى هذه". وأراني الرسوم المائية التي رسمتها - أشياء صغيرة فيها لفتة - سكين ورغيف خبز، الطاولة وإبريق الشاي، وكلها موضوعة فوق بعضها. قال: "لقد أحبتني. كانت طفلة. كان علي أن أخبرها متى تنظف أسنانها وكيف تعتمر قبعتها. خذ - أنظر إلى المصاصات! كنت أشترى لها كل يوم بضع مصاصات - وكانت تحبها".

"حسن، وماذا فعلت حين أتى والداها لأخذها؟ ألم تثر شجاراً؟"

"بكت قليلاً، هذا كل شيء. وماذا كان بإمكانها أن تفعل؟ إنها قاصر. لقد اضطررت إلى أن أعد بأن لا أراها ثانية. وأن لا أكتبها أيضاً. وهذا ما أنتظر نتيجته الآن - سأرى إن كانت ستبقى بعيدة أم لا. لقد كانت عذراء حين أتت إلى هنا. والمشكلة الآن هي إلى متى ستقدر على البقاء بدون مضاجعة؟ لم تكن تشبع منها حين كانت هنا. كادت تهلكني".

في ذلك الوقت استيقظت النائمة وأخذت تفرك عينيها. بدت لي جميلة وصغيرة أيضاً لا بأس بمظهرها، لكنها صامتة كالبحيم. أرادت أن تعرف على الفور عما كنا نتحدث.

قال كارل: "إنها تقطن في الفندق، في الطابق الثالث. هل تود أن ترافقها إلى غرفتها؟ سأتدبر الأمر".

لم أكن متأكداً من أنني راغب فيها أم لا، ولكن حين رأيت كارل يدها مرة أخرى قررت أنني أريدها. سألتها أول الأمر إن كانت تعبئة كثيراً.

سؤال بايخ. العاهرة لا تصل قط إلى حالة التعب الشديد من فتح ساقها. بعضهن يمكن أن ينمن وأنت منهمك فيهن. على أية حال، كان قد تقرر أن نهبط إلى غرفتها. وعلى هذا الأساس قلن يتوجب علي أن أدفع لصاحب الفندق أجر مبيت.

في الصباح استأجرت غرفة تطل على الحديقة العامة الصغيرة حيث يأتي عادة حاملو لوحات الإعلانات لتناول غدائهم. وعند الظهيرة عرجت على كارل لأشركه طعام الإفطار. كان هو وفان نوردن قد أخذنا يكتسبان عادة جديدة أثناء غيابي - هي الذهاب كل يوم لتناول وجبة الإفطار في الكوبول. وسألته: "ولماذا الكوبول بالذات؟" قال: "أتسأل لم الكوبول؟ لأن في الكوبول يقدمون الشريد في كل الأوقات، والشريد يجعلك تحرى". قلت "فهمت".

وهكذا عاد كل شيء إلى سابق عهده، ترددنا نحن الثلاثة ذهاباً وإياباً من وإلى العمل، خلافات حقيرة، تنافسات حقيرة. وفان نوردن لا يزال يعاني من عاهراته ومن رغبته في طرح قذارته من بطنه. غير أنه الآن وجد لنفسه تسلية جديدة، اكتشف أن الاستمناء هو أقل إزعاجاً. وذهلت حين زف إلي الخير. فلم يخطر ببالي أن من الممكن بالنسبة لشاب مثله أن يجد أية متعة في الاستمناء. بل لقد صعقت أكثر حين شرح لي الأمور بالتفصيل. فقد "ابتكر" باباً جديداً، حسب تعبيره. ويقول: "خذ تفاحة وانزع اللب ثم إدهن داخلها بكرماً باردة لكي لا تلوب بسرعة كبيرة. جربها مرة في أول الأمر ستدفعك إلى الجنون. على أية حال، هكذا أرخص ولا يستغرق وقتاً طويلاً".

ثم قال وهو يغير دفة الموضوع: "بالمناسبة، صديقك ذاك، فيلمور، إنه في المستشفى. أعتقد أنه فقد عقله. على أية حال، هذا ما أخبرني به فتاته. فقد اتخذ له فتاة فرنسية أثناء غيابك، وكانا يشيران شجاراً جحيمياً. إنها عاهرة ضخمة الجثة صحيحة الجسم - متوحشة. لا أمانع في مضاجعتها، ولكن أخشى أن تقتلع عيني بمخالبها. كان دائماً يظهر بوجهه ويدين مليئين بالخدوش. وهي أيضاً كانت تبدو بين الحين والآخر مرضوضة - أو غالباً. أنت تعرف نوع أولائي النسوة الفرنسيات - حين يعشقن يفقدن عقولهن".

واضح أن ثمة أحداثاً قد وقعت أثناء غيابي. وشعرت بالأسف لأجل

فيلمور. لقد كان معي طيباً لعيناً. وبعد أن تركت فان نوردن قفزت إلى الحافلة وتوجهت رأساً إلى المستشفى.

أعتقد أنهم لم يكونوا قد قرروا بعد إن كان قد بات مجنوناً بشكل مطلق أم لا، لأنني وجدته في الطابق العلوي في غرفة منفصلة متمتعاً بجميع امتيازات المرضى الموابطين. وكان قد خرج لتوه من الحمام حين وصلت. وما أن وقع بصره علي حتى انفجر باكياً. وقال من فوره "انتهى أمري. يقولون أنني مجنون - وقد أكون مصاباً بالسفلس أيضاً. يقولون إنني مصاب بأوهام العظمة"، وارتمى على السرير وأخذ يبكي بهلوع. وبعد أن بكى قليلاً رفع رأسه وابتسم - كعصفور استيقظ لتوه من غفوة. وقال: "لماذا يضعوني في غرفة تتكلف كثيراً؟ لماذا لا يضعوني في الجناح العام - أو في مستشفى المجانين؟ لا أستطيع تحمل تكاليف هذا. إنني أعيش على آخر خمسمائة دولار معي".

"ولهذا يحتفظون بك هنا" قلت "وسوف ينقلونك بسرعة حالما تنقد نقودك فلا تقلق".

ولا بد أن كلماتي تركت تأثيرها عليه، لأنني ما أن أنهيت كلامي حتى ناولني ساعة يده والسلسلة، ومحفظة نقوده، ودبوساً يحمل شعار الأخوة، إلخ. وقال "احتفظ لي بهم، سيحردني أولاد الحرام أولئك من كل شيء". وفجأة أخذ يضحك ضحكة من تلك الضحكات العجيبة الخالية من المرح التي تجعلك تؤمن بأن الذي أمامك هو أبله سواء كان كذلك أم لا. قال: "أعرف أنك ستعتقد أنني مجنون، لكنني أريد أن أكفر عما فعلت. أريد أن أتزوج. إن ما حصل هو أنني لم أكن أعرف أنني مصاب بالسيلان. وها أنا نقلت إليها المرض ثم حبلتها. قلت للطبيب لا يهمني ما يحدث لي، المهم أن يدعي أتزوج أولاً. وظل يقول لي انتظر حتى تتحسن صحتك - ولكن أعرف أنني لن أتحسن. إنها النهاية".

ولم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك منه بسبب كلامه بتلك الطريقة. لم أفهم ماذا حدث له. على أية حال، كان يجب أن أعده برؤية الفتاة لأشرح لها كل شيء. وطلب مني أن أأزعمها، وأواسيها. وقال إن باستطاعته أن يثق بي، إلخ. فقلت نعم رداً على كل شيء لأهدئه. لم يبد لي مجنوناً حقاً - كان

أقرب إلى إنسان كف عن المقاومة. مثال نموذجي للأزمة الأنغلو ساكسونية، تفجر الأخلاقيات. كنت تواقاً لمقابلة الفتاة لأحصل على الحقائق المجردة حول الموضوع كله.

في اليوم التالي بحثت عنها. كانت تقطن الحي اللاتيني. وحالما علمت من أنا ازدادت مودة. إسمها جينيت. عملاقة نحيلة، صحيحة الجسم، من النوع القروي بأسنان أمامية نصف متأكلة. مملوءة حيوية وفي عينيها ما يشبه النار المجنونة. وأول شيء فعلته أنها بكّت. ومن ثم، لما وجدت أنني صديق قديم لحييها حوجو - هكنا سمته - هرعت إلى أسفل وعادت مع زجاجتين من النبيذ الأبيض، ودعتني للبقاء معها للعشاء - وأصرت. وبينما هي تشرب كانت تتذبذب بين المرح ونوبات البكاء، ولم أكن مضطراً إلى طرح أي سؤال عليها - فقد أخذت تتكلم كأنها آلة ذاتية الدوران وكان أكثر ما يقلقها هو - هل سيستعيد عمله حين يخرج من المستشفى؟ وقالت إن والديها ثريان، ولكن ليسا راضين عنها، ولا يوافقان على تصرفاتها الرعناء. وهو بالذات لم يكن يستحوذ على رضاها - فهو غير مهذب، ثم إنه أمير كي. وتوسلت إلي كي أطمئنها بأنه سيستعيد عمله، وفعلت دون تردد. بعدئذ توسلت إلي كي أعلمها إن كان باستطاعتها أن تصدق ما قاله لها - وأنه سيتزوجها. لأنها الآن، وهي تحمل طفلاً في أحشائها إلى جانب مرض السيلان، لم تعد تقوى على إشعال عود كبريت - مع رجل فرنسي على الأقل. هذا واضح، أليس كذلك؟ طبعاً، هكنا أكدت لها. بالنسبة لي كان كل شيء واضحاً كل الوضوح - ما عدا كيف بحق الجحيم وقع فيلمور في حبائلها. مهما يكن، كل شيء في حينه. وكان من وحي عندئذ أن أواسيها، وهكنا ملأتها بكل أنواع الهراء، قلت لها إن من الغريب أن كل شيء سيكون على ما يرام وأنني سأكون غراب الطفل، إلخ. ومن ثم خطر لي فحاة أنه من الغريب تماماً أن تتمكن من الاحتفاظ بطفلها - خاصة وأنه على الأغلب سيولد أعمى. وأخبرتها بهذا بأقصى ما يمكن من اللباقة، فقالت: "لا يهم، فأنا أريد طفلاً منه".

سألتها "حتى وإن كان أعمى؟".

فقالت وهي تئن: "يا إلهي، لا تقل هذا! لا تقل هذا!".

لا يهم، فقد شعرت أن من واجبي أن أخبرها. وانتابها الهستريا،

وطفقت تبكي كحيوان الفظ، وصبت مزيداً من النبيذ. وخلال بضع لحظات عادت تضحك بصخب. ضحكت لأنها تذكرت كيف كانا يتشاجران في السرير، وقالت: "كان يجب أن أتشاجر معه. كان متوحشاً".

عندما جلسنا نتناول الطعام، جاءت إليها صديقتها - وكانت عاهرة وضيعة تقطن في نهاية القاعة وسارعت جينيت بإرسالني إلى أسفل لأحضر مزيداً من النبيذ. وعند عودتي كان من الواضح أنهما تبادلتا حديثاً دسماً. وصديقتها إيفيت تعمل في سلك الشرطة، جاسوسة، كما فهمت منها. على الأقل هذا ما كانت تحاول إقناعي به. كان واضحاً بما يكفي إنها مجرد عاهرة وضيعة، غير أنها مولعة برجال الشرطة ويأبجازاتهم. وظللت طوال الوجبة تلحان علي لمصاحبتهم إلى حفلة لموسيقى القرب. أرادت أن تمضي وقتاً مرحاً - فالجو بالنسبة إلى جينيت مع جوجو في المستشفى شير الضجر. أخبرتهما أن لدي عملاً أقوم به، وأني في ليلة عطلي ساعود وأصطحبهما. وأوضحت لهما أيضاً أنه ليس لدي نقود لأنفقها عليهما. وادعت جينيت، التي صعدت حقاً لسماع هذا، أنه لا يهم على الإطلاق. والحقيقة، ولكي تيسر لي إلى أي حد لها روح رياضية، أصرت على أن توصلني إلى مقر عملي بسيارة أجرة. وهي تفعل هذا لأنني صديق جوجو الحميم. ولذا فأنا صديقها هي. وقلت في نفسي "إذا حدث أي مكروه لحبيبتك جوجو فستهرعين إلي بالسرعة الكلية. عندها سترين أي صديق سأكون". لقد كنت بالنسبة لها لطيفاً كقطيرة، حتى أنني، حين خرجنا من السيارة أمام المكتب، سمحت لها بإقناعي بتناول كأس بيرانو أخيرة معاً. وودت إيفيت لو تعرف إن كان بوسعها أن تعرج علي بعد إنهاء عملي فليديها أشياء كثيرة تخبرني بها على انفراد، كما قالت. لكنني نجحت في الرفض دون أن أؤذي مشاعرها. ولسوء الحظ كنت متهاوناً بحيث أعطيتها عنواني.

أقول "لسوء الحظ" بينما في الحقيقة أنني سعيد بهذا حين أعيد التفكير فيه. لأنه في اليوم التالي مباشرة بدأت الأحداث تتوالى. ففي اليوم التالي، حتى قبل أن أنهض من فراشي عرجنا علي معاً. فقد أُخرج جوجو من المستشفى - وقد حجزتاه في قصر صغير في الريف، على مبعدة بضعة أميال من باريس. قالتا إنه "قصر"، إذ ليس من قبيل التهذيب القول "بيت الجحانين"، وطلبتا مني

ان أسرع في ارتداء ملابسى لأذهب معهما، وكاتنا مرعوبتين.

ربما كان يمكن أن أذهب وحدي - لكنى عجزت عن اتخاذ قرار مرافقة هاتين الإثنتين. وطلبت منهما أن تنتظراني في الطابق السفلي ريثما أرتدي ملابسى، معتقداً أن ذلك سيمنحني الوقت لاختلاق عذر لعدم الذهاب. لكنهما رفضتا مغادرة الغرفة، وجلستا تراقباني وأنا أغتسل وألبس، وكأنها مسألة عادية. وبينما نحن كذلك إذا بكارل يظهر فجأة. فشرحت له الوضع باختصار بالإنكليزية، ومن ثم اخترعنا عذراً متعللين بأن لدي عملاً مهماً يجب القيام به. بيد أننا، ولكي نخفف من وطأة الأمر، أحضرنا بعض النبيذ وأخذنا تسليهما بكتاب فيه رسوم قلرة. وفقدت إيفيت كل رغبة بالذهاب إلى القصر، وكانت و كارل يتماديان علانية. ولما حان وقت ذهابنا قرر كارل أن يصحبهما إلى القصر. وقد رأى أن من المضحك رؤية فيلمور يتحول مع جمع من المجانين، وأراد أن يرى ماذا يشبه بيت المجانين. وهكذا انطلقوا، وهم سكارى قليلاً، ومزاجهم على أفضل ما يكون.

طوال وقت وجود فيلمور في القصر لم أذهب قط لزيارته. لم يكن ذلك ضرورياً، لأن جينيت كانت تعود بانتظام وتنقل لي كل الأخبار، إنهم يأملون في أن يخرجوه في غضون بضعة أشهر، كما قالت. إنهم يعتقدون أنه تسمم من الكحول - لا أكثر. وطبعاً كان مصاباً بالمرض - ولكن ليس من الصعب الشفاء منه. وحسبما يرون، لم يكن مصاباً بالسفلس، وهذا شيء رائع. وكخطوة أولية استخدموا معه مضخة البطن، نظفوا أحشائه كلها تماماً. وأصبح لفترة من الوقت من الضعف بحيث عجز عن مغادرة الفراش، وركبه الغم أيضاً. قال إنه لا يريد أن يشفى - وأراد أن يموت. وأخذ يكرر هذا الهراء بإصرار إلى درجة أن مخاوفهم زادت في آخر الأمر. وأعتقد أنه ما كان شيئاً حسناً جداً لو أنه انتحر. وعلى أية حال، بدأوا يطبقون عليه علاجاً عقلياً. وبين وقت وآخر ينزعون أسنانه، بالتدريج، حتى لم يتبق له شيء منها في فمه. وكان من المفروض أن تتحسن صحته بعد ذلك، والغريب أنها لم تتحسن. وغداً أكثر قنوطاً من ذي قبل. ثم أخذ شعره يتساقط. وأخيراً ظهرت عليه علائم جنون العظمة - بدأ يوجه إليهم تهماً كثيرة، وطلب أن

يعرف بأي حق يحجز، وماذا فعل حتى يسمح بسجنه.... إلخ، وكان بعد كل نوبة رهية من القنوط والاكئاب تجتاحه حيوية مفاجئة ويبدأ يهدد بنسف المكان إذا لم يطلقوا سراحه. ولizard الأمر سوءاً، وبما يتعلق بجينيت، كان قد برأ من فكرة الزواج منها، وقال لها صراحة ودون مواربة إنه لا ينوي الزواج منها، وإنها كانت قد جنت وحبلت فعليها أن تتدبر أمرها بنفسها.

فسر الأطباء كل هذا على أنه دلالة طيبة. قالوا إنه يتحسن. أما جينيت، طبعاً، فكانت ترى أنه يزداد جنوناً على جنون، لكنها كانت تصلي كي يطلقوا سراحه لتأخذه إلى الريف حيث الهدوء والسكينة، وهناك سيعود إلى صوابه. في تلك الأثناء قدم والداها إلى باريس في زيارة بل وذهبا إلى أبعد من ذلك وقاما بزيارة صهر المستقبل في القصر. ولعلمهم تصوروا بتفكيرهم البعيد النظر أنه من الأفضل لابتهم أن تتزوج من مجنون على أن لا تتزوج أبداً. ورأى الوالد أن بوسعه أن يجد لفيلمور عملاً ما في المزرعة. وقال إن فيلمور شاب لا بأس به على الإطلاق. ولما علم من جينيت أن لدى فيلمور نقوداً أبدى حتى تسامحاً أكبر وتفهماً أكثر.

كان الأمر يجري على ما يرام من كل النواحي. فقد عادت جينيت إلى الأقاليم لفترة من الوقت مع أبويها، وأخذت إيفيت تتردد بانتظام على الفندق لمقابلة كارل. كانت تظن أنه ناشر صحيفة. وشيئاً فشيئاً أصبحت أكثر حميمية. وحين مننت علاقتها معنا تماماً أخبرتنا في أحد الأيام أن جينيت لم تكن أكثر من عاهرة، وأن جينيت علقّة، وأن جينيت لم تكن قط حاملاً. وبشأن الاتهامات الأخرى لم يكن لدينا شك كبير، أنا وكارل، أما عن كونها ليست حاملاً، فذلك ما لم نتأكد منه.

سأل كارل "كيف إذن حصلت على تلك البطن الضخمة؟ فضحكت إيفيت وقالت "ربما استخدمت مفتاح دراجة" ثم أضافت "لا، حقاً، الانتفاخ حصل نتيجة الإفراط في الشرب، إن جينيت تشرب كسمكة. ستريان حين تعود من الريف كيف أصبحت منفوخة أكثر. إن أباهما سكير، وجينيت سكيرة. وهي مصابة بالسيلان، نعم - لكنها ليست حبلية".

"ولكن لماذا تريد أن تتزوج منه؟ أصبح أنها تحبه؟".

"حب هراءا حينيت ليس لها قلب. إنها تريد من يعتني بها. لن يقبل أي فرنسي أن يتزوج منها - إن لديها سجلاً عند دوائر الشرطة. لا، إنها تريده لأنه أغيب من أن يكتشف أمرها. ووالداها ما عادا يريدانها - إنها تجلس العار. أما إذا استطاعت الزواج من أمير كي تري، عندئذ سيكون كل شيء على ما يرام.... لعلكما تعتقدان إنها تكن له شيئاً من الحب، هه؟ أنما لا تعرفانها. حين كانا يعيشان معاً في الفندق، كانت تستقبل رجالاً أثناء غيابه في العمل. كانت تقول إنه لم يكن يعطيها ما يكفي من النقود لتتفق. كان بجيلاً. وذاك الفرو الذي كانت ترتديه - قالت له إن والديها أعطاها إياه، أليس كذلك؟ يا للأبله البريء! لقد رأيتها بأم عيني تعود إلى الفندق مع رجل وكان هو ما يزال موجوداً هناك. ووضعت الرجل في الطابق السفلي. لقد رأيت هذا بأم عيني. وأي رجل أعجز متهدم. لم يستطع أن يحصل على انتصاب.

لو أن فيلمور عاد إلى باريس بعد إطلاق سراحه من القصر، فرمما كانت زودته بمعلومات سرية عن جينيت. ولكن لما كان لا يزال موضوعاً تحت المراقبة وجدت افتراءات إيفيت السامة حذيرة بإقلاقه. ومرت الأحداث، وانتقل مباشرة من القصر إلى بيت والدي جينيت. وهناك، ظلوا يتملقونه حتى أعلن خطته على الملأ رغماً عنه. ونشر خبر الزواج في الصحف المحلية وأرسلت الدعوات إلى أصدقاء العائلة. وانتهر فيلمور الوضع لينغمس في كل أشكال الأعمال الطائشة. وعلى رغم أنه كان يعي جيداً ما يفعله تظاهر بأنه لا يزال أبله قليلاً. فكان، مثلاً، يستعير سيارة حميه ويطوف بها أرجاء الريف وحده، فإذا رأى مدينة أعجبه افترض لنفسه مكاناً وجلس يستمتع بوقته إلى أن تأتي جينيت باحثة عنه. أحياناً كان ينطلق هو وحموه معاً - ربما في رحلة صيد سمك - ثم لا يسمع أحد عنهما طوال أيام عدة. وأصبح نزويماً بشكل يتير السخط وكثير المطالب. وأعتقد أنه تصور أن بإمكانه أن يحصل على ما يريد بهذه الطريقة.

حين عاد إلى باريس مع جينيت كان لديه ملء خزانة من الثياب الجديدة وجيب مملوء بالنقود. وبدا مرحاً صحيح البدن، وذا بشرة سمراء جميلة. بدا لي متيناً كثمرة علق. ولكن حالما ابتعدنا عن جينيت بدأ يكاشفني: لقد خسر عمله ونفدت نقوده. وقرانه سوف يعقد في غضون شهر أو نحو. وفي تلك

الأثناء كان الوالدان يزودانه بالمال. قال " إذا أحكما قبضتيهما علي فلن أكون أكثر من عبد لهما. الأب يظن أنه سيفتح لي دكان قرطاسية، وستدير جينيت العمل مع الزبائن، وتستلم النقود، إلخ. بينما أحلس أنا في آخر الدكان لأكتب - أو أفعل أي شيء. أتصورني جالساً في خلفية دكان قرطاسية حتى آخر حياتي؟ جينيت تعتقد أنها فكرة ممتازة، وهي تحب أن تدير الشؤون المالية. إنني أفضل أن أعود إلى القصر على أن أستسلم وهكذا مخطط.

كان يتظاهر، مؤقتاً طبعاً، بأن كل شيء رائع. وقد حاولت إقناعه بالعودة إلى أميركا، لكنه رفض وقال إنه لن يدع ثلثة من الفلاحين الجهلة تطرده من فرنسا. كان يفكر في التواري عن الأنظار لفترة من الزمن، وبعد ذلك يشترى بيتاً خارج نطاق المدينة حيث من المستبعد أن يتعرش بها ثانية. ولكن سرعان ما قررنا أن هذا مستحيل: لا يمكنك أن تتواري عن العيون في فرنسا كما هو الحال في أميركا.

اقترحت عليه "يمكنك أن تلجأ إلى بلجيكا لبعض الوقت" فقال علي الفور: "وماذا سأعمل لأكسب المال، فلا يمكنك أن تحصل على عمل في تلك البلاد اللعينة"

سألته "لماذا لا تتزوجها وبعدئذ تطلقها؟".

"وفي تلك الأثناء تكون قد رمت لي بطفل. ومن سيعتني به، هه؟". قلت: "وما أدراك أنها ستضع طفلاً؟" مقررأ بهذا أن اللحظة قد حانت للبوح بكل شيء.

قال: "ما أدراني؟". لم يد عليه أنه يفهم تماماً إلام كنت ألمح. أعطيته ملخصاً لما قالته إيفيت. فأنصت إلي وهو في حيرة تامة. وأخيراً قاطعي قائلاً "لا فائدة من الاسترسال في هذا الكلام، أعرف أنها ستضع طفلاً. لقد أحسست به يتحرك داخلها. إيفيت عاهرة حقيرة قادرة. في الواقع، لم أكن أنوي أن أخرك، ولكن كنت حتى الوقت الذي ذهبت فيه إلى المستشفى لا أزال أمد إيفيت بالمال. ولما وقعت المصيبة لم أعد أستطيع أن أفعل أي شيء لأجلها. وتصورت أنني قدمت ما يكفي لكليهما.... وقررت أن أعتني بنفسني أولاً، فاستشاطت إيفيت غضباً، وقالت لجينيت أنها ستتقم

مني... لا، ليت ما قالته صحيح، إذن خرجت من هذه الورطة بسهولة أكبر. ها أنا واقع في فخ. لقد وعدت بالزواج منها ويجب أن لا أراجع. بعد ذلك لا أدري ماذا سيحل بي. لقد قبضوا علي من خصيتي الآن".

لما كان قد احتل غرفة في الفندق نفسه معي فقد اضطررت إلى أن أقابلهما باستمرار، شئت أم أبيت. وكنت أتناول طعام العشاء معهما كل ليلة تقريباً، مسبقاً بعدد من كؤوس البرنو. وطوال فترة تناول الطعام كانا يتشاجران بصخب. وكان ذلك مربكاً لأنني كنت ملزماً أحياناً بالانحياز إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر. فبعد ظهر يوم أحد، على سبيل المثال، وبعد انتهائنا من تناول طعام الغداء معاً، توجهنا جميعاً إلى مقهى كائن عند زاوية شارع إدغار - كينه. وسارت الأمور هذه المرة على أحسن ما يرام. وجلسنا في القسم الداخلي على طاولة صغيرة، جنباً إلى جنب على طرف واحد، وظهورنا إلى المرأة. ويبدو أن الشهوة استبدت بيمينيت أو شيئاً من هذا القبيل، فقد سيطر عليها فجأة مزاج عاطفي وأخذت تلاطفه وتقبله أمام الجميع. والفرنسيون يتصرفون هكذا عفويًا. ولم يكن قد مضى على عناقهما المطول طويلاً حين تفوه فيلمور بشيء عن والديها فسرتة هي على أنه إهانة. وعلى الفور صعد الدم إلى وجتيها من الغضب. وحاولنا أن نطيب خاطرهما قائلين إنها أخطأت فهم الملاحظة، ومن ثم قال لي فيلمور شيئاً بالإنكليزية بصوت منخفض - شيئاً عن ثملقها قليلاً. وكان ذلك كافياً لبلوغ غضبها ذروته. قالت إننا نسخر منها. فقلت لها عبارة حادة زادت الطين بلة. ثم حاول فيلمور أن يقول كلمة طيبة. قال: "إنك سريعة الغضب". وحاول أن يربت على خدها، لكنها ظنت أنه رفع يده ليضربها على وجهها، فسبقته بلطمة قوية على فكه يدها القروية الضخمة تلك. وظل منهولاً برهة من الوقت، فلم يكن يتوقع لكمة كهذه، وكانت تلسعه. ورأيت وجهه يشحب حتى الأبيضاض، وفي اللحظة التي تلت نهض عن المقعد وبكامل كفه لطمها لطمة قوية مفرقة حتى كادت تقع عن مقعدها. "خذي! هذا سيعلمك التهذيب!". قال هذا بلغته الفرنسية الركيكة. ومرت لحظة من الصمت التام. ثم، وكقصف العاصفة، التقطت كأس الكونياك الذي كان أمامها وقلفته نحوه بكل قوتها، فتهشم على المرأة ورائعنا. وكان فيلمور قد قبض على ذراعها للتو، لكنها قبضت على كأس القهوة بيدها الحرة وحطمتها على الأرض. وأخذت تتلوى

كاللهووسة. وكان ذلك هو أقصى ما كان بإمكاننا عمله لإمساكها. وطبعاً، في تلك الأثناء، كان صاحب المقهى قد أتى راكضاً وأمرنا بالرحيل فوراً. وزعقت جينيت "متشردان! نعم، متشردان، هذا أنتم! أجنيان قذران! سفاحان! قاطعا طريق! تضربان امرأة حامل!"، وكانت النظرات الحاقدة تتكاثر من حولنا. امرأة فرنسية مسكينة، وأميركيان جلفان. قاطعا طريق. وكنت أفكر كيف بحق الجحيم سنخرج من هذا المكان دون إثارة قتال. كان فيلمور، في هذه الأثناء، صامتا بقدر ما هو هادىء. وكانت جينيت قد انطلقت خارجة كالسهم، وتركنا لنواجه الورطة. وبينما هي تعبر الباب التفتت إلى الخلف رافعة قبضتها وصرخت: "سأرد لك الصاع صاعين، أيها المتوحشا! سوف ترى، لا يحق لأي أجني أن يعامل امرأة فرنسية متحضرة هكذا! أوه، لا! ليس هكذا!".

لما سمع صاحب المقهى هذا، وكنا قد دفعنا ثمن المشارب والكؤوس المخطمة، شعر بأنه ملزم بإظهار شهامته نحو ممثلة ممتازة للأمم المتحدة الفرنسية كجينيت، وهكذا، ودون مزيد من الضجيج بصق على قدمينا ودفع بنا عبر الباب، "خراي عليكم، أيها المتسكعان القذران!". قال هذا، أو ما شابه من المزاح.

حين أصبحنا في الشارع وكف الناس عن رمينا بالأشياء، بدأت أرى الجانب المضحك من الأمر. وقلت في نفسي، كم كانت فكرة رائعة لو أن الأمر كله انتقل هكذا إلى المحكمة. "الأمر برمتها"، مع حكايا إيفيت الصغيرة بوصفها طبقاً جانبياً. فالفرنسيون يتمتعون قبل كل شيء بروح النكتة. وربما لو أن القاضي استمع إلى القصة من فيلمور، لحله من واجب الزواج.

في تلك الأثناء كانت جينيت واقفة على الطرف الآخر من الشارع تلوح مهددة بقبضتها وهي تزعق بكل قواها. وكان الناس يتوقفون ليستمعوا، وليساندوا هذا الجانب أو ذاك، كما يفعلون عادة في مشاجرات الشوارع. ولم يدر فيلمور ماذا يفعل، هل يتعد عنها، أم يذهب إليها ويحاول أن يهدئها. كان واقفاً في وسط الشارع ممدود الذراعين محاولاً عبثاً أن يقول كلمة. وكان جينيت ما تزال تصرخ: "قاطع طريق! متوحشا! خنزير قذرا!". وأشياء أخرى مكملة. وأخيراً خطا فيلمور خطوة باتجاهها فظنت أنه ينوي أن يكيل لها لكمة أخرى، فأطلقت ساقها للريح. وعاد فيلمور إلى حيث كنت أقف

وقال: "هيا، دعنا تتبعها بهدوء" وانطلقنا، يتبعنا جمع قليل من المشردين. وبين حين وآخر كانت تلتفت نحونا لتلوح بقبضتها. ولم نقم بأية محاولة للحاق بها، واكتفينا بتعقبها في الشارع بتمهل لنرى ماذا ستفعل. أخيراً أبطأت خطواتها وعبرنا نحن إلى الطرف الآخر من الشارع. كانت الآن قد هدأت. وتابعت سيرنا خلفها، أقرب فأقرب. ولم يتبق خلفنا إلا حفنة من الناس. أما الباقوت فكانوا قد فقدوا اهتمامهم بالأمر. حين اقتربنا من المنعطف توقفت فجأة وانتظرت اقترابنا منها، فقال فيلمور "دع الكلام لي، أعرف كيف أعاملها".

كانت الدموع تنهمر على خديها ونحن نقرب منها. من ناحيتي، لم أكن أعرف ماذا أتوقع منها. لذا دهشت نوعاً ما حين تقدم فيلمور منها وقال بصوت متظلم "أكان جميلاً ما فعلت؟ لماذا تصرفت هكذا؟". أما هي فطوقته بذراعيها وأخذت تحش بالبكاء كالطفل وهي تناديه بصغيرها فلان وصغيرها علان. ثم التفتت نحوي بنظرة متوسلة وقالت "لقد رأيت كيف ضربيني، أهكذا تعامل المرأة؟" وكدت أقول نعم لولا أن أمسكها فيلمور من ذراعها وسار يقودها. قال "كفانا من هذا، إذا بدأت من حديد فساُضربك هنا وسط الشارع".

ظننا أن كل شيء سيبدأ من جديد. كانت البار تتلظى في عينيها. غير أنه من الواضح أنها كانت مرتاعة قليلاً أيضاً، لأن كل شيء خمد بسرعة. حين جلست في المقهى قالت بهدوء وهي عابسة أن عليه أن لا يظن أن كل شيء سوف ينسى بسرعة، بل سيسمع المزيد فيما بعد ربما هذه الليلة. وأوفت بوعداها تماماً. فحين قابلته في اليوم التالي كان وجهه ويداه مغطاة بالخدوش. إذ يبدو أنها انتظرت حتى أوى إلى سريره وعندها، ودون أية كلمة، ذهبت إلى خزانة الملابس، وقذفت بجميع أغراضه على الأرض، ثم تناولت كل قطعة على حدة ومزقتها تنفأً. ولما كان هذا قد حدث مرات عديدة من قبل، ولما كانت دائماً تصلحها فيما بعد، فلم يحمل نفسه مغبة الكثير من الاحتجاج. مما جعل غضبها يتعاضم أكثر فأكثر. غير أنها كانت تريد أن تغرز أظافرها فيه، وهذا ما فعلته، بكل ما تستطيع من قوة، وقد أفادها في ذلك أنها حامل.

مسكين فيلمورا! لم تكن قضية مضحكة. لقد أرعبته. فإذا هدد بالهرب هددت بقتله. وكأنها تقصد ما تقول. وكانت تقول: "إذا رحلت إلى أميركا فسأتبعك لن تفلت مني. الفتاة الفرنسية تعرف تماماً كيف تثار لنفسها". وفي اللحظة التالية تلاطفه ليكون "عاقلاً" ليكون "حكيماً"، إلخ. ستصبح الحياة جميلة حالما يحصلان على مخزن القرطاسية. لن يكون عليه أن يقوم بالكثير من العمل. سوف تتولى هي كل شيء. سيبقى هو جالساً في مؤخر المخزن ليكتب - أو ليفعل ما يشاء.

استمرت الأمور هكذا، جيئة وذهاباً، كالمنشار، بضعة أسابيع أو نحوها. كنت أتفاداهما قدر ما أستطيع، فقد سئمت العملية كلها مشمئزاً منهما هما الإثنين. ثم ذات يوم صيفي جميل، بينما كنت ماراً من أمام محل "ليونيه" فمن غير فيلمور سآراه يهبط الدرج، رحبت به بحرارة، شاعرا بالذنب لأنني تفاديته طويلاً، فسألته بأكثر من مجرد الفضول العادي، كيف الحال معه. فأخبرني جواباً غامضاً ورنه اليأس في صوته.

قال: "لقد سمحت لي بالذهاب إلى المصرف"، قالها بطريقة خاصة منكسرة ذليلة "لدي من الوقت نصف ساعة، لا أكثر. إنها تراقبني مراقبة شديدة"، ثم شد على ذراعي وكأنا يحثني على الابتعاد عن مكان وقوفنا.

انحدرنا صوب شارع ريفولي، والنهار جميل، دافئ، صاف، مشمس - أحد تلك الأيام التي تكون فيها باريس في أبهى حللها. ونستيم معتدل سائغ يهب، يكفي لنزع الرائحة النتنة من أنفك. وكان فيلمور حاسر الرأس. ظاهرياً بدا مثلاً للصحة - كسائح أميركي عادي يمشي مترهلاً والنقود ترون في جيوبه.

قال بهدوء: "لم أعد أعرف ماذا أفعل، يجب أن تفعل شيئاً لأجلي. أنا يائس. لا أستطيع أن أتمالك نفسي. ليت بوسعي أن أهرب منها ولولفئة وجيزة، ربما تحسنت حالي. لكنها لا تدعني أغيب عن ناظريها. إني بالكاد أحصل علي إذن بالذهاب إلى المصرف - يجب أن أسحب بعض النقود. سأتمشى معك قليلاً ثم علي أن أعود مسرعاً - وإلا ظلت طوال فترة الغداء تنتظرني".

أنصت إليه بهدوء، وأنا أقول لنفسي إنه حتماً بحاجة إلى من يتشله من تلك البؤرة. لقد أوقع به تماماً، لم يبق فيه أي قدر من الشجاعة. كان أشبه

بطفل - طفل يضرب كل يوم حتى لم يعد يعرف كيف يتصرف عدا أن يحشم منكمشاً مرتعداً. ولدى انحدارنا تحت صف من الأشجار في شارع ريفولي، انفجر في خطبة طويلة لاذعة ضد فرنسا، لقد سئم الفرنسيين. قال "كنت قبلاً مولعاً بهم، ولكن ولعي كان وهماً. بت أعرفهم الآن.... بت أعرف من هم حقاً. إنهم قساة ومرترقة. في أول الأمر بدا الوضع رائعاً، لأنك تشعر أنك حر. وبعد فترة وجيزة يبدأ بإشاعة الكآبة فيك. فقي العمق كل شيء موات، لا مشاعر، لا تعاطف، لا صداقة. إنهم أنانيون حتى اللب، أكثر الشعوب أنانية على وجه الأرض! لا يفكرون إلا بالمال، المال، المال. ويا لهم من محترمين جداً، وبورجوازيين! وهذا ما يدفعني إلى الجنون. عندما أراها تصلح قمصاني أكاد أضربها بهراوة. دائماً أراها تصلح، وتصلح، وتقتصد، وتقتصد. "يجب أن تقتصد!". هذا كل ما أسمعه منها طول الوقت. إنك تسمع هذا في كل مكان. "كن عاقلاً، يا عزيزي! كن عاقلاً!". لا أريد أن أكون عاقلاً، ومنطقياً، أكره هذا، أريد أن أنطلق، أريد أن أنهل من المتعة. أريد أن "أفعل" شيئاً. لا أريد أن أجلس في مقهى وأثرثر طوال النهار. يا إلهي، صحيح أن لنا أخطاءنا - ولكن لدينا الحماس. من الأفضل أن نرتكب الأخطاء على أن لا نفعل شيئاً. أفضل أن أكون متبطلاً سكيراً في أميركا على أن أبقى جالساً هنا. وهذا ربما لأنني أميركي أصيل yankee، ولدت في نيو إنجلند وأعتقد أنني أنتمي إلى هناك. لا يمكنك أن تصبح أورياً بين ليلة وضحاها. ثمة شيء في دمك يجعلك مختلفاً. إنه المناخ العام - وكل شيء. إننا نرى الأمور بمنظار مختلف. لا يمكننا أن نغير أنفسنا، مهما أعجبنا بالفرنسيين. نحن أميركيون ويجب أن نبقى أميركيين. لا شك في أنني أكره أولئك اللوطيين المتطهرين هناك في الوطن - أكرههم بكل كياني. لكنني واحد منهم أيضاً. إنني لا أنتمي إلى هذا البلد، وقد سئمته".

استمر على هذا الشكل طوال سيرنا بين صفي الأشجار. ولم أنطق بكلمة. تركته يقول كل شيء - كان من المفيد أن يزيح كل شيء عن صدره. ومع ذلك، كنت أفكر في أننا لو نعود عاماً إلى الوراء لرأينا هذا الشاب نفسه يضرب على صدره كالغوريلا، ويقول "أي يوم رائع! أي بلداً أي شعب". ولو تصادف أن مر به أميركي يتلفظ بكلمة واحدة ضد فرنسا لحطم فيلمور أنفه. كان مستعداً للموت فداءاً لفرنسا - قبل عام. لم أر في حياتي رجلاً مفتوناً ببلد، وسعيداً تحت

سماء أجنبية كما كان هو. لم يكن أمراً طبيعياً. وحين كان يقول "فرنسا" كان يعني الحمر، والنساء، والنقود في الجيب، تأتي بسهولة، وتنفق بسهولة. كان يعني أن تكون أزعر، أن تكون في عطلة. ثم، حين تلقى الضربة، حين طار السقف الذي أواه، ونظر إلى السماء كما يجب أن ينظر، وجد أنه لم يكن مجرد سيرك، بل حلبة قتال، كأي مكان آخر. بل ومكان كئيب لعين. كنت دائماً أفكر حين اسمعه يهذي بفرنسا العظمى، بالحرية وكل ذاك الهراء، ماذا يمكن أن تكون ردة فعل عامل فرنسي لو أنه فهم ما يقوله فيلمور. لا شك في أنهم يظنوننا جميعاً بخانين. ونحن حقاً مخانين بالنسبة لهم. وما نحن غير عصابة من الأطفال. بلهاء خرفون. ما ندعوه بالحياة ما هو إلا مخزن للأوهام الواحد بخمسة شلنات وعشرة بنسات. وهذا الحماس الكامن في العمق - ما هو؟ ذاك التفاؤل الرخيص الذي يقلب معدة أي أوروبي عادي؟ إنه وهم. لا، فكلمة وهم كثيرة جداً عليه. فالوهم يعني شيئاً ما. لا، ليس كذلك إنه "ضلال" محض ضلال، بالضبط. ما نحن غير قطيع من الخيول الرية معصوبي العيون. في حالة هياج. نفر مذعورين. نقفز عبر شفا الهاوية. وبانغوا نريد كل ما من شأنه أن يغذي العنف والفوضى. نركض! نركض! لا يهم إلى أين. والزبد يتشكل على الشفاه طول الوقت. نصرخ: هللوا! هللوا! لماذا؟ الله أعلم. إنه في دمنا. إنه المناخ. إنه أشياء كثيرة. هو النهاية أيضاً. إننا ندمر العالم كله من حولنا. ولا نعرف لماذا. هو قدرنا. أما الباقي فمحض خراء.....

في البالية رويال اقترحت أن نتوقف ونشرب كأساً. فتردد لحظة. ورأيت أنه قلقٌ عليها. وعلى الغداء، والصراخ الذي سيكون من نصيبه. قلت: "إكراماً لمسيح، إنس كل شيء قليلاً عنها. سأطلب شيئاً نشربه وأريدك أن تشربه. لا تقلق، سأخلصك من هذه الورطة اللعينة" وطلبت كأسين من الويسكس القوي.

حين رأى الويسكي قادماً ابتسم لي من جديد كطفل.

قلت: "احرعه! ودعنا نطلب غيره. سيجعلك تشعر بتحسن. لا يهمني ما يقوله الأطباء - هذه المرة سيكون كل شيء على ما يرام. هيا احرعه".

جرعه دفعة واحدة، ولما اختفى الجرسون ليحضر طلباً آخر نظر إلي

بعيين مترعتين، وكأني كنت آخر صديق على وجه الأرض. كانت شفتاه ترتعشان قليلاً، أيضاً. كان لديه شيء يريد أن يفضي به إلي ولا يعرف كيف يبدأ، فنظرت إليه بهدوء، وكأني أجاهل استغاثته ثم، بعد أن أزحت الصحاف جانباً، ملت على مرفقي وقلت له برصانة "أنظر هنا، يا فيلمور، ماذا تريد أن تفعل حقاً؟ قل لي!".

هنا طفرت دموعه وأخذ يفشي مكنونات قلبه "أود لو أكون في وطني مع ناسي. أريد أن أسمع الكلام الإنكليزي". كانت الدموع تنساب غزيرة على خديه. ولم يقم بأية محاولة لإزالتها. بل ترك كل شيء ينبجس، وقلت في نفسي، وحق المسيح، رائع أن يتحرر المرء على هذا الشكل، رائع أن تكون حياً تماماً ولو مرة في حياتك، أن تنطلق بلا ضابط. عظيم! عظيم! لقد أرحني كثيراً جداً أن أراه ينفجر هكذا حتى أنني شعرت أن في وسعي حل أية مشكلة. شعرت أنني شجاع وعازم. واحتشدت في رأسي ألف فكرة دفعة واحدة. قلت وأنا أنحني مقرباً منه "اسمع، إذا كنت تعني ما تقول فلماذا لا تنفذه.... لم لا ترحل؟ أتعلم ماذا أفعل لو كنت في مكانك؟ كنت رحلت في هذا اليوم، نعم، وحق المسيح، إنني أعني ما أقول.... كنت رحلت على الفور، حتى دون أن أقول لها وداعاً. بل والحق يقال هذا هو السبيل الوحيد لرحيلك - إنها لا تدعك ترحل، وأنت تعلم ذلك".

حاء الجرسون بالويسكس. ورأيته ينظر أمامه بتوق يائس ورفع الكأس إلى شفتيه. ولحت بارقة أمل في عينيه - بعيد، وحشي، يائس - لعله رأى نفسه يسبح قاطعاً المحيط الأطلسي. لقد بدا لي الأمر سهلاً، بسيطاً كدحرجة زند خشب. كان كل شيء يتطور في ذهني بسرعة. كنت أعرف كل خطوة يجب اتخاذها. لقد كان ذهني صافياً كرني الجرس.

سألته "لمن النقود التي في المصرف؟ أهي لوالدها أم لك؟".

هتف قائلاً "إنها لي، أرسلتها لي أُمي. لا أريد شيئاً من نقودها اللعينة".

قلت "عظيم! اسمع، فلنستقل سيارة ونذهب إلى هناك. إسحب كل سنت فيه. بعدئذ نذهب إلى القنصلية البريطانية لنحصل على تأشيرة. ثم تستقل القطار بعد ظهر اليوم قاصداً لندن. ومن لندن تأخذ أول باخرة إلى أميركا. أقول هذا لأنك عندئذ ستكف عن القلق من ملاحقتها لك. إنها لن تشبه قط في أنك

رحلت عن طريق لندن. فإذا خرجت تبحث عنك فمن الطبيعي أن تتوجه إلى الهافر أولاً أو إلى شيربور.... وثمة شيء آخر - إنك لن تعود لتأخذ حاجياتك، بل ستترك كل شيء هنا. دعها تحتفظ بهم. ومع ذاك الدماغ الفرنسي الذي تحمله لن تحلم أنك فررت دون حقيبة أو متاع. إنه شيء لا يصدق. لن يخطر لأي فرنسي أن يحلم بالقيام بعمل كهذا.... إلا إذا كان محنونا مثلك".

هتف قائلاً "أنت محق! لم يخطر هذا على بالي قط. ثم أنك قد ترسلهم إلي فيما بعد - هذا إذا تخلت عنهم ولكن لا يهم الآن. يا إلهي، إني حتى لا أعتمر قبعة!".

وما حاجتك إلى قبعة؟ حين تصل إلى لندن يمكنك أن تشتري كل ما تحتاج. كل ما تحتاجه الآن هو أن تسرع، يجب أن نعرف متى يغادر القطار".

قال وهو يمد يده إلى محفظته "إسمع، ساكيل أمر كل شيء إليك. هاك، خذ هذا وقم بكل ما يلزم. إني شديد الوهن... إني مصاب بدوار".

تناولت المحفظة وأفرغتها من النقود التي كان قد سحبها لتوه من المصرف. وكانت هناك سيارة أجرة تقف عند الرصيف. قفزنا إليها. وكان هناك قطار يغادر محطة الشمال في الساعة الرابعة أو نحوها. تصورت الأمر كله - المصرف، القنصلية، الأكسبريس الأميركي، المحطة. رائع! يكاد الأمر يتم.

قلت "والآن ابتهج! تشجع! اللعنة! بعد بضع ساعات ستكون عابراً القنال. والليلة ستمشي في أنحاء لندن وستملأ بطنك من اللغة الإنكليزية. وغداً ستكون وسط مياه المحيط - وعندئذ، يا إلهي، ستكون رجلاً حراً ولن تأبه لما يحدث. حين ستصل إلى نيويورك لن يكون هذا أكثر من كابوس.

كان من فرط السعادة حتى أن قدميه كانتا تتحركان بعنف، وكأنه يحاول الركض وهو داخل السيارة. في المصرف كانت يداه ترتعشان بحيث أنه بالكاد تمكن من توقيع اسمه. وهذا عمل لم أستطع أن أنوب عنه فيه - أي أن أوقع باسمه. ولكن أعتقد أنه لو لزم الأمر لأجلسته على المرحاض بنفسه ومسحت له مؤخرته أيضاً. لقد صممت على أن أرحله حتى لو اضطررت إلى طيه ووضعه داخل حقيبة.

حين وصلنا إلى القنصلية كانت ساعة الغداء قد حانت، وهي مغلقة. وهذا يعني الانتظار حتى الساعة الثانية. ولم أذكر فكرة لقتل الوقت أفضل

من الأكل. وطبعاً، لم يكن فيلمور جائعاً. واكتفى بشطيرة. قلت له "اللعة، يجب أن تدعوني إلى غداء حافل، فهذه آخر وجبة مشبعة تدعوني إليها هنا - وربما لوقت طويل" وسرت به إلى مطعم صغير لطيف وطلبت وليمة عامرة. طلبت أفخر نيذ موجود على اللاتحة بغض النظر عن السعر أو المذاق، فقد كان في جيبى جميع نقوده - كانت متعة لي أن أكسر ورقة بألف فرنك. قربتها من الضوء أولاً لأنظر إلى العلامة الخفية الجميلة. نقود جميلة! إنها واحدة من أشياء قليلة يتتجها الفرنسيون على نطاق واسع وبطريقة فنية أيضاً، وكأنهم يغنون داخلهم ولها عميقاً حتى للرمز.

انتهت الوليمة، وانتقلنا إلى إحد المقاهي. طلبت مع القهوة مشروب الشارتروز. ولم لا؟ وكسرت ورقة أخرى - هذه المرة بمبلغ خمس مائة فرنك. كانت ورقة نظيفة، جديدة، نضرة. ممتع التعامل بنقود كهذه. وناولني النادل كمية كبيرة من الأوراق المالية القديمة القذرة المرقعة بشرائط من الورق اللاصق، وتجمعت لدي كومة من الخمسات والعشرات وملء الحقيبة من الفراطلة. نقود صينية متقوية. لم أعد أدري في أي جيب أحشو النقود. أصبح بنطالي متفخاً بالقطع المعدنية والورقية. وقد أزعجني هذا قليلاً أيضاً، وأنا أحمل هكذا كل تلك النقود أمام الملاء، حتى أنني خشيت أن يظنونا محتالين.

عندما وصلنا إلى الاكسبريس الأميركي لم يكن قد تبقى لدينا الكثير من الوقت. فقد تركنا البريطانيون، على طريقتهم المتمهلة التي "بتخري" المعنادة، نتظر ونحن على أحر من الجمر. هنا كان الكل يتجول منزلقاً على زيت خروج. كانوا من السرعة بحيث أن كل شيء كان يجب أن ينجز مرتين. فبعد أن وقعت جميع الشيكات وشبكت بمسكات أنيقة، اكتشفوا أنها قد وقعت في المكان الخطأ. ولم يكن أمامنا إلا أن نبدأ كل شيء من جديد. وأشرفت عليه، وأنا أضغ إحدى عيني على الساعة، ورحت أراقب كل حركات القلم. من المؤلم تسليم النقود. ليس كلها، حمداً لله - بل جزء كبير منها. وبقي معي تقريباً ٢٥٠٠ فرنك في جيبى. أقول تقريباً لأنني توقفت عن عد الفرنكات. أهى مائة، مائتان، أكثر أم أقل - لم يعن لي هذا أي شيء. أما بالنسبة له، فقد كان الإجراء كله يمر وهو في حالة انبهار. لم يكن متأكداً كم سيترك لها - وكنا سنقرر ذلك ونحن في طريقنا إلى المحطة.

في غمرة الإثارة نسينا أن نصرف جميع النقود. كنا قد استقللنا سيارة
أجرة على أية حال، ولم يعد لدينا وقت نبدده. أهم شيء كان أن نعرف
موطىء أقدامنا. فأفرغنا جيوبنا وبدأنا نوزعها. وضعنا بعضها على الأرض،
والبعض الآخر على المقعد. كان شيئاً محيراً. نقود فرنسية، وأميركية،
وإنكليزية. وإلى جانبها الفراطية. شعرت برغبة في التقاط القطع المعدنية
ورميها من النافذة - فقط لأبسط الأمر. وأخيراً نخلناها كلها من جيوبنا،
احتفظ هو بالنقود الإنكليزية والأميركية، وتمسكت أنا بالنقود الفرنسية.

كان علينا أن نقرر فوراً ما يجب عمله من أجل جينيت - كم سنعطئها،
ماذا نقول لها، إلخ. حاول أن يؤلف قصة لأنقلها عن لسانه - لأنه لا يريد أن
يحطم قلبها وكل ما شابه، وكان يجب أن أوقفه.

قلت "لا عليك مما ستقول لها، دع الأمر لي. كم ستعطئها، هذا هو
المهم؟ بل لماذا تعطئها أي شيء أصلاً؟".

كان هذا الكلام كوضع قبلة تحته. وانفجر باكياً. وأي دموع! بكى كما
لم يبك من قبل، حتى حسبت أنه سينهار بين يدي، ودون تفكير قلت "حسن،
دعنا نعطيها كل هذه النقود الفرنسية. وهي كفيلة بإعالتها فترة من الوقت".
سأل واهناً "وكم يبلغ هذا؟".

"لا أدري نحو ٢٠٠٠ فرنك أو ما يقاربها. وهي أكثر مما تستحق على
أية حال".

فتوسل إلي قائلاً "يا إلهي! لا تقل هذا! ثم إنه مبلغ حقير. لن يستقبلها أهلها
بعد اليوم. لا، إعطيها النقود. اعطيها كل المال اللعين... لا يهمني كم المبلغ".

تناول منديلاً من جيبه لي مسح به دموعه، وقال "لا أحتمل هذا، إنه
عبء ثقيل على كاهلي". ولم أقل شيئاً. وفجأة تمدد على طوله - وظننت أنه
أصيب بنوبة أو ما شابه - وقال "يا إلهي، أعتقد أنني يجب أن أعود وأواجه
المأزق. إذا حصل لها أي مكروه فلن أغفر لنفسي".

كان هذا بمثابة صدمة عنيفة بالنسبة لي، فصرخت "يا إلهي! لا يمكنك
أن تفعل هذا! ليس الآن لقد فات الأوان وستستقل القطار وسأذهب بنفسني
لأعني بها. سأذهب لأراها حالماً أتركك، أيها المغفل المسكين، لو أنها
تكهنت بأنك حاولت أن تهرب لقتلتك، ألا تعلم؟ لا يمكنك أن تعود على
الإطلاق. لقد تم الأمر".

مهما يكن، تساءلت : ما هو الخطر المتوقع؟ أتقتل نفسها؟ هذا أفضل.
.tant mieux

عندما وصلنا إلى المحطة كان ما يزال أمامنا إثنتا عشرة دقيقة لنقتلها. لم أجرؤ على أن أقول له وداعاً منذ الآن. وفي الدقيقة الأخيرة، وهو على حاله من القلق والتردد، تصورت أنه يمكن أن يقفز من القطار ويهرع إليها. إن أي شيء يمكن أن يحرقه. إنه هش. وهكذا جررته ونحن نسير الشارع إلى الحانة وقلت "والآن سنجرع كأساً من البرنو - آخر كأس من البرنو سأدفع أنا ثمنه.... من مالك أنت".

شيء ما في هذه الملاحظة جعله ينظر إلي نظرة قلقة. جرع جرعة كبيرة من البرنو ومن ثم، بعد أن ألقى علي نظرة كلب جريح، قال "أعلم أنه ما كان يجب أن أودع لديك كل نقودي، ولكن.... ولكن.... أوه حسن. إفعل ما تجده الأفضل. كل ما أريده هو أن لا أدعها تقتل نفسها".

قلت "تقتل نفسها؟ إنها ليست من هذا النوع! إن كنت تصدق شيئاً كهذا فلا بد أنك تعذب نفسك أكثر مما يجب. أما النقود، فعلى رغم أنني أكره أن أعطيها أي شيء، فأعدك أن أتوجه من فوري إلى مكتب البريد وأرسله إليها على جناح السرعة. ولن أثق في نفسي في هذه العملية دقيقة واحدة زيادة عما هو ضروري". قلت هذا ولحمت حزمة من البطاقات البريدية معلقة على حامل دوار، فانتزعت واحدة - وهي صورة لبرج إيفل - وجعلته يكتب عليها بضع كلمات "قل لها إنك مبحر الآن. قل لها أنك تحبها وإنك ستكتب لها رسالة فور وصولك.... وسأرسلها بوسيلة هوائية pneumatic حين أصل إلى مكتب البريد. وهذا المساء سأذهب لأراها. كل شيء سيكون على ما يرام، وسترى".

على الأثر عبرنا الشارع إلى المحطة. بقيت دقيقتان. عندئذ بت أشعر أننا آمنان. وعند البوابة صفعته على ظهره وأشارت له إلى القطار. لم أضافحه - لئلا يفيض علي بعواطفه الصبيانية. واكتفيت بالقول "أسرع سيتحرك بعد دقيقة" ثم استدرت على عقي ومشيت مبتعداً. حتى أنني لم ألتفت لأرى إذا كان قد استقل القطار. خفت أن أفعل.

لم أفكر، حين كنت منشغلاً بتهيئته للرحيل، ماذا سأفعل بعد أن أتححر منه. لقد قطعت له وعوداً كثيرة - ولكن ذلك كان مجرد تهدئة. أما بالنسبة

لمواجهة جينيت، فلم أكن أتحدى، مثله، بأي قدر من الشجاعة لذلك. كنت بدوري أزداد رعباً. لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة حتى بات مستحيلاً الإحاطة بطبيعة ما حصل إحاطة تامة. وابتعدت عن المحطة في نوع من الخدر اللذيذ - والبطاقة البريدية في يدي. وقفت مستنداً إلى عمود كهرباء وأخذت أقرأها. بدت منافية للعقل والطبيعة. وأعدت قراءتها، لأتأكد من أنني لم أكن أحلم، ثم مزقتها ورميت بها إلى المجرور.

نظرت حولي باضطراب، أكاد أتوقع أن أرى جينيت تهرع خلفي شاهرة فأساً. لا أحد يتبعني. فانطلقت أسير بارتياح متوجهاً إلى ساحة لافايت. كان نهراً جميلاً، كما كنت قد نوهت سابقاً. مع بعض الغيوم الخفيفة، المنفوخة، تنساب مع الريح. المظلات ترفرف. لم تبد باريس بتلك الروعة من قبل، حتى أنني شعرت بالأسف لأنني رحلت اللوطني المسكين. جلست في اللاس لافايت مواجهة الكنيسة أتأمل في ساعة البرج، واليوم تبدو أشد زرقة من أي وقت مضى. ولم أكن أقوى على إبعاد نظري عنها.

إذا لم يكن قد جن وكتب لها رسالة يشرح فيها كل شيء، فلن تعرف جينيت ما حدث. وحتى لو علمت أنه ترك لها ٢٥٠٠ فرنك أو نحوها فلن تستطيع إثبات ذلك. يمكنني أن أقول دائماً أنه تخيل الأمر. وأن رجلاً مجنوناً مثله يسير دون أن يضع قبعته على رأسه يمكن لجنونه أن يدفعه إلى اختراع ٢٥٠٠ فرنك، أو أي شيء آخر. ولكن كم هو المبلغ؟ تساءلت. كانت جيوبتي مثقلة به. أخرجته كله لأحصيه بدقة. كان معي بالضبط ٢٨٧٥ فرنكاً و٣٥ سنتيماً. أي أكثر مما ظننت. إذن يجب التخلص من الـ ٧٥ فرنكاً والـ ٣٥ سنتيماً. أردت مبلغاً صحيحاً - ٢٨٠٠ فرنك نظيف. في تلك اللحظة رأيت سيارة تقف عند الرصيف. خرجت منها امرأة تجر في يدها كلباً أبيض من نوع البودل، وكان الكلب يطل من بين طيات ثوبها الحريري. وأزعجتني فكرة أخذ الكلب في نزهة بالسيارة. قلت في نفسي، أنني رائع مثل كلبها، وهنا أشرت إلى السائق كي يتجول في البوا. فأراد أن يعرف أين بالضبط، فقلت "أي مكان، أدخل البوا، وتجول في كل أنحائها - وكن على راحتك، لست على عجلة من أمري". وغصت في المقعد وتركت السيوت تمر بسرعة، والسقوف المثلثة، وأعمالي المداخن، والجدران الملوثة، والمبولات، وتقاطع الطرق التي تسبب الدوار. لدى

مروري بالرون - بوان فكرت في أن أنزل الدرج وأتبول هناك. لا أحد يعلم ما قد يحدث هناك. قلت للسائق أن ينتظر. كانت المرة الأولى في حياتي التي أطلب فيها من سيارة أجرة أن تنتظرنني كي أتبول. كم يستغرق منك هذا ليس كثيراً. بوجود المبلغ الذي في جيبي بوسعي أن أدع سيارتي أجرة تنتظراني.

أجلت نظري في أرجاء المكان لكني لم أر ما يستحق المشاهدة. أردت أن أرى شيئاً نظراً - شيئاً من الأسكا أو من الجزر العذراء، جلدًا حيوانياً نظيفاً نظراً غير مدبوغ، له رائحة طبيعية، ولا داعي للقول إنه لم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل. ولم تكن خيبة أمني كبيرة. ولم يهمني إن وجدت أي شيء أم لم أجد. المهم هو أن لا أغالي في القلق. كل شيء يأتي في وقته.

انطلقنا من جديد مارين بقوس النصر. كان هناك بضعة من المتفرجين يتسكعون حول رفات الجندي المجهول. ولدى ولوجنا البوا نظرت إلى كل العاهرات الثريات وهن يتنزهن بسياراتهن الليموزين. كن يعبرن بسرعة وكأن هن وجهة معينة. يفعلن هذا، بلا شك، ليضيفن الأهمية على أنفسهن - ليعرضن للعالم كيف تجري سياراتهن الرولز رويس والهيسبانو سويزاس بسلاسة. وفي داخلي كانت الأشياء تجري أسلس من أية رولز رويس. داخلي كان أشبه بالمنحمل، بغشاء مخملي وفقرات مخملية، وشحم محوري مخملي. ماذا؟ رائع أن يكون في جيبيك نقود، لمدة نصف ساعة، وتبونها كأنك بحار سكير. تشعر وكأنما العالم كله ملكك. وأفضل ما في الأمر أنك لا تعرف ماذا تفعل بها. يمكنك أن تسترخي وتدع العبداء يجري كالمجنون، والهواء يتخلل شعرك، يمكنك أن تتوقف لتناول مشروباً، وأن تمنح بقشيشاً كبيراً، ويمكنك أن تختال في مشيتك وكأنه حدث يومي. ولكن لا يمكنك أن تحدث ثورة. لا يمكنك أن تتخلص من كل القذارة التي في بطنك.

حين وصلنا إلى ميناء أوتوي أمرته أن يتوجه إلى نهر السين. وعلى جسر سيفر ترجلت وأخذت أتمشى على طول النهر، متجهاً صوب جسر أوتوي. كان النهر هنا بحجم جدول صغير والأشجار تصل حتى ضفة النهر. كانت المياه خضراء رقيقة، خاصة بالقرب من الجانب الآخر منه. وبين آن وآخر كان يمر أحد المواعين مصدراً صوتاً عالياً. وكان مستحمون بثياب ضيقة يقفون وسط العشب يتشمسون. كل شيء كان قريباً نابضاً، خفاقاً بالضياء الساطع.

لدى مروري بإحد حدائق البيرة رأيت مجموعة من راكبي الدراجات جالسين على إحدى الطاولات. اتخذت مقعداً بالقرب منهم وطلبت نصف كأس. ولما رأيتهم يتعدون وهم يثرثرون تذكرت جينيت. تخيلتها تمشي في طول الغرفة وعرضها تنفث شعرها، تنشج وتتغو، كالبهيمة. تخيلت قبعتة معلقة على المشجب. وتساءلت إن كانت ملابسه تناسبني. كان لديه معطف راغلان يعجبني بشكل خاص. حسن، الآن هو في طريقه. وبعد قليل سيكون المركب يتهادى تحته. لغة إنكليزية! إذن يريد أن يسمع الكلام الإنكليزي. يا لها من فكرة.

وفحاة، خطر لي أنه لو أردت لرحلت بدوري إلى أميركا. كانت المرة الأولى التي تخطر لي فيها الفكرة. وتساءلت - "هل تريد أن تذهب؟". لا جواب. وانسابت أفكارى، نحو البحر، نحو الجانب الآخر حيث رأيت، وأنا ألقي نظرة أخيرة إلى الماضي، ناطحات السحاب وهي تختفي في هبة من ندف الثلج، ورأيتها تلثم من جديد، بالطريقة المربعة نفسها تلك، وأنا أبتعد مغادراً البلاد. رأيت الأضواء تتسلل متغلغلة بين أضلعي. رأيت المدينة برمتها ممتدة، من هارلم إلى باتري، الشوارع غاصة بالنمل، والمرفهون يمرون مسرعين، والمسارح تفرغ روادها. تساءلت بطريقة مبهمة عما يمكن أن يكون حدث لزوجتي.

وبعد أن نخل كل شيء من رأسي غمرني سلام عظيم. هنا، حيث يتعرج النهر برفق مخترقاً نطاقاً من التلال، تمتد تربة مشبعة بالماضي الذي مهما نأى العقل عنه محوماً لا يمكن للمرء أن يفصله عن خلفيته الإنسانية. يا لله، يا للسلام الذهبي الذي يومض أما عيني ولا يمكن لعصايي أن يحلم بغض النظر عنه، ونهر السين يتدفق ببطء شديد حتى لا تكاد تلاحظ وجوده. إنه موجود دائماً هادئ ومنسي، كشریان عظيم يجري عبر الجسم الإنساني. ووسط السلام الرائع الذي غمرني شعرت وكأنني تسلقت قمة جبل شاهق، ونخلال برهة قصيرة سأتمكن من أن أنظر حولي، أن أتشرب معنى المشهد العام.

الكائنات البشرية تشكل حيوانات ونباتات حُقيية غريبة. من بعيد يبدوون تافهين، وعن قرب هم أقرب للبشاعة والخبث. إنهم بحاجة أكثر من أي شيء آخر إلى أن يحاطوا بفراغ كاف - فراغ يتجاوز الزمن.

الشمس تنحدر نحو المغيب. أحس بهذا النهر يتدفق من خلالي - ماضيه، تربته العريقة، والمناخ المتقلب. التلال تطوقه من كل جانب: وقد تحدّد مساره.

تصميم الغلاف : طالب الداوود
لوحة الغلاف : ايكوف شيلي